جدلية المنطق التاريخى
بين القرآن والتوراة
قصة يوسف عليه السلام

تأليف

دكتور / إسلام الشبراوى

زميل كليات الجراحين الملكية (أيرلندا - بريطانيا)

زميل كلية الجراحين الدولية - أمريكا

١٩٩٨ م

مكتب الرسالة الدولية للطباعة والكمبيوتر

٣ شارع عبدالله منصور من شارع إبراهيم عبد الرازق

عين شمس الشرقية تليفون : ٤٩٣٠٣٩٧

إهــــــــداء ٢٠٠٧

الدكتور / عاطف رمضان دياب

جمهورية مصر العربية

جدلية المنطق التاريخى
بين القرآن والتوراة

قصة يوسف عليه السلام

تأليف

دكتور / إسلام الشبراوى

زميل كليات الجراحين الملكية (أيرلندا - بريطانيا)

زميل كلية الجراحين الدولية - أمريكا

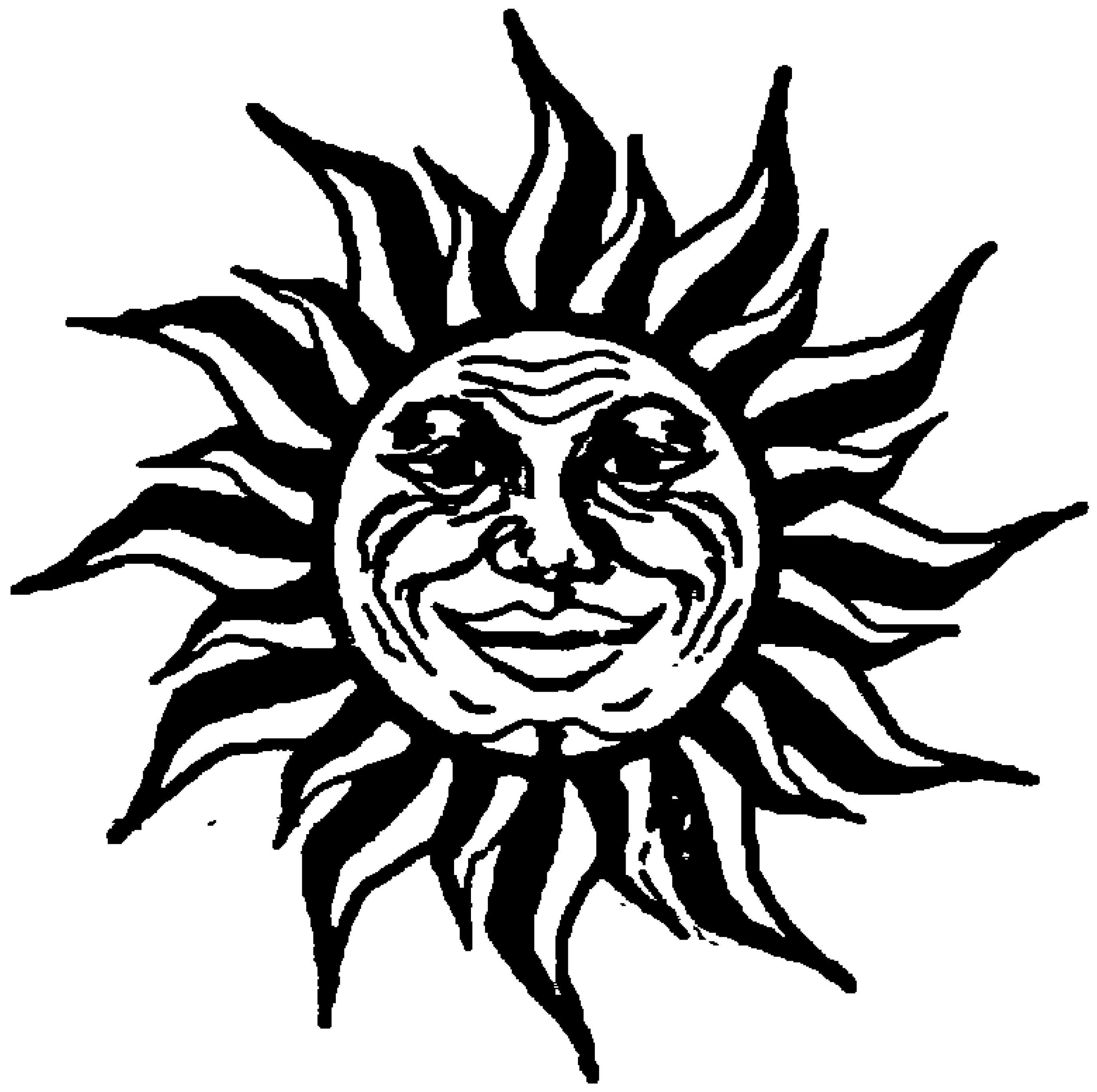

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَآ أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾

(يوسف، الآية : ٤)

تصميم وكتابة كمبيوتر حسن الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (الفرقان ٣٣)

المقدمة

لعل النظرة البشرية المحدودة المعرفة .. هي التي قادتني للبدء في سلسلة «جدلية المنطق التاريخي بين القرآن والتوراة»، بقصة يوسف عليه السلام، ظاناً أنها أسهل القصص، على الأقل لوجود كل الأحداث بصورة قصصية متسلسلة في سورة قرآنية واحدة كاملة تختص كلها بسيرة هذا النبي الكريم ،وأيضاً لوجود القصة بنفس الشكل في التوراة، أما المفاجأة فكانت هي كم الإعجاز والعبقرية التاريخية التي وردت في تلك السورة، والتي يتطلب تفسيرها مهارات معقدة من المعرفة القرآنية واللغوية وبالتاريخ الفرعوني والعبرى وبالتوراة بكل أبعادها، وباللغات المصرية القديمة، وبالعبرية، وبالرياضيات وغيرها.

أترك للقارئ الكريم أن يبدأ معي رحلة الغوص في هذا البحر اللجي الزاخر، تلك السورة القرآنية العظيمة سورة يوسف، كما أترك اكتشافي للإعجاز القرآني في الكشف عن شخصية يوسف عليه السلام، في التاريخ الفرعوني وكذلك لقبه الفرعوني والعبرى الموجودين في ثنايا شفرة رقمية خاصة في السورة تحت أيدى وأبصار المسئولين، وفقنا الله لنكون خدماً مخلصين في محراب القرآن المجيد، الكتاب الإلهي المعجزة التي لا تنقضي عجائبه.

دكتور / إسلام الشبراوى
زميل كليات الجراحين الملكية (أيرلندا - بريطانيا)
زميل كلية الجراحين الدولية - أمريكا

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا
لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ
بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ
لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ
إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ
وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ
نصف الحزب ٢٤ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٦) ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ
ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ (٧) إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ
أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (٨) ٱقۡتُلُواْ
يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ
بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ (٩) قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ
وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ
فَٰعِلِينَ (١٠) قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَنَٰصِحُونَ (١١) أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ
أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ (١٣) قَالُواْ لَئِنۡ
أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ (١٤)

فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ
أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ
وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ
بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ
وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟
وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ
دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ
وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ
إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ
وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا
ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ
قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ
أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ
هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ
الحزب ٢٤
﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا
عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ
كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن
نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا
مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ
إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ
إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ
لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ
ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ
﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ
أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ
مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى
ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ
﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ
فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ
سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ
وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا
قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ
مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ
عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي
بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ
ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ
مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ
مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ
ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ
لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ
لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ
ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ
بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ
ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخۡوَةُ
يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ
أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا
كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ
وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ
لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ
﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ
فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن
قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟
مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا
مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ
أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ
لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ
إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟
عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ
وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا
فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ
إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ
قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم
مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ
ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ
﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ
﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ
فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ
يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾
قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا
أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي
وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ
مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ
﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ
وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ
إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ
لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا
وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾
ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا
وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ
ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟
يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا
دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟
لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم
مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ
رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ
قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ تَوَفَّنِى
مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤
وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا
وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا
وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ
أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧ قُلۡ هَٰذِهِۦ
سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ
ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ
إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ
وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ
إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ
نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ
١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ
حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ
وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١

قصة يوسف التوراتية
الإصحاح ٣٧-٥٠ سفر التكوين

عُوصَ وَأَرَانُ . ٢٩هَؤُلَاءِ هُمْ رُؤَسَاءُ قَبَائِلِ
ٱلْحُورِيِّينَ : لُوطَانُ وَشُوبَالُ وَصِبْعُونُ
وَعَنَى . ٣٠وَدِيشُونُ وَإِيصَرُ وَدِيشَانُ . هَؤُلَاءِ
هُمْ رُؤَسَاءُ قَبَائِلِ ٱلْحُورِيِّينَ وَفْقًا لِطَوَائِفِهِمِ
ٱلْمُقِيمَةِ فِي أَرْضِ سِعِيرَ .

ملوك أدوم

٣١وَهَؤُلَاءِ هُمُ ٱلْمُلُوكُ ٱلَّذِينَ حَكَمُوا
أَرْضَ أَدُومَ قَبْلَ أَنْ يَتَوَّجَ مَلِكٌ فِي إِسْرَائِيلَ :
٣٢بَالَعُ بْنُ بَعُورَ مَلَكَ فِي أَدُومَ وَكَانَ ٱسْمُ
مَدِينَتِهِ دِنْهَابَةَ . ٣٣وَمَاتَ بَالَعُ فَخَلَفَهُ يُوبَابُ
بْنُ زَارَحَ مِنْ بُصْرَةَ . ٣٤وَمَاتَ يُوبَابُ فَخَلَفَهُ
حُوشَامُ مِنْ أَرْضِ ٱلتَّيْمَانِيِّ . ٣٥وَمَاتَ
حُوشَامُ فَخَلَفَهُ هَدَادُ بْنُ بَدَادَ ٱلَّذِي قَهَرَ
ٱلْمِدْيَانِيِّينَ فِي بِلَادِ مُوآبَ . وَٱسْمُ مَدِينَتِهِ
عَوِيتُ . ٣٦وَمَاتَ هَدَادُ فَخَلَفَهُ سَمْلَةُ مِنْ
مَسْرِيقَةَ . ٣٧وَمَاتَ سَمْلَةُ فَخَلَفَهُ شَأُولُ مِنْ
رَحُوبُوتِ ٱلنَّهْرِ . ٣٨وَمَاتَ شَأُولُ فَخَلَفَهُ بَعْلَ
حَانَانَ بْنُ عَكْبُورَ . ٣٩وَمَاتَ بَعْلُ حَانَانَ
فَخَلَفَهُ هَدَارُ وَٱسْمُ مَدِينَتِهِ فَاعُوَ ، وَكَانَتْ
زَوْجَتُهُ مَهِيطَبْئِيلَ بِنْتَ مَطْرِدَ بِنْتِ مَاءِ ذَهَبٍ .
٤٠وَهَذِهِ أَسْمَاءُ رُؤَسَاءِ ٱلْقَبَائِلِ ٱلْمُتَفَرِّعَةِ
مِنْ نَسْلِ عِيسُو حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ وَأَمَاكِنِهِمِ
ٱلَّتِي حَمَلَتْ أَسْمَاءَهُمْ : رُؤَسَاءُ تِمْنَاعَ وَعَلْوَةَ
وَيَتِيتَ ٤١وَأُهُولِيبَامَةَ وَإِيلَةَ وَفِينُونَ ٤٢وَقَنَازَ
وَتَيْمَانَ وَمِبْصَارَ ٤٣وَمَجْدِيئِيلَ وَعِيرَامَ .
هَؤُلَاءِ هُمْ رُؤَسَاءُ أَدُومَ ، حَسَبَ مَوَاطِنِ
سُكْنَاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي ٱمْتَلَكُوهَا .
وَجَمِيعُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ عِيسُو ، أَبِي أَدُومَ .

حلم يوسف وحسد إخوته

٣٧ وَسَكَنَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ
كَنْعَانَ ، حَيْثُ تَغَرَّبَ أَبُوهُ ،
٢وَهَذَا سِجِلُّ سِيرَةِ يَعْقُوبَ . إِذْ كَانَ
يُوسُفُ غُلَامًا فِي ٱلسَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ،
رَاحَ يَرْعَى ٱلْغَنَمَ مَعَ إِخْوَتِهِ أَبْنَاءِ بِلْهَةَ وَزِلْفَةَ
زَوْجَتَيْ أَبِيهِ ، فَأَبْلَغَ يُوسُفُ أَبَاهُ بِنَمِيمَتِهِمِ
ٱلرَّدِيئَةِ . ٣وَكَانَ إِسْرَائِيلُ يُحِبُّ يُوسُفَ أَكْثَرَ
مِنْ بَقِيَّةِ إِخْوَتِهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ ٱبْنَ شَيْخُوخَتِهِ ،
فَصَنَعَ لَهُ قَمِيصًا مُلَوَّنًا . ٤وَلَمَّا رَأَى إِخْوَتُهُ أَنَّ
أَبَاهُمْ يُحِبُّهُ أَكْثَرَ مِنْهُمْ كَرِهُوهُ وَأَسَاءُوا إِلَيْهِ
بِكَلَامِهِمْ .
٥وَحَلَمَ يُوسُفُ حُلْمًا قَصَّهُ عَلَى إِخْوَتِهِ ،
فَٱزْدَادُوا لَهُ بُغْضًا . ٦قَالَ لَهُمْ : « ٱسْمَعُوا
هَذَا ٱلْحُلْمَ ٱلَّذِي حَلَمْتُهُ . ٧رَأَيْتُ وَكَأَنَّنَا
نَحْزِمُ حُزَمًا فِي ٱلْحَقْلِ ، فَإِذَا بِحُزْمَتِي وَقَفَتْ
ثُمَّ ٱنْتَصَبَتْ ، فَأَحَاطَتْ بِهَا حُزَمُكُمْ وَٱنْحَنَتْ
لَهَا » . ٨فَقَالَ لَهُ إِخْوَتُهُ : « أَلَعَلَّكَ تَمْلِكُ
عَلَيْنَا أَوْ تَحْكُمُنَا ؟ » وَزَادَ بُغْضُهُمْ لَهُ بِسَبَبِ
أَحْلَامِهِ وَكَلَامِهِ . ٩ثُمَّ حَلَمَ حُلْمًا آخَرَ سَرَدَهُ
عَلَى إِخْوَتِهِ ، قَالَ « حَلَمْتُ حُلْمًا آخَرَ ،
وَإِذَا ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
سَاجِدَةٌ لِي » . ١٠وَقَصَّهُ عَلَى أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ ،
فَأَنَّبَهُ أَبُوهُ وَقَالَ « أَيُّ حُلْمٍ هَذَا ٱلَّذِي
حَلَمْتَهُ ؟ أَنَظُنُّ حَقًّا أَنِّي وَأُمَّكَ وَإِخْوَتَكَ
سَنَأْتِي وَنَنْحَنِي لَكَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ؟ »
١١فَحَسَدَهُ إِخْوَتُهُ . أَمَّا أَبُوهُ فَأَسَرَّ هَذَا ٱلْكَلَامَ
فِي قَلْبِهِ .

التآمر على حياة يوسف

١٢وَٱنْطَلَقَ إِخْوَتُهُ لِيَرْعَوْا غَنَمَ أَبِيهِمْ عِنْدَ
شَكِيمَ ، ١٣فَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ : أَلَا يَرْعَى
إِخْوَتُكَ ٱلْغَنَمَ عِنْدَ شَكِيمَ ؟ تَعَالَ لِأُرْسِلَكَ
إِلَيْهِمْ . ١٤ٱذْهَبْ وَٱطْمَئِنَّ عَلَى إِخْوَتِكَ
وَعَلَى ٱلْمَوَاشِي ، ثُمَّ عُدْ وَأَخْبِرْنِي عَنْ
أَحْوَالِهِمْ ، فَمَضَى مِنْ وَادِي حَبْرُونَ حَتَّى
أَقْبَلَ إِلَى شَكِيمَ . ١٥وَٱلْتَقَاهُ رَجُلٌ فَوَجَدَهُ
تَائِهًا فِي ٱلْحُقُولِ ، فَسَأَلَهُ : « عَمَّنْ
تَبْحَثُ ؟ » ١٦فَأَجَابَهُ : « أَبْحَثُ عَنْ
إِخْوَتِي . أَرْجُوكَ أَنْ تُخْبِرَنِي أَيْنَ يَرْعَوْنَ
مَوَاشِيَهُمْ ؟ » ١٧فَقَالَ ٱلرَّجُلُ : « لَقَدِ ٱنْتَقَلُوا
مِنْ هُنَا ، وَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ : لِنَذْهَبْ إِلَى
دُوثَانَ » . فَٱنْطَلَقَ يُوسُفُ فِي إِثْرِ إِخْوَتِهِ حَتَّى
قَدِمَ عَلَيْهِمْ فِي دُوثَانَ .
١٨وَمَا إِنْ رَأَوْهُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَقَبْلَ أَنْ يَقْتَرِبَ
مِنْهُمْ حَتَّى تَآمَرُوا عَلَيْهِ لِيَقْتُلُوهُ . ١٩وَقَالَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : « هَا هُوَ صَاحِبُ ٱلْأَحْلَامِ
مُقْبِلٌ . ٢٠هَيَّا نَقْتُلُهُ وَنُلْقِ بِهِ فِي إِحْدَى
ٱلْآبَارِ ، وَنَدَّعِ أَنَّ وَحْشًا ضَارِيًا ٱفْتَرَسَهُ ،
لِنَرَى مَاذَا تُجْدِيهِ أَحْلَامُهُ » . ٢١وَإِذْ سَمِعَ
رَأُوبَيْنُ حَدِيثَهُمْ ، أَرَادَ أَنْ يُنْقِذَهُ فَقَالَ : « لَا
نَقْتُلُهُ ، ٢٢وَلَا تَسْفِكُوا دَمًا ، بَلِ ٱطْرَحُوهُ فِي
هَذِهِ ٱلْبِئْرِ فِي ٱلْبَرِّيَّةِ ، وَلَا تَمُدُّوا إِلَيْهِ يَدًا
بِأَذًى » . وَقَدْ أَشَارَ رَأُوبَيْنُ بِهَذَا لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ
يُخَلِّصَهُ مِنْهُمْ وَيَرُدَّهُ إِلَى أَبِيهِ . ٢٣وَعِنْدَمَا قَدِمَ
عَلَى إِخْوَتِهِ ، نَزَعُوا عَنْهُ قَمِيصَهُ ٱلْمُلَوَّنَ ٱلَّذِي
كَانَ يَرْتَدِيهِ ، ٢٤وَأَخَذُوهُ وَأَلْقَوْا بِهِ فِي ٱلْبِئْرِ .
وَكَانَتِ ٱلْبِئْرُ فَارِغَةً مِنَ ٱلْمَاءِ .

يوسف يباع لتجار المديانيين

٢٥وَحِينَ جَلَسُوا لِيَأْكُلُوا شَاهَدُوا عَنْ بُعْدٍ
قَافِلَةً مِنَ ٱلْإِسْمَاعِيلِيِّينَ قَادِمِينَ مِنْ جِلْعَادَ فِي
طَرِيقِهِمْ إِلَى مِصْرَ ، وَجِمَالُهُمْ مُثْقَلَةٌ بِٱلتَّوَابِلِ
وَٱلْبَلَسَانِ وَاللَّاذَنِ . ٢٦فَقَالَ يَهُوذَا لِإِخْوَتِهِ :
« مَا جَدْوَى قَتْلِ أَخِينَا وَإِخْفَاءِ دَمِهِ ؟
٢٧تَعَالَوْا نَبِيعُهُ إِلَى ٱلْإِسْمَاعِيلِيِّينَ وَنُبْرِئُ
أَيْدِيَنَا مِنْ دَمِهِ لِأَنَّهُ أَخُونَا وَمِنْ لَحْمِنَا » .
فَوَافَقَ إِخْوَتُهُ عَلَى رَأْيِهِ . ٢٨وَعِنْدَمَا دَنَا مِنْهُمُ
ٱلتُّجَّارُ ٱلْمِدْيَانِيُّونَ ، سَحَبُوا يُوسُفَ مِنَ ٱلْبِئْرِ
وَبَاعُوهُ لَهُمْ بِعِشْرِينَ قِطْعَةً مِنَ ٱلْفِضَّةِ ،
فَحَمَلُوهُ إِلَى مِصْرَ .. ٢٩ثُمَّ ذَهَبَ رَأُوبَيْنُ إِلَى
ٱلْبِئْرِ لِيُنْقِذَ يُوسُفَ فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَمَزَّقَ ثِيَابَهُ ،
٣٠وَرَجَعَ إِلَى إِخْوَتِهِ يَقُولُ : « ٱلْوَلَدُ لَيْسَ
مَوْجُودًا ، وَأَنَا ٱلْآنَ إِلَى أَيْنَ أَتَوَجَّهُ ؟ »
٣١فَأَخَذُوا قَمِيصَ يُوسُفَ ٱلْمُلَوَّنَ ،
وَذَبَحُوا تَيْسًا مِنَ ٱلْمِعْزَى وَغَمَسُوا ٱلْقَمِيصَ
فِي ٱلدَّمِ ، ٣٢وَأَرْسَلُوهُ إِلَى أَبِيهِمْ قَائِلِينَ :
لَقَدْ وَجَدْنَا هَذَا ٱلْقَمِيصَ ، فَتَحَقَّقْ مِنْهُ ، أَهُوَ
قَمِيصُ ٱبْنِكَ أَمْ لَا ؟ » ٣٣فَتَعَرَّفَ يَعْقُوبُ
عَلَيْهِ وَقَالَ : « هَذَا قَمِيصُ ٱبْنِي . وَحْشٌ ضَارٍ
ٱفْتَرَسَهُ وَمَزَّقَهُ أَشْلَاءً » . ٣٤فَشَقَّ يَعْقُوبُ
ثِيَابَهُ ، وَٱرْتَدَى ٱلْمُسُوحَ عَلَى حَقْوَيْهِ ، وَنَاحَ
عَلَى ٱبْنِهِ أَيَّامًا عَدِيدَةً . ٣٥وَعِنْدَمَا قَامَ جَمِيعُ
أَبْنَائِهِ لِيُعَزُّوهُ أَبَى أَنْ يَتَعَزَّى وَقَالَ : « إِنِّي
أَمْضِي إِلَى ٱبْنِي نَائِحًا إِلَى ٱلْهَاوِيَةِ » . وَبَكَى
عَلَيْهِ أَبُوهُ

٣٦وَبَاعَ ٱلْمِدْيَانِيُّونَ يُوسُفَ فِي مِصْرَ
لِفُوطِيفَارَ خَصِيِّ فِرْعَوْنَ رَئِيسِ ٱلْحَرَسِ .

يهوذا يتزوج ابنة شوع

٣٨ وَحَدَثَ فِي ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ أَنَّ
يَهُوذَا ٱفْتَرَقَ عَنْ إِخْوَتِهِ
وَأَقَامَ عِنْدَ رَجُلٍ عَدُلَّامِيٍّ يُدْعَى حِيرَةَ
٢وَشَاهَدَ هُنَاكَ ٱبْنَةَ كَنْعَانِيٍّ ٱسْمُهُ شُوعٌ ،
فَتَزَوَّجَهَا ، ٣فَحَمَلَتْ وَأَنْجَبَتْ لَهُ ٱبْنًا دَعَاهُ
عِيرًا . ٤ثُمَّ حَمَلَتْ أَيْضًا وَأَنْجَبَتِ ٱبْنًا سَمَّتْهُ
أُونَانَ . ٥ثُمَّ عَادَتْ فَأَنْجَبَتْ فِي كَزِيبَ ٱبْنًا
دَعَتْهُ شِيلَةَ .
٦وَأَخَذَ يَهُوذَا لِعِيرَ بِكْرِهِ زَوْجَةً تُدْعَى
ثَامَارَ . ٧وَإِذْ كَانَ عِيرُ بِكْرُ يَهُوذَا شِرِّيرًا ،
أَمَاتَهُ ٱلرَّبُّ . ٨فَقَالَ يَهُوذَا لِأُونَانَ : « ٱدْخُلْ
عَلَى زَوْجَةِ أَخِيكَ وَتَزَوَّجْهَا وَأَقِمْ لِأَخِيكَ
نَسْلًا » . ٩وَعَرَفَ أُونَانُ أَنَّ ٱلنَّسْلَ لَا يَكُونُ
لَهُ ، فَكَانَ كُلَّمَا عَاشَرَ ٱمْرَأَةَ أَخِيهِ يُفْسِدُ عَلَى
ٱلْأَرْضِ ، كَيْلَا يُقِيمَ لِأَخِيهِ نَسْلًا . ١٠فَسَاءَ
عَمَلُهُ هَذَا فِي عَيْنَيِ ٱلرَّبِّ فَأَمَاتَهُ أَيْضًا .
١١فَقَالَ يَهُوذَا لِثَامَارَ كَنَّتِهِ : « ٱمْكُثِي أَرْمَلَةً
فِي بَيْتِ أَبِيكِ رَيْثَمَا يَكْبَرُ شِيلَةُ ٱبْنِي » . لِأَنَّهُ
قَالَ : « لِئَلَّا يَمُوتَ شِيلَةُ أَيْضًا كَمَا مَاتَ
أَخَوَاهُ » . فَمَضَتْ ثَامَارُ وَمَكَثَتْ فِي بَيْتِ
أَبِيهَا .

يهوذا وثامار

١٢وَبَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ مَاتَتْ زَوْجَةُ يَهُوذَا
ٱبْنَةُ شُوعٍ . وَإِذْ تَعَزَّى يَهُوذَا بَعْدَهَا ٱنْطَلَقَ
إِلَى جُزَّازِ غَنَمِهِ فِي تِمْنَةَ بِرِفْقَةِ حِيرَةَ صَاحِبِهِ
ٱلْعَدُلَّامِيِّ . ١٣فَقِيلَ لِثَامَارَ : « هُوَذَا حَمُوكِ
قَادِمٌ إِلَى تِمْنَةَ لِجَزِّ غَنَمِهِ » . ١٤فَنَزَعَتْ عَنْهَا
ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا ، وَتَبَرْقَعَتْ وَتَلَفَّعَتْ وَجَلَسَتْ
عِنْدَ مَدْخَلِ عَيْنَايِمَ ٱلَّتِي عَلَى طَرِيقِ تِمْنَةَ ،
لِأَنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّ شِيلَةَ قَدْ كَبُرَ وَأَنَّهَا لَمْ تُزَفَّ
إِلَيْهِ . ١٥فَعِنْدَمَا رَآهَا يَهُوذَا ظَنَّهَا زَانِيَةً لِأَنَّهَا
كَانَتْ مُحَجَّبَةً ، ١٦فَمَالَ نَحْوَهَا إِلَى جَانِبِ
ٱلطَّرِيقِ وَقَالَ : « دَعِينِي أُعَاشِرْكِ » . وَلَمْ
يَكُنْ يَدْرِي أَنَّهَا كَنَّتُهُ . فَقَالَتْ : « مَاذَا
تُعْطِينِي لِكَيْ تُعَاشِرَنِي ؟ » ١٧فَقَالَ : « أَبْعَثُ
إِلَيْكِ جَدْيَ مِعْزَى مِنَ ٱلْقَطِيعِ » . فَقَالَتْ :
« أَتُعْطِينِي رَهْنًا حَتَّى تَبْعَثَ بِهِ ؟ »
١٨فَسَأَلَهَا : « أَيُّ رَهْنٍ أُعْطِيكِ ؟ »
فَأَجَابَتْهُ : « خَاتَمُكَ وَعِصَابَتُكَ وَعَصَاكَ » .
فَأَعْطَاهَا مَا طَلَبَتْ ، وَعَاشَرَهَا فَحَمَلَتْ مِنْهُ .
١٩ثُمَّ قَامَتْ وَمَضَتْ ، وَخَلَعَتْ بُرْقُعَهَا
وَٱرْتَدَتْ ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا .
٢٠وَعِنْدَمَا أَرْسَلَ ٱلْجَدْيَ مَعَ صَاحِبِهِ
ٱلْعَدُلَّامِيِّ لِيَسْتَرِدَّ ٱلرَّهْنَ مِنْ يَدِ ٱلْمَرْأَةِ لَمْ
يَجِدْهَا . ٢١فَسَأَلَ أَهْلَ ٱلْمَكَانِ : « أَيْنَ
ٱلزَّانِيَةُ ٱلَّتِي كَانَتْ تَجْلِسُ عَلَى ٱلطَّرِيقِ فِي
عَيْنَايِمَ ؟ » فَقَالُوا : « لَمْ تَكُنْ فِي هَذَا ٱلْمَكَانِ
زَانِيَةٌ » . ٢٢فَعَادَ إِلَى يَهُوذَا وَقَالَ : « لَمْ
أَجِدْهَا ؛ وَكَذَلِكَ قَالَ أَهْلُ ٱلْمَكَانِ : لَمْ تَكُنْ
هُنَا زَانِيَةٌ » . ٢٣فَأَجَابَ يَهُوذَا : « فَلْتَحْتَفِظْ
بِمَا عِنْدَهَا ، فَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ يَسْخَرَ ٱلنَّاسُ
مِنِّي . لَقَدْ بَعَثْتُ بِهَذَا ٱلْجَدْيِ أُجْرَةً لَهَا
وَلَكِنَّكَ لَمْ تَجِدْهَا » .

مولد فارص وزارح

٢٤ وَبَعْدَ مُضِيِّ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ قِيلَ لِيَهُوذَا: «ثَامَارُ كَنَّتُكَ زَنَتْ، وَحَبِلَتْ مِنْ زِنَاهَا». فَقَالَ يَهُوذَا: «أَخْرِجُوهَا لِتُحْرَقَ». ٢٥ وَعِنْدَمَا أُخْرِجَتْ أَرْسَلَتْ إِلَى حَمِيهَا قَائِلَةً: «أَنَا حُبْلَى مِنْ صَاحِبِ هَذِهِ ٱلأَشْيَاءِ. تَحَقَّقْ لِمَنْ هَذَا ٱلْخَاتَمُ وَٱلْعِصَابَةُ وَٱلْعَصَا؟» ٢٦ فَأَقَرَّ بِهَا يَهُوذَا وَقَالَ: «هِيَ حَقًّا أَبَرُّ مِنِّي، لأَنِّي لَمْ أُزَوِّجْهَا مِنِ ٱبْنِي شِيلَةَ». وَلَمْ يُعَاشِرْهَا فِي مَا بَعْدُ.

٢٧ وَعِنْدَمَا أَزِفَ مَوْعِدُ وِلادَتِهَا إِذَا فِي أَحْشَائِهَا تَوْأَمَانِ. ٢٨ وَفِي أَثْنَاءِ وِلادَتِهَا أَخْرَجَ أَحَدُهُمَا يَدًا فَرَبَطَتِ ٱلْقَابِلَةُ حَوْلَهَا خَيْطًا أَحْمَرَ، وَقَالَتْ: «هَذَا خَرَجَ أَوَّلاً». ٢٩ غَيْرَ أَنَّهُ سَحَبَ يَدَهُ فَخَرَجَ أَخُوهُ، فَقَالَتْ: «أَيُّ ٱقْتِحَامٍ ٱقْتَحَمْتَ لِنَفْسِكَ؟» لِذَلِكَ دُعِيَ ٱسْمُهُ فَارِصَ (وَمَعْنَاهُ: ٱقْتِحَامٌ). ٣٠ وَبَعْدَ ذَلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ ذُو ٱلْمِعْصَمِ ٱلْمُطَوَّقِ بِٱلْخَيْطِ ٱلأَحْمَرِ فَسُمِّيَ زَارَحَ (وَمَعْنَاهُ: أَحْمَرُ، أَوْ إِشْرَاقٌ).

يوسف في بيت فوطيفار

٣٩ وَأَخَذَ ٱلإِسْمَاعِيلِيُّونَ يُوسُفَ إِلَى مِصْرَ، فَٱشْتَرَاهُ مِنْهُمْ مِصْرِيٌّ يُدْعَى فُوطِيفَارَ، كَانَ خَصِيَّ فِرْعَوْنَ وَرَئِيسَ ٱلْحَرَسِ. ٢ وَكَانَ ٱلرَّبُّ مَعَ يُوسُفَ، فَأَفْلَحَ فِي أَعْمَالِهِ، وَأَقَامَ فِي بَيْتِ سَيِّدِهِ ٱلْمِصْرِيِّ.

٣ وَرَأَى مَوْلاهُ أَنَّ ٱلرَّبَّ مَعَهُ وَأَنَّهُ يُكَلِّلُ كُلَّ مَا تَصْنَعُهُ يَدَاهُ بِٱلنَّجَاحِ، ٤ فَحَظِيَ يُوسُفُ بِرِضَى سَيِّدِهِ، فَجَعَلَهُ وَكِيلاً عَلَى بَيْتِهِ وَوَلاهُ عَلَى كُلِّ مَا لَهُ. ٥ وَبَارَكَ ٱلرَّبُّ بَيْتَ ٱلْمِصْرِيِّ وَكُلَّ مَا لَهُ مِنْ مُقْتَنَيَاتٍ فِي ٱلْبَيْتِ وَٱلْحَقْلِ بِفَضْلِ يُوسُفَ. ٦ فَعَهِدَ بِكُلِّ مَا لَهُ إِلَى يُوسُفَ. وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَعَهُ شَيْئًا إِلاَّ ٱلْخُبْزَ ٱلَّذِي يَأْكُلُ. وَكَانَ يُوسُفُ جَمِيلَ ٱلْهَيْئَةِ وَسِيمَ ٱلْوَجْهِ.

يوسف يقاوم زوجة فوطيفار

٧ ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ أُغْرِمَتْ بِهِ زَوْجَةُ مَوْلاهُ فَقَالَتْ: «ٱضْطَجِعْ مَعِي». ٨ فَأَبَى وَقَالَ لَهَا: «هُوَذَا سَيِّدِي قَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ فِي هَذَا ٱلْبَيْتِ وَلَمْ يُشْغِلْ نَفْسَهُ بِأَيِّ شَأْنٍ فِيهِ. ٩ وَلَيْسَ فِي هَذَا ٱلْبَيْتِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنِّي. وَلَمْ يَمْنَعْ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَكِ لأَنَّكِ زَوْجَتُهُ. فَكَيْفَ أَقْتَرِفُ هَذَا ٱلشَّرَّ ٱلْعَظِيمَ وَأُخْطِئُ إِلَى ٱللهِ؟» ١٠ وَلَمْ يُذْعِنْ يُوسُفُ لَهَا مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ تُلِحُّ عَلَيْهِ يَوْمًا بَعْدَ آخَرَ.

١١ وَحَدَثَ يَوْمًا أَنَّهُ دَخَلَ ٱلْبَيْتَ لِيَقُومَ بِعَمَلِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ٱلْمَنْزِلِ أَحَدٌ، ١٢ فَأَمْسَكَتْهُ مِنْ رِدَائِهِ وَقَالَتْ: «ٱضْطَجِعْ مَعِي». فَتَرَكَ رِدَاءَهُ بِيَدِهَا وَهَرَبَ خَارِجًا تَارِكًا رِدَاءَهُ بِيَدِهَا ١٣ وَعِنْدَمَا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ رَفَضَ وَهَرَبَ خَارِجًا تَارِكًا رِدَاءَهُ بِيَدِهَا ١٤ نَادَتْ أَهْلَ بَيْتِهَا وَقَالَتْ: «ٱنْظُرُوا مَا جَرَى؟ هَذَا ٱلْعِبْرَانِيُّ ٱلَّذِي جَاءَ بِهِ زَوْجِي إِلَى ٱلْبَيْتِ. شَرَعَ يُرَاوِدُنِي عَنْ نَفْسِي. دَخَلَ

غُرفتي وحاول اغتصابي، فصرختُ بأعلى
صوتي. ١٥ وعندما سمعني قد رفعتُ صوتي
وصرختُ، ترك رداءه معي وهرب
خارجًا».
١٦ وأبقت رداءه إلى جانبها حتى قدم
مولاه إلى بيته، ١٧ فقصّت عليه مثل هذا
الحديث قائلة: «دخل العبد العبرانيّ الذي
جئت به إلينا ليداعبني عن نفسي، ١٨ وحين
رفعتُ صوتي وصرختُ، ترك ثوبه بجانبي
وفرّ خارجًا».

يوسف يزج في السجن

١٩ فلما سمع سيّده كلام زوجته وما
اتّهمت به يوسف احتدم غضبه، ٢٠ فقبض
على يوسف وزجّه في السجن، حيث كان
أسرى الملك معتقلين، فمكث هناك.
٢١ ولكنّ الرّبّ كان مع يوسف، فأغدق
عليه رحمته، فنال رضى رئيس السجن،
٢٢ حتى عهد إلى يوسف بكلّ المساجين
المعتقلين، وجعله مسئولًا عن كلّ ما يجري
هناك. ٢٣ ولم يحاسب رئيس السجن
يوسف بأيّ شيء أوكله إليه، لأنّ الرّبّ كان
معه. ومهما فعل كان الرّبّ يكلّله
بالنجاح.

ساقي فرعون وخبازه في السجن

٤٠ واتّفق بعد ذلك أنّ ساقي ملك
مصر والخبّاز أذنبا إلى
سيّدهما ملك مصر، ٢ فسخط فرعون على
خصيّيه: رئيس السقاة ورئيس الخبّازين،
٣ وزجّهما في معتقل بيت رئيس الحرس في
السجن، في المكان الذي كان يوسف
محبوسًا فيه. ٤ فولّى رئيس الحرس يوسف
أمرهما، فقام على خدمتهما، فمكثا في
المعتقل أيّامًا.
٥ وحلم كلّ من ساقي ملك مصر وخبّازه
المعتقلين في السجن حلمًا في ليلة واحدة.
وكان لحلم كلّ منهما معناه الخاصّ
بصاحبه. ٦ فأقبل عليهما يوسف في
الصباح فوجدهما مكتئبين. ٧ فسألهما:
«لماذا وجهاكما مكمدّان في هذا اليوم؟»
٨ فأجاباه: «حلم كلّ منّا حلمًا وليس من
يفسّره». فقال يوسف: «أليست تفاسير
الأحلام لله؟ حدّثاني بهما».

يوسف يفسر حلم ساقي فرعون

٩ فسرد رئيس السقاة حلمه على
يوسف. قال: «رأيتُ في حلمي وإذا كرمة
أمامي، ١٠ فيها ثلاثة أغصان أفرخت ثمّ
أزهرت، وما لبثت عناقيدها أن أثمرت عنبًا
ناضجًا. ١١ وكانت كأس فرعون في يدي،
فتناولت العنب وعصرته في كأس فرعون
ووضعت الكأس في يده». ١٢ فقال له
يوسف: «إليك تفسيره: الثلاثة الأغصان
هي ثلاثة أيّام. ١٣ بعد ثلاثة أيّام يرضى
عنك فرعون، ويردّك إلى منزلتك حيث
تناول فرعون كأسه، تمامًا كما كنت معتادًا
أن تفعل عندما كنت ساقيه. ١٤ إنّما إذا

أَصَابَكَ خَيْرٌ فَاذْكُرْنِي وَأَحْسِنْ إِلَيَّ. اذْكُرْنِي
لَدَى فِرْعَوْنَ وَأَخْرِجْنِي مِنْ هَذَا السِّجْنِ،
١٥لِأَنِّي حُمِلْتُ عَنْوَةً مِنْ أَرْضِ الْعِبْرَانِيِّينَ،
وَهُنَا أَيْضًا لَمْ أَجْنِ شَيْئًا لِيَزُجُّوا بِي فِي هَذَا
السِّجْنِ».

يوسف يفسر حلم خباز فرعون

١٦وَعِنْدَمَا رَأَى رَئِيسُ الْخَبَّازِينَ أَنَّ يُوسُفَ
أَحْسَنَ التَّفْسِيرَ، قَالَ لَهُ: «رَأَيْتُ أَنَا أَيْضًا
حُلْمًا، وَإِذَا بِثَلَاثَةِ سِلَالٍ بَيْضَاءَ عَلَى رَأْسِي.
١٧وَكَانَ السَّلُّ الْأَعْلَى مَلِيئًا مِنْ طَعَامِ فِرْعَوْنَ
مِمَّا يُعِدُّهُ الْخَبَّازُ، إِلَّا أَنَّ الطُّيُورَ كَانَتْ تَلْتَهِمُهُ
مِنَ السَّلِّ الَّذِي عَلَى رَأْسِي». ١٨فَقَالَ
يُوسُفُ: «إِلَيْكَ تَفْسِيرَهُ: الثَّلَاثَةُ السِّلَالُ هِيَ
ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ. ١٩بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقْطَعُ فِرْعَوْنُ
رَأْسَكَ وَيُعَلِّقُكَ عَلَى خَشَبَةٍ فَتَأْكُلُ الطُّيُورُ
لَحْمَكَ».

٢٠وَكَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ هُوَ يَوْمُ عِيدِ مِيلَادِ
فِرْعَوْنَ، فَأَقَامَ مَأْدُبَةً لِجَمِيعِ رِجَالِهِ، وَأَحْضَرَ
مِنَ السِّجْنِ رَئِيسَ السُّقَاةِ وَرَئِيسَ الْخَبَّازِينَ
أَمَامَهُمْ. ٢١وَرَدَّ رَئِيسَ السُّقَاةِ إِلَى عَمَلِهِ،
فَصَارَ يُقَدِّمُ الْكَأْسَ لِيَدِ فِرْعَوْنَ. ٢٢أَمَّا رَئِيسُ
الْخَبَّازِينَ فَقَدْ عَلَّقَهُ (عَلَى خَشَبَةٍ) مِثْلَمَا فَسَّرَ
لَهُمَا يُوسُفُ حُلْمَيْهِمَا. ٢٣وَلَكِنَّ رَئِيسَ السُّقَاةِ
لَمْ يَذْكُرْ يُوسُفَ بَلْ نَسِيَهُ.

أحلام فرعون

٤١ وَبَعْدَ انْقِضَاءِ سَنَتَيْنِ رَأَى
فِرْعَوْنُ حُلْمًا، وَإِذَا بِهِ وَاقِفٌ
بِجِوَارِ نَهْرِ النِّيلِ ٢وَإِذَا بِسَبْعِ بَقَرَاتٍ حِسَانِ
الْمَنْظَرِ وَسَمِينَاتِ الْأَبْدَانِ، صَاعِدَاتٍ مِنَ
النَّهْرِ أَخَذَتْ تَرْعَى فِي الْمَرْجِ، ٣ثُمَّ إِذَا
بِسَبْعِ بَقَرَاتٍ أُخْرَى قَبِيحَاتِ الْمَنْظَرِ
وَهَزِيلَاتٍ تَصْعَدُ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ وَتَقِفُ إِلَى
جِوَارِ الْبَقَرَاتِ الْأُولَى عَلَى ضَفَّةِ
النَّهْرِ. ٤وَالْتَهَمَتِ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَاتُ
الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الْحَسَنَاتِ الْمَنْظَرِ
وَالسَّمِينَاتِ. وَأَفَاقَ فِرْعَوْنُ. ٥ثُمَّ نَامَ، فَحَلَمَ
ثَانِيَةً، وَإِذَا بِسَبْعِ سَنَابِلَ نَابِتَةٍ مِنْ سَاقٍ وَاحِدَةٍ
زَاهِيَةٍ وَمُمْتَلِئَةٍ ٦ثُمَّ رَأَى سَبْعَ سَنَابِلَ عَجْفَاءَ
قَدْ لَفَحَتْهَا الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ نَابِتَةً وَرَاءَهَا،
٧فَابْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الْعَجْفَاءُ السَّبْعَ السَّنَابِلَ
الزَّاهِيَةَ الْمُمْتَلِئَةَ. وَأَفَاقَ فِرْعَوْنُ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ
حُلْمٌ. ٨وَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ اسْتَوْلَى الِانْزِعَاجُ
عَلَى فِرْعَوْنَ فَأَرْسَلَ وَاسْتَدْعَى جَمِيعَ سَحَرَةِ
مِصْرَ وَكُلَّ حُكَمَائِهَا، وَسَرَدَ عَلَيْهِمْ حُلْمَهُ،
فَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُفَسِّرُهُ لَهُ.

٩عِنْدَئِذٍ قَالَ رَئِيسُ السُّقَاةِ لِفِرْعَوْنَ: «إِنِّي
أَذْكُرُ الْيَوْمَ ذُنُوبِي. ١٠لَقَدْ سَخِطَ فِرْعَوْنُ
عَلَى عَبْدَيْهِ، فَزَجَّنِي وَرَئِيسَ الْخَبَّازِينَ فِي
مُعْتَقَلِ بَيْتِ رَئِيسِ الْحَرَسِ. ١١فَحَلَمَ كُلٌّ مِنَّا
حُلْمًا فِي نَفْسِ اللَّيْلَةِ، وَكَانَ تَفْسِيرُ كُلِّ حُلْمٍ
يَتَّفِقُ مَعَ أَحْوَالِ رَائِيهِ. ١٢وَكَانَ مَعَنَا هُنَاكَ
غُلَامٌ عِبْرَانِيٌّ، عَبْدٌ لِرَئِيسِ الْحَرَسِ، فَسَرَدْنَا
عَلَيْهِ حُلْمَيْنَا فَفَسَّرَهُمَا لِكُلٍّ مِنَّا حَسَبَ تَعْبِيرِ
حُلْمِهِ. ١٣وَقَدْ تَمَّ مَا فَسَّرَهُ لَنَا. فَرَدَّنِي
فِرْعَوْنُ إِلَى وَظِيفَتِي وَأَمَّا ذَاكَ فَعَلَّقَهُ (عَلَى
خَشَبَةٍ)».

فرعون يقص أحلامه على يوسف

١٤فبعث فرعون واستدعى يوسف ،
فأسرعوا وأتوا به من السجن فحلق
واستبدل ثيابه ومثل أمام فرعون . ١٥فقال
فرعون ليوسف : « لقد رأيت حلما وليس
هناك من يفسره ، وقد سمعت عنك حديثا
أنك إن سمعت حلما تقدر أن تفسره » .
١٦فأجاب يوسف : « لا فضل لي في
ذلك ، بل إن الله هو الذي يعطي فرعون
الجواب الصائب » .
١٧فقال فرعون ليوسف : « رأيت
نفسي في الحلم وإذا بي أقف على ضفة
النهر ، ١٨وإذا بسبع بقرات حسان المنظر
وسمينات الأبدان صاعدات من النهر ترعى
في المرج ، ١٩ثم إذا بسبع بقرات أخرى
قبيحات المنظر وهزيلات تصعد وراءها من
النهر . لم أر في أرض مصر كلها نظيرها
في القباحة . ٢٠فالتهمت البقرات
الهزيلات القبيحات السبع البقرات الأولى
السمينات . ٢١ومع أنها ابتلعتها ظلت
عجفاء وكأنها لم تبتلعها وبقي منظرها
قبيحا كما كانت . واستيقظت . ٢٢ثم
رأيت في حلمي وإذا بسبع سنابل زاهية
وممتلئة نابتة من ساق واحدة ، ٢٣ثم إذا
بسبع سنابل يابسة عجفاء قد لفحتها الريح
الشرقية نابتة وراءها ، ٢٤فابتلعت السنابل
العجفاء السبع الزاهية . ولقد سردت على
السحرة هذين الحلمين ، فلم أجد بينهم
من يفسرهما لي » .

يوسف يفسر أحلام فرعون

٢٥فقال يوسف لفرعون : « حلما
فرعون هما حلم واحد . وقد أطلع الله
فرعون عما هو فاعل . ٢٦السبع البقرات
الحسان هي سبع سنوات . والسبع السنابل
الزاهيات هي أيضا سبع سنوات .
فالحلمان هما حلم واحد . ٢٧والسبع
البقرات القبيحات الهزيلات التي صعدت
وراءها هي سبع سنوات . والسبع السنابل
الفارغات الملفوحات بالريح الشرقية
ستكون سبع سنوات جوع . ٢٨والأمر هو
كما أخبرت به فرعون : فقد أطلع الله
فرعون عما هو صانع . ٢٩هوذا سبع سنين
رخاء عظيم قادمة على كل أرض مصر ،
٣٠تعقبها سبع سنوات جوع ، حتى ينسى
الناس كل الرخاء الذي عم أرض مصر ،
ويتلف الجوع الأرض ، ٣١ويختفي كل
أثر للرخاء في البلاد من جراء المجاعة التي
تعقبه ، لأنها ستكون قاسية جدا . ٣٢أما
تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر
قد حتمه الله ، ولابد أن يجريه سريعا .
٣٣والآن ليبحث فرعون عن رجل
بصير حكيم يوليه على البلاد ، ٣٤وليقم
فرعون نظارا على أرض مصر يجبون
خمس غلتها في سنوات الرخاء السبع .
٣٥وليجمعوا كل طعام سنوات الخير
المقبلة ، ويخزنوا القمح بتفويض من

فِرْعَوْنَ وَيَحْفَظُوهُ فِي ٱلْمُدُنِ لِيَكُونَ طَعَامًا ،
٣٦وَمَؤُونَةً لِأَهْلِ ٱلْأَرْضِ فِي سَنَوَاتِ
ٱلْمَجَاعَةِ ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي سَتَسُودُ أَرْضَ مِصْرَ فَلَا
يَهْلِكُونَ جُوعًا » .

يوسف يصبح حاكم مصر

٣٧فَٱسْتَحْسَنَ فِرْعَوْنُ وَرِجَالُهُ جَمِيعًا هَذَا
ٱلْكَلَامَ ، ٣٨وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِعَبِيدِهِ : « هَلْ نَجِدُ
نَظِيرَ هَذَا رَجُلًا فِيهِ رُوحُ ٱللهِ ؟ » ٣٩ثُمَّ قَالَ
فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ : « مِنْ حَيْثُ أَنَّ ٱللهَ قَدْ
أَطْلَعَكَ عَلَى كُلِّ هَذَا ، فَلَيْسَ هُنَاكَ بَصِيرٌ
وَحَكِيمٌ نَظِيرَكَ . ٤٠لِذَلِكَ أُوَلِّيكَ عَلَى
بَيْتِي ، وَيُذْعِنُ شَعْبِي لِكُلِّ أَمْرٍ تُصْدِرُهُ ، وَلَنْ
يَكُونَ أَعْظَمَ مِنْكَ سِوَايَ أَنَا صَاحِبَ
ٱلْعَرْشِ » . ٤١ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ : « هَا
أَنَا قَدْ وَلَّيْتُكَ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ » .
٤٢وَنَزَعَ فِرْعَوْنُ خَاتَمَهُ مِنْ يَدِهِ وَوَضَعَهُ فِي
يَدِ يُوسُفَ ، وَأَلْبَسَهُ ثِيَابَ كَتَّانٍ فَاخِرَةً وَطَوَّقَ
عُنُقَهُ بِطَوْقٍ مِنْ ذَهَبٍ ، ٤٣وَأَرْكَبَهُ فِي
مَرْكَبَتِهِ ٱلثَّانِيَةِ ، وَنَادَوْا : « ٱرْكَعُوا أَمَامَهُ » .
وَأَقَامَهُ وَالِيًا عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ . ٤٤وَقَالَ
فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ : « أَنَا فِرْعَوْنُ ، وَلَا أَحَدَ
يُمْكِنُ أَنْ يُحَرِّكَ سَاكِنًا فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ
مِنْ غَيْرِ إِذْنِكَ » .
٤٥وَدَعَا فِرْعَوْنُ ٱسْمَ يُوسُفَ صَفْنَاتَ فَعْنِيحَ
(وَمَعْنَاهُ بِٱلْمِصْرِيَّةِ ٱلْقَدِيمَةِ مُخَلِّصُ ٱلْعَالَمِ أَوْ
حَافِظُ ٱلْحَيَاةِ) . وَزَوَّجَهُ مِنْ أَسْنَاتَ بِنْتِ
فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونَ ، فَذَاعَ ٱسْمُ يُوسُفَ
فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ مِصْرَ .

سبع سنوات الخير

٤٦وَكَانَ يُوسُفُ فِي ٱلثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا
مَثَلَ أَمَامَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ . وَبَعْدَ أَنْ خَرَجَ
مِنْ حَضْرَةِ فِرْعَوْنَ شَرَعَ يَجُولُ فِي جَمِيعِ
أَرْجَاءِ ٱلْبِلَادِ .
٤٧وَفِي سَنَوَاتِ ٱلْخِصْبِ ٱلسَّبْعِ غَلَّتِ
ٱلْأَرْضُ بِوَفْرَةٍ ، ٤٨فَجَمَعَ كُلَّ طَعَامِ ٱلسَّبْعِ
سَنَوَاتِ ٱلْمُتَوَافِرِ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَخَزَنَهُ فِي
ٱلْمُدُنِ ، فَٱخْتَزَنَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ غَلَّاتِ مَا
حَوْلَهَا مِنْ حُقُولٍ . ٤٩وَٱدَّخَرَ يُوسُفُ
كَمِّيَّاتٍ هَائِلَةً مِنَ ٱلْقَمْحِ حَتَّى كَفَّ عَنْ
إِحْصَائِهَا لِوَفْرَتِهَا ٱلْعَظِيمَةِ .

أبناء يوسف

٥٠وَأَنْجَبَتْ أَسْنَاتُ بِنْتُ فُوطِي فَارَعَ
كَاهِنِ أُونَ لِيُوسُفَ ٱبْنَيْنِ قَبْلَ حُلُولِ سَنَوَاتِ
ٱلْجُوعِ . ٥١فَدَعَا يُوسُفُ ٱسْمَ ٱلْبِكْرِ مَنَسَّى
(وَمَعْنَاهُ : مَنْ يُنْسِي أَوِ ٱلْمُنْسِي) وَقَالَ :
« لِأَنَّ ٱللهَ أَنْسَانِي كُلَّ مَشَقَّتِي وَكُلَّ بَيْتِ
أَبِي » . ٥٢أَمَّا ٱلثَّانِي فَدَعَا ٱسْمَهُ أَفْرَايِمَ
(وَمَعْنَاهُ : ٱلْمُثْمِرُ مُضَاعَفًا) وَقَالَ : « لِأَنَّ
ٱللهَ جَعَلَنِي مُثْمِرًا فِي أَرْضِ مَذَلَّتِي » .

بداية سبع سنوات الجوع

٥٣ثُمَّ ٱنْتَهَتْ سَبْعُ سَنَوَاتِ ٱلرَّخَاءِ ٱلَّذِي
عَمَّ أَرْضَ مِصْرَ . ٥٤وَحَلَّتْ سَبْعُ سَنَوَاتِ
ٱلْمَجَاعَةِ كَمَا أَنْبَأَ يُوسُفُ . فَحَدَثَتْ مَجَاعَةٌ
فِي جَمِيعِ ٱلْبُلْدَانِ . أَمَّا أَرْضُ مِصْرَ فَقَدْ تَوَفَّرَ

فِيهَا ٱلْخُبْزُ . ٥٥وَعِنْدَمَا عَمَّتِ ٱلْمَجَاعَةُ
جَمِيعَ أَرْضِ مِصْرَ صَرَخَ ٱلشَّعْبُ إِلَى فِرْعَوْنَ
طَالِبِينَ ٱلْخُبْزَ ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِكُلِّ
ٱلْمِصْرِيِّينَ : « ٱذْهَبُوا إِلَى يُوسُفَ وَٱفْعَلُوا
كَمَا يَقُولُ لَكُمْ » . ٥٦وَطَغَتِ ٱلْمَجَاعَةُ عَلَى
كُلِّ أَرْجَاءِ ٱلْبِلَادِ فَفَتَحَ يُوسُفُ ٱلْمَخَازِنَ وَبَاعَ
ٱلطَّعَامَ لِلْمِصْرِيِّينَ . وَلَكِنْ وَطْأَةُ ٱلْجُوعِ
ٱشْتَدَّتْ فِي أَرْضِ مِصْرَ . ٥٧وَأَقْبَلَ أَهْلُ
ٱلْبُلْدَانِ ٱلْأُخْرَى إِلَى مِصْرَ ، إِلَى يُوسُفَ ،
لِيَبْتَاعُوا قَمْحًا لِأَنَّ ٱلْمَجَاعَةَ كَانَتْ شَدِيدَةً فِي
كُلِّ ٱلْأَرْضِ .

إخوة يوسف في مصر

٤٢ وَعِنْدَمَا رَأَى يَعْقُوبُ أَنَّ ٱلْقَمْحَ
مُتَوَافِرٌ فِي مِصْرَ ، قَالَ
لِأَبْنَائِهِ : « مَا بَالُكُمْ تَنْظُرُونَ بَعْضُكُمْ إِلَى
بَعْضٍ ؟ ٢لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ ٱلْقَمْحَ مُتَوَافِرٌ فِي
مِصْرَ . فَٱنْحَدِرُوا إِلَى هُنَاكَ وَٱشْتَرُوا لَنَا قَمْحًا
لِنَحْيَا عَلَى قَيْدِ ٱلْحَيَاةِ وَلَا نَمُوتَ » .
٣فَذَهَبَ عَشَرَةٌ مِنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ لِيَشْتَرُوا
قَمْحًا مِنْ مِصْرَ ، ٤أَمَّا بِنْيَامِينُ أَخُو يُوسُفَ
فَلَمْ يُرْسِلْهُ يَعْقُوبُ مَعَ إِخْوَتِهِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَنَالَهُ
مَكْرُوهٌ .

لقاء يوسف الأول بإخوته

٥فَقَدِمَ أَبْنَاءُ إِسْرَائِيلَ إِلَى مِصْرَ مَعَ جُمْلَةِ
ٱلْقَادِمِينَ لِيَشْتَرُوا قَمْحًا ، لِأَنَّ ٱلْمَجَاعَةَ كَانَتْ
قَدْ أَصَابَتْ أَرْضَ كَنْعَانَ أَيْضًا . ٦وَكَانَ
يُوسُفُ هُوَ ٱلْمُتَسَلِّطَ عَلَى مِصْرَ ، وَٱلْقَائِمَ
عَلَى بَيْعِ ٱلْقَمْحِ لِأَهْلِهَا جَمِيعًا . فَأَقْبَلَ إِخْوَةُ
يُوسُفَ وَسَجَدُوا لَهُ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ .
٧فَلَمَّا رَآهُمْ عَرَفَهُمْ ، وَلَكِنَّهُ تَنَكَّرَ لَهُمْ
وَخَاطَبَهُمْ بِجَفَاءٍ وَسَأَلَهُمْ : « مِنْ أَيْنَ
جِئْتُمْ ؟ » فَأَجَابُوهُ : « مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ
لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا » . ٨وَمَعَ أَنَّ يُوسُفَ
عَرَفَهُمْ ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوهُ .

يوسف يستجوب إخوته

٩ثُمَّ تَذَكَّرَ يُوسُفُ أَحْلَامَهُ ٱلَّتِي حَلُمَهَا
بِشَأْنِهِمْ ، فَقَالَ لَهُمْ : « أَنْتُمْ جَوَاسِيسُ ، وَقَدْ
جِئْتُمْ لِٱكْتِشَافِ ثُغُورِنَا غَيْرِ ٱلْمَحْمِيَّةِ »
١٠فَقَالُوا لَهُ : « لَا يَا سَيِّدِي إِنَّمَا قَدِمَ عَبِيدُكَ
لِشِرَاءِ ٱلطَّعَامِ ، ١١فَنَحْنُ كُلُّنَا أَبْنَاءُ رَجُلٍ
وَاحِدٍ ، نَحْنُ أُمَنَاءُ وَلَيْسَ عَبِيدُكَ
جَوَاسِيسَ » . ١٢وَلَكِنَّهُ قَالَ لَهُمْ : « لَا !
أَنْتُمْ قَدْ جِئْتُمْ لِٱكْتِشَافِ ثُغُورِنَا غَيْرِ
ٱلْمَحْمِيَّةِ » ١٣فَأَجَابُوهُ : « إِنَّ عَبِيدَكَ ٱثْنَا
عَشَرَ أَخًا ، أَبْنَاءُ رَجُلٍ وَاحِدٍ مُقِيمٍ فِي أَرْضِ
كَنْعَانَ . وَقَدْ بَقِيَ أَخُونَا ٱلصَّغِيرُ عِنْدَ أَبِينَا
ٱلْيَوْمَ ، وَٱلْآخَرُ مَفْقُودٌ » . ١٤فَقَالَ لَهُمْ :
« إِنَّ ٱلْأَمْرَ كَمَا قُلْتُ لَكُمْ ! أَنْتُمْ جَوَاسِيسُ .
١٥وَحَيَاةِ فِرْعَوْنَ إِنَّكُمْ لَنْ تُغَادِرُوا هُنَا حَتَّى
تَأْتُوا بِأَخِيكُمُ ٱلْأَصْغَرِ ، وَبِذَلِكَ تُثْبِتُونَ
صِدْقَكُمْ . ١٦أَوْفِدُوا وَاحِدًا مِنْكُمْ لِيَأْتِيَ
بِأَخِيكُمْ ، أَمَّا بَقِيَّتُكُمْ فَتَمْكُثُونَ فِي ٱلسِّجْنِ
حَتَّى تَثْبُتَ صِحَّةُ كَلَامِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .
وَإِلَّا فَوَحَيَاةِ فِرْعَوْنَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ سِوَى
جَوَاسِيسَ » . ١٧وَطَرَحَهُمْ فِي ٱلسِّجْنِ مَعًا

ثَلاثَةَ أَيَّامٍ .
١٨وَفِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّالِثِ قَالَ لَهُمْ : « ٱعْمَلُوا
مَا أَطْلُبُهُ مِنْكُمْ فَتَحْيَوْا ، فَأَنَا رَجُلٌ أَتَّقِي ٱللهَ .
١٩إِنْ كُنْتُمْ حَقًّا صَادِقِينَ فَلْيَبْقَ وَاحِدٌ مِنْكُمْ
رَهِينَةً ، بَيْنَمَا يَأْخُذُ بَقِيَّتُكُمُ ٱلْقَمْحَ وَيَنْطَلِقُونَ
إِلَى بُيُوتِكُمُ ٱلْجَائِعَةِ . ٢٠وَلَكِنِ ٱئْتُونِي
بِأَخِيكُمُ ٱلأَصْغَرِ فَأَتَحَقَّقَ بِذَلِكَ مِنْ صِدْقِكُمْ
وَلَا تَمُوتُوا » . فَوَافَقُوا عَلَى ذَلِكَ .
٢١وَقَالُوا : « حَقًّا إِنَّنَا أَذْنَبْنَا فِي حَقِّ أَخِينَا .
لَقَدْ رَأَيْنَا ضِيقَةَ نَفْسِهِ عِنْدَمَا ٱسْتَرْحَمَنَا فَلَمْ
نَسْمَعْ لَهُ . لِذَلِكَ أَصَابَتْنَا هَذِهِ ٱلضِّيقَةُ »
٢٢فَقَالَ رَأُوبَيْنُ : « أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَا تَجْنُوا
عَلَيْهِ فَلَمْ تَسْمَعُوا ؟ وَٱلآنَ هَا نَحْنُ مُطَالَبُونَ
بِدَمِهِ » . ٢٣وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ يُوسُفَ كَانَ
فَاهِمًا حَدِيثَهُمْ ، لِأَنَّهُ كَانَ يُخَاطِبُهُمْ عَنْ
طَرِيقِ مُتَرْجِمٍ . ٢٤فَتَحَوَّلَ عَنْهُمْ وَبَكَى ، ثُمَّ
رَجَعَ إِلَيْهِمْ وَخَاطَبَهُمْ ، وَأَخَذَ شِمْعُونَ وَقَيَّدَهُ
أَمَامَ عُيُونِهِمْ .

عودة أبناء يعقوب إلى أبيهم

٢٥ثُمَّ أَمَرَ يُوسُفُ مُوَظَّفِيهِ أَنْ يَمْلَأُوا
أَكْيَاسَهُمْ بِٱلْقَمْحِ ، وَأَنْ يَرُدُّوا فِضَّةَ كُلِّ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى عِدْلِهِ ، وَأَنْ يُعْطُوهُمْ زَادًا
لِلطَّرِيقِ . فَفَعَلُوا ذَلِكَ . ٢٦فَحَمَّلُوا حَمِيرَهُمُ
ٱلْقَمْحَ وَٱنْطَلَقُوا مِنْ هُنَاكَ . ٢٧وَحِينَ فَتَحَ
أَحَدُهُمْ عِدْلَهُ فِي ٱلْخَانِ لِيَعْلِفَ حِمَارَهُ ، لَمَحَ
فِضَّتَهُ لِأَنَّهَا كَانَتْ مَوْضُوعَةً فِي فَمِ ٱلْعِدْلِ .
٢٨فَقَالَ لِإِخْوَتِهِ : « لَقَدْ رُدَّتْ إِلَيَّ فِضَّتِي ،
ٱنْظُرُوا هَا هِيَ فِي عِدْلِي » . فَغَاصَتْ
قُلُوبُهُمْ ، وَتَطَلَّعَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مُرْتَعِدِينَ
وَقَالُوا : « مَا هَذَا ٱلَّذِي فَعَلَهُ ٱللهُ بِنَا ؟ » .
٢٩وَعِنْدَمَا قَدِمُوا عَلَى أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ فِي
أَرْضِ كَنْعَانَ قَصُّوا عَلَيْهِ مَا حَلَّ بِهِمْ ،
وَقَالُوا : ٣٠« ٱلرَّجُلُ ٱلْمُتَسَلِّطُ عَلَى مِصْرَ
خَاطَبَنَا بِجَفَاءٍ ، وَظَنَّ أَنَّنَا جَوَاسِيسُ عَلَى
ٱلأَرْضِ ، ٣١فَقُلْنَا لَهُ : نَحْنُ أُمَنَاءُ وَلَسْنَا
جَوَاسِيسَ . ٣٢نَحْنُ ٱثْنَا عَشَرَ أَخًا أَبْنَاءُ أَبِينَا :
أَحَدُنَا مَفْقُودٌ ، وَٱلأَصْغَرُ بَقِيَ ٱلْيَوْمَ مَعَ أَبِينَا
فِي أَرْضِ كَنْعَانَ . ٣٣فَقَالَ لَنَا ٱلرَّجُلُ سَيِّدُ
ٱلْبِلَادِ : لِكَيْ أَتَحَقَّقَ أَنَّكُمْ أُمَنَاءُ . دَعُوا أَخًا
وَاحِدًا مِنْكُمْ عِنْدِي رَهِينَةً وَخُذُوا طَعَامًا
لِبُيُوتِكُمُ ٱلْجَائِعَةِ وَٱمْضُوا ، ٣٤ثُمَّ أَحْضِرُوا إِلَيَّ
أَخَاكُمُ ٱلأَصْغَرَ ، وَبِذَلِكَ أَعْرِفُ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ
جَوَاسِيسَ بَلْ قَوْمًا أُمَنَاءَ ، فَأُطْلِقَ لَكُمْ أَخَاكُمْ
وَتَتَّجِرُونَ فِي ٱلأَرْضِ » . ٣٥وَإِذْ شَرَعُوا فِي
تَفْرِيغِ عِدَالِهِمْ وَجَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِضَّتَهُ
فِي عِدْلِهِ ، وَمَا إِنْ رَآهَا هُمْ وَأَبُوهُمْ ذَلِكَ حَتَّى
ٱشْتَدَّ بِهِمِ ٱلْخَوْفُ .
٣٦فَقَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ : « لَقَدْ أَثْكَلْتُمُونِي
أَوْلَادِي . يُوسُفُ مَفْقُودٌ . وَشِمْعُونُ
مَفْقُودٌ ، وَهَا أَنْتُمْ تَأْخُذُونَ بِنْيَامِينَ بَعِيدًا !
كُلُّ هَذِهِ ٱلدَّوَاهِي حَلَّتْ بِي ! » ٣٧فَقَالَ لَهُ
رَأُوبَيْنُ : « ٱقْتُلِ ٱبْنَيَّ إِنْ لَمْ أَرْجِعْ بِهِ إِلَيْكَ .
ٱعْهَدْ بِهِ إِلَيَّ وَأَنَا أَرُدُّهُ إِلَيْكَ » . ٣٨فَقَالَ :
« لَنْ يَذْهَبَ ٱبْنِي مَعَكُمْ ، فَقَدْ مَاتَ أَخُوهُ
وَهُوَ وَحْدَهُ بَاقٍ . فَإِنْ نَالَهُ مَكْرُوهٌ فِي ٱلطَّرِيقِ
ٱلَّتِي تَذْهَبُونَ فِيهَا ، فَإِنَّكُمْ تُنْزِلُونَ شَيْبَتِي
بِحُزْنٍ إِلَى قَبْرِي » .

التأهب للرحلة الثانية إلى مصر

٤٣ وَتَفَاقَمَتِ ٱلْمَجَاعَةُ فِي
ٱلْأَرْضِ . ٢ وَلَمَّا ٱسْتَهْلَكُوا
ٱلْقَمْحَ ٱلَّذِي أَحْضَرُوهُ مِنْ مِصْرَ ، قَالَ لَهُمْ
أَبُوهُمْ : « ٱرْجِعُوا وَٱشْتَرُوا لَنَا قَلِيلًا مِنَ
ٱلطَّعَامِ » . ٣ فَقَالَ يَهُوذَا : « لَقَدْ حَذَّرَنَا
ٱلرَّجُلُ أَشَدَّ تَحْذِيرٍ وَقَالَ : لَنْ تَرَوْا وَجْهِي مَا
لَمْ يَكُنْ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ . ٤ فَإِنْ كُنْتَ تُرْسِلُ
أَخَانَا مَعَنَا ، نَمْضِي وَنَشْتَرِي لَكَ طَعَامًا ٥ وَإِلَّا
فَلَنْ نَذْهَبَ لِأَنَّ ٱلرَّجُلَ قَالَ لَنَا : لَا تَرَوْا
وَجْهِي مَا لَمْ يَكُنْ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ » .
٦ فَقَالَ إِسْرَائِيلُ : « لِمَاذَا أَسَأْتُمْ إِلَيَّ
فَأَخْبَرْتُمُ ٱلرَّجُلَ أَنَّ لَكُمْ أَخًا أَيْضًا ؟ »
٧ فَأَجَابُوا : « إِنَّ ٱلرَّجُلَ قَدْ دَقَّقَ فِي
ٱسْتِجْوَابِنَا عَنْ أَنْفُسِنَا وَعَنْ عَشِيرَتِنَا سَائِلًا :
هَلْ أَبُوكُمْ حَيٌّ بَعْدُ ؟ هَلْ لَكُمْ أَخٌ ؟ فَأَجَبْنَاهُ
حَسَبَ أَسْئِلَتِهِ . فَمِنْ أَيْنَ لَنَا أَنْ نَعْرِفَ أَنَّهُ
سَيَقُولُ : أَحْضِرُوا أَخَاكُمْ إِلَى هُنَا ؟ »
٨ وَقَالَ يَهُوذَا لِإِسْرَائِيلَ أَبِيهِ : « أَرْسِلِ
ٱلْغُلَامَ مَعِي فَنَقُومَ وَنَذْهَبَ فَنَحْيَا وَلَا نَمُوتَ
نَحْنُ وَأَنْتَ وَأَوْلَادُنَا جَمِيعًا . ٩ وَأَنَا ضَامِنٌ
لَهُ . مِنْ يَدِي تَطْلُبُهُ . فَإِنْ لَمْ أَرُدَّهُ إِلَيْكَ
وَأُوقِفْهُ أَمَامَكَ ، أَكُنْ مُذْنِبًا إِلَيْكَ كُلَّ
ٱلْأَيَّامِ . ١٠ فَلَوْ لَمْ نَتَوَانَ فِي ٱلسَّفَرِ لَكُنَّا قَدْ
رَجَعْنَا مَرَّتَيْنِ » .
١١ فَقَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ : « إِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ
ذَلِكَ فَٱفْعَلُوا . وَخُذُوا مَعَكُمْ هَدِيَّةً لِلرَّجُلِ :
ٱمْلَأُوا أَوْعِيَتَكُمْ مِنْ خَيْرِ جَنَى ٱلْأَرْضِ وَقَلِيلًا
مِنَ ٱلْبَلَسَانِ وَٱلْعَسَلِ وَٱلْكَثِيرَاءِ وَٱللَّاذِنِ
وَٱلْفُسْتُقِ وَٱللَّوْزِ . ١٢ وَخُذُوا مَعَكُمْ فِضَّةً
أُخْرَى ، وَٱلْفِضَّةَ ٱلْمَرْدُودَةَ فِي أَفْوَاهِ عِدَالِكُمْ
وَأَعِيدُوهَا . فَلَعَلَّ فِي ٱلْأَمْرِ سَهْوًا .
١٣ وَٱسْتَصْحِبُوا مَعَكُمْ أَيْضًا أَخَاكُمْ وَقُومُوا
ٱرْجِعُوا إِلَى ٱلرَّجُلِ . ١٤ وَلْيُنْعِمْ عَلَيْكُمُ ٱللهُ
ٱلْقَدِيرُ بِٱلرَّحْمَةِ لَدَى ٱلرَّجُلِ ، فَيُطْلِقَ لَكُمْ
أَخَاكُمُ ٱلْآخَرَ وَبِنْيَامِينَ أَيْضًا . وَأَنَا إِنْ
ثَكِلْتُهُمَا ، أَكُونُ قَدْ ثَكِلْتُهُمَا » .

عودة إخوة يوسف مع بنيامين إلى مصر

١٥ فَأَخَذَ ٱلرِّجَالُ تِلْكَ ٱلْهَدِيَّةَ ، وَضِعْفَ
ٱلْفِضَّةِ ، وَبِنْيَامِينَ ، وَسَافَرُوا إِلَى مِصْرَ وَمَثَلُوا
أَمَامَ يُوسُفَ . ١٦ وَعِنْدَمَا شَاهَدَ يُوسُفُ
بِنْيَامِينَ مَعَهُمْ قَالَ لِمُدَبِّرِ بَيْتِهِ : « أَدْخِلِ
ٱلرِّجَالَ إِلَى ٱلْبَيْتِ وَٱذْبَحْ ذَبِيحَةً وَهَيِّئْهَا ، لِأَنَّ
هَؤُلَاءِ ٱلرِّجَالَ سَيَتَنَاوَلُونَ مَعِي ٱلطَّعَامَ فِي
سَاعَةِ ٱلْغَدَاءِ » . ١٧ فَفَعَلَ ٱلرَّجُلُ كَمَا أَمَرَ
يُوسُفُ ، وَأَدْخَلَ ٱلرِّجَالَ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ .
١٨ وَلَمَّا أُدْخِلُوا إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ ٱعْتَرَاهُمُ
ٱلْخَوْفُ وَقَالُوا : « لَقَدْ جِيءَ بِنَا إِلَى هُنَا
لِيَهْجُمَ عَلَيْنَا وَيَقَعَ بِنَا وَيَسْتَعْبِدَنَا وَيَسْتَوْلِيَ
عَلَى حَمِيرِنَا ، بِسَبَبِ ٱلْفِضَّةِ ٱلْأُولَى
ٱلْمَرْدُودَةِ فِي عِدَالِنَا » . ١٩ فَتَقَدَّمُوا إِلَى مُدَبِّرِ
بَيْتِ يُوسُفَ وَقَالُوا لَهُ عِنْدَ مَدْخَلِ ٱلْبَابِ :
٢٠ « ٱسْتَمِعْ يَا سَيِّدِي ، لَقَدْ قَدِمْنَا إِلَى هُنَا فِي
ٱلْمَرَّةِ ٱلْأُولَى لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا ، ٢١ وَلَكِنَّنَا حِينَ
نَزَلْنَا فِي ٱلْخَانِ وَفَتَحْنَا عِدَالَنَا عَثَرَ كُلُّ رَجُلٍ
مِنَّا عَلَى فِضَّتِهِ بِكَامِلِ وَزْنِهَا فِي فَمِ عِدْلِهِ ،

فَأَحْضَرْنَاهَا مَعَنَا لِنَرُدَّهَا . ٢٢وَجِئْنَا مَعَنَا
بِفِضَّةٍ أُخْرَى لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا . وَلَسْنَا
نَدْرِي مَنْ وَضَعَ فِضَّتَنَا فِي عِدَالِنَا » .
٢٣فَقَالَ : « سَلَامٌ لَكُمْ ، لَا تَخَافُوا ،
فَإِنَّ إِلَهَكُمْ وَإِلَهَ أَبِيكُمْ قَدْ وَهَبَكُمْ كَنْزًا فِي
عِدَالِكُمْ ، أَمَّا فِضَّتُكُمْ فَقَدْ وَصَلَتْ
إِلَيَّ » . ثُمَّ أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ شِمْعُونَ .
٢٤وَأَدْخَلَ ٱلرَّجُلُ ٱلْقَوْمَ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ
وَقَدَّمَ لَهُمْ مَاءً لِيَغْسِلُوا أَرْجُلَهُمْ ، وَعَلِيقًا
لِحَمِيرِهِمْ . ٢٥وَأَعَدُّوا ٱلْهَدِيَّةَ فِي ٱنْتِظَارِ
مَجِيءِ يُوسُفَ عِنْدَ ٱلظُّهْرِ ، لِأَنَّهُمْ سَمِعُوا
أَنَّهُمْ سَيَتَنَاوَلُونَ ٱلطَّعَامَ هُنَاكَ .

يوسف يأكل مع إخوته

٢٦فَلَمَّا أَقْبَلَ يُوسُفُ إِلَى ٱلْبَيْتِ
أَحْضَرُوا إِلَيْهِ ٱلْهَدِيَّةَ ٱلَّتِي حَمَلُوهَا مَعَهُمْ إِلَى
ٱلْبَيْتِ ، وَٱنْحَنَوْا أَمَامَهُ إِلَى ٱلْأَرْضِ .
٢٧فَسَأَلَهُمْ عَنْ أَحْوَالِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ : « هَلْ
أَبُوكُمُ ٱلشَّيْخُ ٱلَّذِي أَخْبَرْتُمْ عَنْهُ بِخَيْرٍ ؟
أَمَازَالَ حَيًّا ؟ » ٢٨فَأَجَابُوا : « عَبْدُكَ أَبُونَا
بِخَيْرٍ ، وَهُوَ مَازَالَ حَيًّا » . وَٱنْحَنَوْا
وَسَجَدُوا .
٢٩وَتَلَفَّتَ فَرَأَى أَخَاهُ ٱلشَّقِيقَ بَنْيَامِينَ ،
فَقَالَ : « أَهَذَا أَخُوكُمُ ٱلْأَصْغَرُ ٱلَّذِي
أَخْبَرْتُمُونِي عَنْهُ ؟ » ثُمَّ قَالَ : « لِيُنْعِمِ ٱللهُ
عَلَيْكَ يَا ٱبْنِي » . ٣٠وَٱنْدَفَعَ يُوسُفُ إِلَى
مُخْدَعِهِ وَبَكَى هُنَاكَ لِأَنَّ عَوَاطِفَهُ حَنَّتْ إِلَى
أَخِيهِ .
٣١ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَخَرَجَ وَتَجَلَّدَ ،
وَقَالَ : « قَدِّمُوا ٱلطَّعَامَ » . ٣٢فَقَدَّمُوا لَهُ
وَحْدَهُ ، وَلَهُمْ وَحْدَهُمْ ، وَلِلْمِصْرِيِّينَ
ٱلْآكِلِينَ مَعَهُ وَحْدَهُمْ ، إِذْ أَنَّهُ مَحْظُورٌ عَلَى
ٱلْمِصْرِيِّينَ أَنْ يَأْكُلُوا مَعَ ٱلْعِبْرَانِيِّينَ ، لِأَنَّ
ذَلِكَ رِجْسٌ عِنْدَهُمْ . ٣٣فَجَلَسُوا فِي
مَحْضَرِهِ ، كُلٌّ وَفْقًا لِعُمْرِهِ ، مِنَ ٱلْبِكْرِ حَتَّى
ٱلصَّغِيرِ . فَنَظَرُوا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
مَبْهُورِينَ . ٣٤وَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ حِصَصًا مِنْ
مَائِدَتِهِ ، فَكَانَتْ حِصَّةُ بَنْيَامِينَ خَمْسَةَ
أَضْعَافِ حِصَصِ إِخْوَتِهِ . وَٱحْتَفَلُوا وَشَرِبُوا
مَعَهُ .

الكأس الفضية المفقودة

٤٤ وَأَمَرَ يُوسُفُ مُدَبِّرَ بَيْتِهِ قَائِلًا :
« ٱمْلَأْ عِدَالَ ٱلرِّجَالِ بِٱلطَّعَامِ
بِقَدْرِ وُسْعِهَا ، وَرُدَّ فِضَّةَ كُلِّ رَجُلٍ إِلَى فَمِ
عِدْلِهِ . ٢وَضَعْ فِي فَمِ عِدْلِ ٱلصَّغِيرِ كَأْسِيَ
ٱلْفِضِّيَّةَ وَثَمَنَ قَمْحِهِ » . فَنَفَّذَ أَمْرَ يُوسُفَ .
٣وَمَا إِنْ أَشْرَقَ ٱلصَّبَاحُ حَتَّى ٱنْطَلَقَ
ٱلرِّجَالُ ، هُمْ وَحَمِيرُهُمْ . ٤وَمَا كَادُوا
يَبْتَعِدُونَ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ قَلِيلًا حَتَّى قَالَ يُوسُفُ
لِمُدَبِّرِ بَيْتِهِ : « ٱسْعَ خَلْفَ ٱلرِّجَالِ ، وَمَا إِنْ
تُدْرِكُهُمْ حَتَّى تَقُولَ لَهُمْ : لِمَاذَا تُكَافِئُونَ
ٱلْخَيْرَ بِٱلشَّرِّ ؟ ٥أَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ ٱلْكَأْسَ
ٱلَّتِي يَشْرَبُ بِهَا سَيِّدِي وَيَتَفَاءَلُ بِٱلْغَيْبِ ؟
لَشَدَّ مَا أَسَأْتُمْ فِي مَا صَنَعْتُمْ » .

العثور على الكأس في عدل بنيامين

٦فَلَمَّا أَدْرَكَهُمْ خَاطَبَهُمْ بِهَذَا ٱلْقَوْلِ ،

فأجابوه : ٧« لماذا يتكلم سيدي بمثل هذا
الكلام ؟ حاشا لعبيدك أن يرتكبوا هذا
الأمر . ٨هوذا الفضة التي عثرنا عليها في
أفواه عدالنا رددناها لك معنا من أرض
كنعان ، فكيف نسرق فضة أو ذهبا من
بيت سيدك ؟ ٩من نجد معه الكأس من
عبيدك يمت ، ونكن نحن أيضا عبيدا
لسيدي » . ١٠فقال : « فليكن كما
تقولون . فالذي أجدها معه يصبح عبدا
لي ، والباقون يكونون أبرياء » . ١١فبادر
كل منهم إلى عدله وحطه على الأرض
وفتحه ، ١٢ففتش مبتدئا من عدل الكبير
حتى انتهى إلى عدل الصغير ، فعثر على
الكأس في عدل بنيامين . ١٣فمزقوا ثيابهم
وحمل كل منهم عدله على حماره ورجعوا
إلى المدينة .

إخوة يوسف يسجدون له

١٤ودخل يهوذا وإخوته إلى بيت
يوسف إذ كان ما برح هناك ، فارتموا أمامه
إلى الأرض . ١٥فقال لهم يوسف : « أي
جناية ارتكبتم ؟ ألا علمتم أن رجلا مثلي
يستخدم كأسه في معرفة الغيب ؟ »
١٦فقال يهوذا : « ماذا نقول لسيدي ،
وبماذا نخاطبه ، وكيف نبرئ أنفسنا ؟ إن
الله قد فضح إثم عبيدك . فنحن ومن عثر
معه على الكأس عبيد لسيدي » .
١٧فقال : « حاشا لي أن أفعل هذا ؛ إنما
الرجل الذي عثر معه على الكأس هو يكون
لي عبدا ، أما أنتم فامضوا إلى أبيكم
بأمان » .

يهوذا يتشفع لبنيامين

١٨فتقدم منه يهوذا وقال :
« يا سيدي ، دع عبدك ينطق بكلمة في
مسمع سيدي ، ولا يحتدم غضبك على
عبدك ، لأن سلطتك مماثلة لسلطة
فرعون . ١٩لقد سأل سيدي عبيده : ألكم
أب أو أخ ؟ ٢٠فأجبنا سيدي : لنا أب
شيخ ، وابن شيخوخة صغير مات أخوه
الشقيق وبقي هو وحده من أمه ، وأبوه
يحبه . ٢١فقلت لعبيدك : أحضروه إلي
لأراه بعيني . ٢٢فقلنا لسيدي : لا يقدر
الغلام أن يترك أباه لئلا يموت أبوه إذا فارقه .
٢٣فقلت لعبيدك : ما لم تحضروا أخاكم إلي
لا ترون وجهي بعد . ٢٤فعندما قدمنا على
عبدك أبي ، أخبرناه بحديث سيدي .
٢٥فقال أبونا : ارجعوا واشتروا لنا بعض
الطعام . ٢٦فأجبنا : لا يمكننا أن نذهب
إلى هناك ما لم نأخذ أخانا معنا ، لأننا لا نقدر
أن نقابل الرجل ما لم يكن أخونا الصغير
معنا . ٢٧فقال لنا عبدك أبونا : أنتم تعلمون
أن زوجتي قد أنجبت لي ابنين ، ٢٨فقدت
أحدهما وقلت : إنما هو قد افترس افتراسا .
ولم أره إلى الآن . ٢٩فإن أخذتم هذا مني ،
ولحقه مكروه ، تنزلوني إلى القبر بشيبة
شقية . ٣٠فإذا عدت إلى عبدك أبي الذي
تعلقت نفسه بنفس الغلام ، ولم يكن الغلام

مَعَنَا، ٣١ وَرَأَى أَنَّ ٱلْغُلَامَ مَفْقُودٌ، فَإِنَّهُ
يَمُوتُ، وَيُوَارِي عَبِيدُكَ شَيْبَةَ عَبْدِكَ أَبِيهِمْ
بِشَقَاءٍ فِي ٱلْقَبْرِ. ٣٢ لِأَنَّ عَبْدَكَ ضَمِنَ ٱلْغُلَامَ
لِأَبِي، وَقُلْتُ: إِنْ لَمْ أُرْجِعْهُ إِلَيْكَ أَكُنْ مُذْنِبًا
إِلَيْكَ مَدَى ٱلْحَيَاةِ. ٣٣ فَأَرْجُو مِنْ سَيِّدِي أَنْ
يَتَّخِذَنِي عَبْدًا لَهُ بَدَلًا مِنَ ٱلْغُلَامِ، وَدَعِ
ٱلْغُلَامَ يَمْضِي مَعَ بَقِيَّةِ إِخْوَتِهِ، ٣٤ إِذْ كَيْفَ
يُمْكِنُنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَى أَبِي وَٱلْغُلَامُ لَيْسَ مَعِي
وَأَشْهَدَ مَا يَحِلُّ بِهِ مِنَ ٱلشَّرِّ؟».

يوسف يكشف عن نفسه

٤٥ فَلَمْ يَسْتَطِعْ يُوسُفُ أَنْ يَتَمَالَكَ
نَفْسَهُ أَمَامَ ٱلْمَاثِلِينَ
أَمَامَهُ، فَصَرَخَ: «لِيَخْرُجِ ٱلْجَمِيعُ مِنْ
هُنَا». فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مَعَ يُوسُفَ حِينَ كَشَفَ
عَنْ نَفْسِهِ لِإِخْوَتِهِ. ٢ وَبَكَى بِصَوْتٍ عَالٍ
فَسَمِعَ ٱلْمِصْرِيُّونَ كَمَا سَمِعَ بَيْتُ فِرْعَوْنَ.
٣ وَقَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: «أَنَا يُوسُفُ. فَهَلْ
أَبِي مَازَالَ حَيًّا؟» فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِخْوَتُهُ أَنْ
يُجِيبُوهُ لِأَنَّهُمُ ٱمْتَلَأُوا رُعْبًا مِنْهُ.
٤ فَقَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: «ٱدْنُوا مِنِّي».
فَٱقْتَرَبُوا مِنْهُ، فَقَالَ: «أَنَا يُوسُفُ أَخُوكُمُ
ٱلَّذِي بِعْتُمُوهُ إِلَى مِصْرَ. ٥ فَلَا تَتَأَسَّفُوا
ٱلْآنَ، وَلَا يَصْعُبْ عَلَيْكُمْ أَنَّكُمْ بِعْتُمُونِي إِلَى
هُنَا، لِأَنَّ ٱللهَ أَرْسَلَنِي أَمَامَكُمْ حِفَاظًا عَلَى
حَيَاتِكُمْ. ٦ فَقَدْ صَارَ لِلْمَجَاعَةِ فِي هَذِهِ
ٱلْأَرْضِ سَنَتَانِ، وَبَقِيَتْ خَمْسُ سَنَوَاتٍ لَنْ
يَكُونَ فِيهَا فِلَاحَةٌ وَلَا حَصَادٌ. ٧ وَقَدْ أَرْسَلَنِي
ٱللهُ أَمَامَكُمْ لِيَجْعَلَ لَكُمْ بَقِيَّةً فِي ٱلْأَرْضِ
وَيُنْقِذَ حَيَاتَكُمْ بِخَلَاصٍ عَظِيمٍ. ٨ فَلَسْتُمْ إِذًا
أَنْتُمُ ٱلَّذِينَ أَرْسَلْتُمُونِي إِلَى هُنَا بَلِ ٱللهُ، ٱلَّذِي
جَعَلَنِي مُسْتَشَارًا لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّدًا لِكُلِّ بَيْتِهِ،
وَمُتَسَلِّطًا عَلَى جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ.
٩ فَأَسْرِعُوا وَٱرْجِعُوا إِلَى أَبِي وَقُولُوا لَهُ: ٱبْنُكَ
يُوسُفُ يَقُولُ: لَقَدْ أَقَامَنِي ٱللهُ سَيِّدًا عَلَى كُلِّ
مِصْرَ. تَعَالَ وَلَا تَتَبَاطَأْ. ١٠ فَتُقِيمَ فِي أَرْضِ
جَاسَانَ لِتَكُونَ قَرِيبًا مِنِّي أَنْتَ وَبَنُوكَ
وَأَحْفَادُكَ وَغَنَمُكَ وَبَقَرُكَ وَكُلُّ مَا لَكَ.
١١ وَأَعُولُكَ هُنَاكَ لِأَنَّ ٱلْجُوعَ سَيَسْتَمِرُّ
خَمْسَ سَنَوَاتٍ أُخْرَى، فَلَا تَحْتَاجُ أَنْتَ
وَعَائِلَتُكَ وَبَهَائِمُكَ. ١٢ وَهَا أَنْتُمْ وَأَخِي
بِنْيَامِينُ شُهُودٌ أَنِّي أَنَا حَقًّا ٱلَّذِي يُخَاطِبُكُمْ.
١٣ وَتُحَدِّثُونَ أَبِي عَنْ كُلِّ مَجْدِي فِي مِصْرَ
وَعَمَّا شَهِدْتُمُوهُ. وَتُسْرِعُونَ فِي إِحْضَارِ أَبِي
إِلَى هُنَا».
١٤ ثُمَّ تَعَانَقَ يُوسُفُ وَبِنْيَامِينُ وَبَكَيَا
١٥ وَقَبَّلَ يُوسُفُ بَاقِي إِخْوَتِهِ وَبَكَى مَعَهُمْ.
وَعِنْدَئِذٍ فَقَطْ تَجَرَّأَ إِخْوَتُهُ عَلَى مُخَاطَبَتِهِ.
١٦ وَسَرَى ٱلْخَبَرُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ وَقِيلَ قَدْ
جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ، فَسَرَّ ذَلِكَ فِرْعَوْنَ،
وَعَبِيدَهُ أَيْضًا. ١٧ وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ:
«ٱطْلُبْ مِنْ إِخْوَتِكَ أَنْ يُحَمِّلُوا دَوَابَّهُمْ
بِٱلْقَمْحِ وَيَرْجِعُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ،
١٨ لِيُحْضِرُوا أَبَاهُمْ وَأُسَرَهُمْ وَيَجِيئُوا إِلَيَّ،
فَأُعْطِيَهُمْ أَفْضَلَ أَرْضِ مِصْرَ لِيَتَمَتَّعُوا
بِخَيْرَاتِهَا. ١٩ وَقَدْ صَدَرَ أَمْرٌ إِلَيْكَ أَنْ يَأْخُذُوا
لَهُمْ عَرَبَاتٍ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لِيَنْقُلُوا عَلَيْهَا
أَوْلَادَهُمْ وَزَوْجَاتِهِمْ وَأَبَاهُمْ وَيَحْضُرُوا إِلَى

هُنَا. ٢٠لا تَكتَرِثوا لِمَا تُخلِّفونَهُ مِنْ مَتاعٍ، فَخَيراتُ أرضِ مِصرَ كُلِّها هيَ لَهُم».

الرجوع إلى أرض كنعان

٢١ففَعَلَ بَنو إسرائيلَ هكذا، وأعطاهُم يوسُفُ عَرَباتٍ حسَبَ أمرِ فِرعَونَ ومَؤونَةً للطَّريقِ. ٢٢وأعطى كُلَّ واحِدٍ مِنهُم حُلَلَ ثيابٍ. أمَّا بنيامينُ فخَصَّهُ بثَلاثِ مِئَةِ قِطعَةٍ مِنَ الفِضَّةِ وخَمسِ حُلَلِ ثيابٍ. ٢٣وأرسَلَ إلى أبيهِ عَشرَةَ حَميرٍ مُحمَّلَةٍ بأفضَلِ خَيراتِ مِصرَ وعَشرَ أُتُنٍ مُثقَلَةٍ بالحِنطَةِ وخُبزًا وطَعامًا يَقتاتُ مِنها في الطَّريقِ. ٢٤وهكذا صرَفَ إخوَتَهُ بَعدَ أنْ أوصاهُم: «لا تتَخاصَموا في الطَّريقِ».

٢٥وانطَلَقوا مِنْ مِصرَ حتى أقبَلوا إلى أرضِ كنعانَ إلى أبيهِم يَعقوبَ. ٢٦فقالوا لَهُ: «إنَّ يوسُفَ ما زالَ حيًّا، وهوَ المُتَسلِّطُ على كُلِّ أرضِ مِصرَ». فغُشِيَ على قلبِ يَعقوبَ لأنَّهُ لم يُصَدِّقْهُم. ٢٧ثُمَّ حدَّثوهُ بكلامِ يوسُفَ. وعِندَما عايَنَ يَعقوبُ العَرَباتِ التي أرسَلَها يوسُفُ لِتَنقُلَهُ، انتَعَشَت روحُهُ، ٢٨وقالَ: «كفى! يوسُفُ ابني حيٌّ بَعدُ، سأذهَبُ لأراهُ قبلَ أنْ أموتَ».

يعقوب يرتحل إلى مصر

٤٦ ١وارتَحَلَ إسرائيلُ وكُلُّ ما لَهُ حتى وصَلَ إلى بِئرِ سَبعٍ، فقَدَّمَ ذَبائحَ إلى إلهِ أبيهِ إسحَقَ. ٢وقالَ اللهُ لإسرائيلَ في رُؤى اللَّيلِ: «يَعقوبُ، يَعقوبُ». فأجابَ: «ها أنا». ٣فقالَ: «أنا هوَ اللهُ، إلهُ أبيكَ. لا تَخَفْ مِنَ الذَّهابِ إلى مِصرَ لأنِّي أجعَلُكَ أُمَّةً عَظيمَةً هُناكَ. ٤أنا أصحَبُكَ إلى مِصرَ، وأنا أُرجِعُكَ أيضًا، ويُغمِضُ يوسُفُ أجفانَكَ بِيَدَيهِ عِندَ مَوتِكَ».

٥فانطَلَقَ يَعقوبُ مِنْ بِئرِ سَبعٍ. وحمَلَ بَنو إسرائيلَ يَعقوبَ أباهُم وأولادَهُم وزَوجاتِهِم في العَرَباتِ التي أرسَلَها فِرعَونُ لِنَقلِهِ. ٦وأخَذوا معَهُم مَواشيَهُم ومُقتَنَياتِهِمِ التي اقتَنَوها في أرضِ كنعانَ وجاؤوا جميعًا إلى مِصرَ، ٧فقَد صَحِبَ يَعقوبُ معَهُ إلى مِصرَ أبناءَهُ وأحفادَهُ مِنْ بَنينَ وبَناتٍ، وسائرَ ذُرِّيَّتِهِ.

ذرية يعقوب

٨وهذِهِ أسماءُ أبناءِ إسرائيلَ الذينَ قَدِموا معَهُ إلى مِصرَ. يَعقوبُ وأبناؤُهُ: رَأوبَينُ بِكرُ يَعقوبَ. ٩وأبناءُ رَأوبَينَ: حَنوكُ وفَلُّو وحَصرونُ وكَرمي. ١٠وأبناءُ شِمعونَ: يَموئيلُ ويامينُ وأوهَدُ وياكينُ وصوحَرُ وشاؤولُ ابنُ الكَنعانيَّةِ. ١١وأبناءُ لاوي: جِرشونُ وقَهاتُ ومَراري. ١٢وأبناءُ يَهوذا: عيرُ وأونانُ وشيلَةُ وفارَصُ وزارَحُ. وماتَ عيرُ وأونانُ في أرضِ كنعانَ. وأمَّا ابنا فارَصَ فهُما حَصرونُ وحامولُ. ١٣وأبناءُ يسّاكَرَ: تولاعُ وفُوَّةُ ويوبُ وشِمرونُ. ١٤وأبناءُ زَبولونَ: سارَدُ وإيلونُ وياحلئيلُ. ١٥هؤلاءِ

جميعهم أبناء ليئة الذين أنجبتهم ليعقوب في
سهل أرام، فضلا عن ابنته دينة. فكان
مجموع عدد بنيه وبناته وأحفاده من ليئة
ثلاثة وثلاثين.
[16] وأبناء جاد صفيون وحجي وشوني
وأصبون وعيري وأرودي وأرئيلي. [17] وأبناء
أشير: يمنة ويشوة ويشوي وبريعة وأختهم
سارح. أما ابنا بريعة فهما حابر وملكيئيل.
[18] هؤلاء هم بنو زلفة جارية ليئة التي وهبها
إياها لابان. فكان عدد ذريتها التي أنجبتها
ليعقوب ست عشرة نفسا.
[19] أما ابنا راحيل زوجة يعقوب فهما
يوسف وبنيامين. [20] وولد ليوسف في أرض
مصر منسى وأفرايم اللذان أنجبتهما له أسنات
ابنة فوطي فارع كاهن أون. [21] وأبناء
بنيامين بالع وباكر وأشبيل وجيرا ونعمان
وإيحي وروش ومفيم وحفيم وأرد. [22] هؤلاء
ذرية راحيل الذين ولدوا ليعقوب. وعددهم
جميعا أربعة عشر شخصا.
[23] وابن دان هو حوشيم. [24] وأبناء
نفتالي: ياحصئيل وجوني ويصر وشليم.
[25] هؤلاء بنو يعقوب الذين أنجبتهم له بلهة
جارية راحيل التي أعطاها إياها أبوها لابان،
وعددهم جميعا سبعة أشخاص.
[26] فكان عدد جميع الأشخاص
الخارجين من صلب يعقوب، ممن وفدوا
إلى مصر، ستة وستين شخصا ما عدا
زوجات أبنائه. [27] وابنا يوسف اللذان ولدا
له في مصر هما شخصان. فيكون عدد
نفوس بيت يعقوب التي قدمت إلى مصر
سبعين نفسا.

الاستيطان في مصر

[28] وأرسل يعقوب يهوذا أمامه إلى يوسف
ليدله على الطريق المؤدية إلى جاسان.
[29] فأعد يوسف مركبته وصعد للقاء أبيه
إسرائيل في جاسان. وما إن أقبل عليه حتى
عانقه يوسف وبكى زمانا طويلا. [30] وقال
إسرائيل ليوسف: «دعني أموت الآن إذ قد
أبصرت وجهك ورأيت أنك مازلت حيا».
[31] وخاطب يوسف إخوته وبيت أبيه:
«أنا ماض الآن إلى فرعون لأخبره أن إخوتي
وبيت أبي المقيمين في أرض كنعان قد قدموا
إلي. [32] وهم رعاة غنم، وحرفتهم رعاية
المواشي، لذلك أحضروا معهم غنمهم
وبقرهم وكل ما لهم. [33] فإذا دعاكم
وسألكم: ما حرفتكم؟ [34] قولوا: حرفتنا
رعاية المواشي منذ صبانا إلى الآن، كذلك
نحن وهكذا كان آباؤنا جميعا. لكي تقيموا
في أرض جاسان؛ لأن كل راعي غنم
نجس لدى المصريين».

لقاء إخوة يوسف بفرعون

٤٧

ومثل يوسف أمام فرعون وقال
له: «لقد جاء أبي
وإخوتي مع قطعانهم ومواشيهم وكل ما لهم
من أرض كنعان، وها هم الآن في أرض
جاسان». [2] وأخذ خمسة من إخوته

وَقَدَّمَهُمْ إِلَى فِرْعَوْنَ. ٣فَسَأَلَهُمْ فِرْعَوْنُ:
«مَا هِيَ حِرْفَتُكُمْ؟» فَأَجَابُوهُ: «عَبِيدُكَ
وَآبَاؤُهُمْ رُعَاةُ غَنَمٍ. ٤وَلَقَدْ جِئْنَا لِنَتَغَرَّبَ فِي
الأَرْضِ إِذْ لَيْسَ لِغَنَمِ عَبِيدِكَ مَرْعًى مِنْ جَرَّاءِ
وَطْأَةِ الْجُوعِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، فَدَعْ عَبِيدَكَ
يُقِيمُونَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ».

لقاء يعقوب بفرعون

٥فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «لَقَدْ جَاءَ إِلَيْكَ
أَبُوكَ وَإِخْوَتُكَ، ٦وَأَرْضُ مِصْرَ أَمَامَكَ،
فَأَنْزِلْ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ فِي أَفْضَلِ الأَرْضِ.
دَعْهُمْ يُقِيمُونَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَإِنْ كُنْتَ
تَعْرِفُ أَنَّ بَيْنَهُمْ ذَوِي خِبْرَةٍ فَأَعْهَدْ إِلَيْهِمْ فِي
الإِشْرَافِ عَلَى مَوَاشِيَّ».
٧ثُمَّ أَحْضَرَ يُوسُفُ أَبَاهُ يَعْقُوبَ وَأَوْقَفَهُ
أَمَامَ فِرْعَوْنَ، فَبَارَكَ يَعْقُوبُ فِرْعَوْنَ.
٨وَسَأَلَ فِرْعَوْنُ يَعْقُوبَ: «كَمْ هُوَ
عُمْرُكَ؟» ٩فَأَجَابَ يَعْقُوبُ فِرْعَوْنَ:
«سَنَوَاتُ غُرْبَتِي مِئَةٌ وَثَلاثُونَ سَنَةً، قَلِيلَةٌ
وَشَاقَّةٌ، وَلَمْ تَبْلُغْ سِنِي غُرْبَةِ آبَائِي». ١٠ثُمَّ
بَارَكَ يَعْقُوبُ فِرْعَوْنَ وَخَرَجَ مِنْ لَدَيْهِ.
١١وَأَنْزَلَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ فِي مِصْرَ
وَمَلَّكَهُمْ فِي رَعَمْسِيسَ أَخْصَبَ الأَرْضِ كَمَا
أَمَرَ فِرْعَوْنُ. ١٢وَأَمَدَّ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ
وَأَهْلَ بَيْتِ أَبِيهِ بِالطَّعَامِ عَلَى حَسَبِ عِيَالِهِمْ.

سياسة يوسف الزراعية

١٣وَنَفِدَ الْخُبْزُ فِي جَمِيعِ الْبِلادِ لِشِدَّةِ
الْمَجَاعَةِ، وَأَقْحَلَتْ أَرْضُ مِصْرَ وَأَرْضُ
كَنْعَانَ مِنَ الْجُوعِ. ١٤فَقَايَضَ يُوسُفُ
الْقَمْحَ الَّذِي بِيعَ بِكُلِّ الْفِضَّةِ الْمَوْجُودَةِ فِي
أَرْضِ مِصْرَ وَفِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَحَمَلَهَا إِلَى
خَزِينَةِ فِرْعَوْنَ. ١٥وَعِنْدَمَا نَفِدَتِ الْفِضَّةُ مِنْ
أَرْضِ مِصْرَ وَمِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ أَقْبَلَ جَمِيعُ
الْمِصْرِيِّينَ إِلَى يُوسُفَ قَائِلِينَ: «أَعْطِنَا
خُبْزًا، فَلِمَاذَا نَمُوتُ أَمَامَ عَيْنَيْكَ؟ إِنَّ فِضَّتَنَا
قَدْ نَفِدَتْ». ١٦فَأَجَابَهُمْ: «إِنْ نَفِدَتْ
فِضَّتُكُمْ، فَهَاتُوا مَوَاشِيَكُمْ أُقَايِضُكُمْ بِهَا
طَعَامًا». ١٧فَأَتَوْا بِمَوَاشِيهِمْ، فَقَايَضَهُمْ
يُوسُفُ خُبْزًا بِالْخَيْلِ وَمَوَاشِي الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ
وَالْحَمِيرِ. وَهَكَذَا قَايَضَ جَمِيعَ مَوَاشِيهِمْ
بِالْخُبْزِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ.
١٨وَعِنْدَمَا انْقَضَتْ تِلْكَ السَّنَةُ، أَقْبَلُوا
إِلَيْهِ فِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ قَائِلِينَ: «لا نُخْفِي عَنْ
سَيِّدِي أَنَّ فِضَّتَنَا قَدْ نَفِدَتْ، وَأَنَّ مَوَاشِيَ
الْبَهَائِمِ قَدْ أَصْبَحَتْ عِنْدَ سَيِّدِي، وَلَمْ يَبْقَ
أَمَامَهُ إِلَّا أَبْدَانُنَا وَأَرَاضِينَا. ١٩فَلِمَاذَا نَمُوتُ
نَحْنُ، وَأَرْضُنَا أَمَامَ عَيْنَيْكَ؟ اشْتَرِنَا نَحْنُ
وَأَرْضَنَا لِقَاءَ الْخُبْزِ فَنُصْبِحَ نَحْنُ وَأَرَاضِينَا
عَبِيدًا لِفِرْعَوْنَ. وَأَعْطِنَا بُذُورًا لِنَزْرَعَهَا فَنَحْيَا
وَلا نَمُوتَ وَلا تَصِيرَ أَرَاضِينَا مُقْفِرَةً».
٢٠وَهَكَذَا اشْتَرَى يُوسُفُ لِفِرْعَوْنَ كُلَّ
أَرْضِ مِصْرَ، لأَنَّ جَمِيعَ الْمِصْرِيِّينَ بَاعُوا
حُقُولَهُمْ مِنْ جَرَّاءِ الْمَجَاعَةِ الَّتِي أَلَمَّتْ بِهِمْ،
وَصَارَتْ كُلُّ الأَرْضِ مِلْكًا لِفِرْعَوْنَ. ٢١أَمَّا
الشَّعْبُ فَقَدْ نَقَلَهُمْ إِلَى الْمُدُنِ مِنْ أَقْصَى
حُدُودِ مِصْرَ إِلَى أَقْصَاهَا. ٢٢إِلَّا أَنَّ أَرْضَ
الْكَهَنَةِ لَمْ يَشْتَرِهَا، إِذْ كَانَ لِلْكَهَنَةِ

مُخَصَّصَاتٍ مُعَيَّنَةٍ أَجْرَاهَا عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ ،
فَكَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْهَا ، فَلَمْ يَبِيعُوا أَرْضَهُمْ .
٢٣ثُمَّ قَالَ يُوسُفُ لِلشَّعْبِ : « هَا قَدِ
ٱشْتَرَيْتُكُمُ ٱلْيَوْمَ أَنْتُمْ وَأَرْضَكُمْ فَصِرْتُمْ مِلْكًا
لِفِرْعَوْنَ ، فَإِلَيْكُمُ ٱلْبِذَارَ لِتَزْرَعُوا ٱلْأَرْضَ .
٢٤وَيَكُونُ فِي مَوْسِمِ ٱلْحَصَادِ أَنَّكُمْ تُقَدِّمُونَ
لِفِرْعَوْنَ خُمْسَ ٱلْغَلَّةِ وَتَحْتَفِظُونَ لَكُمْ
بِٱلْأَرْبَعَةِ ٱلْأَخْمَاسِ لِتَكُونَ بِذَارًا لِلْحَقْلِ
وَطَعَامًا لَكُمْ وَلِمَنْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلِأَوْلَادِكُمْ » .
٢٥فَأَجَابُوا : « لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَيَاتَنَا ، فَيَا لَيْتَنَا
نَحْظَى بِرِضَى سَيِّدِنَا فَنَكُونَ عَبِيدًا لِفِرْعَوْنَ »
٢٦وَمِنْ ذَلِكَ ٱلْحِينِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا جَعَلَ
يُوسُفُ فَرِيضَةَ ٱلْخُمْسِ هَذِهِ ضَرِيبَةً عَلَى كُلِّ
أَرْضِ مِصْرَ ، تُجْبَى لِفِرْعَوْنَ ، بِٱسْتِثْنَاءِ أَرْضِ
ٱلْكَهَنَةِ ٱلَّتِي لَمْ تُصْبِحْ مِلْكًا لِفِرْعَوْنَ .

وعد يوسف ليعقوب

٢٧وَأَقَامَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ فِي أَرْضِ
جَاسَانَ . وَٱقْتَنَوْا فِيهَا أَمْلَاكًا وَأَثْمَرُوا
وَتَكَاثَرُوا . ٢٨وَعَاشَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ مِصْرَ
سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّى بَلَغَ مِنَ ٱلْعُمْرِ مِئَةً وَسَبْعَةً
وَأَرْبَعِينَ عَامًا . ٢٩وَعِنْدَمَا قَرُبَ يَوْمُ وَفَاتِهِ ،
ٱسْتَدْعَى ٱبْنَهُ يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ : « إِنْ كُنْتُ قَدْ
حَظِيتُ بِرِضَاكَ ، فَضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخْذِي ،
وَأَسْدِ لِي مَعْرُوفًا وَأَمَانَةً : لَا تَدْفِنِّي فِي مِصْرَ
٣٠بَلْ دَعْنِي أَضْطَجِعُ إِلَى جِوَارِ آبَائِي . ٱنْقُلْنِي
مِنْ مِصْرَ وَوَارِنِي فِي مَدْفَنِهِمْ » ، فَقَالَ : « أَنَا
أَفْعَلُ حَسَبَ قَوْلِكَ » . ٣١فَقَالَ يَعْقُوبُ :
« ٱحْلِفْ لِي » . فَحَلَفَ لَهُ ، فَسَجَدَ يَعْقُوبُ
(شَاكِرًا) عَلَى رَأْسِ ٱلسَّرِيرِ .

يعقوب يبارك ابني يوسف

٤٨ ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ قِيلَ لِيُوسُفَ :
« أَبُوكَ مَرِيضٌ » فَٱصْطَحَبَ
مَعَهُ ٱبْنَيْهِ مَنَسَّى وَأَفْرَايِمَ . ٢وَقِيلَ لِيَعْقُوبَ :
« ٱبْنُكَ يُوسُفُ قَادِمٌ إِلَيْكَ » . فَٱسْتَجْمَعَ قُوَاهُ
وَجَلَسَ عَلَى ٱلسَّرِيرِ .
٣وَقَالَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ : « تَجَلَّى ٱللهُ
ٱلْقَدِيرُ لِي فِي لُوزَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ وَبَارَكَنِي ،
٤وَقَالَ لِي : هَا أَنَا أَجْعَلُكَ مُثْمِرًا ، وَأُكَثِّرُكَ
وَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِكَ جُمْهُورُ شُعُوبٍ وَأَهَبُ
ذُرِّيَّتَكَ هَذِهِ ٱلْأَرْضَ مِلْكًا أَبَدِيًّا . ٥وَٱلْآنَ ،
إِنَّ ٱبْنَيْكَ أَفْرَايِمَ وَمَنَسَّى ٱللَّذَيْنِ أَنْجَبْتَهُمَا فِي
مِصْرَ قَبْلَ مَجِيئِي إِلَيْكَ هُنَا هُمَا لِي يَرِثَانِنِي
كَرَأُوبَيْنَ وَشِمْعُونَ . ٦وَأَمَّا أَوْلَادُكَ ٱلَّذِينَ
تُنْجِبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَيَكُونُونَ لَكَ ، وَمَا
يَرِثُونَهُ يَكُونُ تَحْتَ ٱسْمِ أَخَوَيْهِمْ . ٧لِأَنَّنِي
فِيمَا كُنْتُ رَاجِعًا مِنْ سَهْلِ آرَامَ ، مَاتَتْ
رَاحِيلُ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ فِي ٱلطَّرِيقِ عَلَى مَقْرُبَةٍ
مِنْ أَفْرَاتَةَ ، فَدَفَنْتُهَا فِي ٱلطَّرِيقِ ٱلْمُؤَدِّيَةِ إِلَى
أَفْرَاتَةَ ، ٱلَّتِي هِيَ بَيْتُ لَحْمٍ » .
٨وَأَبْصَرَ إِسْرَائِيلُ ٱبْنَيْ يُوسُفَ فَسَأَلَ :
« مَنْ هَذَانِ ؟ » ٩فَأَجَابَهُ يُوسُفُ : « هُمَا
ٱبْنَايَ ٱللَّذَانِ رَزَقَنِي إِيَّاهُمَا ٱللهُ هُنَا » . فَقَالَ :
« أَدْنِهِمَا مِنِّي فَأُبَارِكَهُمَا » . ١٠وَكَانَتْ عَيْنَا
إِسْرَائِيلَ قَدْ كَلَّتَا مِنَ ٱلشَّيْخُوخَةِ ، فَلَمْ يَكُنْ
قَادِرًا عَلَى ٱلنَّظَرِ ، فَقَرَّبَهُمَا إِلَيْهِ فَقَبَّلَهُمَا
وَٱحْتَضَنَهُمَا ١١وَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ : « مَا

كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي أُبْصِرُ وَجْهَكَ ، وَهُوَذَا ٱللهُ قَدْ
أَرَانِي ذُرِّيَّتَكَ أَيْضًا » . ١٢ثُمَّ أَبْعَدَهُمَا يُوسُفُ
عَنْ حِضْنِ أَبِيهِ وَسَجَدَ فِي حَضْرَتِهِ إِلَى
ٱلأَرْضِ .
١٣وَأَخَذَ يُوسُفُ أَفْرَايِمَ بِيَمِينِهِ وَأَوْقَفَهُ إِلَى
يَسَارِ إِسْرَائِيلَ ، وَأَخَذَ مَنَسَّى بِيَسَارِهِ وَأَوْقَفَهُ
إِلَى يَمِينِهِ ، ١٤فَمَدَّ إِسْرَائِيلُ يَمِينَهُ ، مُتَعَمِّدًا ،
وَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِ أَفْرَايِمَ وَهُوَ ٱلصَّغِيرُ ،
وَيَسَارَهُ عَلَى رَأْسِ مَنَسَّى مَعَ أَنَّهُ ٱلْبِكْرُ .
١٥وَبَارَكَ يُوسُفَ قَائِلًا : « إِنَّ ٱللهَ ٱلَّذِي
سَلَكَ أَمَامَهُ أَبَوَايَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْحٰقُ ، ٱللهَ
ٱلَّذِي رَعَانِي مُنْذُ وُجُودِي إِلَى هٰذَا ٱلْيَوْمِ ،
١٦ٱلْمَلَاكَ ٱلَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ ، يُبَارِكُ
ٱلْغُلَامَيْنِ ، وَلْيُدْعَ عَلَيْهِمَا ٱسْمِي وَٱسْمَا أَبَوَيَّ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ ، وَلْيَكْثُرَا كَثِيرًا فِي
ٱلأَرْضِ » .
١٧وَعِنْدَمَا رَأَى يُوسُفُ أَنَّ أَبَاهُ قَدْ وَضَعَ
يَدَهُ ٱلْيُمْنَى عَلَى رَأْسِ أَفْرَايِمَ سَاءَهُ ذٰلِكَ ،
فَأَمْسَكَ بِيَدِ أَبِيهِ لِيَنْقُلَهَا مِنْ رَأْسِ أَفْرَايِمَ إِلَى
رَأْسِ مَنَسَّى . ١٨وَقَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ : « لَيْسَ
هٰكَذَا يَا أَبِي . فَهٰذَا هُوَ ٱلْبِكْرُ ، ضَعْ يَمِينَكَ
عَلَى رَأْسِهِ » . ١٩فَأَبَى أَبُوهُ وَقَالَ : « أَنَا
أَعْرِفُ هٰذَا يَا ٱبْنِي ، أَنَا أَعْرِفُ هٰذَا ، فَإِنَّهُ
أَيْضًا يُصْبِحُ أُمَّةً عَظِيمَةً ، وَلٰكِنَّ أَخَاهُ ٱلصَّغِيرَ
يُصْبِحُ أَكْبَرَ مِنْهُ ، وَذُرِّيَّتُهُ تَصِيرُ جُمْهُورًا مِنَ
ٱلأُمَمِ » . ٢٠وَبَارَكَهُمَا فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ
قَائِلًا : « بِكَ يُبَارِكُ بَنُو إِسْرَائِيلَ قَائِلِينَ :
« لِيَجْعَلْكَ ٱللهُ مِثْلَ أَفْرَايِمَ وَمِثْلَ مَنَسَّى » .
وَهٰكَذَا قَدَّمَ أَفْرَايِمَ عَلَى مَنَسَّى .
٢١ثُمَّ قَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ : « إِنَّنِي
مُشْرِفٌ عَلَى ٱلْمَوْتِ وَلٰكِنَّ ٱللهَ سَيَكُونُ
مَعَكُمْ وَيَرُدُّكُمْ إِلَى أَرْضِ آبَائِكُمْ . ٢٢وَهَا أَنَا
قَدْ وَهَبْتُ لَكَ مِنَ ٱلأَرْضِ سَهْمًا وَاحِدًا عَلَاوَةً
عَلَى إِخْوَتِكَ ، أَخَذْتُهُ مِنَ ٱلأَمُورِيِّينَ بِسَيْفِي
وَقَوْسِي » .

يعقوب يبارك أبناءه

٤٩ ثُمَّ ٱسْتَدْعَى يَعْقُوبُ أَبْنَاءَهُ
وَقَالَ : « ٱلْتَفُّوا حَوْلِي لِأُنْبِئَكُمْ
بِمَا سَيَحْدُثُ لَكُمْ فِي ٱلأَيَّامِ ٱلْمُقْبِلَةِ .
٢ٱجْتَمِعُوا وَٱسْمَعُوا يَا أَبْنَاءَ يَعْقُوبَ ،
وَٱصْغَوْا إِلَى إِسْرَائِيلَ أَبِيكُمْ . ٣رَأُوبَيْنُ أَنْتَ
بِكْرِي وَقُوَّتِي وَأَوَّلُ مَظْهَرِ رُجُولَتِي ، فَضْلُ
ٱلرِّفْعَةِ وَفَضْلُ ٱلْعِزِّ ٤لَكِنَّكَ فَائِرٌ كَٱلْمَاءِ لِذٰلِكَ
لَنْ تَظَلَّ مُتَفَوِّقًا ، لِأَنَّكَ ٱضْطَجَعْتَ فِي فِرَاشِ
أَبِيكَ . صَعِدْتَ عَلَى سَرِيرِي فَدَنَّسْتَهُ .
٥شِمْعُونُ وَلَاوِي أَخَوَانِ سُيُوفُهُمَا آلَاتُ
ظُلْمٍ . ٦فَيَا نَفْسِي لَا تَدْخُلِي فِي
مَجْلِسِهِمَا ، وَيَا رُوحِي لَا تَنْضَمِّي إِلَى
مُجْتَمَعِهِمَا . ٧لِأَنَّهُمَا فِي غَضَبِهِمَا ٱغْتَالَا
إِنْسَانًا ، وَفِي غَيْظِهِمَا عَرْقَبَا ثَوْرًا . مَلْعُونٌ
سَخَطُهُمَا لِأَنَّهُ عَنِيفٌ وَغَضَبُهُمَا لِأَنَّهُ صَارِمٌ
أُفَرِّقُهُمَا فِي يَعْقُوبَ وَأُشَتِّتُهُمَا فِي إِسْرَائِيلَ
٨يَهُوذَا ، إِيَّاكَ يَحْمَدُ إِخْوَتُكَ ، وَتَكُونُ يَدُكَ
عَلَى عُنُقِ أَعْدَائِكَ ، وَيَسْجُدُ لَكَ بَنُو أَبِيكَ .
٩يَهُوذَا شِبْلُ أَسَدٍ ، عَنْ فَرِيسَةٍ قُمْتَ
يَا ٱبْنِي . ثُمَّ جَثَا وَرَبَضَ كَأَسَدٍ أَوْ كَلَبُوَةٍ ،
فَمَنْ يَجْرُؤُ عَلَى إِثَارَتِهِ ؟ ١٠لَا يَزُولُ صَوْلَجَانُ

ٱلْمُلْكُ مِنْ يَهُوذَا وَلَا مُشْتَرِعٌ مِنْ صُلْبِهِ حَتَّى
يَأْتِيَ شِيلُوهُ (وَمَعْنَاهُ : مَنْ لَهُ ٱلْأَمْرُ) فَتُطِيعُهُ
ٱلشُّعُوبُ . ١١يَرْبِطُ بِٱلْكَرْمَةِ جَحْشَهُ ،
وَبِأَفْضَلِ جَفْنَةٍ ٱبْنَ أَتَانِهِ . بِٱلْخَمْرِ يَغْسِلُ لِبَاسَهُ
وَبِدَمِ ٱلْعِنَبِ ثَوْبَهُ . ١٢تَكُونُ عَيْنَاهُ أَشَدَّ
سَوَادًا مِنَ ٱلْخَمْرِ ، وَأَسْنَانُهُ أَكْثَرَ بَيَاضًا مِنَ
ٱللَّبَنِ . ١٣زَبُولُونُ يَسْكُنُ عِنْدَ سَوَاحِلِ
ٱلْبَحْرِ ، وَيُصْبِحُ مَقَرُّهُ مَرْفَأً لِلسُّفُنِ ، وَتَمْتَدُّ
تُخُومُهُ نَحْوَ صَيْدَا ١٤يَسَّاكَرُ حِمَارٌ قَوِيٌّ
رَابِضٌ بَيْنَ ٱلْحَظَائِرِ . ١٥عِنْدَمَا يَرَى خُصُوبَةَ
مَرْتَعِهِ وَبَهْجَةَ أَرْضِهِ ، تَسْتَكِينُ كَتِفَاهُ
لِلْأَثْقَالِ ، وَيُسْتَعْبَدُ لِلْعَمَلِ ٱلشَّاقِّ . ١٦دَانُ
يَقْضِي لِشَعْبِهِ كَأَحَدِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ . ١٧دَانُ
يَكُونُ ثُعْبَانًا عَلَى جَانِبِ ٱلطَّرِيقِ وَأُفْعُوَانًا عَلَى
ٱلسَّبِيلِ ، يَلْسَعُ عَقِبَيِ ٱلْفَرَسِ فَيَهْوِي رَاكِبُهُ
إِلَى ٱلْوَرَاءِ . ١٨إِنِّي ٱنْتَظَرْتُ خَلَاصَكَ
يَا رَبُّ .

١٩جَادُ يَقْتَحِمُهُ ٱلْغُزَاةُ ، وَلَكِنَّهُ يُطَارِدُ
فُلُولَهُمْ وَيَقْتَحِمُهُمْ . ٢٠طَعَامُ أَشِيرَ دَسِمٌ ،
وَأَطَايِبُهُ صَالِحَةٌ لِمَوَائِدِ ٱلْمُلُوكِ . ٢١نَفْتَالِي
غَزَالَةٌ طَلِيقَةٌ يُرَدِّدُ أَقْوَالًا جَمِيلَةً . ٢٢يُوسُفُ
كَرْمَةٌ مُثْمِرَةٌ إِلَى جِوَارِ عَيْنٍ ، تَسَلَّقَتْ أَغْصَانُهُ
ٱلْحَائِطَ . ٢٣يُهَاجِمُهُ ٱلرُّمَاةُ بِمَرَارَةٍ .
وَيُطْلِقُونَ سِهَامَهُمْ عَلَيْهِ بِعَدَاوَةٍ . ٢٤وَلَكِنْ
قَوْسُهُ ظَلَّتْ مَتِينَةً ، وَتَشَدَّدَتْ سَوَاعِدُ يَدَيْهِ
بِفَضْلِ سَوَاعِدِ عَزِيزِ يَعْقُوبَ ، ٱلرَّاعِي صَخْرِ
إِسْرَائِيلَ . ٢٥بِفَضْلِ إِلَهِ أَبِيكَ ٱلَّذِي يُعِينُكَ ،
بِفَضْلِ ٱلْقَدِيرِ ٱلَّذِي يُبَارِكُكَ بِبَرَكَاتِ
ٱلسَّمَاوَاتِ مِنْ فَوْقُ ، وَبَرَكَاتِ ٱلْغَمْرِ مِنْ
تَحْتُ ، وَبَرَكَاتِ ٱلثَّدْيِ وَٱلرَّحِمِ . ٢٦إِنَّ
بَرَكَاتِ أَبِيكَ أَعْظَمُ مِنْ بَرَكَاتِ ٱلْجِبَالِ
ٱلدَّهْرِيَّةِ ، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَخَائِرِ ٱلتِّلَالِ ٱلْقَدِيمَةِ ،
فَلْتَحُلَّ جَمِيعُهَا عَلَى رَأْسِكَ يَا يُوسُفُ وَعَلَى
جَبِينِ ٱلَّذِي ٱنْفَصَلَ عَنْ إِخْوَتِهِ . ٢٧بَنْيَامِينُ
ذِئْبٌ ضَارٍ ، يَفْتَرِسُ ضَحِيَّتَهُ فِي ٱلصَّبَاحِ ،
وَيُفَرِّقُ ٱلْغَنِيمَةَ فِي ٱلْمَسَاءِ » .

٢٨هَؤُلَاءِ جَمِيعًا هُمْ رُؤَسَاءُ أَسْبَاطِ
إِسْرَائِيلَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ . وَهَذَا مَا خَاطَبَهُمْ بِهِ
أَبُوهُمْ وَبَارَكَهُمْ ؛ كُلُّ وَاحِدٍ بِٱلْبَرَكَةِ
ٱلْمُنَاسِبَةِ لَهُ .

وفاة يعقوب

٢٩ثُمَّ أَوْصَاهُمْ قَائِلًا : « قَرِيبًا أَنْضَمُّ إِلَى
آبَائِي ، فَٱدْفِنُونِي إِلَى جِوَارِهِمْ فِي مَغَارَةِ حَقْلِ
عِفْرُونَ ٱلْحِثِّيِّ . ٣٠ٱلَّتِي فِي حَقْلِ ٱلْمَكْفِيلَةِ
ٱلْمُوَاجِهَةِ لِمَمْرَا فِي أَرْضِ كَنْعَانَ ، ٱلَّتِي
ٱشْتَرَاهَا إِبْرَاهِيمُ مَعَ ٱلْحَقْلِ مِنْ عِفْرُونَ ٱلْحِثِّيِّ
لِتَكُونَ مَدْفَنًا خَاصًّا . ٣١فِيهَا دُفِنَ إِبْرَاهِيمُ
وَزَوْجَتُهُ سَارَةُ ، ثُمَّ إِسْحٰقُ وَزَوْجَتُهُ رِفْقَةُ ،
وَأَيْضًا دَفَنْتُ لَيْئَةَ . ٣٢وَقَدِ ٱشْتَرَى إِبْرَاهِيمُ
ٱلْحَقْلَ وَٱلْمَغَارَةَ ٱلَّتِي فِيهِ مِنَ ٱلْحِثِّيِّينَ . »
٣٣وَلَمَّا فَرَغَ يَعْقُوبُ مِنْ تَوْصِيَةِ أَبْنَائِهِ تَمَدَّدَ
عَلَى سَرِيرِهِ ، وَضَمَّ رِجْلَيْهِ مَعًا ، ثُمَّ أَسْلَمَ
رُوحَهُ وَلَحِقَ بِآبَائِهِ .

تحنيط جثمان يعقوب

٥٠ فَأَلْقَى يُوسُفُ بِنَفْسِهِ عَلَى
جُثْمَانِ أَبِيهِ ، وَبَكَى وَقَبَّلَهُ .

٢ثُمَّ أَمَرَ يُوسُفُ عَبِيدَهُ ٱلأَطِبَّاءَ أَنْ يُحَنِّطُوا أَبَاهُ . ٣وَقَدِ ٱسْتَغْرَقَ ذٰلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَهِيَ ٱلأَيَّامُ ٱلْمَطْلُوبَةُ لِاسْتِكْمَالِ ٱلتَّحْنِيطِ . وَبَكَى ٱلْمِصْرِيُّونَ عَلَيْهِ سَبْعِينَ يَوْمًا .

دفن يعقوب في كنعان

٤وَبَعْدَمَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ٱلنُّوَاحِ عَلَيْهِ ، قَالَ يُوسُفُ لِأَهْلِ بَيْتِ فِرْعَوْنَ : « إِنْ كُنْتُ قَدْ حَظِيتُ بِرِضَاكُمْ ، فَتَكَلَّمُوا فِي مَسَامِعِ فِرْعَوْنَ قَائِلِينَ : ٥لَقَدِ ٱسْتَحْلَفَنِي أَبِي وَقَالَ : أَنَا مُشْرِفٌ عَلَى ٱلْمَوْتِ ، فَٱدْفِنِّي فِي ٱلْقَبْرِ ٱلَّذِي حَفَرْتُهُ لِنَفْسِي فِي أَرْضِ كَنْعَانَ ، فَأْذَنْ لِي ٱلآنَ بِأَنْ أَمْضِيَ لِأَدْفِنَ أَبِي ثُمَّ أَعُودَ » . ٦فَقَالَ فِرْعَوْنُ : « ٱمْضِ وَٱدْفِنْ أَبَاكَ كَمَا ٱسْتَحْلَفَكَ » .

٧فَٱنْطَلَقَ يُوسُفُ لِيَدْفِنَ أَبَاهُ ، وَرَافَقَتْهُ حَاشِيَةُ فِرْعَوْنَ مِنْ أَعْيَانِ بَيْتِهِ وَوُجَهَاءِ مِصْرَ ، ٨وَكَذٰلِكَ أَهْلُ بَيْتِهِ وَإِخْوَتُهُ وَأَهْلُ بَيْتِ أَبِيهِ . وَلَمْ يُخَلِّفُوا وَرَاءَهُمْ فِي أَرْضِ جَاسَانَ سِوَى صِغَارِهِمْ وَغَنَمِهِمْ وَقُطْعَانِهِمْ . ٩وَصَاحَبَتْهُ أَيْضًا مَرْكَبَاتٌ وَفُرْسَانٌ ، فَكَانُوا مَوْكِبًا عَظِيمًا . ١٠وَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى بَيْدَرِ أَطَادَ فِي عَبْرِ ٱلأُرْدُنِّ أَقَامَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ مَنَاحَةً عَظِيمَةً مَرِيرَةً نَاحُوا بِهَا عَلَيْهِ طَوَالَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ . ١١وَعِنْدَمَا شَاهَدَ ٱلْكَنْعَانِيُّونَ ٱلسَّاكِنُونَ هُنَاكَ ٱلْمَنَاحَةَ فِي بَيْدَرِ أَطَادَ قَالُوا : « هٰذِهِ مَنَاحَةٌ هَائِلَةٌ لِلْمِصْرِيِّينَ » . وَسَمَّوُا ٱلْمَكَانَ ٱلَّذِي فِي عَبْرِ ٱلأُرْدُنِّ « آبِلَ مِصْرَايِمَ » (وَمَعْنَاهُ : مَنَاحَةُ ٱلْمِصْرِيِّينَ) ١٢وَنَفَّذَ أَبْنَاءُ يَعْقُوبَ وَصِيَّةَ أَبِيهِمْ ، ١٣فَنَقَلُوهُ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ وَدَفَنُوهُ فِي مَغَارَةِ حَقْلِ ٱلْمَكْفِيلَةِ مُقَابِلَ مَمْرَا ٱلَّتِي ٱشْتَرَاهَا إِبْرَاهِيمُ مَعَ ٱلْحَقْلِ مِنْ عِفْرُونَ ٱلْحِثِّيِّ لِتَكُونَ مَدْفَنًا خَاصًّا .

١٤وَبَعْدَ أَنْ دَفَنَ يُوسُفُ أَبَاهُ ، رَجَعَ هُوَ وَإِخْوَتُهُ وَسَائِرُ ٱلَّذِينَ رَافَقُوهُ إِلَى مِصْرَ .

إحسان يوسف لإخوته

١٥وَلَمَّا رَأَى إِخْوَةُ يُوسُفَ أَنَّ أَبَاهُمْ قَدْ مَاتَ قَالُوا : « لَعَلَّ يُوسُفَ ٱلآنَ يَشْرَعُ فِي ٱضْطِهَادِنَا وَيَنْتَقِمُ مِنَّا لِإِسَاءَتِنَا إِلَيْهِ ؟ » ١٦فَبَعَثُوا إِلَيْهِ رَسُولًا قَائِلِينَ : « لَقَدْ أَوْصَى أَبُوكَ قَبْلَ مَوْتِهِ وَقَالَ : ١٧هٰكَذَا تَقُولُونَ لِيُوسُفَ : ٱغْفِرْ لِإِخْوَتِكَ ذَنْبَهُمْ وَخَطِيئَتَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَسَاءُوا إِلَيْكَ . فَٱلآنَ ٱصْفَحْ عَنْ إِثْمِ عَبِيدِ إِلٰهِ أَبِيكَ » . فَلَمَّا بَلَغَتْهُ رِسَالَتُهُمْ بَكَى يُوسُفُ . ١٨وَجَاءَ إِخْوَتُهُ أَيْضًا وَٱنْطَرَحُوا أَمَامَهُ وَقَالُوا : « هَا نَحْنُ عَبِيدُكَ » . ١٩فَقَالَ لَهُمْ : « لَا تَخَافُوا : هَلْ أَنَا أَقُومُ مَقَامَ ٱللهِ ؟ ٢٠أَنْتُمْ نَوَيْتُمْ لِي شَرًّا ، وَلٰكِنَّ ٱللهَ قَصَدَ بِٱلشَّرِّ خَيْرًا ، لِيُنْجِزَ مَا تَمَّ ٱلْيَوْمَ ، لِإِحْيَاءِ شَعْبٍ كَثِيرٍ . ٢١لِذٰلِكَ لَا تَخَافُوا ، فَأَنَا أَعُولُكُمْ أَنْتُمْ وَأَوْلَادَكُمْ » . فَطَمْأَنَهُمْ وَهَدَّأَ رَوْعَهُمْ .

٢٢وَأَقَامَ يُوسُفُ فِي مِصْرَ هُوَ وَأَهْلُ بَيْتِ أَبِيهِ . وَعَاشَ يُوسُفُ مِئَةً وَعَشْرَ سِنِينَ ، ٢٣حَتَّى شَهِدَ ٱلْجِيلَ ٱلثَّالِثَ مِنْ ذُرِّيَّةِ أَفْرَايِمَ ، وَكَذٰلِكَ أَوْلَادَ مَاكِيرَ بْنِ مَنَسَّى ٱلَّذِينَ ٱحْتَضَنَهُمْ عِنْدَ وِلَادَتِهِمْ . ٢٤ثُمَّ قَالَ يُوسُفُ

٢ثم أمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا
أباه . ٣وقد استغرق ذلك أربعين يوما ،
وهي الأيام المطلوبة لاستكمال التحنيط .
وبكى المصريون عليه سبعين يوما .

دفن يعقوب في كنعان

٤وبعدما انقضت أيام النواح عليه ، قال
يوسف لأهل بيت فرعون : « إن كنت قد
حظيت برضاكم ، فتكلموا في مسامع
فرعون قائلين : ٥لقد استحلفني أبي وقال :
أنا مشرف على الموت ، فادفني في القبر
الذي حفرته لنفسي في أرض كنعان ، فأذن
لي الآن بأن أمضي لأدفن أبي ثم أعود » .
٦فقال فرعون : « امض وادفن أباك كما
استحلفك » .
٧فانطلق يوسف ليدفن أباه ، ورافقته
حاشية فرعون من أعيان بيته ووجهاء مصر ،
٨وكذلك أهل بيته وإخوته وأهل بيت أبيه .
ولم يخلفوا وراءهم في أرض جاسان سوى
صغارهم وغنمهم وقطعانهم . ٩وصاحبته
أيضا مركبات وفرسان ، فكانوا موكبا
عظيما . ١٠ولما وصلوا إلى بيدر أطاد في
عبر الأردن أقام يوسف لأبيه مناحة عظيمة
مريرة ناحوا فيها عليه طوال سبعة أيام
١١وعندما شاهد الكنعانيون الساكنون هناك
المناحة في بيدر أطاد قالوا : « هذه مناحة
هائلة للمصريين » . وسموا المكان الذي في
عبر الأردن « آبل مصرايم » (ومعناه :
مناحة المصريين) . ١٢ونفذ أبناء يعقوب
وصية أبيهم ، ١٣فنقلوه إلى أرض كنعان
ودفنوه في مغارة حقل المكفيلة مقابل ممرا
التي اشتراها إبراهيم مع الحقل من عفرون
الحثي لتكون مدفنا خاصا .
١٤وبعد أن دفن يوسف أباه ، رجع هو
وإخوته وسائر الذين رافقوه إلى مصر .

إحسان يوسف لإخوته

١٥ولما رأى إخوة يوسف أن أباهم قد مات
قالوا : « لعل يوسف الآن يشرع في
اضطهادنا وينتقم منا لإساءتنا إليه ؟ »
١٦فبعثوا إليه رسولا قائلين : « لقد أوصى
أبوك قبل موته وقال : ١٧هكذا تقولون
ليوسف : اغفر لإخوتك ذنبهم وخطيئتهم ،
فإنهم قد أساءوا إليك . فالآن اصفح عن إثم
عبيد إله أبيك » . فلما بلغته رسالتهم بكى
يوسف . ١٨وجاء إخوته أيضا وانطرحوا
أمامه وقالوا : « ها نحن عبيدك » . ١٩فقال
لهم : « لا تخافوا : هل أنا أقوم مقام الله ؟
٢٠أنتم نويتم لي شرا ، ولكن الله قصد
بالشر خيرا ، لينجز ما تم اليوم ، لإحياء
شعب كثير . ٢١لذلك لا تخافوا ، فأنا
أعولكم أنتم وأولادكم » . فطمأنهم وهدأ
روعهم .
٢٢وأقام يوسف في مصر هو وأهل بيت
أبيه . وعاش يوسف مئة وعشر سنين ،
٢٣حتى شهد الجيل الثالث من ذرية أفرايم ،
وكذلك أولاد ماكير بن منسى الذين
احتضنهم عند ولادتهم . ٢٤ثم قال يوسف

لإِخوَتِهِ : « أَنَا مُوشِكٌ عَلَى ٱلْمَوْتِ ،
وَلَكِنَّ ٱللّٰهَ سَيَفْتَقِدُكُمْ وَيُخْرِجُكُمْ مِنْ هٰذِهِ
ٱلْأَرْضِ وَيَرُدُّكُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي وَعَدَ بِهَا
بِقَسَمٍ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ » .
٢٥ وَٱسْتَحْلَفَ يُوسُفُ أَبْنَاءَ إِسْرَائِيلَ قَائِلًا :
« إِنَّ ٱللّٰهَ سَيَفْتَقِدُكُمْ فَٱنْقُلُوا عِظَامِي مِنْ
هُنَا » .

موت يوسف

٢٦ ثُمَّ مَاتَ يُوسُفُ وَقَدْ بَلَغَ مِنَ ٱلْعُمْرِ مِئَةً
وَعَشْرَ سِنِينَ . فَحَنَّطُوهُ وَوَضَعُوهُ فِي تَابُوتٍ فِي
مِصْرَ .

الباب الأول

التفسير الـمُقَارَن لسورة يوسف

أ - مقدمة السورة : الهدف والأدلة عليه :

﴿ الر تلك ءايات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرءان وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [يوسف ١ ٣]

باستعراض الآيات الثلاث الأولى من السورة والتأمل فيها نجد أنها تدور حول معنى واضح محدد هو التأكيد الصارم على أن القصص القرآني موحى به مباشرة ومبدئياً لمحمد ﷺ من الله، وهذا ما ترمي إليه الآية الأولى من كلمة (كتاب مبين) حيث أن فيه الوضوح والإيضاح المطلوب لإلقاء الضوء على تلك القصص من حيث اللغة والحقيقة والمنطق. فقد ادعى المستشرقون لاحقاً أن تلك القصص اطلع عليها محمد ﷺ ونقلها من القصص التوراتي، وهذا بالطبع ادعاء غير منطقي حيث أن التوراة كانت مكتوبة أساساً بالعبرية القديمة المندثرة حينذاك أو مترجمة جزئياً على أحسن الفروض للآرامية تلك اللغات التي كان لايجيدها محمد النبي الأمي الذى لايقرأ العربية لغته الحية ذاتها، وبالتالى فلا قدرة له على قراءة لغات أخرى أجنبية أو الترجمة منها. ويبدو هذا جلياً فى الدقة الشديدة البادية في تناول تلك القصص بآلاف التفاصيل عن عشرات الأحداث والشخصيات المختلفة بتسلسل معين يحترم الأسس المنطقية ويتجنب الخلط والتضارب وبالتالى فلا يجد مطعناً من أهل التوراة العبرية أنفسهم، حيث يجدون فى القرآن الكريم تلك القصص موجودة صحيحة سليمة بل ومنقحة ومضاف إليها تفاصيل عديدة جداً لايمكن أن يستقيم السياق أو الهدف منها إلا بوجود تلك التفاصيل التى تفتقدها التوراة ذاتها. مما يتفق مع ما عبر عنه المولى عز وجل فى الآية الأخيرة من سورة يوسف ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [يوسف : ١١١]. مما يبلور أهداف هذه القصة فى التالى :

١- عبرة وعظة دينية ومصدر للتشريع الفقهى.

٢- إثبات وحى القرآن بالمقاييس العلمية والعقلية.

٣- اضفاء المصداقية على قصص الكتب السماوية السابقة.
٤- تفصيل أحداث هذه القصص وتصحيح المحرف أو المعوج منها.
٥- تثبيت للمؤمنين، بأسلوب يجعلها فى مواقف الشدة رحمة إلهية عظمى، وهدى ينير الطريق.

والذاكرة البشرية، وبالذات فى حالة شخص أمي مثل رسولنا الكريم ﷺ لاتستطيع القيام بكل هذا بلا خطأ واحد إلا فى حالة واحدة - أن يكون هذا القصص وحى مباشر - وهذا هو ما تبينه بجلاء الآية الثانية من السورة ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُم تَعْقِلُونَ ﴾ وصولاً للاستنتاج المنطقى فى الآية الثالثة ألا وهو أن هذا القرآن وحى مباشر وليس نتاج أى شيء آخر وأيضاً تذكير بعدم إدراك الرسول الأمي ﷺ لتلك القصص قبل وحيها إليه. وهكذا نرى أن الآيات القرآنية فى تتابعها والتى نقرأها أحياناً بسرعة وبلا روية ولا تدبر هى بناء محكم تتصاعد فيه الأدلة المنطقية بدقة وصولاً لاستنتاج وحقيقة معينة ثابتة غير قابلة للدحض وكل هذا فى كلمات قليلة وجيزة.

وتلك الآيات الثلاث الأول من السورة هى مثال ساطع على هذا الإعجاز القرآنى - فالسورة تتناول قصة طويلة عن نبى من أنبياء بنى إسرائيل وضعت فيها الكثير من الأهداف والمقاصد والتشريعات ولم ترد لمجرد التسلية أو التعرف - وكون تلك القصة عن نبى إسرائيلى لايوجد ذكر له إلا فى التوراة العبرانية، وخفايا الكهنوت اليهودى، لذا فإنها ستؤدى إلى طرح التساؤل المنطقى - ولو بعد قرون -هل كان محمد ﷺ ناقلاً للتوراة أو مقتبساً من قصصها؟ وهنا يأتى الرد فى افتتاحية السورة فى آياتها الثلاث الأول كما تفعل أرقى الكتب فى فصولها التمهيدية بإزالة الإلتباس حول القضية المحورية التى يتناولها الكتاب وإثبات الأمانة العلمية بالأدلة المنطقية - فالآية الأولى تختصر وفى كلمة (كتاب مبين) أول الأدلة. فالبيان - حسب مختار الصحاح - «هو الفصاحة واللسان وهو أيضاً ما يتبين به الشيء من الدلالة». وها هى القصة العبرانية هنا وفى تلك السورة تتلى أمام العرب بلسانهم بوضوح شديد لا لبس فيه فاللغة واضحة والسياق متسق والهدف

واضح والتفاصيل لايمكن دحضها من ألد الأعداء - اليهود أهل التوراة العبرانية - كما أن فيها تبياناً لبعض الغموض المتواجد بالقصة التوراتية وأيضاً إزالة لكثير من الشبهات فيها.
أما الآية الثانية فتربط هذا الوضوح اللغوى بالعقل والتعقل والفهم كعملية عقلية وهى تشمل ثلاث حقائق هامة :

١ - أَنزَلْنَاهُ : إثبات مصدر القرآن وقصصه والتوكيد عليه.
٢ - عَرَبِيًّا : بنفس لغة المتلقين بأسلوب لايمكن نسبه للترجمة أو الاقتباس.
٣ - تَعْقِلُونَ : حيث أن العقل والفهم هنا مرتبط بقضية الإنزال والتنزيل فى نفس الآية، وما فهم القصة نفسها إلا خطوة على هذا الطريق، أى أن ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ هنا تعود على قضية ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ ﴾ بمعنى أن معرفة وقراءة تلك القصة فى لغتها العربية الشديدة البلاغة والمحكمة السياق والخالية من التضارب بل والتى تضيف وتحذف الكثير من القصص التوراتى وصولاً لأهداف وشرائع معينة من خلال ذلك. أى أنها ليست فقط للتسلية أو المعرفة وكونها ترد على لسان نبى أمى لا يقرأ العربية ذاتها، لهو دليل ساطع واضح على التنزيل المباشر لهذا القرآن على الرسول ﷺ بأسلوب الوحى، وأرى وكما أظن سيوافقنى كل ذى لب أن هذا هو الهدف الأول من تلك السورة التى انفردت برواية قصة «يوسف عليه السلام» نبى بنى إسرائيل وأحد أبطالهم ومنقذيهم.

أما الآية الثالثة فتصل للاستنتاج المنطقى، حيث أن القصص القرآنية هى ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ليس فقط بالإحكام اللغوى بلغة أهل البلاد المتلقية العربية الحية - وليست العبرانية الميتة المندثرة، وإنما أيضا بإحكام السياق وقوة المنطق التاريخى المختلف تماماً عن القصة العبرانية المحرفة وهذا سبب. أما السبب الثانى فهو ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أى غير المدركين لهذه القصة للابتعاد الزمانى واللغوى وأيضاً لعدم أهميتها فى الثقافة السائدة فى الجزيرة العربية وعاداتها الوثنية حينذاك. لهذين السببين فإن هذا القرآن وحى إلهى وتلك هى العبرة الأولى والمقصد الرئيسى (وليس بالأوحد) من إيراد

تلك القصص ﴿ بمآ أوحينآ إليك هذا القرءان ﴾ .

إذن فالآيات الثلاث الأولى والتى قد نقرأها بتعجل هى خلاصة الهدف من القصة كلها والسورة بأكملها وهى الرد المنطقى على السؤال الرئيسى بالأدلة العقلية : هل هذا القرآن وحى من الله أم هو اقتباس بشرى قام به الرسول الأمى ﷺ من الكتب والديانات الأخرى؟ ولعجيب الإحكام القرآنى بأسلوب يتسم بالمستوى الراقى جداً فى التناول نجد أن السورة بعد أن افتتحت بهذا الاستهلال الموصل للهدف والاستنتاج تمر بكل تفاصيل القصة ثم تختتم بآية النهاية التى هى إيضاح شديد وجيز لنفس المغزى الذى استعرضناه فيقول عز من قائل ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرةٌ لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [يوسف : ١١١] .

بعد هذه المقدمة الوجيزة التى تحتوى على الهدف الرئيسى من إيراد تلك القصة فى القرآن، تمهيداً للاستنتاج النهائى الوارد فى الآية الأخيرة منها كأسلوب كتابى راق جداً وغير متوافر فى تلك الحقبة، نود أن نذكر بأنماط الكتابات العربية الشائعة بتلك الحقبة كالمعلقات وغيرها من صنوف الشعر والنثر والتى تميزت بالإطناب وعدم تجانس المعنى أو الهدف فمثلاً فى الشعر تجد فى القصيدة الواحدة بداية بالبكاء على الأطلال ثم الدخول فى أبيات الفخر ثم بيت شعرى أو اثنين يتحدثان عن الهدف ثم تأتى النهاية التى غالباً لا تتسق مع مرامى القصيدة بلا بناء واحد أو هدف واضح، أقول أنه بعد هذه المقدمة التمهيدية المتمثلة فى الآيات الثلاث الأول، تدلف الآيات القرآنية مباشرة وبلا دخول فى حارات جانبية إلى القصة ذاتها، بل إلى العقدة الأولى والمسبب الرئيسى للأحداث ألا وهى حلم يوسف عليه السلام والذى أدى فيما بعد إلى تصاعد الأحداث وتصارع الشخصيات مما سيظهر - كما سنرى - الهدف الثانى الرئيسى من السورة القصصية، ألا وهو يد الله الخفية التى تسير بالأحداث فى اتجاهات معينة يحسبها الرائى بسطحية أنها شر محض بينما هى فى ثمرتها الخير كل الخير ولكن بالأسلوب الذى سنه الله تعالى وارتضاه لخلقه ألا وهو ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ [البقرة : ٢٥١]، وقوله

تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ [الحج: ٤٠]، ويظهر هذا المعنى (يد الله الخفية) فى الكثير من القصص القرآنى مثل قصة موسى عليه السلام مع عبد الله الصالح الذى قيل أنه «الخضر عليه السلام» فى سورة الكهف وغيرها.

٢- حلم يوسف:

يقول تعالى فى الآية (٤) من سورة يوسف ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾.

وهنا فى النص القرآنى نجد أن منطوق الحلم هو نفس المنطوق الوارد فى التوراة تقريباً، جاء فى التوراة : [وحلم يوسف حلماً قصه على إخوته، فازدادوا له بغضاً. قال لهم «اسمعوا هذا الحلم الذى حلمته. رأيت وكأننا نحزم حزماً فى الحقل، وإذا بحزمتى وقفت ثم انتصبت، فأحاطت بها حزمكم ثم انحنت لها» فقال له إخوته : «ألعلك تملك علينا أو تحكمنا؟» وزاد بغضهم له بسبب أحلامه وكلامه. ثم حلم حلماً آخر سرده على إخوته قال : «حلمت حلماً آخر، وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لى» وقصه على أبيه وإخوته، فأنبه أبوه وقال : «أى حلم هذا الذى حلمته؟ أتظن حقاً أننى وأمك وإخوتك سنأتى وننحنى لك إلى الأرض؟» فحسده إخوته. أما أبوه فأسر هذا الكلام فى قلبه] التكوين ٣٧: ٥-١١.

وإلى هنا ظاهرياً تبدو القصتان القرآنية والتوراتية متشابهتان بل ومتطابقتان، بل وتفسير وتأويل الحلم فيها واحد. فقد أجمع مفسروا القرآن على أن الأحد عشر كوكباً هم إخوته والشمس والقمر هما أبوه وأمه. أما النص التوراتى فيأتى بتفسير الحلم بلا مواربة وعلى لسان يعقوب فى رده على ابنه يوسف عليهما السلام حينما أخبره برؤياه.

وهناك جزئية هامة جداً لم يشر إليها أحد من المفسرين مطلقاً وتظهر أول تضارب بين النص القرآنى والتوراتى فى القصة. إن كان القرآن والتوراة قد اتفقا أن الشمس والقمر هما أبو يوسف وأمه فى الرؤيا وأنهما قد سجدا له مع إخوته الأحد عشر مما تحقق فعلياً

بالسجود الفعلي لكل الجمع ليوسف عليه السلام، عند اكتمال الشمل بعد الافتراق في نهاية القصة. فهنا تبدو نقطة تصارب تثير الدهشة تتعلق بأم يوسف ذاتها المسماة في التوراة «راحيل» والمرموز لها بالقمر في الرؤيا.

يقول النص القرآني الواضح بلا أدنى غموض أن أم يوسف كانت حية ترزق وأنها أتت مع أبيه وإخوته من الشام إلى مصر للقاء ولدها. بعكس التوراة التي تنص على أن أم يوسف كانت قد ماتت عند ولادتها لشقيقه الأصغر «بنيامين» أي أنها لم تدخل مصر مع الداخلين على ولدها يوسف.

في هذا يقول تعالى. ﴿فلمّا دخلوا على يُوسُف ءاوى إليْه أبويْه وقال ادْخُلوا مصْر إن شآء اللّهُ ءامنين * ورفع أبويْه على العرْش وخرُّوا لهُ سُجّدًا وقال يآ أبت هذا تأْويلُ رُؤْياى من قبْلُ قدْ جعلها ربّى حقًّا﴾ [يوسف ٩٩ : ١٠٠].

ونرى هنا أن النص القرآني كرر كلمة ﴿أبويْه﴾ مرتين ليفيد وجود الأم ضمن الساجدين وبذلك يكتمل تفسير الرؤية بحذافيرها.

أما التوراة. فواضح جداً من النص التوراتي السابق أنها أوردت عدد الكواكب في الرؤيا بإحدى عشر كوكباً مما فسره يعقوب عليه السلام بأنهم إخوة يوسف الإحدى عشر، ومن البديهي أن هذا الرقم (١١) لم يكتمل إلا بوجود الشقيق الأصغر ليوسف المسمى «بنيامين» ليكتمل بذلك عدد أبناء يعقوب إثنا عشرة ابناً أو سبطاً. والنصوص التوراتية أيضاً بلا لبس تفيد أن هذا السجود في الرؤيا قد تحقق فعلياً في الواقع فيما بعد في مواضع كثيرة مثل التكوين ٤٢ :٦، ٤٤ :١٤-١٧، ٤٧ :٣١. وحسب النصوص التوراتية فإن وجود الشقيق الأصغر بنيامين يقتضي موت وغياب الأم «راحيل» التي ماتت أثناء ولادتها لبنيامين. تقول التوراة عن تلك القصة : [وإذ كانت تقاسي في ولادتها قالت لها القابلة «لاتخافي، فإن هذا أيضاً ابن آخر لك» وبينما كانت تلفظ أنفاسها عند موتها دعته «بن أوني» (ومعناه ابن حزني) غير أن أباه دعاه «بنيامين» (ومعناه ابن يميني) ثم ماتت راحيل ودفنت في الطريق المؤدية إلى أفراتة، أي بيت لحم، وأقام يعقوب عموداً على قبرها، وهو

المعروف بعمود قبر راحيل إلى اليوم] التكوين ٣٥ ١٦-٢٢.

إذن فحسب هذا النص السابق فإن وجود بنيامين ضمن عدد الأخوة (الأحد عشرة كوكباً في الحلم) يقتضي موت الأم راحيل بداهة. فكيف يفسر يعقوب النبي العالم بتفسير الرؤى القمر في رؤيا يوسف على أنه الأم وهي غائبة عن هذا الموقف بالموت؟ ألا يظهر هذا تضارباً منطقياً صارخاً في القصة التوراتية؟ وتستمر النصوص التوراتية في الغموض بشأن هذه المسألة. فها هو يعقوب عليه السلام في لحظات موته وبعد أن قضى أكثر من سبعة عشرة عاماً في مصر مع يوسف عليه السلام وأثناء مباركته لابني يوسف «إفرام ومنسي» يخبره وبلا أدنى سبب لإقحام تلك الفقرة في هذا المقام، أن أمه قد ماتت ودفنت، وكأن يوسف عليه السلام طوال هذه الفترة لم يسأل عنها أو يعرف مصيرها. تقول التوراة في هذا المشهد «مشهد الوفاة والوصية والمباركة» على لسان يعقوب في خطابه ليوسف عليهما السلام [والآن إن ابنيك إفرايم ومنسي اللذين انجبتهما في مصر قبل مجيئي إليك هنا هما لي يرثانني كرأوبين وشمعون. وأما أولادك الذين تنجبهم بعد ذلك، فيكونون لك، وما يرثونه يكون تحت اسم أخويهم. لأنني فيما كنت راجعاً من سهل آرام، ماتت راحيل في أرض كنعان في الطريق على مقربة من أفراته، فدفنتها في الطريق المؤدية إلى أفراته، التي هي بيت لحم] التكوين ٤٨ :٥-٧.

والخلاصة أن تفسير الأحد عشر كوكباً في رؤيا يوسف بالأحد عشر ابناً على لسان يعقوب في القصة التوراتية ما كان ليكون أو يكتمل إلا بوجود بنيامين الابن الأصغر والذي يقتضي وجوده بداهة أيضاً موت راحيل الأم. فكيف إذن يفسر يعقوب القمر في الرؤيا بالأم وهي ميتة غائبة؟ وأصل في النهاية إلى الاستنتاج بأن التفسير الصحيح للحلم يقتضي وجود الأم لتكون في الجمع الداخل على يوسف فعلياً كما أكد القرآن الكريم وأن قصة موت راحيل أثناء ولادة بنيامين هو خطأ توراتي لم ينتبه إليه كتاب التوراة.

وهناك رأي شخصي في تأويل معنى الشمس والقمر في الآية أسوقه من منطلقين أحدهما أن التوراة هي التي أشارت بتفسير الشمس والقمر بالأب والأم على لسان يعقوب

عليه السلام كما أسلفنا مما أظهر التضارب فى القصة التوراتية وأما القرآن ورغم أن مفسريه أجمعوا على نفس التفسير التوراتى إلا أن القرآن بنصه الكريم لم يشر إلى أن الشمس والقمر يعنيان الأب والأم على الإطلاق برغم إشارته أن الكواكب تعنى الأخوة، ودعنا نتأمل النص الكريم ثانية، يقول تعالى. ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف ٤ :٥].

إذن وحسب النص القرآنى فإن تأويل الحلم كما ارتآه يعقوب انصب على إخوة يوسف فقط وليس فيه إشارة للأب أو الأم رغم التأكيد القرآنى لاحقاً على وجود الأبوين معاً عند اللقاء بيوسف. هذا عن المنطلق الأول، أما المنطلق الثانى فهو منطلق تاريخى بحت، فبنى إسرائيل الضعاف القدر عددهم بأقل من سبعين نفساً فى أرض كنعان (فلسطين) كانوا هم فقط الأفراد الحاملين لرسالة ومبدأ التوحيد فى ذلك الزمان، وكانوا محاطين بعملاقين شديدى المراس يحملان لواء الوثنية، أولهما فى الشرق مصر بمعبودها الأعلى وهو الشمس (رع) بأشكالها المختلفة التى تمثل تاسوعاً إلهياً مثل حورس وإتوم وآمون، والشمس فى العقيدة المصرية هى أبو الآلهة الأخرى جميعاً والمهيمن عليها وهو الرمز الرسمى للإمبراطورية المصرية، وأما فى الغرب فهناك إمبراطوريات بابل وفينقية التى عبد فيها القمر كأهم الآلهة تحت اسم «عشتار» والذى أشارت إليه التوراة كثيراً باسم «عشتريتى» مع آلهة أخرى مثل بعل ومردوخ، وكان هذا المعبود مصدر غواية دائمة لليهود بعد خروجهم من مصر وتوطنهم فى فلسطين. إذن فالشمس والقمر فى الرؤيا قد يكونا رمزاً لأعظم الامبراطوريات الوثنية المحيطة بأرض فلسطين فى تلك الحقبة مصر شرقاً وبابل وفينقية غرباً، وهذا التفسير قد تحقق تاريخياً أيضاً فيما بعد، فدخول بنى إسرائيل لمصر على يد يوسف، ثم خروجهم منها على يد موسى عليهما السلام، كان إيذاناً بإندثار الحضارة والإمبراطورية المصرية وبالتالى دمار عقيدة عبادة الشمس وكذلك فإن ممالكهم فى فلسطين تسلطت على ممالك فينيقية فى لبنان وحاربت ودمرت معظم معابد عشتار

«القمر» (حرائط العهد القديم الموجودة تحت أيدينا تظهر أن هناك مدينة كبرى تقع غرب طبرية اسمها «عشتاروت» أي مدينة القمر وذلك فى زمان إبراهيم عليه السلام)، وكذلك فقد كان اليهود فى صراع دائم مع الإمبراطورية البابلية فى أرض العراق وحتى بعد دمار مملكتهم فى فلسطين على يد البابليين وسبيهم لبابل تمكنوا فى فترة وجيزة من التسلل لكل مراتب الحكم البابلى وتوجيهه حسب مصالحهم الخاصة، وانتهى الصراع بدمار بابل وعودتهم مرة أخرى لفلسطين بالتحالف مع الفرس (راجع أسفار استير ودانيال) مما كان أيضاً إيذاناً باندثار عبادة القمر. وهاكم فالشمس والقمر الرامزين لقوى الوثنية المتواجدة حينذاك ساجدان ليوسف عليه السلام الممثل لعقيدة التوحيد والذى سجدت له كل أسباط إسرائيل أيضاً فاجتمع الكل فى التوحد بالسجود لعقيدة الإله الواحد. والله أعلم.

ثم نأتى للآيتين الخامسة والسادسة من السورة وهما خطاب من يعقوب إلى ولده يوسف عليهما السلام كتوجيه خاص له رداً على رؤيا المنام. يقول تعالى:

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف ٥: ٦]

وهنا يظهر خلاف قرآنى - توراتى آخر فى القصة، ففى القصة القرآنية أمر يعقوب ولده عليهما السلام بعدم إفشاء أمر الحلم لإخوته، ويُظهر مشهد الحوار قرآنياً سرية الحديث بين الأب وابنه مما يقتضى جهل الأخوة بتفاصيل الحلم وتأويله، لذا كان مناط مؤامرتهم عليه فقط ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف ٨]. إذن فمناط الحسد والبغضاء كان إحساس الأخوة بمحبة أبيهم ليوسف وأخيه الأصغر وليس هناك ذكر لرؤيا يوسف عليه السلام كمسبب للمكيدة من جانب الأخوة، لذا كان الهدف من المكيدة هو ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف: ٩] أى تستأثرون بمحبته ولم يرد قرآنياً أن الهدف هو محاولة إيقاف القدر الإلهى الذى يظهره

تفسير الحلم.

أما التوراة فتورد فى النص الذى أسلفناه أن يوسف قد أخبر أباه بأمر هذا الحلم على مرأى ومسمع من إخوته وتقول فى نهاية فقرة الحلم [فحسده إخوته. أما أبوه فأسر هذا الكلام فى قلبه] التكوين ٣٧ : ١١ . وتقول النصوص التوراتية فى فقرة التآمر على حياة يوسف [وما إن رأوه من بعيد، وقبل أن يقترب منهم حتى تآمروا عليه ليقتلوه وقال بعضهم لبعض : «ها هو صاحب الأحلام مقبل»] التكوين ٣٧ : ١٨، ١٩.

إذاً فتوراتياً كان الأخوة عالمين بتفاصيل وتأويل الحلم وكان هذا هو الدافع والهدف المرجو من المكيدة، فأى الروايتين أقرب للمنطق والتصديق؟. دعنا فقط نتذكر الرواية التوراتية التى تقول [فحسده إخوته. أما أبوه فأسر هذا الكلام فى قلبه] التكوين ٣٧ : ١١ . ونتساءل إن كانت الرواية قد أذيعت وأفشيت أمام الأخوة وحققت أسوأ نتائجها الشيطانية وهو الحسد والمكيدة فأى كلام هذا الذى أسره يعقوب وكتمه وحفظه فى قلبه؟ وأين هى السرية إذن؟ وما الهدف منها؟

ودعنا نتساءل هل كانت شخصية يعقوب التى أظهرتها التوراة ورسمتها كشخصية شديدة الذكاء بل والمراوغة والمكر والدهاء الرهيب أيضاً وتلك هى نفس الشخصية التى وصفها القرآن بالحكمة والتكتم والذى يصل أحياناً إلى حد التطرف والمبالغة في الحذر مما يظهر في قوله عليه السلام لأبنائه وهم فى طريقهم لمقابلة عزيز مصر - يوسف آنذاك - ﴿ وَقَالَ يَابَنِيَّ لا تَدْخُلُواْ من بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ من شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ من شَيْءٍ إِلا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف ٦٧ : ٦٨]. نتساءل هل تلك الشخصية سواء كما وصفتها التوراة فى كل سفر التكوين، أو كما وصفها القرآن الكريم، غافلة عن الإحساس بدخيلة نفس أبنائه فيترك ابنه الصغير الضعيف المحبب إلى نفسه يقدم نفسه فريسة سهلة أمامهم، ويعطيهم بقلة خبرته المبرر والذريعة للقضاء عليه ؟!! أقول

أننى لازلت أعتقد أن القصة القرآنية فى تلك الجزئية أيضاً - هى الأقرب للمنطق والتصديق العقلى.

نعود للآيتين الكريمتين بعد أن ناقشنا وجه الخلاف القرآنى التوراتى فيهما ونقول أننا لانجد تضارباً فى بيان شخصية يعقوب وأنماطه النفسية والسلوكية قرآنياً كما هو موجود بشدة فى التوراة. ففى الآيتين يظهر يعقوب عليه السلام بصورة الرجل الحكيم الحذر فى إسدائه للنصح لابنه، وفى قدرته على الحكم على الأمور. فهو يأمر ولده يوسف بكتمان الرؤيا ويعلن معرفته بخبايا نفسيات أبنائه المتأهبين للكيد حسداً وبغضاً، ويعرف دور النزغ الشيطانى فى تلك المسألة الحساسة «مسألة الوراثة» وما تثيره من أحقاد وضغائن بين الأخوة منذ بدء الخليقة حتى يرث الله الأرض ومن عليها وما زلنا نراه حولنا يومياً وفى مجتمعاتنا المعاصرة. فما بالك والميراث ميراث عظيم، ميراث مزدوج من النبوة والحكم ففى تلك اللحظة، وهنا فقط. أدرك الشيخ الحكيم النبى يعقوب عليه السلام أن هذا الابن هو اختيار الله من ذريته لوراثة النبوة والحكم امتداداً للسلسلة الآتية من إبراهيم فإسحاق فيعقوب عليهم السلام. وهنا فقط قرآنياً بدأت محبة يعقوب لهذا الابن بالذات تزداد ويزداد معها قلقه عليه وشغفه به. فهو ليس ابناً فقط بل هو نبى به أنيطت مهمة الحفاظ على رسالة التوحيد والمضى بها قدماً.

ومسألة المحبة هذه أثارت الكثير من الأقاويل من قبل، فتوراتياً مثلاً تشير النصوص من طرف خفى إلى أن يوسف وبنيامين هما ابنى «راحيل» الزوجة الحبيبة إلى قلب يعقوب والتى أراد زواجها منذ البداية، فخدعه أبوها (خاله لابان) وزوجه من أختها (ليئه) أولاً، قبل أن يحتج يعقوب على ذلك، فيضطر خاله لتزويجه ممن أحب وأراد. لذا فقد جعل الله ليئه الزوجة غير المحبوبة ولوداً تنجب البنين والبنات، أما راحيل الأثيرة فقد كانت عاقراً ولم يفتح الله رحمها إلا مؤخراً جداً لتنجب أصغر الأبناء يوسف، ثم بنيامين الذى ماتت وهى تلده.

ولو سايرنا هذا المنطق البشرى البحت الناظر لحب الرجل لأمرأة بعينها لكنا قد

رأينا يعقوب يكره أو على الأقل لايحب بنيامين - نذير وسبب فراق راحيل عن يعقوب - أكثر من إخوته. لكننا لا نرى شيئاً من ذلك على الإطلاق. فقرآنياً وتوراتياً كان بنيامين حبيباً إلى قلب يعقوب وكان يخشى عليه باقى الأخوة أيضاً، ولم يكن راضياً عن إرساله معهم لأرض مصر مما يظهر فى القصة القرآنية والتوراتية أيضاً، وربما كان ذلك ناشئاً عن أن بنيامين هو أصغر الأخوة وأضعفهم وتلك طبيعة إنسانية أبوية، أو لأنه المولود بلا أم كما تقول التوراة وينفى القرآن، أو لأنه الوحيد من الأخوة الذى بلا أشقاء من الأب والأم معاً بعد اختفاء يوسف من حياة الأسرة كما يتفق القرآن والتوراة.

ومن جانب آخر، تقول التوراة عن هذا الحب من يعقوب لولده يوسف [وكان إسرائيل «يعقوب» يحب يوسف أكثر من بقية إخوته، لأنه كان ابن شيخوخته، فصنع له قميصاً ملوناً، ولما رأى اخوته أن أباهم يحبه أكثر منهم كرهوه وأساءوا إليه بكلامهم] التكوين ٣٧: ٣، ٤. ولو كان هذا صحيحاً لكان حب يعقوب لأصغر أبنائه (بنيامين شقيق يوسف الأصغر) أكثر من حبه ليوسف ذاته فبنيامين هو أصغر الأبناء وآخر سلسلة الإنجاب وهو بحق ابن شيخوخته. أما السبب المقنع الوحيد لهذا الحب فهو ظاهر جلى فى القرآن الكريم ولا نجد له مثيلاً فى التوراة، وهو أن هذا الحب كان حب نبوة قبل أن يكون حب بنوة، فيعقوب علم من إلهه وعن طريق حلم يوسف أنه هو المختار من نسله لإكمال سلسلة النبوة، وهذا هو ما تظهره الآية السادسة من السورة بجلاء حيث يقول تعالى على لسان يعقوب فى خطابه ليوسف عليهما السلام ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

وللعلم فإن غياب تلك الحقيقة هو الذى دفع بعض الكتاب المسلمين لاعتبار ذلك الحب أو التفضيل فى المحبة سلوكاً بشرياً عادياً مما يمكن اعتباره من خصائص الضعف البشرى وذهبوا للدفاع عنه قائلين أن المحبة ليست فى وسع البشر، بل والقول (ومن فوائد القصة: وجوب عناية الوالدين بمداراة الأولاد وتربيتهم على المحبة والعدل واتقاء وقوع

التحاسد والتباغض بينهم. ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة ومحاباة لأخيه بالهوى، وقد نهى عنه النبي ﷺ مطلقاً، ومنه سلوك سبيل الحكمة في تفضيل من فضل الله تعالى بالمواهب الفطرية كمكارم الأخلاق والتقوى والعلم والذكاء وما كان يعقوب بالذى يخفى عليه هذا، وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم إلا من علمه بما يجب فيه. ولكن ما يفعل الإنسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه) انتهى. د. نواف الجليس ص ٨١.

فالأمر إذن ليس بغريزة ولا هوى قد يكبحها المرء أحياناً وقد يفلت منه الزمام كما رأينا في الرأي السابق، ولكن هو تفضيل محبة من نبي عالم لولد من أولاده له حب البنوة كالآخرين ولكن زاد عليه حب النبوة واستمرار الرسالة، فظهر هذا الحب مما لم يستطع باقي الأخوة فهمه وإدراك أن قلق الوالد وحذره وعنايته المفرطة بيوسف، إنما كانت حذراً وقلقاً وخوفاً عليهم هم أيضاً، فهذا الصبي هو منقذهم جميعاً بالنبوة والحكم من الضلال الروحي والهلاك المادي كما أظهرت باقي تفاصيل القصة، ومما أظهره اللفظ القرآن الذى لم يقصر النعمة الإلهية المترتبة على إختيار يوسف للنبوة عليه وحده فقط، بل امتد أثرها ليشمل الآباء والأخوة في قوله تعالى على لسان يعقوب ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ فيوسف هذا هو النبي المختار من نسل يعقوب، وأثر المشيئة الإلهية في هذا التفضيل والإيثار الذى لم يقطع من سلالة إبراهيم وإسحاق ينسحب على كل الأخوة من أبناء يعقوب، فحب يعقوب ليوسف هو حب لكل الأخوة، وهذا هو ما جهله هؤلاء.

ملحوظة: لعل النزعة الاقتباسية والتكرارية الملاحظة بشدة في التوراة، استغلت أحداث قصة يوسف عليه السلام، وبالذات في موضوع الأحلام وتفسيرها، فصاغتها مرة أخرى في سفر كامل هو سفر «دانيال» الذى يحكي عن نبي يهوذى اسمه دانيال كان موجوداً ضمن السبي البابلي، ولم يستطع فحسب أن يفسر حلم غامض لملك بابل، بل ذكر له الحلم نفسه حيث أن الملك كان قد أخفى تفاصيل الحلم عن الناس وطلب من كل الحكماء ذكر الحلم ثم تفسيره ... أى أن مهمة دانيال كانت أعقد وأشق من مهمة يوسف

عليه السلام، وعلى نفس المنوال استطاع دانيال ذكر الحلم وتفسيره مما أدى إلى إعجاب ملك بابل الشديد به ومن ثم ترقيته لمرتبة عالية في الحاشية الملكية.

ولعل تلك النزعة الاقتباسية التكرارية، نراها كثيراً في التوراة، فمثلاً قصة انفلاق البحر ومرور موسى عليه السلام وبني إسرائيل خلاله، تتكرر ثانية وبنفس الشكل مع يشوع بن نون وهو يقود بني إسرائيل لدخول فلسطين عبر نهر الأردن الذي ينشق وينفلق حتى يتم العبور الإسرائيلي الثاني وبنفس الشكل الأول (راجع سفر يشوع).

٣- مكيدة الأخوة :

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِلسَّآئِلِينَ * إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَآئِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قَالُواْ يَآ أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَجَآءُو أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ * قَالُواْ يَآ أَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَآءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ * وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف ٧ : ٢٠]

ومن هنا يبدأ فصل آخر من القصة يستعمل فيه القرآن الكريم أسلوباً كتابياً راقياً جداً، يفصل بين المشاهد المختلفة للأحداث بوضوح شديد، كأرقى سيناريو لايطمح أقدر الكتاب أن يقلده لسرد أحداث رواية معينة، فبعد انتهاء مشهد الحلم والحوار الدائر بين

الأب وولده بما فيه من عبر ومعان تجعله مشهدا قائماً بذاته يظهر فيه سبب الصراع (إعلان النبوة لهذا الصبى) كما تظهر مؤشرات الصراع الدافع للأحداث اللاحقة، تطفأ الأضواء عن هذا المشهد الأول ثم تضاء ثانية على مشهد آخر لأحداث أخرى، وقد تم هذا بآية واحدة فصلت الحدثين ووصلتهما فى نفس الوقت هى الآية رقم ٧ من السورة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾.

وبسهولة نستطيع أن نلمس أن أسلوب الإخراج الروائى للقصة وليس فقط السرد المجرد وبنفس الأسلوب المتعارف عليه الآن فى فنون السينما والمسرح مثلاً قد ظهرت ملامحه الأولى فى تلك القصة القرآنية. بخلاف الرواية التوراتية التى يجد القارئ نفسه فيها فى متاهة من أحداث متشابهة تستلزم حتى تستبين فى المخيلة جهداً كبيراً من تقطيع الأحداث لمشاهد منفصلة قائمة بذاتها. المهم أن تلك الآية فصلت ثم وصلت ما قبلها بما بعدها وهو المشهد الثانى أو مشهد بداية تحرك الأحداث تجاه نهايتها الحتمية.

وقبل أن أغادر تلك الآية الكريمة فلى تعقيب صغير على ﴿ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾، فالسائلون كثيرون فمنهم أولاً من تحدوا محمداً ﷺ لإخبارهم عن تلك القصة التوراتية وقيل أن هذا هو سبب نزول تلك السورة المفصلة جداً، كمثال لما يستطيع القرآن أن يأتى به من قصص السابقين بكل خطوطها العامة وتفصيلاتها الخاصة، مصححاً ومنقحاً، مما يخرس ألسنة التشكيك والمعارضة. وهناك السائلين عن الحكم والعبر المستخلصة من تلك القصة كشعاع نور إلهى. وأكاد أميل شخصياً أن السائلين أساساً ليسوا هم اليهود كما أنهم ليسوا هم المسلمين المتعطشين للمعرفة، بل هم أساساً كفار مكة الذين اشتد عداؤهم للرسول الكريم فى فترة تنزيل تلك السورة والتى كانت فترة من أشد فترات حياة رسولنا الكريم قسوة وكان فيها فى أشد حالات الاستضعاف، فتنزيل سورة يوسف هنا كان شداً لأزر محمد ﷺ الذى كان يمر بظروف متشابه جداً مع ظروف يوسف عليه السلام، فكلاهما ضعيف، واقع فى مصيدة المكائد والعداء من بنى جلدته المتآمرين أما على قتله أو تغريبه فى الأرض، وفى الحالتين تفشل خطة القتل ويتم التغريب لأرض بعيدة، والله جل

وعلا يخبر محمداً هنا أن هذا الظلم والتعريب هو بداية (التمكين فى الأرض) للرسول، ففي الكثير جداً من الأحوال يكون قدر الرسل هو أن يتم تمكينهم في الأرض بعد نفيهم بعيداً عن بنى جلدتهم بل وفي مواطن أعدائهم وحجورهم، هكذا كان قدر يوسف، وهكذا كان قدر موسى، وهكذا كان قدر محمد ﷺ، كل منهم غادر أهله وهاجر أو نفى، وفي الغربة والبعد تم التمكين في الأرض والمنعة، ويبدو أنه في تلك الفترة بالذات كانت خيوط المؤامرة (القتل أو النفى) تختمر تدريجياً في عقول عشيرة محمد ﷺ وقومه المعادين له فأخبره الله تعالى بهذه القصة الشبيهة تثبيتاً وتهدئة.

إذن فقصة الرسولين الكريمين (محمد ﷺ ويوسف عليه السلام) متشابهتان في جزئيات كثيرة، فكلا منهما تعرض من أهله للتآمر، وكانت خيوط المؤامرة متشابهة (القتل أو النفى)، وفى كلتا الحالتين كان هناك التردد في تنفيذ المؤامرة، ثم فشل فكرة القتل وتنفيذ فكرة النفى والإبعاد، وهناك في أرض الغربة تحققت لكل منهما المنعة والعزة والتمكين في الأرض عن طريق دفع الله عز وجل للأحداث في اتجاهات معينة، وانتهت القصة فى كلتا الحالتين بنهاية واحدة، وهى أن هؤلاء الأهل الظالمين يأتون صاغرين منهزمين يقفون بين يدى الرسول يطلبون العفو والمغفرة، وأيضاً وفى كلتا الحالتين لم يتردد الرسول الكريم فى منح هذا العفو، مما ينعكس بعد ذلك في تحويل حال هؤلاء الأهل من ضعف وتشرذم إلى قوة يحسب لها ألف حساب (بنى إسرائيل قليلى العدد فى قصة يوسف عليه السلام وقريش وحولها باقى العرب فى قصة محمد ﷺ) ومن الهام جداً تذكر أن تلك السورة المكية (سورة يوسف) تنزلت بأكملها على رسولنا الكريم وسط معمعة الأحداث، بل وفى أضعف مراحل الرسالة مادياً، وفي الوقت الذى لم يكن بشر كائناً من كان يستطيع التنبؤ بنهاية أحداث القصة المحمدية، بل وكانت كل الظواهر تشير إلى الموقف اليائس الذى تعانيه الرسالة الإسلامية وسط الحصار والاضطهاد مما يقطع بأمرين هامين هما:

١- سبب تنزيل السورة الحقيقي وفى وقت تنزيلها بالذات كان هو التثبيت والتأييد

للرسول الكريم بإعطائه مثلاً مفصلا متشابهاً تم فيه نصر الله تعالى لرسوله ورسالته وسط الظروف الخانقة المشابهة لظروف محمد عليه الصلاة والسلام. أليس ذلك هو ما يقوله تعالى في نهاية أحداث سورة يوسف ﴿حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ [يوسف: ١١٠].

٢- ذكر أسلوب الانتصار ووقائعه بالنسبة ليوسف عليه السلام في تلك السورة التي تنزلت وسط الأحداث المحيطة بمحمد ﷺ في مكة وتطابقه الفعلي مع الأحداث التي أحاطت بالرسول وبصورة مماثلة بعد أكثر من عشر سنوات لهو إعلان قاطع على صدق تلك النبوءة القرآنية التاريخية مما يقطع بصدق مصدر القرآن كونه وحياً إلهياً لا يقدر عليه بشر.

ننتقل الآن بعد هذه الخواطر التي قادتنا إليها الآية السابعة من السورة (آية الفصل والوصل) إلى الآيات الكريمات الراويات لقصة المكيدة وتنفيذها من الآية ٨ حتى الآية ٢٠ من السورة. وأقول مخلصاً أنني بعد أن راجعت العشرات من أمهات كتب التفسير في تلك الآيات لم أجد جديداً يضيفه أحد فيها أو في تفسيرها. فالآيات واضحات بينات، وكل محاولات تفسيرها هي من قبيل (فسر الماء بعد الجهد بالماء) إلا في جزيئات قليلة سنتوقف عندها وهذا هو جلال وجمال القرآن الكريم الذي لم تكن بلاغته أبداً تقعراً لفظياً وإبهاماً خفياً في المجال القصصي الذي يظهر واضحاً متسلسلاً مفسراً لذاته في عباراته الوجيزة واسعة المعنى مشرقة البيان. تروى تلك الآيات قصة المكيدة وتنفيذها بادئة بالآية الثامنة الموضحة لهدف المكيدة وهو إحساس الأخوة بوجود تفضيل عاطفي من جانب أبيهم ليوسف وأخويه رغم كونهم أكبر سناً وأكثر عدداً ونفعاً لأبيهم من وجهة نظرهم، وبالتالي فالإحساس الخاطئ يقود للحكم الخاطئ، فهذا الإحساس المعيب أدى بهم إلى الحكم الخاطئ على أبيهم بأنه ﴿لفي ضلال مبين﴾ أي في زيغ وعدم قدرة صحيحة على الحكم في الأمور مما يهدد مصالحهم وحقوقهم وميراثهم (نستشف من سطور التوراة أن

يعقوب كان متمرساً في عملية سلب الحقوق وأكل الميراث وخلط الأدوار فهو ذاته سلب كل امتيازات أخيه البكر عيسو بخدعة ماكرة استغل فيها كف بصر أبيه إسحاق بالتآمر مع أمه رفقة فسرق امتيازات البكورية وبركة إسحاق من مستحقها الرئيسي أخيه البكر عيسو ، فما الذى يمنع تكرار القصة ذاتها معهم؟ نقول أن هذه الإسرائيليات هي تفسير نستطيع أن نراه بوضوح بين ثنايا وسطور التوراه ونقول حاشا لله أن يقال هذا عن نبي كريم) . لكننا نقول أن الصراع الدنيوى المادى الذى عبر عنه القرآن بكلمة ﴿ نَزَغَ الشَّيْطَانُ ﴾ كان وراء هذا الإحساس الخاطئ الذى سبق أن بينا خطأه مما قاد بالتالى للحكم الخاطئ على الأب وبالتالى استدعى قراراً خاطئاً للمواجهة والتصحيح لارتكازه على أحاسيس وأحكام خاطئه وهذا هو فحوى وتفسير تلك الآية الثامنة التى أحب أن أسميها (آية الإحساس والحكم الخاطئ أو آية الدافع على ارتكاب الجرم) .

وهكذا نرى أن كل آية فى السورة هى وحدة مستقلة قائمة بذاتها مؤدية لخطوة معينة يؤدى تراكمها بهذا التسلسل العجيب إلى تصاعد المنطق فى البناء الدرامى (بناء الأحداث) بصورة كتابية لم تكن أبداً مستعملة أو حتى واردة فى زمن التنزيل .

اتطرق بعد ذلك للآيتين ٩ ، ١٠ من السورة ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ . وأولاهما هى آية (اتخاذ القرار المبدئى والتردد) وثانيتهما هى آية (اتخاذ القرار النهائى) فالأولى منهما تظهر تردد الأخوة فى انتهاج الأسلوب الأمثل فى التخلص من يوسف ، فهناك فريق يقول بالقتل ، وهناك فريق يقول بالنفى والتعريب من الأرض ، وهناك مفاضلة بين الرأيين وميزان لإيجابيات وسلبيات كل منهما وصولاً للهدف الذى تم إيضاحه فى تلك الآية وهو ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ أى الوصول لمحبة الأب عن طريق التخلص من يوسف ، والانفراد بالساحة عن طريق إهلاك المنافس ، لا عن الطريق القويم الذى يتطلب الزيادة فى البر والإحسان والتفوق على هذا المنافس فى التقوى والأعمال والأخلاق الكريمة . وأرى هنا من

منطلق قرائتى وتفهمى للتوراة أن عبارة ﴿يخلُ لكُم وجهُ أبيكُم﴾ ليست عبارة بلاغية فقط تفيد الاستئثار بالحب والمودة. لكنها على ضوء ما كان سائداً من أفكار فى تلك الحقبة التاريخية من تاريخ بنى إسرائيل، تنم عن إلمام كامل وتعمق شديد فى الفكر الإسرائيلى. فالنبوة والوعد بالأرض والنسل والميراث - حسب الاعتقاد التوراتى - منذ أن كانت لإبراهيم عليه السلام كان لابد أن يسلمها لمن يختاره من نسله لخلافته فى هذا الوعد، فنرى القصص التوراتى يظهر هذا التآمر على الميراث منذ زمان إبراهيم عليه السلام الذى استجاب لإرادة سارة فقام بنفى إسماعيل وأمه عليهما السلام وإبعادهما عن وجهه حتى إذا وافته المنية لم يجد أمام وجهه إلا إسحاق الذى سلمه الميراث والأمانة والنبوة والبركة. ثم أن إسحاق ذاته أراد قبل أن توافيه المنية أن يسلم هذا الميراث لبكره «عيسو» ولكن يعقوب التوأم الأصغر استغل كف بصر أبيه ووقف أمام وجهه متنكراً داخل قميص عيسو وأوهمه أنه الابن الأكبر وبالتالى سلب كل البركة له ولنسله وحرم منها توأمه الأكبر مستحقها الأساسى، وهكذا فلو استمرت الأمور فى مسيرتها الطبيعية فقد يجد يعقوب نفسه حال الموت أمام أولاده الإثنى عشر ليسلم أحدهم هذا الميراث وخاصة أنه غاضب على أولاده الثلاثة الكبار (رأوبين وشمعون ولاوى)، ولما كان هناك أيضاً عامل محبة الأب وتفضيله ليوسف فقد يسلمه فى سكرات الموت كل شىء. إذن فالحل المنطقى هو ألا يراه فى تلك اللحظة أمام وجهه فيسلمها لأحدهم، ومن هنا فإنى أرى أن عبارة ﴿يَخلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ وهى عبارة لم ترد لا صراحة ولا ضمناً فى النصوص التوراتية إنما تنم عن إلمام عميق جداً وتفقه متبحر بالتوراة والنفسية الإسرائيلية المنبثقة عنها، ما كان ليكون لمحمد ﷺ فى بيئته العربية القحة بلغتها وثقافتها المختلفة، بل وأيضاً فى أميته الحاجزة له عن الإطلاع على ما كتب بالعربية لغته الأصلية ذاتها. وأرى أن هذا التفسير لتلك العبارة هو المزيل للتضارب فى تفسير العبارة اللاحقة لها ﴿وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ حيث فسرتها العالبية بأنه إضمار للتوبة المصنوعة قبلاً قبل فعل الجرم وكأن الأمر أن يذهب المرء لفعل الفواحش والموبقات وهو يحمل فكرة (أعملها وأتوب)، مما

يظهر فساد وعبثية الفكرة ذاتها وخروجها عن مقتضى التوبة والمقصد الشرعى منها، وهناك أقلية ترى أن الفكرة الروحية والدينية المتمثلة فى التوبة لم تكن لتحضر عند قوم كهؤلاء فى هذا المشهد الذى يتضمن التخطيط للقتل، والظلم، وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، وقسوة القلب على شيخ وطفل، بل أن المقصود بالصلاح هو الصلاح الدنيوى المادى ... وأقول أن تفسيرنا السابق يظهر أن اختفاء يوسف من على مسرح الأحداث يؤدى حتماً إلى أن يسلمهم يعقوب ميراثه الذى هو ميراث نبوة وحكم معاً، فيما يسمى بالبركة أو المباركة مما كان سائداً فى الفكر الإسرائيلى حينذاك، وبالتالى فميراث النبوة الذى يأتى للأخوة كنتيجة للمكيدة فى حد ذاته هو قبول للتوبة والغفران من الجرم من قبل الله تعالى كما أنه هو أيضاً صلاح مادى لما يعود عليهم من نفع عند تسلمهم لأمور ميراث بيت إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أى أن العبارتين المتتاليتين تفسران بعضهما البعض وتظهران أن فكرة تحولهم ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ بعد الجرم ثم خلو وجه الأب إلا منهم هى فكرة انتهازية مقصدها هو «ضرب عصفورين بحجر واحد»، وهكذا تم التخطيط للمؤامرة والمناقشات والمحاورات فى صورتها المبدئية التى ضمتها الآية (٩) من السورة.

أما الآية العاشرة من السورة فهى توجز لنا ما يمكن تسميته بالقرار النهائى للمكيدة وأسلوب تنفيذها، وفيها يظهر تفصيل للخطة بصورة تخالف الإجمال غير المفصل فى الآية التاسعة التى تورد الاقتراحات المبدئية المطروحة للمناقشة كأفكار فقط، وهذه الآية تورد التفصيل النهائى فى ثلاثة نقاط. أولها: هو الاستبعاد الكامل لفكرة القتل، والثانية: هى إلقاء يوسف فى ﴿ غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ أى إلقاؤه فى مكان يغيب عن الأنظار فلا يمكن بالتالى عودته أو استعادته على أن يكون هناك اختياراً دقيقاً لهذا المكان ﴿ الْجُبِّ ﴾ فى طريق القوافل ﴿ السَّيَّارَةِ ﴾ ليكون هدفاً سهلاً للالتقاط ومن ثم الاسترقاق فالإبعاد والنفى وتلك هى النقطة الثالثة.

هذا وقد حاول بعض المفسرين على مر الزمن اقتراح موقع هذا الجب (حسب مختار الصحاح فالجب هو البئر التى لم تطو أو لم تبن بالحجارة مما قد يشير لكونها بئراً مشاعاً فى

الطريق وليست كالأبار الواقعة في أراضي أو مصارب أو مراعي قبائل معينة تقوم بالعناية بها وتبطينها بالحجارة - الكاتب) قال هؤلاء المفسرون أن تلك البئر هي بئر بيت المقدس وقال آخرون أنها بحيرة طبرية. وأود أن أذكر أنه أولاً لايوجد أي دليل قرآني أو نبوي أو حتى بين نصوص التوراة يشير لهذا الموقع. ولا أدري ما سبب اقتراح هذين الموقعين أو الأسمين مما يحتاج قطعاً لدليل من المقترحين وهو ما لم يقوموا بتقديمه أبداً، وثانياً فإن بحيرة طبرية بحيرة مفتوحة الجوانب ولايمكن تسميتها بالبئر أو الجب، أما «بئر بيت المقدس» فهو تسمية غير دقيقة جغرافياً حيث يوجد هناك حول بيت المقدس أو أورشليم آبار عدة، والأهم أنه في تلك الحقبة التاريخية لم يكن هناك ما يسمى «بيت المقدس» أو «أورشليم» والتي بنيت أو اكتسبت أهميتها بعد ذلك بقرون في زمان داود وسليمان عليهما السلام إبان اختيارها كعاصمة لمملكة «يهوذا» وبناء الهيكل فيها، أما قبل ذلك فلا يوجد أي دليل تاريخي أو توراتي على وجود تلك المدينة أصلاً مما يقطع بعدم صحة هذه الاقتراحات التي تقدم بها بعض المفسرون الأوائل.

عموماً فالآية العاشرة هي آية «القرار النهائي المفصل للمكيدة» وهي تختلف عن الآية السابقة لها التي أوردت الاقتراحات مجملة بلا تفصيل أثناء مرحلة النقاش المبدئي، متخذة نفس الأسلوب العلمي حسب علم الإدارة الحديث عند مناقشة مشكلة ما، حيث تطرح الأفكار والاقتراحات جميعها بصورة عامة للمناقشة أولاً، وعندما يتم اختيار أحدهما تطرح له خطة تفصيلية للتنفيذ.

تورد لنا الآيات الأربع التاليات (١١-١٤) بدء التنفيذ الفعلي للمكيدة، ولما كانت المكيدة تخالف العدوان الصريح في كونها عدواناً مستتراً مغلفاً، لذا فهي دائماً تحتوي على الكثير من المراوغات الكلامية والجدل والمناقشات والمباحثات لتحقيق أهدافها مما بلوره علماء السياسة فيما بعد بما سمي «المزاوجة بين الأساليب الدبلوماسية والحرب الفعلية لتحقيق الهدف» وهذا هو ما بدأه الأخوة في تلك الآيات الأربع حيث بدأوا مراودة يعقوب عن ابنه عليهما السلام بأسلوب دبلوماسي يتسم بالدهاء والكذب:

قال تعالى : ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون * أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون * قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون * قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون ﴾ [يوسف ١١ : ١٤].

ففي الآية (١١) يذكر المتآمرون الأب بموقعهم منه كأبناء أوفياء له، لذا فلا يوجد هناك داع لعدم استئمانهم على أخيهم، الذي يكنون له هو أيضاً الحب والنصيحة، ثم يعودون في الآية (١٢) فيذكرون الأب أن غلاماً في مثل سن أخيهم يحتاج للعب والانطلاق والتريض، وأن الإبقاء المستمر تحت عين الأب وفي كنفه هو ضد أسلوب التربية الصحيح لذا فالصبي محتاج بشدة أن ﴿ يرتع ويلعب ﴾ ولن يتم له ذلك بصورة ترضي الأب الشيخ محدود الحركة إلا في ظل حماية إخوته الأشداء الأوفياء ﴿ وإنا له لحافظون ﴾. وهنا نرى كيف تمت الإحاطة المنطقية بيعقوب عليه السلام بمقولات «حق أريد بها الباطل»، فمقولات الأبناء كلها منطقية وصحيحة ولايمكن دحضها مما كان سبباً في تخلي يعقوب عليه السلام عن حذره وإعطاءهم الولد. إلا أن السبب الرئيسي - كما أراه - كان إيمان هذا النبي الشيخ بنفاذ قدر الله ومشيئته فهو رغم حذره يعلم جيداً ما قرره الله لاحقاً في نفس السورة من قوله عليه السلام حال وداعه للولد الثاني بنيامين ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون * ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [يوسف ٦٧ : ٦٨]، إذن فيعقوب عليه السلام كان بتكوينه عالماً عارفاً بالحقيقة التي قررتها هاتان الآيتان الكريمتان فيما بعد ولمرتين متلاحقتين من أنه (لا يغني حذر من قدر) كما أنه كان كما قررت الآيتان الكريمتان السابقتان حذراً وذو علم. إذن فقد كان هذا الشيخ النبي الملهم الذي أيده الله بتأويل الرؤية والحكمة مدركاً بأن هذه المقولات إنما هي نذير الفراق بينه وبين ابنه، وهي علامات المكيدة الأولى وكان ذلك كشفاً من الله له، وكان يعلم أيضاً

أنه لايعني الحذر من القدر. فسلم الصبي إليهم لتنفذ مشيئة الله، وانظر لقوله لهم رداً على حججهم قبل أن يسلمهم يوسف عليه السلام ﴿ قال إِنِّي ليحزُنُني أن تذهَبُوا به ﴾ [يوسف ١٣] وهل كان الأب الحكيم ليحزن لو أنه اقتنع فعلاً بمقولاتهم الكاذبة؟ وهل يصيبه الحزن لو كان مقتنعاً أن يوسف عليه السلام داهب فقط لـ ﴿ يرتَعْ ويلعَبْ ﴾ تحت الحماية والحفظ بين إخوته الكبار؟

أقول أن هذا النبي الشيخ الملهم لم تنطل عليه الخديعة وما كان تسليمه إياهم للولد إلا فقط لعلمه أن مشيئة الله لابد نافذة. لذا فقد أعطاهم أيضاً وكعلامة لعدم التصديق والانخداع كل تفاصيل المؤامرة بشكل كامل على صورة أنها إحدى مخاوفه أو هواجسه الخاصة، حيث قال لهم . ﴿ وأخافُ أن يأكُلَهُ الذِّئْبُ وأنتُمْ عنْهُ غافلُون ﴾ [يوسف ١٣]، وهل قالوا له عندما عادوا إلا ذاك؟ حيث ﴿ قالُوا يا أبانا إِنَّا ذهبْنا نستبقُ وتركْنا يُوسُفَ عندَ متاعنا فأكلَهُ الذِّئْبُ ﴾.

أعود فأقول أنه لم تنطل تلك الخدعة على يعقوب عليه السلام في أي من مراحلها ولكنه الإيمان وإشراق النبوة والثقة في روح الله، لم تنطل عليه المراوغات المبدئية كما لم تنطل عليه أيضاً الخدعة بعد التنفيذ ﴿ وجآءُوا علَى قميصه بدمٍ كذبٍ قالَ بلْ سوَّلتْ لكُمْ أنفُسُكُمْ أمرًا فصبْرٌ جميلٌ واللَّهُ المُستعانُ علَى ما تصفُون ﴾ [يوسف ١٨]، وأزيد أن هذا النبي الملهم لم يصدق وطوال سنوات الفراق أن ابنه قد مات، بل كان موقناً من حياته، بل ومدركاً لمكان وجوده مما يظهر في قوله تعالى على لسان يعقوب في خطابه لبنيه ﴿ يابَنِيَّ اذْهَبُوا فتحسَّسُوا من يُوسُفَ وأخيه ولا تيْأَسُوا من رَّوْحِ اللَّه إِنَّهُ لا ييْأَسُ من رَّوْحِ اللَّه إِلا القَوْمُ الكافرُونَ ﴾ [يوسف ٨٧]. فهنا وعند تلك النقطة من القصة يعلم الأب أن أخا يوسف الأصغر بنيامين حي ومحتجز في مصر كما أخبره الأخوة بالأدلة والشهود، وهو هنا يأمر باقي أبنائه بأن يذهبوا للتحسس ليس على أخبار بنيامين فقط بل ويوسف معه أيضاً في نفس المكان، فالرجل النبي الحكيم كان ما زال عارفاً بالتفاصيل عن يوسف ابنه الغائب وإن بعدت الشقة، وتلك لمحة من إشراقات النبوة والتجليات الإلهية المتضحة جداً في رسم

شخصية يعقوب عليه السلام فى تلك السورة القرآنية.

إذن فتلخيصاً لعبر تلك الآيات الأربع، أقول أنه رغم إحكام شبكة الأدلة المنطقية حول يعقوب عليه السلام إلا أنها لم تنطل عليه بل قام الشيخ النبى بإعطائهم ولده ثقة فى الله وإيماناً بقضائه وقدرة وبأن مشيئته نافذة لا محالة.

وأود أن أذكر عند تلك النقطة أن هذا الحوار والمراودة والمراوغة المبدئية لم تظهر مطلقاً فى النصوص التوراتية، بل هى هبة اختص الله بها القرآن فقط لإحكام صدق ومنطقية القصة القرآنية وإظهار تفوقها على القصة التوراتية المحرفة بشرياً. فالقصة التوراتية تبدو مسطحة - سردية، لا عبر فيها ولا حكمة تستخلص منها، فموقف التمهيد المبدئى للمكيدة بالمباحثات مع يعقوب غير موجود فى التوراة، بل أكثر من ذلك، تنص سطور التوراة أن يعقوب - الرجل النبى الداهية الماكر الحذر حسب وصف التوراة - هو الذى يرسل ابنه يوسف عليه السلام من تلقاء نفسه ليلتحق بإخوته فى المراعى بلا أى مجهود منهم لتحقيق هدفهم من المكيدة، وتلك فعلة لا يفعلها إلا من كان غريراً ساذجاً، هذا رغم علمه حسب اعتراف التوراة بحسد الأخوة ليوسف وكرههم له، ومما يظهر تلك المؤامرة حسب النص التوراتى وكأنها وليدة الصدفة بلا تدبير أو إحكام مسبق، فالأخوة يكرهون يوسف والأب أرسله لهم بسذاجة فوجدوه أمامهم ولا رقيب، فقرروا التخلص منه، أى أن الجريمة توراتياً جريمة بلا سبق إصرار ولا ترصد، وذلك رغم اعتراف التوراة بوجود الدافع والباعث على ارتكابها مسبقاً مما يتنافى مع أبسط قواعد المنطق القصصى وهذا اختلاف آخر بين القصة القرآنية والقصة التوراتية.

بعد أن فرغت الآيات القرآنية السالفة من ذكر الخطوات المبدئية الأولى للمؤامرة والتى تعتمد على المراوغات الكلامية والشراك المنطقية تنتقل بنا الآيات الكريمة اللاحقة ١٥-٢٠ من السورة لذكر الخطوات المادية للتنفيذ والتى تمت بعد نجاح الخطوة الأولى وترتبت عليها.

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ

لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَجَآءُو أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ * قَالُواْ يَآ أَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَآءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ * وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف ١٥ ـ ٢٠].

والآيات واضحات بينات فى رواية القصة، فهم قد حصلوا على يوسف وذهبوا به من عند أبيه (ولم يجدوه أمامهم فجأة فى موقع المؤامرة كما تقول القصة التوراتية)، ثم حدث هناك إجماع على إلقائه فى ﴿ غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ ويذكر القرآن هنا جزئية أخرى لم ترد بالتوراة، وهى أن يد الله وروحه كانت مع الصبى وسط أحداث تلك المحنة، فهنا وفى قاع الجب كانت بداية الوحى الإلهى ليوسف عليه السلام، فالله تعالى يذكر ولأول مرة فى تلك السورة أن الوحى تنزل على يوسف عليه السلام ليعلمه أن لايحزن ولا يخاف فهؤلاء الأخوة القساة العتاة سيجمعهم الله أمامه يوماً ويجعله يخبرهم بتلك المؤامرة التى نفذوها ضده ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف ١٥]، أى أنه وفى تلك اللحظة بالذات أخبره الله تعالى أنه سينجو من المكيدة بإذنه بل وسينتصر على هؤلاء الأخوة، فالغلام المسكين لم يكن وحيداً فى ظلمات الجب بل كانت معه رحمة الله ووحيه فلا خوف عليه.

وإلى هنا أغلقت الأضواء على هذا المشهد بالبرية، لتنتقل بنا مجريات القصة لمشهد آخر فى منزل الأب النبى يعقوب بعد تنفيذ المؤامرة، حيث جاء الأخوة مثقلين بجرمهم، يتسترون بظلمة الليل حتى لايفضح الضياء مخايل الغدر فى وجوههم الباكية كذباً على أخيهم، وسردوا على مسامعه القصة التى نوه بها الأب لهم من قبل.

وكانت المؤامرة مفضوحة فقميص يوسف عليه السلام الملوث بالدم لم يكن دليلاً كافياً على إثبات صدقهم. فالمسألة ليست كما قال بعض المفسرون أن القميص كان ملوثاً

بالدم ولكنه غير ممزق مما يفضح المكيدة فحسب، بل لأن الأب كان يعلم مسبقاً بما سيجرى عليه وعلى ولده من قضاء الله، لذا لم يذكر النص القرآنى جزئية تمزق القميص من عدمه فى هذا المقام، وإن كان قد ذكرها عندما حدثت فى قصة يوسف وامرأة العزيز، بل قال الأب مباشرة ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف ١٨].

ولك أن تدقق فى منطوق النص القرآنى هنا، لتدرك مدى يقين الأب ومعرفته الملهمة فهو لم يقل لهم مثلاً بل فعلتم به شراً أو بل قتلتموه ولكنه قال ﴿ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ وأن تسول للمرء نفسه شيئاً أمر، وأن يتم تحقيق هذا الشىء أمر آخر، وكأنه عليه السلام يقول لهم (لقد أنتويتم وعزمتم على فعل شىء داخل أنفسكم وضمائركم لكننى موقن من أنه لم ولن يتحقق لإيمانى بروح الله تعالى)، ومن هذا المنطق كان هناك ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ - صبر المؤمن العالم - غير اليائس من روح الله، وهنا كان قوله عليه السلام ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ فهو وحده المعين لكشف خيوط تلك المؤامرة الكاذبة التى وصفتموها وشرحتموها والتى لن تكتمل بفضل الله ورحمته.

ولعلى هنا أتوقف لحظة عند كلمة ﴿ تَصِفُونَ ﴾ التى ذكرها يعقوب عليه السلام كسمة للمؤامرة، فالفعل (وصف) ومشتقاته أتى ذكره فى القرآن الكريم أربعة عشر مرة وكلها تعنى الكذب والبهتان. فالفعل (وصف) قرآنياً هو المرادف لكلمة الكذب.

يقول تعالى: ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ﴾ [النحل ٦٢]

ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ [النحل ١١٦]

ويقول تعالى: ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء ١٨]

ويقول تعالى. ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء ٢٢]

ويقول تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء ١١٢]

ويقول تعالى : ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ [الصافات ١٥٩] و [المؤمنون ٩١]

ويقول تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ [الصافات ١٨٠]

ويقول تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾ [المؤمنون ٩٦]

ويقول تعالى : ﴿ سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ [الزخرف ٨٢]

ويقول تعالى : ﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ [الأنعام ١٠٠]

ويقول تعالى : ﴿ سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾ [الأنعام ١٣٩]

وهكذا فالفعل وصف ومشتقاته قد أتى ذكره في الآيات السابقة إثنى عشر مرة وكلها تعني الكذب ، أما المرتين الباقيتين فقد أتيتا في سورة يوسف ، إحداهما خطاب من يعقوب عليه السلام لأبنائه مما يظهر فطنته وعدم تقبله لمقولاتهم الكاذبة المغلوطة ، يقول تعالى على لسان يعقوب عليه السلام في خطابه لأولاده : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ [يوسف ١٨] ، أما المرة الأخيرة فكانت خطاب من يوسف عليه السلام نفسه لهؤلاء الأخوة أنفسهم عندما وقفوا أمامه صاغرين وهو في مجد ملكه ليفتروا على أخيهم الغائب (يوسف ذاته) بالسرقة وهم جاهلون أنه هو الحاكم الذي يخاطبهم . يقول تعالى على لسان يوسف عليه السلام في هذا الموقف ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون ﴾ [يوسف ٧٧] .

وهنا ثانية تطفأ الأنوار على مشهد بيت يعقوب ، وأبناؤه يكملون المؤامرة ، ويعقوب لاينخدع ، بل يمتثل لأمر الله . لتضاء تلك الأنوار ثانية على موقع الأحداث المحيطة بيوسف عليه السلام في وحدته بالجب المهجور . يقول تعالى : ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون * وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ [يوسف ١٩ : ٢٠] .

هنا جاء هؤلاء السيارة أو القافلة السائرة وأرسلوا بمن يحضر لهم الماء، فأدلى دلوه ليخرج الماء، فتعلق به يوسف عليه السلام الصبى الصغير، ففرح هذا الرجل واستبشر بوجود غلام، وكأنه حيوان شارد أو طير بلا صاحب يجده المرء فيكون ملكاً خالصاً له يفرح به لما يدره عليه من نفع، مما يظهر نوعية السلوك البشرى فى تلك الحقبة التى كان فيها الإنسان مجرد شيء يباع ويشترى ويُمتلك وتجرى عليه الأحكام التى تجرى على الجماد والحيوان، المهم أن ذلك الرجل عاد لبقية القافلة ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾، جاء فى ابن كثير عن تفسير تلك العبارة (أى وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا اشتريناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا حبره «قاله مجاهد والسدى وابن جرير»، وقال ابن عباس : ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يعنى أخوة يوسف أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع، فذكره إخوته لوارد القوم) انتهى.

وأكاد بالمنطق أميل لرأى ابن عباس رضى الله عنه مع الاختلاف فى بعض الجزئيات، فالرأى الأول لا سند عليه ولا يوجد دليل مطلقاً على تلك المقولة لا فى ثنايا النص القرآنى، ولا فى النص التوراتى، أما رأى ابن عباس رضى الله عنه فهو رغم تأييده من التوراة بأن الأخوة هم الذين باعوا يوسف عليه السلام، ومن ثم فهم العائد عليهم الفعل ﴿وَشَرَوْهُ﴾ إلا أننى أرى - والله أعلم - أن كلمة ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ ليست فقط أسراً بل فيها سرية وإخفاء، أى أن هؤلاء السيارة عندما وجدوه احتفظوا به سراً ليبيعوه فيما بعد، إذن فكيف يمكن وصف مشهد العثور على طفل فى بئر وحول هذا البئر عشرة رجال بالسرية أو الخفاء؟ أليس ذاك مجاف للمنطق والمنطوق القرآنى ذاته؟ لذا كان الأقرب للمنطق أن الأخوة لما ألقوا يوسف عليه السلام فى البئر نفضوا أيديهم من المسألة برمتها، وعادوا لأبيهم، ولم يكونوا حاضرين لمشهد الإلتقاط بواسطة القافلة المعلوم وجهة سيرها وأنه باتجاه مصر، وهذا يعزز جهلهم التام لوجود يوسف عليه السلام فى مصر، مما يبرر إندهاشهم الشديد وهلعهم منه عندما كشف يوسف لهم عن نفسه فى مصر، وهذا هو ما

تفيده عبارة ﴿ وأسرُّوهُ بضاعة ﴾، كما أراها منطقيا تفيد السرية وليس الأسر فحسب، مما يتناقض مع القصة التوراتية التى تورد أن الأخوة قد باعوا يوسف بعشرين قطعة من الفضة للقافلة السيارة.

أما عن الآية رقم (٢٠) ﴿ وشروهُ بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾، فقد جاء فى تفسير ابن كثير عنها (والضمير فى قوله ﴿ وشروهُ ﴾ عائد على إخوة يوسف «قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك»، وقال قتادة : بل هو عائد على السيارة، والأول أقوى، لأن قوله ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة. ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه. فترجح من هذا أن الضمير فى ﴿ شروهُ ﴾ إنما هو لإخوته) انتهى.

وهنا لازلت أوافق منطقياً الرأي الثانى - الذى عده ابن كثير أضعف - رغم أن الرأى المؤيد من ابن كثير موافق للنصوص التوراتية التى تقول أن الأخوة بعد إلقائهم ليوسف فى البئر قاموا والتقطوه ثانية وباعوه لقافلة التجار ولدى أسبابى التى أوجزها فيما يلى :

١ - ما سبق أن أوردناه من تفسير لكلمة ﴿ وأسرُّوهُ ﴾ التى تقتضى السرية التى هى قرين لفعل شيء منكر يستوجب الخفاء، ولو كان هؤلاء السيارة قد اشتروه فعلاً عبداً رقيقاً بالمال فما هو وجوب السرية هنا؟ والأمر واضح مشروع فى ذلك الزمان، بل لو كان الأمر كذلك لكان حلالاً طيباً، ولما كان تعالى سيخبرنا فى تلك المسألة أنها إثم بقوله تعالى : ﴿ وأسرُّوهُ بضاعةً واللَّهُ عليمٌ بما يعملُونَ ﴾ فالعبارة الأخيرة ﴿ واللَّهُ عليمٌ بما يعملُونَ ﴾ تفيد أولاً أنه عمل لايرضى الله تعالى، ثم ثانياً تفيد سرية وخفاء فعلهم الذى مهما خفى فالله به عليم.

٢ - ﴿ فأرسلُوا واردهُمْ فأدلَى دلوَهُ قال يا بُشرَى هذا غُلامٌ ﴾، لندقق ثانية فى منطوق تلك الآية حتى نرى أن مستجلب الماء للقافلة هو الذى التقط يوسف بدلوه من البئر. إذن فهو الذى انقذه من الموت وبالتالى فهو له ملك خالص. وهل يعقل أن يكمن هؤلاء الأخوة متوارين فى الظلام حتى يلتقط هذا الرجل الغلام ثم يأتون إليه طالبين فيه ثمناً

ولو كان زهيداً؟ وكيف يبررون إذن القاء هذا الغلام في البئر؟ كيف سيوضحون ذلك لمستجلب الماء؟

ثم ألا نرى أن الآية الكريمة توضح مباشرة أنه بعد التقاط الغلام قال الذى عثر عليه ﴿ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ ﴾، قال ذلك مباشرة بعد التقاط الغلام وأى بشرى تلك لو كان سيشترى هذا الغلام بالمال؟، والمشهد لايظهر الأخوة بعد - إن كانوا قد ظهروا حقيقة - وبالتالى فهو لم يعلم أن الثمن زهيد. إذن فلإثبات الرأى القائل بأن الأخوة قد باعوه فإن ذلك يتطلب اختراع أو ابتداع حوار طويل أولاً للتبرير ثم لإيضاح الملكية ثم لطرح الثمن تم الموافقة عليه - وهذا الحوار غير موجود مطلقاً لا فى القرآن ولا الأحاديث ولا تفسيرات الأئمة الأوائل ولا حتى النصوص التوراتية.

٣- هناك تقابل وتضاد لفظى بربط المعانى فى الكثير من آيات القرآن الكريم وهنا نرى فعل ﴿ شَرَوْهُ ﴾ أى باعوه فى الآية ٢٠ من السورة ثم نرى الفعل المقابل «اشترى» فى ﴿ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ ﴾ فى الآية ٢١، أى أن هناك بيع يقابله شراء، ولما كان ﴿ الَّذِى اشْتَرَاهُ ﴾ ﴿ مِن مِّصْرَ ﴾ إذن فمن ﴿ شَرَوْهُ ﴾ كانوا هم الواقفين أمام هذا الذى اشتراه، أى أن العملية واحدة متكاملة من شقين: بيع وشراء، وعلى ذلك فمن ﴿ شَرَوْهُ ﴾ هم أهل القافلة لمن ﴿ اشْتَرَاهُ ﴾ وهو السيد المصرى ومكان البيع كان ﴿ مِن مِّصْرَ ﴾.

٤- بيع الأخوة للصبى يتنافى مع الاكتمال المنطقى للجريمة، ذلك بتواجدهم أمام شهود يشهدون على جرمهم، وخاصة أن التوراة تقول أن تلك القافلة كانت من الإسماعيليين. أى من نسل إسماعيل عليه السلام. وأبناء إسماعيل عليه السلام كما ذكرت التوراة هم اثنا عشر ابناً (التكوين ٢٥ :١٢-١٧) معروفون بأسمائهم وهم فى الوقت ذاته أعمام الجناه أو ذريتهم أى أبناء عمومة الجناة، فالفعلة هنا معروفون لبعضهم البعض من الجانبين، مما لايستقيم منطقياً مع السرية المفترضة فى تلك الجريمة، وهكذا يؤدى الاعتماد على النصوص التوراتية لتفسير القرآن للكثير من

الخلط المنافى للمنطق تماما.

٥- القصة القرآنية أظهرت حطة الأخوة وبينهم فى الآية ﴿ قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ [يوسف ١٠] فالخطة والنية كما وضحها القرآن الصادق الكريم كانت أن يُلقى يوسف فى بئر مهجور حتى ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ ولم تكن أبداً بيعاً.

٦- كون السيارة فرحوا واستبشروا بالعثور على الغلام فى البئر لايتعارض مطلقاً مع كونهم ﴿ كانوا فيه من الزاهدين ﴾ فهو صبى صغير عبارة عن بضاعة زائدة، تخضع لسعر سوق العبيد ومعياره فى الحكم على صبى صغير - وهو بضاعة لايمكن العودة بها فى حالة عدم التوفيق فى بيعها - فهم إن فعلوا سيعودون مروراً بموطن الصبى - القريب على أية حال من مواطنهم - مما سيجعله مشكلة كبيرة ويكون عبثاً فى الذهاب والمجيء لا يجر إلا المتاعب لذلك ﴿ كانوا فيه من الزاهدين ﴾.

لكل هذا ولغيره - أكاد أميل منطقياً إلى رأى قتادة فى أن الضمير فى ﴿ شروه ﴾ يعود على السيارة وليس على الأخوة، وأكاد ألمح هنا أن قضية الاعتماد على الإسرائيليات فى التفسير قد تدفع فى طريق لم يقل به القرآن الكريم، كما ألمح اختلافاً آخر بين القصة القرآنية والقصة التوراتية كان المنطق فيه - كما هو دائماً - فى صف القصة القرآنية «حيث ادعت القصة التوراتية فى غرابة شديدة أن الأخوة بعد أن ألقوا يوسف عليه السلام فى البئر انتزعوه ثانية منها ثم قاموا ببيعه لإحدى القوافل بعشرين قطعة من الفضة مما يخالف القصة القرآنية ويناقض أى افتراض منطقى».

وإلى هنا تطفأ الأنوار على مشاهد المعاناة والمكابدة والمؤامرة فى أرض كنعان ثم تضاء مرة أخرى على مشاهد أخرى تدور أحداثها فى مصر وتلك المشاهد أيضاً مجزأة لآيات منفصلة كل منها هو باب مستقل، به الأحداث والعبر والأدلة لظرف معين زمانى أو مكانى.

٤- يوسف عليه السلام فى مصر :

ومن الآن فصاعدا تحدثنا الآيات القرآنية عن الأحداث التى مر بها يوسف عليه السلام فى مصر وهى تبدأ بالآية (٢١) ، قال تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف ٢١]

وتلك الآية الكريمة يمكن تسميتها بـ (آية مرحلة الصبا) حيث أنها تصف الأحداث المحيطة بيوسف عندما اشتراه عزيز مصر ممن حملوه معهم من أرض كنعان ، وفى المدة الزمانية الواقعة قبل أن تدخل الآية التالية لها (٢٢) فى وصف الأحداث التى مرت بيوسف ﴿ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ ، تبدأ تلك الآية بذكر الشارى وتعريفه بإيجاز كما تذكر أن هذا الشارى عهد بيوسف لامرأته كى يكون عندها مع توصيات خاصة بإكرامه (توضح النصوص الفرعونية أن الغلمان كانوا يستبقون مع النساء فيما يسمى جناح الحريم حسب ما ثبت من تخطيط المنازل الفرعونية) ، ولم تذكر لنا الآية أية صفات شخصية أو وصفية أخرى لهذا الرجل ، بخلاف التوراة التى نصت [وباع المديانيون يوسف فى مصر لفوطيفار خصى فرعون رئيس الحرس] التكوين ٣٧ : ٣٦ ، ونصت على ذلك فى إصحاح آخر من نفس السفر هو ٣٩ : ١ ، وذكرت نفس الاسم والمنصب ونصت على أنه كان خصياً ثم ذكرت قصة يوسف مع زوجة هذا الرجل فى باقى الإصحاح ٣٩ ، والسؤال هنا ، هل يتخذ الخصى زوجة؟ والإجابة منطقية ومعروفة وهذا خلط توراتى آخر ترفع القرآن أن يقع فيه ، ولعل محاولة إضفاء المصداقية على القصة التوراتية بإيراد الكثير من الأسماء التى قد تحمل أصولاً فرعونية لا يلاقى نجاحاً كبيراً ، حيث أن القصص التوراتى عامة يتسم بإيراد تلك الأسماء بالنسبة لشخصيات هامشية ويترك الشخصيات المحورية مثل شخصية الملك المصرى الذى عاصر يوسف بدون أى تحديد أو تعريف .

ومن الغريب أن القصة تذكر أنه بعد نجاح يوسف من أحداث السجن وتوليه حكم

مصر ليكون فى المرتبة الثانية تحت فرعون مباشرة. قام فرعون بتزويجه [وزوجه من أسنات بنت فوطى فارع كاهن أون] التكوين ٤١ .٤٥، ومن الواضح جداً أن فوطى فار وفوطى فا رع هما اسم واحد (رع أو Ra هو معبود المصريين الأول) فهل يعقل أن يكون فى حياة يوسف فى مصر شخصان بنفس الاسم أحدهما رئيس للحرس وخصى وفى الوقت نفسه له زوجة تراود يوسف عن نفسه أما الآخر فهو أعلى رتبة دينية فى مصر آنذاك وله ابنة تتزوج يوسف بأمر فرعون، هذا مع علمنا بولع المصريين القدماء بالألقاب وتعمد إختيار ألقاب متميزة لكل شخص فى مرتبة عليا بالدولة خاصة المراتب الدينية، مما كان يعطى تميزاً وتمايزاً لكل من الشخصين رفيعى المرتبة ... تساؤلات غريبة تلك التى تطرحها النصوص التوراتية.

نعود لآيتنا القرآنية، ونقول أنه اقتصر فيها التعريف القرآنى بشخصية السيد المصرى بأنه كان ذو منصب رفيع فى البلاط الملكى المصرى، هذا المنصب الذى أشار إليه القرآن بكملة ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ مما يدل على سمو المرتبة بحيث لا تطاول، ويرجح أن هذا المنصب هو الذى تولاه يوسف نفسه بعد ذلك وبنفس المسمى أى منصب الوزير الأول فى الدولة، أما خلاف ذلك فلم يذكر لنا القرآن الكريم تفصيلات أخرى، والأهم من ذلك أن النص القرآنى فى تلك الجزئية يخلو من الشبهات التى أوردتها النصوص التوراتية وأوردنا بعضاً منها.

نمر الآن على جزئية ثانية من الآية الكريمة، حيث عهد السيد المصرى لامرأته بأمر الصبى آمراً إياها ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ فهل امتثلت؟ يبدو أن تلك العبارة ذاتها قد انطبعت فى ذاكرة الغلام الطاهر الذى ما إن بدأت تلك المرأة الفاجرة الخائنة تكشر عن أنيابها وتراوده عن نفسه وتهدده وترعبه رد قائلاً عليها ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ (يوسف ٢٣)، وكأنه هنا أدرك بعقله ما نطق به لسانه، من أن هذا السيد أو زوجته أو الناس جميعاً ليسوا هم الفاعلون لأى خير أو شر يصيب الإنسان، وليسوا هم أيضاً مصدراً للإكرام أو الإهانة، بل هى المشيئة الإلهية التى تسخر الناس لقضاء الحوائج واتمام الأمور. أدرك يوسف

هنا أن إكرام المثوى لم يكن بإرادة ومشيئة تلك المرأة وإنما فعلته تودداً واستمالة لغرض دنيء، ولكنه كان من المولى عز وجل وحده وكأن الآيات الكريمة بترادف نفس اللفظ تحمل رد يوسف «إنك لم تكرمي مثواى كما أمرك وأمنك زوجك بل خنت العهود والمواثيق وما كان إظهار الإكرام منك إلا توطئة لفعل شنيع، أما الذى أحسن مثواى وأكرمنى فكان هو الله تعالى ولست أنت».

وهنا لايزال القرآن الكريم دقيقاً جداً فى ألفاظه مما يظهر فى الفرق بين ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ للإنسانة و ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ لله تعالى، مما يتجلى فى الفرق بين كلمتى (الإكرام والإحسان)، فالإحسان مرتبة أعلى وأسمى، ولعلنا هنا نُذكر بالحديث الشريف الصحيح الذى وضح الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان، وأوضح أن الإحسان هو أعلى مراتب العبادة قاطبة، وحسب اللغة القرآنية فلا يزال حتى نقيض الإحسان أعلى مرتبة من نقيض الإكرام فنقيض الإحسان هو الإساءة. يقول تعالى : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء ٧).

أما نقيض الإكرام فهو الإهانة، يقول تعالى : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ (الحج ١٨)، والإهانة بداهة أمر أشد وأنكى من الإساءة.

إذن فالإحسان مرتبة أعلى من الإكرام ونقيض الإحسان لا يزال أيضاً مرتبة أعلى من نقيض الإكرام، وهذه الدقة اللفظية القرآنية العجيبة نراها مرعية فى آيات القرآن الكريم بدقة تصيب المدقق بالدهشة.

عموماً فيوسف عليه السلام النبى الصديق يصف دائماً أفعال الرب معه بالإحسان وليس بشىء أقل إذ يقول لأبيه وإخوته فى موضع آخر فى خاتمة القصة ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ (يوسف ١٠٠)، ولما كان هذا الصديق لاينعت أفعال الله معه إلا بتلك المرتبة الرفيعة (مرتبة الإحسان)، لذا فقد أنطق الله أعدى أعدائه ليصفوه بنفس الوصف وهم لا يشعرون، حيث قالوا له وهم يجهلون أنه أخوهم ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف

. (٧٨

نعود مرة أخرى لسياق آيتنا الكريمة لنرى كيف أن الزوج أمر الزوجة بأمر لم تحفظه ولم تمتثل له بل خانته حتى وإن كانت في الظاهر تبدو ممتثلة لأمر الإكرام ولكنه كان لغرض خفي دنيء.

ثم يقول الله تعالى على لسان السيد المصرى ﴿ عَسَى أن ينفعنآ أوْ نَتَّخذهُ ولَدًا ﴾ (يوسف ٢١)، وهنا يفصح لنا القرآن عن أن النفوس البشرية غير المشبعة بالإيمان تسعى دائماً لتحقيق المنافع الدنيوية والمادية من أى فعل تقوم به، فلا شيء هناك لوجه الله بل هى الدنيا وصراعها ومنافعها.

وهنا يتدخل اللطف الإلهى بإثارة عاطفة عميقة شديدة الأثر فى نفوس الكبار حتى يدفعهم لتعهد صغير ما فى حجورهم، فيثير فيهم غريزة الأمومة أو الأبوة بالإضافة لغريزة النفع المادى، أليس ما حدث هنا مع يوسف عليه السلام بالضبط هو ما حدث أيضاً مع نبى آخر طفل شاء الله أن يربى فى أحضان أعدائه، أليس هذا هو ما حدث مع موسى عليه السلام حينما التقطته امرأة فرعون وقالت للفرعون ﴿ وَقَالَتِ امْرأتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ عَسَى أن يَنفَعَنَآ أوْ نَتَّخذهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (القصص ٩).

فالنبى الطفل فى بيت العدو كالفريسة فى فم الوحش، يحميها الله من البطش بإثارة غريزة الأبوة أو الأمومة، فيحل الحنو محل الإهلاك وسبحان الله العظيم.

هنا وفى هذا المشهد نرى طفلاً صغيراً مستضعفاً، يباع عبداً رقيقاً، تقوم على تربيته وتعهده امرأة لا ترعى عهداً ولا ذمة جل ما تطمح إليه من تربيته هو النفع المادى ... ونرى أن تلك الظروف هى قمة الضعف وقلة الحيلة، هنا وفى هذا المشهد بالذات يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأرْضِ ﴾ أى أن ما سنراه نحن بعيوننا البشرية العاجزة عن كشف الحجب والأستار هو نفسه ما يراه المولى النقيض تماماً. فنحن هنا نرى الضعف والهوان أما المولى وفى هذا المشهد بالذات فيرى ويرينا أن تلك اللحظة كانت لحظة التمكين والسيادة والعزة والقوة، ودائماً فقدر الأنبياء والرسل العظام أن يتم تمكينهم

وعزتهم فى الغربة وفى أرض الهجرة، وبين التكذيب والمؤامرات والعداوة ... فالأنبياء والرسل يختلفون عن البشر العاديين فى ذلك ... فلحظات الضعف التى تمر بهم وتحيطهم هى عينها لحظات القوة والسيادة ... وما تحسبه الحسابات البشرية من أنه لحظة الإنكسار فى مسيرتهم هو عينه بشير العزة والنصر وسبحان الله العظيم .. أوليست تلك هى اللحظة التى تستحق من المولى عز وجل أن يقول لنا حكمته الخالدة ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

إذن فالخلاصة أن ذكر التمكين والغلبة فى تلك اللحظات جلية الضعف والانكسار لهو من دور الحكمة الإلهية ومما يتميز به الأسلوب القرآنى الذى يظهر دائماً مقدرة وعلم الإله والأسلوب الربانى الخفى على البشر دائماً حيث تتمخض النعمة من وسط المحنة والسراء من بعد ظلام الضراء.

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح ٥، ٦)

ولعل القارئ الكريم يلمس بسهولة أن ﴿ مع ﴾ هنا تفيد التلازم والامتزاج بين الضدين، أو ليس ذلك بالضبط هو ما ترمى إليه الآيات الكريمة ﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة ٢١٦).

وقوله تعالى : ﴿ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء ١٩).

وقوله تعالى : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (النور ١١)

فعلى المؤمن الحق العارف بطرق الله ولطيف أحكامه ألا يقنط أو ييأس، فقد تكون لحظة الضعف الشديد والتى يحسبها النهاية هى تمكين من الله وغلبة ونصرة.

وهنالك ملاحظة أخرى نستطيع أن نراها من العبارة القرآنية التى وردت فى نفس الآية ٢١ ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ تشهد بعبقرية الأسلوب القصصى القرآنى، فتلك العبارة وردت كما أسلفنا فى بداية الأحداث وفى قمة ضعف يوسف، العبد الأسير الحبيس فى دار السيد المصرى وتحت سيطرة امرأته وعرضة للاستغلال مما يثير دهشة

القارئ . . . ثم تمر الأحداث ويتصاعد الصراع وينتهي بانتصار يوسف وتحقيق هذا الوعد الرباني أمام أعين قراء القصة. فلا يفوت القصة القرآنية هنا أن تذكر بنفس العبارة السابقة في نهاية الأحداث كما ذكرتها في بدايتها وكأنها تقول هاكم مصداق العبارة التي أدهشتكم في بداية الأحداث رأيتموها بعد أن مررتم بالأحداث ووصلتم للنهاية.

يقول تعالى بعد أن أيد يوسف عليه السلام بنصره وأقر له الملك بهذا التمكين ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (يوسف ٥٤)، فها هي أعلى سلطة ببلاد العربة - ملك مصر - تقر له بالتمكين وهنا يكون التذكير الرباني ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (يوسف ٥٦).

فأحداث الصراع من القاع للقمة في تلك القصة تبدأ بيوسف الضعيف في ضيق الأسر وتذكر نفس العبارة حينذاك ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ثم تنتهي بالإنتصار وتحقيق النبوءة بالقوة والسيادة في رحابة الأرض كلها مذكرة بنفس العبارة بنصها مما يظهر عبقرية الأسلوب القصصي وإبداعه.

أعود ثانية لنفس الآية وقبل أن نغادرها لما يليها ونذكر أن الآية هي وصف للإعداد الرباني ليوسف عليه السلام في مرحلة الطفولة والصبا قبل أن يتولى المهام الملقاه على عاتقه وهنا لا تنسى الآية القرآنية الكريمة أن تذكرنا بأن تلك المرحلة كانت مرحلة تمهيدية للتدريب والتهيئة انتظاراً لاكتمال النضج عندما يبلغ أشده. يقول تعالى في ذلك ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ فتلك المرحلة كانت مرحلة تعليمية تدريبية في نفس خط المعجزة التي سيؤيده الله تعالى بها لإتمام نصره حينما تحين اللحظة الفاصلة . . . أوليست تلك هي الخطة الإلهية دائماً في إعداد الرسل والأنبياء حيث قضوا جميعاً الشطر الأول بل وغالباً الشطر الأكبر من حياتهم في مرحلة الإعداد هذه قبل أن تلقى إليهم مهماتهم وهم على درجة من النضج الكافي للقيام بأعبائها . . . أوليس ذلك هو ما جرى لمحمد ﷺ وعلى موسى وعلى المسيح عليهما السلام . . . . الخ.

جاء في تفسير ابن كثير عن مدة تلك الفترة [قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث

وثلاثون سنة وعن ابن عباس : بضع وثلاثون وقال الضحاك : عشرون وقال الحسن : أربعون سنة، وقال عكرمة : خمس وعشرون وقال السدى: ثلاثون وقال سعيد بن جبير : ثماني عشرة سنة، ولعل ما ذهب إليه الحسن البصرى هو الأرجح] انتهى.

وأقول لعل ما ذهب إليه أحدهم يكون صحيحاً، وقد يكون الجميع مخطئين فلا سند من قرآن أو حديث صحيح على أى منها، ولعل هذا الاختلاف الشديد والتباين هو ما ذكرنا قبلاً أنه يندرج تحت باب الكلام بلا دليل مما يفسر هذه القائمة الطويلة بالأراء المتناقضة، عموماً ولاكتمال القائمة تقول التوراة [وكان يوسف فى الثلاثين من عمره عندما مثل أمام فرعون ملك مصر] التكوين ٤١ : ٤٦.

أما نحن فنقول أن كل هذه الأقوال جائزة وكلها أيضاً غير جائزة حيث لايوجد سند قرآني يعضد أياً منها.

ومن المهم فى تلك الآية ملاحظة أن الله عز وجل كان يعد يوسف عليه السلام فى تلك الفترة بتعليمه ﴿ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ جاء عن ذلك فى تفسير ابن كثير [عن مجاهد والسدى هو تعبير الرؤيا] وأرى والله أعلم أن ﴿ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أمر أعم وأشمل وأكثر من تأويل الرؤى فقط، فمثلاً يوسف الصبى العبرانى الذى كانت لغته الأصلية العبرية كان محتاجاً لفترة طويلة ليتمكن من اللغة المصرية القديمة ويملك ناصية بيانها وهى مختلفة تماماً عن اللغة العبرية فى كل شيء (تقول النصوص التوراتية أن يوسف عليه السلام لما أصبح عزيز مصر كان يكلم إخوته حال مثولهم أمامه وقبل أن يكشف لهم عن شخصيته باللغة المصرية التى كانت تترجم لهم عن طريق مترجم حيث أنهم جميعاً كانوا يتكلمون العبرية فقط، التكوين ٤٢ : ٢٣).

وأيضاً فيوسف هذا الصبى الصغير الذى اختطف من حجر أبيه طفلاً بالقطع لم يكن عنده إدراك كافٍ ووعى تام بعقيدة التوحيد التى تنزلت على جده الأكبر إبراهيم، وكان محتاجاً لفترة من التأمل والتفكر لإدراك فساد العقيدة الوثنية المحيطة به وبالتالى التمرد على تلك البيئة الثقافية وإدراك الصحيح والعودة إليه، وهجر عبادة الأوثان كما فعل جده

الأكبر إبراهيم عندما وصل للحقيقة الصحيحة عن طريق التأمل بل مثلما فعل محمد ﷺ الذى رفض عبادة الأصنام وقضى سنين طويلة متأملاً ناسكاً فى وحدة الغار.

يقول تعالى على لسان يوسف عليه السلام فى خطابه لصاحبى السجن ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّه وهُم بِالآخِرةِ هُمْ كَافِرُونَ * واتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِى إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ ما كَانَ لَنَآ أن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ (يوسف ٣٧-٣٨).

وقطعاً فترك الملة الفاسدة والدخول فى الملة السليمة من جانب إنسان عاش منذ نعومة أظافره فى بيئة تتنفس الملة الفاسدة كان محتاجاً لوقت وتأمل وتدبر وفهم للأحاديث والروايات والمقولات ووزنها معاً للوصول للحقيقة.

أيضاً كان الصبى محتاجاً لاكتساب الكثير من الحكمة التى هى أشمل من تعبير الرؤى، فيوسف عليه السلام فى بلاط الملك لم يقتصر دوره فقط على تفسير الرؤى بل امتد لدور أهم وأخطر وهو تدبير الخطط الاقتصادية التى أنقذت مصر من المجاعة ... ولم يكن ذلك نتيجة لرؤى يرتئيها يوسف عليه السلام بل كان نتيجة لحكمة ودراية وعلم .. أيضاً فالأسلوب الذى اتبعه يوسف مع إخوته وكل الحيل التى اتبعها معهم حتى عاقبهم على فعلتهم ثم إحضاره لهم ولأبويه وأخيه الشقيق من أرض كنعان مع باقى عشيرته وتوطينهم فى مصر كان يحتاج لا فقط لحكمة وذكاء بل لدهاء ومكر شديد قال الله تعالى فى حقه ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف ٧٦).

إذن فرؤيتى الشخصية للعبارة القرآنية ﴿ تأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ لايتوقف فقط عند تأويل الرؤى وتعبيرها - بل أرى من واقع القصة القرآنية ذاتها أنه معنى أشد وأعمق وأوسع يشمل بجانب تأويل الرؤى: اللغة الأجنبية وفقه العقيدة والتخطيط الاقتصادى والمهارات العقلية المختلفة، والله عز وجل يورد كلمة (تأويل الرؤى) لذاتها حينما يرتئى ذلك فى مقام ما كما جاء فى عدة ايات بالسورة منها ٣٧، ٤٤، ٤٥، ١٠٠.

أما المقصود فى الآية ٢١ (آية التدريب والتمهيد) فكان ﴿ تأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ وهو قطعاً مختلف تماماً عن تأويل الرؤى فى اللفظ وفى الهدف.

كلمة أخرى نقولها فى النهاية تتعلق بالمناخ والمكان الذى احتاره الله تعالى ليوسف عليه السلام لهذا التدريب والتمهيد، ألا وهو بلاط قصر ملكى لأحد قادة ملك مصر العظام، وكما هو معلوم من وقائع التاريخ، فدائماً تكون الأجنحة الداخلية لتلك القصور وخاصة تلك التى تتخذ مسكناً للنساء والأطفال هى مهد لكل المؤامرات والدسائس والمكائد التى تقود الأحداث فعلياً بالإمبراطوريات المختلفة، ولعل مكاناً كهذا المكان يفتح الأعين على الكثير من تلك المناورات مما ينمى مواهب الذكاء والحكمة والحذر وغيرها ولعل مكاناً كهذا كان هو الأصلح للتدريب المبدئى لكثير من الأنبياء المتسمين بالذكاء والحكمة والفطنة مثل يوسف وموسى وسليمان عليهم السلام.

إلى هنا تتوقف الخواطر والعبر التى رأيناها فى الآية ٢١ من السورة وما أكثرها ثم تنتقل بنا السورة الكريمة للآية الكريمة ٢٢، قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف ٢٢)

وهنا نرى أنه بنهاية مرحلة الإعداد والتدريب التمهيدية والتى استغرقت المرحلة السنية الأولى من عمر يوسف عليه السلام، اختصت تلك الآية ٢٢ بمرحلة ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ فى كلتا الجزئيتين الموضحتين بالآية السابقة أولاهما عمرياً وبدنياً وثانيهما فى النضج العقلى والخبرة اللازمة، فى المرحلة الأولى كان هناك التعلم والتدرب فى المدرسة التى اختارها له الله عز وجل وفى الثانية تم إضفاء نعمة الله بعد نضج الثمرة حيث توج الله عز وجل مجهوده وإخلاصه بأن وهبه ﴿ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾، فيوسف عليه السلام هنا (سلك فملك) أى جد واجتهد فبارك الله عمله ووفقه فيه وزاد عليه بأن توجه بجائزة من عنده، وهكذا فالله عز وجل لايعطى عباده الثمرة إلا بعد أن يكونوا مهيئين لتقبلها وإلا بعد أن يسلكوا الطريق إليها بجد وعزم واجتهاد .. وهنا نرى أن المنح الإلهية لا تتساقط جزافاً فوق رؤوس الناس وهم قاعدون غافلون بل تأتى لمن يستحقها ويعمل من أجلها أعمالاً تصل لمرتبة (الإحسان) التى سبق وأن أوضحنا أنها أعلى المراتب، ولعل ذلك هو ما قصده تعالى فى ختام نفس الآية ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾. أى أن تلك الهبة الإلهية العظمى

من (الحكم والعلم) كانت جزاء من المولى عز وجل ليوسف لأنه وصل بعمله وجهده في الطريق إليها لمرتبة الإحسان.

أوليس ذلك هو ما قرره تعالى أيضا بالنسبة لموسى عليه السلام وبنفس النص في سورة القصص ﴿ ولمَّا بلغ أشُدَّهُ واستوى ءاتيناهُ حُكمًا وعلمًا وكذلكَ نجزي المُحسنين ﴾ (القصص ١٤)، وتلك عبرة نستخلصها من تلك الآية ومن ترتيبها في السياق ودلالة ألفاظها ينبغي على البشر جميعاً أن يرعوها فلا جزاء إلا بعد عناء ولا امتياز إلا لمن جاهد وفاز.

وأود أيضاً أن أتناول العبارة الإلهية في تلك الآية ﴿ حُكمًا وعلمًا ﴾ والتي تشير إلى مدلول شرعي عظيم. فقد أثبت الله عز وجل تلازم الحكم والعلم لتحقيق الأهداف لكثير من أنبيائه ورسله المنوط بهم جليل الأهداف، فهو تعالى قد أثبتهما ليوسف في تلك الآية متلازمتين، وكذلك أثبتهما لداود وسليمان عليهما السلام في قوله تعالى ﴿ ففهَّمْناها سُلَيْمانَ وكُلاً ءاتيْنا حُكمًا وعلمًا ﴾ (الأنبياء ٧٩)، وأثبتهما للوط عليه السلام ﴿ ولُوطًا ءاتيْناهُ حُكمًا وعلمًا ﴾ (الأنبياء ٧٤)، وأثبتهما لموسى عليه السلام في قوله تعالى ﴿ ولمَّا بلغَ أشُدَّهُ واستوى ءاتيْناهُ حُكمًا وعلمًا ﴾، وأثبتهما لطالوت ملك إسرائيل ﴿ قالَ إنَّ اللَّهَ اصطفاهُ عليْكُمْ وزادهُ بسطةً في العلمِ والجسمِ واللَّهُ يُؤتي مُلكهُ من يشآءُ ﴾ (البقرة ٢٤٧)، فتلازم الحكم والعلم شيء حيوي للغاية فيمن أنيطت بهم مهام إنقاذ أمم بأسرها، فالحكم بلا علم - العلم الفقهي والعلم الدنيوي أيضاً - يقود للاستبداد والتسلط والسفه، والعلم بلا حكم قد يكون ضعيفاً لايجد الأداة التنفيذية للتغيير والإصلاح فلا ينعكس له أي أثر على مجريات الأحداث، ولعل في هذه العبارة ﴿ حُكمًا وعلمًا ﴾ لرد كاف على دعاة انفصال الدين عن الحياة وحاملي مقولة أنه لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، فالعلم بشقيه الديني والدنيوي لازم وأساسي للسياسة السليمة العادلة، والعلم أيضاً يلزمه حكم يتخذه منهاجاً له، وإلا تحول إلى نظريات وأفكار «أكاديمية» محبوسة بين دفتي الكتب ولا يرجى منها نفعاً ... فتلازم كلمتي ﴿ حُكمًا وعلمًا ﴾ إذن هو أول دعوة في

تاريخ الإنسانية لما يسمى (تطبيق العلوم والعلوم التطبيقي) والتى تنسب للثورة الصناعية الأوروبية فى القرون الثلاث الأخيرة والتى حرجت بالعلم من محابسه الأكاديمية وأعطته الأداة والقوة للتطبيق والتنفيذ أى أعطته حكماً.

وهناك حكمة أخرى وعبرة جديدة نستخلصها من تلك العبارة ﴿ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ وهى رد على المقولة التى تريد بالإسلام وأهله شراً وتخلفاً عن الركب وانغلاقاً عن التقدم، وهى المقولة بأن العلم المقصود قرآنياً ودينياً هو العلم الشرعى الفقهى فقط، وليس أبداً بالعلوم الأرضية المادية. فنحن نرى من تلك القصة القرآنية أن علم يوسف عليه السلام الذى غير مجرى الأحداث كلها كان علماً مادياً أرضياً يشمل علوم الزراعة وفنونها وعلوم التخطيط الاقتصادى من قبل إنسان عنده أيضاً الوفير من علوم الشرع والفقه، أى أن تلازم نوعى العلم كان هو سبب النجاة ليس لمصر وحدها، بل أيضاً لبنى إسرائيل حاملى رسالة التوحيد فى ذلك الزمان البعيد ومما أدى لاحقاً إلى صعود نجمهم وتدميرهم للإمبراطوريات المحيطة بهم وبالتالى انتصار دين الله على أديان الشرك. فالعلم الأرضى المادى الدنيوى مطلب حيوى أساسى يستمد منابعه الأولى من القرآن الكريم ذاته كما أظهرت تلك القصة وكل قصص الأنبياء الآخرين المؤيدين بالحكم والعلم معاً.

ولقد راودت فكرى بعض الأسئلة مما قد يراود ذهن القارئ الكريم، وتتعلق بتلك الآية منها قوله تعالى فى حق يوسف عليه السلام ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ بينما قال تعالى عن موسى عليه السلام ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾، أى أن الفرق الوحيد بين النبيين الكريمين قبل أن يؤتيهما تعالى الحكم والعلم، كان أن يوسف عليه السلام احتاج فقط لأن يبلغ أشده، بينما احتاج موسى عليه السلام أن يبلغ أشده ويستوى، وتلك حكمة قرآنية دقيقة تحتاج للتمحيص والتأمل الشديد فى قصة كلا النبيين قبل أن يسبغ الله على كليهما نعمة الحكم والعلم، وأرى أن تفسير تلك الحكمة يأتى فى الآية اللاحقة مباشرة لآية الحكم والعلم فى القصتين فى موضعيهما المتباعدين .. فكل من النبيين الكريمين مر فى الفترة

الأولى من اشتداده بتجربة شيطانية وفتنة لاختبار الإيمان والتقوى. فيوسف الصديق مر بتجربة الافتتان بالزنا. وموسى عليه السلام مر بتجربة القتل (حتى وإن عده الكثيرون وأنا منهم «قتلاً خطأ») فنجح يوسف في التجربة ووقع فيها موسى عليهما السلام.

ففي الآية التالية مباشرة لآية الحكم والعلم في قصة يوسف، قال تعالى ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (يوسف ٢٣)

وهنا نرى كيف استعصم يوسف عليه السلام وأبى الوقوع في أحابيل الشيطان، بينما الآية التالية مباشرة لآية الحكم والعلم في قصة موسى عليه السلام من سورة القصص تخبرنا ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ (القصص ١٥).

إذن فقد اجتاز يوسف عليه السلام الاختبار الأولى بينما أخفق موسى عليه السلام وإن كان قد أدرك فوراً سبب هذا الإخفاق مما يستبين من تذكره لأعمال الشيطان وأساليبه فوراً وتعلمه العبرة من الدرس.

لذا فقد احتاج موسى عليه السلام أن يمر بفترة استواء مما لم يحتاجه يوسف الصديق قبل أن يدخل في خضم الأحداث المؤدية لانتصار العقيدة، يقول مختار الصحاح في التفسير اللفظي لفعل (استوى): [و (استوى) من اعوجاج و (استوى) الشيء اعتدل] انتهى. أي أن الاستواء هنا هو مرحلة من الاستقامة والاعتدال والتوبة والتدبر احتاجها موسى النبي الكريم قبل أن تبدأ معركته ولعل تلك هي فترة النفي التي امتدت من ثماني إلى عشر سنوات في أرض مدين. أي أن الفتنة في تلك الحالتين كانت اختباراً نهائياً قبل الدخول على مهمة الرسالة اجتازه يوسف ولم يجتزه موسى عليهما السلام، وهذا هو قدر اجتهادي في تلك المسألة.

ولعل قارئاً كريماً يتساءل ألم يقض يوسف عليه السلام فترة في السجن مماثلة لتلك

الفترة التى قضاها موسى عليه السلام فى المنفى؟

وأرد قائلاً : إن الفترة فى كلتا القصتين غير متماثلة أبداً للأسباب التالية :

١- كانت فترة السجن بالنسبة ليوسف عليه السلام جزءاً هاماً ورئيسياً فى معركته خرج بعدها مباشرة لتولى زمام الأمور والحكم .. أى من السجن للعرش، وكانت أحداث السجن ذاتها جزءاً لا يتجزأ من الأحداث التى أوصلت يوسف للحكم، أما فى قصة موسى عليه السلام .. ففترة النفى لأرض مدين كانت فترة تعتبر «خارج الأحداث الحقيقية» حيث أن الله عز وجل لم يكلمه ولم يلق له بمهمته من الذهاب لفرعون إلا بعد انقضاء تلك الفترة بأرض مدين وفى طريق عودته بأهله لأرض مصر، مما يشير إلى أن فترة النفى بأرض مدين كانت فترة إضافية للتدريب والتهيئة والاستعداد ولم تكن ضمن أحداث الصراع الحقيقى مع قوى الشر .

٢- دخول يوسف عليه السلام للسجن كان باختياره ورغبته وإرادته التى لباها له الله عز وجل حفظاً من جهة ودفعاً للأحداث فى وجهتها التى أرادتها المشيئة الإلهية من جهة أخرى حيث أن يوسف عليه السلام دعا ربه ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ (يوسف ٣٣) فاستجاب الله تعالى لدعوته ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (يوسف ٣٤) ، أما فى حالة موسى عليه السلام، ففترة النفى كانت خروجاً للهرب بعد ارتكاب فعل ظالم اقتضى منه استغفاراً وتوبة واسترحاماً، حيث قال عليه السلام ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (القصص ١٦) ، لذا خرج موسى من مصر هارباً ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص ٢١) ، إذن فيوسف عليه السلام دخل السجن بريئاً وموسى عليه السلام خارج من مصر جانياً ، ولذا شاء تعالى أن تكون فترة سجن يوسف واقعة وسط الأحداث بل هى الطريق الوحيد لنصرته وتمكينه فى الأرض، أما تلك الفترة بالنسبة لموسى فكانت بعيدة عن الأحداث وخارج نطاق المهمة الإلهية أى كانت فترة احتاجها ليستوى أى ينضج ويتوب ويتعلم الدرس .

ولعلى هنا أصاب بالدهشة والرهبة من عظمة إحكام القصص القرآنى بشكل يجل عن الأسلوب البشرى وقدرة الذاكرة والإحكام الإنسانية، فتماثل الألفاظ والعبارات فى كل المواضع كان هو المؤشر الأول بل والحقيقى للمقارنة بين قصتى يوسف وموسى عليهما السلام فى كل المراحل، مما لا يتكرر بهذا الشكل الواضح فى أية قصة أخرى بالقرآن المجيد، ومن ثم يدفع بالقارئ المتمحص قسراً لتذكر القصتين معاً.

وللعجب العجاب أنه بعد أن يتأمل المرء القصتين يتذكر فوراً أن يوسف عليه السلام كان هو من أدخل بنى إسرائيل أرض مصر، أما موسى عليه السلام فكان هو الذى أخرجهم منها، لذا أرى أن دخول يوسف عليه السلام السجن كان رمزاً نابضاً متماثلاً لدخول بنى إسرائيل لمصر .. دخل يوسف السجن ضعيفاً صغيراً ودخل بنو إسرائيل مصر ضعفاء جياع كمجموعة بشرية صغيرة لا حول لها ولا قوة، ثم بعد انقضاء فترة السجن أيد الله يوسف بالمعجزات المتمثلة فى تأويل الرؤى حتى يخرج من السجن للحكم وكان ذلك هو حال بنى إسرائيل حينما أراد لهم الله الخروج من مصر (سجنهم) حيث كانت هناك آيات موسى التى تتحقق وأسماها القرآن ﴿ تِسْعَ ءَايَاتٍ ﴾ (الإسراء ١٠١) وكذلك فى (النمل ١٢)، مما أسمته التوراة بالضربات الإلهية.

لذا فدخول يوسف السجن كان اسقاطاً رمزياً عجيباً عن دخول بنى إسرائيل للسجن فى مصر بتماثل لايخفى .. أما خروجهم فكان كخروج موسى تماماً ﴿ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ .. كان هذا الخروج من مصر فى الحالتين هرباً من الموت والهلاك ولولا نصرة الله عز وجل ما تم هذا الخروج فى أيهما، حيث أن موسى ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص ٢١)، هؤلاء القوم الذين ﴿ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ (القصص ٢٠)، وكذلك كان حال بنى إسرائيل عند خروجهم خائفين يترقبون الهلاك والقتل حيث قالوا لموسى ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (الشعراء ٦١).

فدخول يوسف (الذى أدخل بنى إسرائيل مصر) للسجن كان رمزاً قرآنياً إلهياً لدخول القوم لفترة سجنهم فى أرض مصر، وكان هذا الدخول ليوسف طريقاً لاعتلاء

الحكم والنصر وكان كذلك لبنى إسرائيل الذين تكاثروا وتقووا وصاروا يعدون بمئات الآلاف إبان إقامتهم فى مصر بعد أن كانوا سبعين نفساً فقط كما تذكر التوراه.

أما خروج موسى عليه السلام من مصر بعد حادثة القتل، فكان رمزاً قرآنياً إلهياً لخروج القوم من سجنهم - أى من مصر - مع تماثل الحال من حيث الخوف والترقب للهلاك لولا نصرة الله في كليهما، يوسف يدخل السجن بإرادته ليستقر ويقوى شأنه وكذلك بنو إسرائيل يدخلون مصر بإرادتهم ليستقروا ويتكاثروا ويقوى شأنهم، أما موسى فيخرج من مصر مخافة الهلاك للقصاص وبنو إسرائيل كلهم من بعده يخرجون مخافة إهلاك فرعون لهم بمؤامرات مثل قتل الأبناء واستحياء النساء، وموسى يخرج ﴿ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾، وكذلك يخرج بنو إسرائيل. وموسى يخرج لفترة تهيئة وتوبة واستواء قبل أن يتولى مهامه وكذلك بنو إسرائيل يخرجون لفترة تيه مدتها أربعون سنة فى صحراء سيناء قبل أن يعهد الله تعالى لأبنائهم بدخول الأرض المقدسة وإقامة حكم التوحيد .. فسبحان الله العظيم الذى لايقدر سواه أن يحكم الحبك لا للأحداث فقط فى هذا الزمان البعيد ولكن للأسلوب القصصى الذى يرويها نفسه، وها نحن نرى ما يسميه المتحذلقون حالياً ويدعون ابتداعه مما يسمى (الرمزية فى القصة) يظهر واضحاً جلياً فى سطور القرآن الذى أتى الله فيه من كل شيء مثلاً ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف ٢١).

وقبل أن انتهى من خواطرى التفسيرية حول الآية ٢٢ من سورة يوسف أود أن أشير إلى نقطة أخرى تتجلى فى لغة القصص القرآنى وتنم عن دقة شديدة فى التناول، تلك النقطة تجرنا لها أيضاً عبارة ﴿ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾، وقد أسلفنا أن الله عز وجل أثبت تلك الهبة الإلهية (الحكم) لكثير من الرسل والأنبياء بالتخصيص، مثل إبراهيم وموسى ويوسف وداود وسليمان ولوط وعيسى ويحيى وغيرهم بل ومحمد ﷺ فى أكثر من آية. ونستطيع القول بأن الأنبياء والرسل جميعاً قد أتاهم الله ﴿ حُكْمًا ﴾ استناداً إلى الآية ﴿ أُوْلَآئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ (الأنعام ٨٩)، والحكم كما هو معلوم يعنى الفصل فى الأمور وتسيير دفتها ولا ينبغى لذلك أن يتوج المرء ملكاً أو حاكماً

له عرش وتاج ومظاهر معينة، وكم من ملك ذو تاج وعرش كان يسيره ويسير الأمور من خلاله رجل آخر أو بطانة من الناس لاتظهر في واجهة الصورة مثل حال ملوك بريطانيا وغيرها الذين (يملكون ولا يحكمون) حسب التعبير السياسي الرسمي البريطاني، إذن فهناك فصل بين معنيي الحكم والملك وهذا يظهره الأسلوب القرآني بدقة شديدة تنبىء عن معرفة عميقة بأحداث التاريخ.

فالحكم أثبته القرآن الكريم لكل الأنبياء والرسل الكرام ومنهم محمد ﷺ الذى أثبت له القرآن الحكم في كثير من الآيات مثل:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (النساء ١٠٥).

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء ٦٥)

وقال تعالى. ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ (المائدة ٤٢)

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ (المائدة ٤٢)

وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة ٤٩)

وغيرها الكثير الكثير.

أما الملك بمظاهره وهيئته فقد رفضه الرسول الكريم ﷺ بإباء وشمم حينما قال له كفار مكة (إن كنت تبغي من ذاك الأمر مُلكاً سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك). فمحمد ﷺ كان له الحكم وهو الفعل الحقيقي لكنه لم يطلب ملكاً بمظاهره وهيئته وكان هذا أيضاً هو نصيب لكل الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله. أما الملك بهيئته ومسمياته وعرشه وتاجه ومظاهره فقد أعطى لبعض الأنبياء والرسل فجمعوا بين الحكم والملك لأهداف ارتآها مسير الأكوان ومن هؤلاء يوسف عليه السلام، حيث أعطاه الله الحكم في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (يوسف ٢٢) وأيضاً أتاه الله الملك كما يظهر في شكره عليه السلام لربه ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ

الأحاديث ﴾ (يوسف ١٠١).

وكذلك كان داود وسليمان عليهما السلام لهما الحكم حيث قال تعالى فيهما ﴿وَكُلاً ءاتَيْنا حُكْمًا وعلمًا﴾ (الأنبياء ٧٩)، وقد وهب الله لكل منهما الملك أيضاً، فمن جهة داود عليه السلام قال تعالى فيه ﴿وءاتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ﴾ (البقرة ٢٥١)، وقال تعالى فيه أيضاً ﴿وشددنا مُلْكَهُ وَءاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (ص ٢٠)، وأما عن سليمان عليه السلام فقد قال تعالى ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ (ص ٣٥).

وكان أن استجاب الله له بالملك المؤيد بالمعجزات الخارقات الذى لم يتسن لأحد من بعده، ولعل هذا المثال ليظهر مدى المعرفة القرآنية العميقة بأحوال التاريخ الإسرائيلى ودقائقه التى لم تكن متاحة لمحمد ﷺ إن كان - حاشا لله - يفترى القرآن. فالتاريخ التوراتى الإسرائيلى يقول بين ثنايا السطور أنه كان هناك فى بنى إسرائيل دائماً ملوك وأنبياء فى نفس الوقت والملوك لم يكونوا أنبياء والأنبياء لم يكونوا ملوكاً، وذاك صحيح فى بعض الجزئيات وليس بصحيح على الشمول والتعميم. وصحته تلك فى بعض الجزئيات لم يغفلها القرآن الكريم بل أثبت علمه بها ومعرفته بتلك الدقائق التاريخية فى مواقع عدة مثل قصة طالوت مثلاً إذ قال تعالى فى القرآن الكريم ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُواْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة ٢٤٧-٢٤٨).

فهنا نرى فى بنى إسرائيل نبياً معاصراً لملك هو طالوت أول ملوك بنى إسرائيل (أى كان هناك نبى وكان هناك ملك فى نفس الوقت) مصداقاً لقوله تعالى فى خطاب موسى عليه السلام لبنى إسرائيل ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ (المائدة ٢٠)، أى جعل فيكم هؤلاء وهؤلاء وربما فى نفس

التوقيت.

فالقرآن الكريم لاينكر بل يثبت بدقة شديدة أن التاريخ الإسرائيلى كان فيه ملوك وكان فيه أنبياء، وقد يكونوا معاصرين، وليس كل نبى فيهم ملك، كما أن كل ملك ليس بنبى. تلك هى الجزئية الصحيحة من التاريخ الإسرائيلى التوراتى وتلك هى التى أيدها القرآن. أما الجزئية المغلوطة فهى إطلاق التوراة لذلك على التعميم، حيث أن التوراة مثلاً تقول أن داود كان ملكاً وكذلك سليمان ولم يكونوا بالأنبياء ودائماً كان هناك أنبياء معاصرين للملوك ولم يجتمع الملك والنبوة فى إنسان واحد أبداً.. ونقول أن القرآن قد أظهر علماً أوسع من التوراة بالتاريخ الإسرائيلى حيث أثبت وجود الثلاثة استثناءات من تلك القاعدة والذين أوردناهم قبلاً وهم يوسف وداود وسليمان.

فعن يوسف عليه السلام، لم تقل التوراة صراحة أنه كان نبياً بينما أوردت قصته كلها ومعجزاته من تأويل للرؤى والتنبؤ بالغيب على الرغم من أن الفكر التوراتى بأكمله يقصر النبوة فقط على الرؤى الصحيحة وتفسيرها مما يعطى النبى القدرة على التنبؤ بالمستقبل والغيب وهذا ما كان ليوسف - حسب النصوص التوراتية -، فلم لم تقل التوراة صراحة نبوته؟ أيكون ذلك خوفاً من إثبات أحقيته فى ميراث يعقوب (إسرائيل) بالكامل مما يتناقض مع تقسيم هذا الميراث المزعوم (فلسطين) بين الإثنى عشرة سبطاً ورغم حصول يوسف وابنيه (إفرام ومنسى) على ضعف ما حصل عليه باقى الأخوة؟ كما أن القصة التوراتية لاتخفى أن يوسف تولى الملك فعلياً على مصر بكل ما فيها من رعية بما يشمل أخوته وذريتهم القاطنين فيها [ونزع فرعون خاتمه من يده ووضعه فى يد يوسف، وألبسه ثياب كتان فاخرة وطوق عنقه بطوق من ذهب، وأركبه فى مركبته الثانية، ونادوا: «اركعوا أمامه». وأقامه والياً على كل أرض مصر. وقال فرعون ليوسف: «أنا فرعون؛ ولا أحد يمكن أن يحرك ساكناً فى كل أرض مصر من غير إذنك». ودعا فرعون اسم يوسف صفنات فعنيح (ومعناه بالمصرية القديمة مخلص العالم أو حافظ الحياة)] التكوين ٤١: ٤٢-٤٥.

إذن فيوسف توراتيا كان للدقة نبيا وملكاً فى ذات الوقت كما أقره القرآن ولم تقل به التوراة خاصة فى جزئية النبوة.

أما عن داود وسليمان، فتقول التوراة أنهما كانا ملوكاً لبنى إسرائيل (على مملكة يهوذا) فقط ولم يكونا أنبياء وتلك مقولة مغلوطة تماماً على ضوء تعريف التوراة ذاتها للنبوة ومن سيرة النبيين الكريمين اللذين كانا نبيين وملكين فى نفس الوقت وكما سيأتى فى الكتاب الخاص بـ (داود وسليمان) إن شاء الله مما يثبت ليس فقط المعرفة القرآنية بدقائق الفكر والتاريخ الإسرائيلى بل يثبت أيضاً التصحيح القرآنى لذلك التاريخ الذى لايستقيم إلا بالرواية القرآنية فقط.

ولتلخيص ما سبق نقول أن الحكم هو هبة ربانية أعطاها الله لكافة الأنبياء، وأن الحكم لا يقتضى وجود الملك، كما أن الملك لا يقتضى وجود الحكم .. والقاعدة الإلهية كانت دائماً فى صف وجود الحكم للأنبياء وليس الملك إلا فى استثناءات قليلة اعترف بها التاريخ، وأقر بها القرآن وحده فقط.

٥- يوسف عليه السلام وفتن النسوة :

تتوالى الآيات الكريمة بعد ذلك من الآية ٢٣ وحتى الآية ٣٥ مشتملة على الفتنتين اللتين تعرض لهما يوسف عليه السلام فى منزل الحاكم المصرى ومن نسوته إذ يقول تعالى:

﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون * ولقد همت به وهم بها لولا أن رءا برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين * واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم * قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين * فلما رءا قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم * يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين * وقال نسوة فى المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وءاتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذآ إلا ملك كريم * قالت فذالكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل مآ ءامره ليسجنن وليكونا من الصاغرين * قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم * ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الأيات ليسجننه حتى حين﴾ (يوسف ٢٣-٣٥)

تتحدث الآيات من ٢٣ إلى ٢٩ عن الفتنة الأولى - فتنة الغواية بالزنا من امرأة واحدة داخل إطار من السرية. أما الآيات من ٣٠-٣٥ فتتحدث عن مؤامرة أخرى ومكيدة جديدة دبرتها نفس المرأة المحبطة الغاضبة لضرب يوسف عليه السلام والنسوة اللائى أطلقن الإشاعات عليها - كليهما معاً - بحجر واحد. وكانت تلك المؤامرة الثانية هى

السبب المباشر لدخول يوسف عليه السلام للسجن، خلافاً للقصة التوراتية التى لم تذكر المؤامرة الثانية مطلقاً بل عزت سبب دخول يوسف عليه السلام للسجن للمؤامرة الأولى وهذا خلاف قرآني - توراتي آخر فى جزئية جديدة من جزئيات القصة. ولنا أن نستعرض المقارنة بين القصتين القرآنية والتوراتية قبل الخوض التفصيلي فى ملابسات ودقائق المؤامرتين كما ذكرهما القرآن الكريم. فحسب الإدعاء التوراتي يكون دخول يوسف للسجن هو نتيجة للمؤامرة الأولى (الغواية بالزنا والترفع عليه). أى أن يوسف عليه السلام دخل السجن متهماً بالشروع فى الزنا ومحاولة الاغتصاب وخيانة الأمانة (حسب النص التوراتي قال يوسف للمرأة حينما راودته عن نفسه [«هو ذا سيدى قد عهد إلى بكل ما يملك فى هذا البيت ولم يشغل نفسه بأى شأن فيه. وليس فى هذا البيت من هو أعظم منى. ولم يمنع عنى شيئاً غيرك لأنك زوجته. فكيف اقترف هذا الشر العظيم واخطئ إلى الله؟»] التكوين ٣٩ :٨-١٠).

بل والأنكى أن محاولة الاغتصاب تلك كانت لامرأة تعده بمثابة الابن لها. إذن رجل هذه تهمته وتلك أخلاقه هل من المنطقى أن يأتمنه فرعون على ملكه وخزائنه ومصير شعبه وهو لم يرع الأمانة فى جزئية واحدة صغيرة أأتمنه عليها سيده؟ هل يعقل هذا مهما فسر يوسف من رؤى ومهما أظهر بعد ذلك من ورع أو علم؟ أترك الإجابة للقارئ.

أما دخول يوسف عليه السلام للسجن حسب القصة القرآنية فكان عقب المؤامرة الثانية التى لاتوجد فيها أى إدانة مباشرة أو تكييف قانونى لجرم يوسف، وهى أقرب ما تكون «للاعتقال الوقائى المؤقت» إبعاداً ليوسف عليه السلام عن بلاط القصور الملكية ونسائها اللائى صرن جميعاً - بعد أن كانت واحدة فقط - شغوفات بيوسف منشغلات به مما أفسد الكثير من شؤون الحياة فى هذا المحيط، ومما أدى إلى تداول الرأى فى شأن هذا الفتى، وهذا التداول والترجيح للآراء المختلفة فى هذا الحادث الجديد الذى لايندرج تحت قائمة الجرائم المتعارف عليها وعقوباتها يظهر فى التعبير القرآنى عن الحكم الصادر على يوسف فى تلك الحادثة ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الأَيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ (يوسف ٣٥)،

فالقضاء هنا لم يكن حاسماً مستنداً على قوانين معروفة وإنما كان بأسلوب (يبدو لى) ، أى كان قائماً على الظنية وعدم التيقن مما يظهر عدم وجود جرم الشروع فى الزنا والاغتصاب المتعارف عليه كأساس يبنى عليه الحكم . أما كون الحكم شيئاً مخففاً مؤقتاً ﴿ حتَّى حِينٍ ﴾ لما ينفى هذه النوعية من الجرائم والتى تقتضى حسب القانون المصرى القديم ما عبر عنه القرآن بقوله تعالى ﴿ أن يُسْجن أوْ عذابٌ أليمٌ ﴾ وطبعاً فالسجن المعادل لعقوبة العذاب الأليم ليس منطقياً أن يكون سجناً مؤقتاً . وشخص حبس بلا تهمة حقيقية بل هو قيد الاعتقال الوقائى من السهل والمنطقى بعد ذلك على فرعون التحقق من براءته وطهارته عند التحقيق والسؤال الجدى وهذا هو ما حدث بالفعل حيث رفض يوسف عليه السلام الخروج من السجن للقاء الملك والإتفاق معه قبل إجراء هذا التحقيق الذى أثبت براءته الفعلية يقول تعالى عن ذلك الموقف ﴿ وقَالَ الْملكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَآءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوةِ الَّتِى قَطَّعْن أيْدِيهُنَّ إنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ (يوسف ٥٠-٥١) .

وهكذا نرى أن التحقيق الجدى من قبل الملك ذاته هذه المرة أدى إلى إنهيار المؤامرة الثانية والتى كانت السبب فى دخول يوسف للسجن مما ترتب عليه أيضاً انهيار المؤامرة الأولى (مؤامرة الغواية داخل إطار السرية) ، وبالتالى ظهرت براءة يوسف من التهمتين وثبتت أمانته وانتفت حوله الشكوك .

ونعود فنقول أنه لو كانت المؤامرة الأولى التى حدثت بين المرأة ويوسف فى سرية شديدة هى التى أدخلته السجن لكان من الصعب جداً إثبات براءته منها حيث أن المرأة الجانية كانت فرداً واحداً وكانت المؤامرة بلا شهود ، ولو أصرت تلك المرأة على الإنكار عند التحقيق لكان الموقف القانونى هو «كلمة المرأة مقابل كلمة يوسف» وهل كان الملك أو أحد القضاة ليرجح كلمة العبد العبرانى على كلمة المرأة الشريفة زوجة الحاكم العظيم .

وهنا أصل إلى النتيجة أن العرض المنطقى للقصتين القرآنية والتوراتية يرجح القصة القرآنية تماماً ويظهر مدى الخلل البنائى فى القصة التوراتية من واقع النصوص التوراتية

ذاتها .. وها هى جزئية أخرى من آلاف الجزئيات التى حدث فيها خلاف بين القرآن والتوراة فى تفاصيل القصص فى كلا الكتابين سوقها لمن يدعى أن القرآن كتاب منقول عن التوراة، والحكم هنا ليس لتعصب إسلامى أو يهودى أو نصرانى بل الحكم هو للمنطق الذى لا أرى مطلقاً أنه جافى القصص القرآنى أو ساير القصص التوراتى فى أية جزئية كانت.

أعود ثانية لتفاصيل القصة القرآنية المتعلقة بالمؤامرتين الأولى من الآية ٢٣-٢٩ من السورة والثانية من ٢٩-٣٥ كما أسلفنا، ونبدأ فى تناول المؤامرة الأولى منهما.

المؤامرة الأولى:

تقع أحداث تلك المؤامرة فى سبع آيات مفصلات كل منها تحكى وتصف جزئية معينة وكأنها خلية حية واحدة يؤدى تراكبها سوياً إلى خلق جسد متكامل نابض مكتف بذاته، والمؤامرة الماثلة أمامنا مؤامرة معقدة تشتمل على عدة تكييفات قانونية متداخلة.

فجريمة الزنا تقتضى وجود شريكين متضامنين على قدم المساواة فى الفعل الإجرامى، وبلا ضغوط أو إكراه من طرف فيها يقابله إذعان من الطرف الآخر.

وعدم اكتمال الجريمة يصح أن يقع عند تراجع أو إحجام طرف واحد فقط من الطرفين مما يبقى فى حق الطرف الآخر تهمة «الشروع فى الزنا» وهذا يتطلب أدلة مادية لإثبات ذلك الشروع، أما فى حالة وجود إكراه أو ضغط مادى أو معنوى من طرف واحد فيتحول الأمر من زنا إلى اغتصاب وهى جريمة أشد وأعتى من الزنا وتضع لها كل الشرائع السماوية والوضعية عقوبات أغلظ من الزنا.

وفى حالة القضية الماثلة أمامنا نرى أن طرفى الحادث أحدهما امرأة ذات حسب ونسب ومال وجاه وزوجة لأحد عظماء البلاط الملكى، تمتلك الدار، بل وتمتلك نفس الصبى الذى هو الطرف الثانى، والذى هو عبد مسترق للطرف الأول يؤمر فيطيع، ويملك الطرف الأول حق التصرف الكامل فى جسده ونفسه وأفعاله، ونرى أن المرأة ذاتها لاتخفى ذلك فى قولها: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ

وليكونا من الصاغرين ﴾ (يوسف ٣٢) . إذن فأمامنا هنا طرفان أحدهما مسيطر مالك لأدوات الهيمنة الفعلية والآخر مذعن وعلى هذا فنحن أمام جريمة اغتصاب وليست جريمة زنا .. وغالباً وفي هذا النوع من الجرائم يصعب الفصل والتحديد بين الزنا والاغتصاب في غياب الأدلة المادية الملموسة والقرائن القاطعة، بل يمكن قلب الموازين فيه وتحويل المجني عليه إلى جانٍ كما حدث في قصتنا هذه. تلك هي خيوط الجريمة المعقدة جداً والتي تناولها القرآن المجيد في سبع آيات فقط أوضح فيها كل شيء في مقدرة عبقرية لا بلاغية فحسب بل قانونية وقصصية وتصويرية . استعرضت السبع آيات ما يلي :

١- التعريف بالجاني والمجني عليه .

٢- قرائن إثبات الإصرار والترصد في الجرم .

٣- استعراض الحالة النفسية للطرفين وقت حدوث الجريمة .

٤- رد فعل المجني عليه من استسلام مبدئي للضغوط ثم مقاومة عنيفة .

٥- ذرائع المجني عليه للامتناع عن الجرم .

٦- الأحداث الفعلية للجريمة .

٧- اكتشاف الجرم وملابساته .

٨- ادعاءات الجاني والدفوع المقدمة منه .

٩- دفاع المجني عليه .

١٠- هيئة القضاء .

١١- استعراض القرائن والأدلة واستخلاص النتائج النهائية منها .

١٢- الحكم النهائي .

وأية عبقرية تلك التي تستعرض قضية كهذه القضية في سبع آيات أو في ثلاثة عشر سطراً فقط وتتناولها بهذا الإحكام المذهل .

نستعرض الآن أركان القضية القرآنية كما فصلناها بنداً بنداً من وقائع النصوص القرآنية .

١- التعريف بالجاني والمجني عليه:

﴿ وراودته التي هو في بيتها ﴾

وهنا لايظهر فقط أن المرأة هي الجاني وأن ﴿ هو ﴾ أي يوسف عليه السلام هو المجني عليه، بل تدل العبارة على وجود أدوات الضغط عند الجاني فالبيت بيتها أي هي المسيطرة على مكان الجريمة ... كذلك فيوسف هو المجني عليه وهو داخل إطار هذا البيت المملوك للجانية عبداً ضعيفاً يؤمر فيطيع.

٢- قرائن الإصرار والترصد:

﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴾

وهنا من النص يظهر أن الجريمة واقعة مع سبق الإصرار والترصد وليست وليدة الصدفة، فأولاً مكان الجريمة هو بيت الجانية وملكها وتحت تصرفها، وثانياً فإن هذا المكان تمت تهيئته بإحكام من جانبها لترتيب حدوث الجريمة، فالجانية ﴿ غلقت ﴾ بالتشديد أي أحكمت وشددت من الإغلاق بالمزاليج والحرس وخلافه تهيئة لمناخ الجريمة المطلوب فيه السرية والخصوصية، وهي لزيادة الحرص ﴿ غلقت الأبواب ﴾ أي لم تغلق باباً واحداً هو باب الغرفة مثلاً بل غلقت كل الأبواب مما يعطي القارئ - إن وضع نفسه مكان القاضي - تأكيداً على سبق الإصرار والتعمد الذي سقناه، لذا عند اكتمال أركان التمهيد للجريمة شرعت المرأة بادئة بالفعل المادي حيث عرضت نفسها وبوضوح على المجني عليه قائلة ﴿ هيت لك ﴾ أي تهيأت أنا وتهيأت الظروف كلها فماذا تنتظر؟، ولعمري فأي امرأة تلك التي ترتكب جرماً بالأسلوب المخالف حتى للأعراف الطبيعية والبيولوجية؟ فغالباً يكون الرجل هو البادئ بالمناوشة والغزل والتحرش بالمرأة، أما هنا فتلك المرأة تقلب كل الموازين سواء في الأحداث كما هي في الادعاءات التي ساقتها عند افتضاح أمرها، وهنا نرى أن الآيات أوضحت سبق التعمد الثابت الآن بكل الأدلة.

٣- استعراض الحالة النفسية للطرفين وقت الحادث:

أما عن المرأة فحالتها النفسية واضحة من تعمد وإصرار وسيطرة وتدبير.

أما عن يوسف المجنى عليه فكان واقعاً تحت ضغوط نفسية هائلة، فمن ناحية هو عبد رقيق مملوك للمرأة عليه أن يطيع إن أمرت وأن يستجيب إن أشارت وتلك هى مهمته فى الحياة وواجبه كقن صالح .. ومن ناحية أخرى فالورع والتقوى وقبس النبوة بداخله يضغط عليه وينتزعه من دعوة المرأة، ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾، ومن جهة ثالثة فهناك الطبيعة البشرية ليوسف عليه السلام حتى وإن كان نبياً وحتى وإن كان من سلالة الأنبياء ... فهو قطعاً رجل وقطعاً عنده الرغبة كغيره من البشر وأمامه امرأة ذات جمال ومال وحسب والأحوال مهيئة والظروف مواتية ولديه حتى إن اكتشف الأمر ألف ذريعة وأخرى فهو عبد عليه الطاعة وهو صغير بلا خبرة ... إلخ، بل ولم يكن عند هؤلاء القوم حمية ولا غيرة فى هذا الموضوع الحساس تدفعهم للإنتقام العنيف منه، مما يتجلى فى سلوك هذا السيد المصرى الذى ما إن أدرك أن الزوجة هى الفاعلة الحقيقية والراغبة الفعلية لم ينتفض، ولم يثأر لشرفه مثلاً، بل أمرها أن تستغفر، وأمر يوسف أن يتناسى الموضوع، وترك الأمور على منوالها، وترك يوسف عندها وفى بيتها بلا أدنى مخافة أن تتكرر الأحداث أو يصيب شرفه دنس ما.

أقول - مهما حالفنى الكثيرون - أن الآيات القرآنية كانت واضحة جداً فى إثبات وجود هذا الضغط النفسى على يوسف عليه السلام وفى هذا الموقف بالذات، وأقول أن الآية الكريمة عندما قالت ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ فهى تعنى تماماً ما تقول ولا تنتظر من أحد ما أن يحاول لَىَّ الكلام ليثبت ليوسف عليه السلام أو لغيره موقفاً معيناً - إن كان صادقاً - فالقرآن أجدر منهم وأقدر بإثباته.

أقول أن الضغط النفسى والغواية كانا متواجدين فى المشهد يضغطان بشدة على يوسف الصديق، بل أن الآية الكريمة تفيد أنه كاد أن يستسلم بل اقترب فعلاً من المقدمات المؤدية لهذا الفعل ولم يعصمه إلا الله تعالى، ودعنا نقرأ الآية ثانية ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ

بهَـا لَوْلاَ أن رَّءا بُرْهَان رَبّه كَـذلك لنصْـرف عَنْهُ السُّـوء والفَحْشَـآء إِنَّهُ من عِبَـادنا الْمُخْلَصِينَ﴾، إذن فالجلى جداً أن يوسف وإن كان نبياً كاد أن يقع فى المحظور، وكاد أن يشارك فى الفعلة، لولا تدخل الله الكريم وإظهاره ليوسف للبرهان والتأييد والدليل الذى لاندرى كنهه ولم تخبرنا الآيات الكريمة به، ولقد حاول الكثير من المفسرين الأجلاء القول بأن يوسف عليه السلام نبى معصوم لاينبغى له أن يهم أى يكاد يقع فى هذا المحظور، قال تفسير ابن كثير فى ذلك ما نصه [اختلفت أقوال الناس وعباراتهم فى هذا المقام فقيل: المراد بهمه بها خطرات حديث النفس، حكاه البغوى عن بعض أهل التحقيق ثم أورد البغوى ههنا حديث أبى هريرة رضى الله عنه، قال، قال رسول الله ﷺ «يقول الله تعالى: إذا هم عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرائى، فإن عملها فاكتبوها بمثلها»(١) وقيل: هم بضربها وقيل: تمناها زوجة، وقيل: ﴿هَمَّ بِهَا لَوْلاَ أن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّه﴾، أى فلم يهم بها، وهذا ما حكاه ابن جرير وغيره فكأن فى الآية تقديماً وتأخيراً: أى لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، فلم يقع الهم لوجود البرهان وهو عصمة الله عز وجل له] انتهى.

ولا زلت مندهشاً ممن يظنون أنهم يدافعون عن أنبياء الله ورسله بأكثر مما يفعل الله عز وجل ذاته. وهذا المثال مثال ساطع على ذلك ودعنا نستعرض ما يلى:

١- محاولات اضفاء العصمة الذاتية الأزلية على شخصية وتكوين وطبيعة خلق الأنبياء منافية للنصوص القرآنية ذاتها. أليس يوسف الصديق ذاته هو الذى يقول الله تعالى على لسانه وباعترافه وفى نفس القصة ﴿وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلينَ﴾ (يوسف ٣٣)، فالله عز وجل هنا يخبرنا بمضمون اعتراف يوسف الصديق النبى بضعفه البشرى أمام الغواية وأحابيل الشيطان ويدعو الرب القدير أن يعصمه ويصرف عنه هذا الكيد والغواية. فمن يقدر الآن أن يأتى ويقول: لا لم تخطر

---

(١) هذا الحديث مخرج فى الصحيحين، وله ألفاظ كثيرة منها هذا، قاله ابن كثير.

الفكرة قط على ذهن يوسف عليه السلام، بل أن البعض إمعاناً في الإنكار يأتي فيقول ما لم يقله القرآن المجيد ولا الأحاديث الصحيحة ولا حتى التوراة ولا ندرى من أين أتى به، يقول البعض: هم بضربها بل يقول الآخرون إن الترتيب القرآني هو الذى أتى بالخطأ في الفكرة ويعيد ترتيب القرآن وألفاظه بأسلوب غير شائع في النسق القرآني وفي تلك السورة بالذات ليثبت وجهة نظره فقام بحشر عبارة ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ بين ﴿ هَمَّتْ بِهِ ﴾، ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾، كتقديم للمؤخر مما يتطلب فصلاً وقطعاً بين العبارتين مما هو غير موجود أساساً.

٢- من الأراء التي استعرضها ابن كثير قول البغوى «المراد بهمه هنا حديث خطرات النفس»، وكذلك الحديث الذى استشهد به عن الهم بفعل السيئة، لا يخالف ما ذهبنا إليه ولا يؤيد من قالوا بالعصمة الذاتية، فنحن لم ندع أن الأمر خرج عن داخل النفس للفعل المادى، ولكننا في نفس الوقت لا نساير من قالوا أنه لا يصح أن يجول أمر كهذا في نفس نبي بما ينفي عنه صفته البشرية تماماً.

٣- من الواضح أن هناك تعارضاً في الرأى في مواقف عدة من القصص القرآني بين القائلين «بالعصمة الذاتية» أى وجود العصمة في طبيعة خلق الأنبياء لذا فلا يقتربون مطلقاً من الخطأ وبين القائلين «بالطبيعة البشرية» للأنبياء أى أن هؤلاء الأنبياء بشر انتقاهم الله تعالى بمشيئته وبحكمته ورباهم وأنبتهم نباتاً حسناً وكانت عنايته دائماً معهم تعصمهم من الزلل وتحميهم وتسدد خطاهم.

وأرى أن أهل الفكرة الثانية - رغم موافقتها تماماً لما جاء بالقرآن الكريم - كانوا دائماً خافتي الصوت خائفي القلب من الاتهام في صحة عقيدتهم. والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: هل المقصد الإلهي هو أن يكون الرسل والأنبياء بَشَراً لهم نفس الطبيعة البشرية بعد تنقيتها واضفاء الكمال عليها ليكونوا قدوة ومثالاً يحتذى أم هو الإتيان ببشر ذوى طبيعة مخالفة للبشر الباقين أى بشر معصومون وعصمتهم هذه جزء من طبيعة خلقهم؟

أرد قائلاً : تكفل المولى تعالى بإيضاح هذه المسألة فى آيات عدة :

يقول تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء ٩٥)

ويقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان ٢٠)

وفى هاتين الآيتين الكريمتين تأكيد صارم على الطبيعة البشرية الكاملة للرسل والأنبياء، وأيضاً على المقصد الإلهى من إرسالهم ... وكان من الممكن لله تعالى إبلاغ رسالته لخلقه بملايين أخرى لاتعد من الطرق والأساليب بل بالكن فيكون. لكن لما كان الهدف من الخلق هو الصراع بين الحق والباطل وبين الخير والشر ... لذا فإبلاغ البشر الذين يحتدم فيهم هذا الصراع بالرسالة الإلهية عن طريق ملائكة لا تماثلهم بل هى كائنات نورانية لاتخطئ ولا تزل وبالتالى فلا صراع عندها بين الخير والشر وبالتالى فلا توبة ولا استغفار يعد أمراً غير منطقى كما يخبرنا الله تعالى ... تقول الآيات بصراحة أن إنزال الملائكة كرسل أمر غير منطقى وذلك لأنهم غير معرضين لضغوط الخطأ كالبشر لذا كان إنزال الرسالات على رسل وأنبياء من البشر وبنفس الطبيعة البشرية هو الأصح منطقياً ... وهكذا فادعاء العصمة الذاتية للأنبياء مناف للنصوص القرآنية ومناف للهدف من الخلق وقدرة الأنبياء على أن يكونوا قدوة للبشر. ولعل هذا التطرف البشرى الذى وقع فيه بعض المفسرون للقرآن هو طبيعة بشرية محضة تنزع دائماً لتقديس واضفاء صفات خارقة ومثالية على الصالحين ... أليس ذاك هو الشبح الخفى الكامن خلف كل ضروب الشرك والوثنية من البشر الذين تحولوا بعد أزمنة لعبادة أنبيائهم وصالحيهم وزعمائهم .. أوليس ذاك هو ما انحرف بالنصرانية عن أهدافها فرأينا مقولات التنزيه والتقديس تلك التى لاترتفع بالمسيح عليه السلام فقط، بل بأمه، وبكوكبة من الرهبان والقسس إلى مرتبة القداسة والألوهية والمعروفة بمبدأ «شراكة القديسين» فى الكنيسة ... أوليس ذاك هو ما قاله الله تعالى لهؤلاء

النصارى ﴿ قُلْ فمن يملك من الله شيئا إنْ أراد أن يُهلك المسيح ابن مريم وأُمَّهُ ومن في الأرض جميعا ﴾ (المائدة ١٧)، وقوله تعالى ﴿ مَا المسيحُ ابنُ مريم إلا رسولٌ قدْ خلَتْ من قبله الرُّسُلُ وأُمُّهُ صديقةٌ كانا يأكلان الطَّعام انظرْ كيْف نُبيِّنُ لهُمُ الأيات ثُمَّ انظرْ أنَّى يُؤْفكُون ﴾ (المائدة ٧٥).

والآية الثانية هنا واضحة جداً في إثبات نقطة واحدة هي - الطبيعة البشرية الخالصة - لهؤلاء الأنبياء والرسل فلا يوجد هذا التخبط النصراني الذى ما زال يتصارع في جزئية «هل للمسيح طبيعتين ومشيئتين أمام طبيعتين ومشيئة واحدة؟» مما أهرق الدماء أنهاراً بين الطوائف المسيحية في هذا الصراع ولو فهموا أن للمسيح عليه السلام - كما أخبرتهم الآية الكريمة السابقة - طبيعة واحدة هي الطبيعة البشرية، وهذا هو المنطق، لأراحوا واستراحوا، والخلاصة إذن أن العصمة الذاتية للرسل والأنبياء مقولة غير قرآنية، وتنافي منطق الخلق ذاته. ومنطق إرسال الرسل والرسالات كما أوضحها القرآن الكريم.

٤- نعرف عن رسولنا الكريم ﷺ أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس، وقطعاً فالأنبياء والرسل هم أولى الناس بهذا الجهاد وهذا الصراع، وهذا الجهاد - جهاد النفس - يقتضي تعريفاً دخول الشر للنفس ومداعبة الشيطان لها كعدو تجتمع ضده أركان التقوى في النفس، والادعاء بعصمة الأنبياء والرسل الذاتية يحرمهم من وجود هذا الصراع وهذا الجهاد الذى هو الشرف الأعلى للإنسانية.

٥- يطالعنا أصحاب مقولة العصمة الذاتية برأيهم بالذات في تلك الحادثة المتعلقة بيوسف عليه السلام كما تطالعنا أقوالهم في قضية «النعاج» التي عرضت على داود عليه السلام وكذلك في بعض جزئيات قصة سليمان عليه السلام .. وأقول أن جميعهم عليهم السلام بشر يتعرضون لما يتعرض له البشر من غواية بل ويخطئون ويتوبون ويتقربون، أفهل يوسف وداود وسليمان عليهم السلام أفضل من يونس بن متى عليه السلام الذى أثبت القرآن خطيئته وعقابه وتوبته بما لايدع مجالاً لأى قائل .. هل هم

أفضل من نوح عليه السلام الذى تغلبت عليه عاطفة الأبوة فى لحظة ما مما تناقض مع مقتضيات عدالة الرسالة الإلهية التى يحملها ؟ .. هل هم أفضل من إبراهيم عليه السلام الذى تغلبت عليه عاطفة البنوة فى لحظة ما فاستغفر لأبيه المشرك، وكذلك عاطفة الرحمة فجادل فى قوم لوط؟ ألم يتدبر هؤلاء المفسرون قول الله تعالى لنبيه الأعظم محمداً ﷺ : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (الإسراء ٧٣-٧٥).

فها هو سيد الأنبياء والرسل ذاته يتعرض لنفس الموقف والاختبار والفتنة، فيحاول جند الشيطان إغراءه بالافتراء على الله وتبديل قوله الحق ... وها هو محمد الأعظم بطبيعته البشرية يكاد أن يركن إليهم شيئاً قليلاً ... لقد كاد محمد الأعظم أن يميل ميلاً يسيراً واحتاج تثبيتاً من الله وبرهاناً .. وحتى بعد التثبيت والبرهان فالرسول الكريم ﷺ كان لطبيعته البشرية التى هى بطبيعة الخلق فيها فقط القادرة على حمل الأمانة أى الاختيار .. كان مخيراً بين الامتثال لأمر الله أو الركون للفتنة وكان أن اختار عليه صلوات الله وسلامه عليه طريق الحق .. ولو لم يكن ذلك فما معنى التهديد الإلهى فى الآية الأخيرة ٧٥ من الآيات التى أوردناها.

أفهل يوسف عليه السلام أعلى مرتبة من محمد ﷺ فلا تداخله الفكرة ولاتقترب منه الغواية .. أو هل هو أعلى مرتبة من موسى عليه السلام وهو كما أوردنا قبلاً لم تراوده الفكرة فقط بل استزله الشيطان وقتل نفساً واحتاج للتوبة والاستغفار والاسترحام ولفترة طويلة قبل أن يعهد له الله عز وجل بمهامه.

أقول فى النهاية أنى لازلت أعتقد أن الفكرة قد راودت يوسف وزينها له الشيطان ولو للحظة قصيرة، وكان على عتبات الإقدام على الفعل لولا تدخل العصمة الإلهية والرحمة الربانية التى حالت بينه وبين ذلك - والله أعلم.

ولتلخيص تلك النقطة أقول أن إصرار المرأة على ارتكاب الفعل المتعمد كان واضحاً لا لبس فيه .. أما يوسف الصديق - فرأيي الشخصي - أنه كان لطبيعته البشرية واقعاً تحت ضغوط نفسية شديدة تتأرجح به أحياناً في اتجاه الاستسلام وكان برهان الله عز وجل وتثبيته له في تلك اللحظة هو الخط الفاصل بين الزلل والعصمة وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

٤- رد فعل المجنى عليه أثناء الحادث:

سبق أن أوضحنا مدى الحالة النفسية التي كان يوسف عليه السلام واقعاً بين فكيها وكيف كان التثبيت والعصمة الإلهية حداً فاصلاً بين الوقوع أو العزوف عن الجرم. أما عن الأفعال المادية والوقائع التي حدثت فقد لخصتها الآيات في الأقوال والأفعال الواردة فيه.

فعن الأقوال كان قول يوسف عليه السلام ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾، أما الأفعال فقد أيدت الأقوال بلا تضارب، حيث قام يوسف بمحاولة الهرب من الموقف كله ابتعاداً عن شبح الغواية ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾، ولعلنا نذكر هنا بالحكمة النبوية المحمدية الجليلة «من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه». فتسجيل الصوت والصورة في تلك القضية يظهر الإباء الكلامي ثم الإباء الفعلي بالهرب من جانب يوسف عليه السلام .. وهكذا فإن يوسف الصديق لم يشارك في الجريمة لا بالقول ولا بالفعل.

٥- ذرائع المجنى عليه للامتناع عن الجرم:

وحيث أن لكل فعل بشرى واعٍ عاقل هدف وذريعة أي سبب .. فللإقدام على جرم ما أو الامتناع عنه أسباب وأهداف ينبغي توضيحها لتوضيح سلامة موقف ما، وهذا ما لم تقصر فيه الآيات القرآنية التي نحن بصددها في تلك القضية، والسؤال هنا : لماذا امتنع يوسف عليه السلام عن الجرم وهو إن استجاب فسيحصل على مكاسب عدة تتمثل في اللذة ونوال الحظوة وربما المال والمكانة وسيكفي نفسه شر الاضطهاد خاصة وأن الظروف مواتية وبلا خطر حقيقي ماثل أو عقوبة تنتظره؟ نقول أن الآيات أوضحت السببين وهما :

أ - طبيعة يوسف الورعة المتصلة بالله بقوة، وقبس النبوة الكامن فيه وسلالة الأنبياء الطاهرة التى نبت منها ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾.

ب- التأييد والبرهان الربانى الذى رجح كفة النقطة السابقة فى مواجهة طوفان الإغراءات ﴿ لَوْلآ أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾،وطبعاً - وفى مواجهة مدعى العصمة الذاتية - يظهر لنا من نص الآية بوضوح شديد أن هذا البرهان الإلهى كان ليصرف عن يوسف الصديق السوء والفحشاء .. أى أن هذا البرهان والتثبيت كان هو الدرع الواقى من السوء والفحشاء وإلا فما فائدة تلك العبارة ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَآءَ ﴾ والتى أتت مباشرة بعد قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلآ أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾.

عموماً فلا زلت أيضاً هنا وفى نفس الآية، أرى أن نفس القاعدة الإلهية لا تزال متبعة، فتلك البراهين وهذا التثبيت الإلهى ليس متاحاً لكل من هب ودب، بل هو لمن جاهد وصارع وتعب وكد، فتأتى له الهبة الإلهية كتتويج لهذا الجهاد فى اللحظة الحاسمة كما أسلفنا من قبل فى آية سابقة .. أليس ذاك هو مغزى قوله تعالى لإيضاح مبرر هذا البرهان والتثبيت ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾.

٦- الأحداث الفعلية للجريمة:

تكفلت الآيات الكريمة على إيجازها بعرض أحداث الجريمة عرضاً شاملاً مستفيضاً متكامل الأركان فأوضحت مكان الجريمة وأسلوب تهيئته، وإقدام الجانى، وتراجع المجنى عليه وخوفه، واظهرت إصرار المرأة وإلحاحها، والضغوط التى مارستها على يوسف عليه السلام، بل ومحاولة استخدام العنف لتحقيق الهدف مما يظهر من واقعة تمزق القميص، ومما يبدو من محاولة الهرب من قبل يوسف والتى قاومتها المرأة أيضاً ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾، وانتهاء الأحداث بانكشاف الجرم بكل ملابساته والتباساته.

٧- اكتشاف الجرم وملابساته:

﴿ وألفيا سيدها لدا الباب ﴾

وهنا تظهر الآية الكريمة مشهد اكتشاف الجرم من قبل الزوج والسيد، الذى ظهر فجأة عند الباب ليرى يوسف الصديق مع زوجته فى خلوة، وهناك مظاهر تشير لحدوث بعض العنف، الزوجة ويوسف يجريان ويلهثان، وقميص يوسف الذى يستره ممزق فى يد المرأة مما يقطع بوجود أو شروع فى جريمة اغتصاب. والعبارة القرآنية على قصرها تشير لحقائق هامة، منها :

أ - ﴿ ألفيا ﴾ . أى فوجئا بوجود الرجل أمامهما دلك على الرغم من أنها كانت قبلاً قد ﴿ غلّقت الأبواب ﴾ أى أغلقت عدة أبواب متتالية وبإحكام مما يوحى بأن الرجل كان قد دخل خفية وبهدوء وتعامل مع كل هده الأبواب بلا ضجيج ولا صخب حتى وصل للباب الأخير وفتحه ليفاجئ بالمرأة والغلام، مما يشير مثلاً أن هذا الرجل كان يراقب تلك الزوجة أو يشك فى سلوكها ويتحين الفرصة للإمساك بها متلبسة، ويشير أيضاً أن هذه الرقابة كانت لصيقة حيث يستغل الزوج انشغال المرأة والغلام فى الأحداث ويتسلل داخلاً لضبطهما فى «حالة تلبس» .. ومنطوق اللفظ ينفى تماماً وجود عنصر الصدفة فى هذا الاكتشاف.

ب- ﴿ سيدها ﴾ : من المتعارف عليه قانوناً، سماوياً ووضعياً، أنه فى تلك النوعية من الجرائم يحق فقط لصاحب المصلحة أو للمجنى عليه فقط تحريك الدعوى الجنائية والمطالبة بالعقوبة، وهنا تظهر القصة أن اكتشاف الجريمة تم على يد صاحب المصلحة ذاته، بل وفى حالة تلبس. إذن فحال اكتشاف الجريمة كانت كل الظروف المحيطة بالمشهد والمنظر العام كله بما فيه من عنف يشير إلى وقوع جريمة اغتصاب وكما يحدث دائماً بدأ كل طرف من الطرفين فى الإلقاء بالمسئولية على الآخر أى «كلمة المرأة ضد كلمة يوسف» ومن ثم توجب العثور على أدلة وقرائن ترجح إحدى المقولتين.

٨- إدعاءات المرأة ودفاعها:

وكالعادة، فإن الجانى وبالذات لو كان خبيراً متمرساً فى الإجرام، يكون دفاعه حاضراً قوياً بل يكون دائماً هو الأعلى صوتاً .. ولم تغفل القصة القرآنية هذه الحقيقة .. فنرى أن المرأة الجانية كانت هى الأسرع بالكلام والأعلى صوتاً، وذلك كما قلنا لتمرسها بهذا الإجرام وسبق تدبيرها لكل الاحتمالات، وأيضاً لعلو مكانتها عن مكانة يوسف العبد الرقيق فى بيتها، ونرى أيضاً أن المرأة لم تكتف فقط بادعاء المسكنة وادعاء أنها الضحية لجريمة الاغتصاب مما يقلب الموازين، بل حاولت إشعال حمية الرجولة فى زوجها للدفاع عنها أمام ما حاق بها. بل وكأن الحكم قد صدر لها وفى صفها، بدأت فى تعديد العقوبات التى ينص عليها القانون لمثل هذا الجرم الذى اقترفه الصبى وطالبت بتوقيع أقصى تلك العقوبات فى حقه. أليس كل ذاك هو ما جاء فى قوله تعالى على لسانها ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

٩- دفاع الصبى المجنى عليه:

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾

وهنا وبعد سماع أقوال الجانية جاء دور يوسف الذى عقدت الأحداث المتتالية لسانه .. فلم يجد لضعفه وقلة شأنه وانعدام خبرته ومفاجأة الأحداث له إلا كلمات أربع مرتعشة ينطق بها .. وكانت تلك الكلمات الأربع هى الحقيقة ذاتها بلا لف ولا دوران .. ولكن ما هو الدليل؟

وإلى هنا انتهى ما يمكن تسميته «بالتحقيق المبدئى» بسماع أقوال طرفى المشكلة ولما كان اللغز لا يزال ماثلاً لم يحل، لذا فكان لابد من تشكيل شىء أشبه ما يكون بالمحكمة وهيئتها .. مما يظهر وجود نوع من التحضر والمدنية عند المصريين القدماء، حيث لم يقم الزوج مثلاً والمشهد ماثل أمامه بقتل الغلام أو بقتل الغلام والمرأة كما يحدث كثيراً من الدهماء .. بل أدخل الموضوع فى تحقيق حضره بعض الناس ومنهم حكماء وذوى خبرة .. ولم يراع مكانته أو يخاف من التشويش على سمعته بخروج الأمر عن نطاق الثلاثة «الزوج

والزوجة والعلام». وهذا فعلاً هو الذى أدى لاحقاً لذيوع الأمر وانتشار الشائعات مما مهد للمؤامرة الثانية (أثبتت النصوص الفرعونية الموثقة وجود قدر عال من احترام القضاء ووجوب التكييف القانونى لأنماط متعددة جداً من الجرائم).

١٠- القضاء أو هيئة المحكمة:

﴿ وشهد شاهدٌ مِّنْ أهْلِهَآ ﴾

وتلك العبارة القرآنية أيضاً على إيجازها تفيد حقائق كثيرة منها :

أ - المحاكمة كانت فورية وعاجلة. تم انعقادها فوراً واستدعاء أفرادها فى مشهد الجريمة ذاته حيث أن الذى ﴿ شهد ﴾ كان ﴿ شاهدٌ ﴾ أى معاين بالعين للملابسات الموجودة.

ب- تشكيل هيئة المحكمة كان متحيزاً ويشوبه القصور إلى حد كبير، لأن هذه الهيئة كانت ﴿ مِّنْ أهْلِهَآ ﴾، وأين أهله هو؟ وأين هذا الذى يتحمس له أو يدافع عنه أو يناصره؟

وهنا تتأزم الأمور حيث كانت كل الملابسات مهيأة للمطالبة برأس يوسف عليه السلام، لولا تدخل رحمة الله أولاً ثم وجود بعض احترام لروح العدالة عند هؤلاء القوم والذى يوحى بسلوك متمدين، مما حدا بأحد حكمائهم لطلب استعراض الأدلة والقرائن الموجودة بمشهد الجريمة للاستنارة بها فى الحكم.

١١- استعراض القرائن والأدلة واستخلاص النتائج:

﴿ إن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ من قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ من دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

وهنا، وفى هذه الحادثة نرى أن القرآن هو أول من تحدث عن أساسيات ما نسميه حالياً «الطب الشرعى» القائم على فحص كل مفردات الجريمة من أشخاص وأدوات فحصاً دقيقاً ومضاهاتها بأقوال التحقيق واستخلاص النتائج منها .. ولعلى هنا لابد أن أنوه أن هذا الحادث وبالذات التحقيق بكل تفصيلاته هو قصة قرآنية صرفة لم يرد لها أى ذكر

بالتوراة مطلقاً. وعودة للحادث لنرى أن القميص الذى كان يرتديه يوسف كان هو مفتاح حل اللغز .. فالرجل الحكيم اقترح اقتراحاً ووضع فرضية منطقية أولاً وهى إن كان القميص قد تمزق من الأمام فهى صادقة وهو كاذب، وإن كان تمزق من الخلف فهو صادق فى مقولة محاولة الهرب منها وأنها هى التى تشبثت به من الخلف أثناء جريه .. أى أنه كان هو فى الأمام وهى حلفه عند الباب تشده من القميص مما يثبت مقولته .. ومن ثم تمت العودة للأدلة (القميص) وفحصها ثانية ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ﴾ ظهرت الحقيقة وظهر الجانى والمجنى عليه بوضوح قاطع وتمت إدانة المرأة ﴿إِنَّهُ من كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

١٢- الحكم النهائى:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾

جاء فى تفسير ابن كثير لتلك الآية [﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أى اضرب عن هذا صفحاً أى فلا تذكره لأحد، ﴿وَاسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ﴾ يقول: لامرأته، وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لاصبر لها عنه، فقال لها: استغفرى لذنبك أى الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو برىء منه ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾] انتهى.

وإلى هنا نرى كيف كان الحكم النهائى أيضاً متحيزاً معيباً يشوبه القصور .. فكل التعويض الذى ناله الصبى كان «حسناً أنت برىء فلتنس هذا الموضوع ولتكتمه» ويبدو أن روح العدالة لم تكن كاملة عند هؤلاء القوم بما يسوى بين الناس أمام القضاء، فالحكم هنا نظر لضعف يوسف وعبوديته ولحسب المرأة وموقعها الاجتماعى، فكان كل تعويض يوسف بضع كلمات تطيب خاطره فقط لثبوت براءته، وماذا لو كان ثبت جرمه؟ ألم تكن العقوبة ﴿أن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى السجن المقترن بالتعذيب الشديد أى بتعبيرنا المعاصر عقوبة متطرفة من «السجن مع الأشغال الشاقة». أما المرأة ذاتها وقد ثبت جرمها فهل كانت عقوبتها هى ما نطق به لسانها ذاته عند اكتشاف الجرم؟ أبداً .. بل بضع كلمات من التأنيب لم تقدم أو تؤخر. وعلى هذا فرغم سلامة إجراءات التحقيق والتقاضى

الظاهرية. فالحكم الصادر كان معيبا متحيرا وظالماً ليوسف. إذن فتلك القصة «قصة المؤامرة الأولى» كانت مظلمة جديدة ليوسف عليه السلام حتى وإن كان الحكم قد صدر فيها بالبراءة.

ومن هنا نعود فنذكر. أن أحكام القضاء الظالم تؤدى. دائماً إلى تردى الأوضاع وتفاقم المشكلات .. فالحكم الظالم في المؤامرة الأولى أدى إلى إبقاء الأوضاع كما هى، فالمرأة الظالمة التى لم تجد رادعاً أو عقاباً فتصاعدت عندها نزعة التآمر فهى لم تقض مأربها من يوسف، وأبقيت الأوضاع على ما هى عليه مما جعل وجود يوسف في ضعفه ورقه ماثلاً أمامها ليل نهار، مصدراً للفتنة وتذكرة بخيبة الأمل، يضاف إلى ذلك ذيوع فضيحة المرأة وسط مجتمعها، تلك الفضيحة التى تناقلتها الألسن ولاكتها بشقيها: شق الأخلاق السيئة وشق خيبة الأمل بعدم قدرتها على غلام هو عبد لها (هاتان النقطتان هما اللتان ذَكَّرَت المرأة بهما النسوة حال اكتمال المؤامرة الثانية). فكانت كل تلك النقاط مضافة لطبيعة تلك المرأة ذاتها قنبلة موقوتة تنتظر حتماً الانفجار الذى حدث بالفعل فى المؤامرة الثانية.

المؤامرة الثانية:

﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وءاتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذالكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما ءامره ليسجنن وليكونا من الصاغرين * قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم * ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الأيات ليسجننه حتى حين ﴾

والآيات الست الكريمة السابقة تروى فى إيجاز شديد قصة المؤامرة الثانية بكامل أركانها، فالأولى منهن تدلنا على الباعث عليها والثانية علم امرأة العزيزة بهذا الباعث ورد فعلها عليه بالمؤامرة الثانية كما تروى لنا تلك الآية أحداث المؤامرة نفسها. أما الثالثة فترينا مدى تصميم امرأة العزيز على الاستمرار فى حصار يوسف بكل السبل، مما يدعو منطقياً الآية الرابعة منهن أن تظهر لنا الحالة النفسية ليوسف ولجوئه لمصدر القوة الأوحد غير المرئى للجمع هناك، وهو ربه طلباً للمساندة والعون حتى بالسجن، أى بالإبعاد عن هذه البؤرة العفنة التى لا رجاء فى صلاحها، ثم تروى الخامسة استجابة الله لهذا الدعاء ونجاة يوسف من الفحشاء أما السادسة والأخيرة فهى حكم القوم فى موضوع يوسف والذى جاء موافقاً للمشيئة الإلهية مما حقق ليوسف الابتعاد عن بؤرة الفتن وبالتالى التمهيد لاعتلاء سدة الحكم وزمام الأمور لاحقاً.

قال تعالى : ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين ﴾

يقول تعالى فى بداية القصة الثانية ﴿ وقال نسوة فى المدينة ﴾ وهنا نرى أن المولى عز وجل أورد حرف الواو قبل الفعل ﴿ وقال ﴾ وكأنه يقول لنا أن تلك المؤامرة الثانية

ليست حدثاً منفصلا عن المؤامرة الأولى بل هى امتداد لها ونتيجة حتمية تمخضت عنها، مما يؤيد ما ذهبنا إليه سابقاً، أى أن المؤامرة الأولى أوردت كذا من الأسباب ﴿ وقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ بالإضافة إلى ذلك.

تظهر تلك الآية الكريمة الحالة الاجتماعية للنساء فى ذلك الزمان والعيوب النفسية المترتبة عليها. فالنساء والزوجات فى ذاك الزمن كن فى مرتبة اجتماعية لاتفضل كثيراً مرتبة العبيد فى نظر الرجال، ولننظر للتعبير القرآنى عن الزوج بكلمة ﴿ سَيِّدَهَا ﴾ فى الآية ٢٥ لنفهم ذلك، هذا فى حين أن الخطاب القرآنى التشريعى منذ زمان التنزيل عبر عن الزوج بكلمة «زوجها» أو «بعلها» ولم يعبر عنه قط بكلمة ﴿ سَيِّدَهَا ﴾، وهؤلاء الزوجات حبيسات القصور والدور تظهرهن لنا القصة بلا أى قدر من العلم، وبالتالى أى قدر من التقوى، فلا يتورعن عن التسلية بكل ما هو متاح لهن من فاحشة إن أمكن، ومن خوض فى سير الناس وإطلاق الشائعات إن أمكن، ومن حفلات واجتماعات نسوية فى مرات أخرى، ووضع هكذا هو الذى خلق فعلياً على مر الزمن كل صنوف المكائد والدسائس والمؤامرات التى تحفل بها سطور التاريخ مما لم يغفل القرآن المجيد التنبيه إليه فى تلك القصة.

أما نسوة المدينة فى تلك الآية فقد كن مشغولات بالخوض فى سيرة امرأة العزيز ويبدو من الألفاظ القرآنية ذاتها أن العيب فى نظرهن لم يكن هو السعى خلف المتعة الحرام وطلب الزنا إنما كان أولاً، لأن الرجل الذى كانت خلفه كان عبداً لها لا يصل لمرتبتها مما يظهر فى قولهن ﴿ فَتَاهَا ﴾ أى العبد المسترق عندها، بل والطامة المدمرة أنها لم تكن فقط تسعى وراءه للمتعة الجسدية وحسب بل ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أى أنها اتجهت إليه بعواطفها ... أي أن خطيئتها المثيرة للاستنكار كانت رغبتها الجسدية فى شخص هو عبد وأيضاً يضاف لذلك حبها له مما لم تجد له هؤلاء النسوة تفسيرا. لذلك فلم تكن مؤامرة امرأة العزيز الثانية هادفة لتبرئة نفسها من تهمة الزنا بل كانت فقط لإظهار المبرر وهو شدة جمال ووسامة هذا الشاب ولو كان الحال كهذا إذن فلا لوم ولا تقريع ولا عجب بل رؤية لعذرها فيما ذهبت إليه. ﴿ قَالَتْ فَذَالِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾، وهنا نرى دقة التعبير

القرآني في قول المرأة، فليس اللوم منصباً على الفعل لذاته، بل هو منصب على الشخص. مما يظهر نوعية الأعراف والأخلاق السائدة في ذلك الزمان والمناخ والشريحة الاجتماعية.

تختتم الآية ٣٠ بقول النسوة ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وكما أوردنا فالاستنكار كان منصباً على نوعية الشخص لا على الفعل ذاته. عموماً فتلك العبارة تلقى الضوء على نفسيات محترفي النميمة والغيبة في كل وقت، فهم دائماً يعلنون استنكارهم للفعلة محل النميمة ولا يذكرون القصة مجردة بل يضيفون إليها تبرؤهم منها ويبالغون في ذلك ويقول علم النفس عن هذا أنه كلما ازداد التبرؤ وعلا الصوت بالاستنكار يكون ذلك دليلاً على سقوط القائل ذاته في مهاوى نفس الفعلة لإحساس اللاوعي الكامن فيه بذلك وخوفه من أن يكون المجتمع عالماً بأفعاله فإنه يبالغ في إدانة وتلويث الآخرين.

وهذا هو ما كانت تعيه امرأة العزيز تماماً، ومن خلال وعيها هذا بتلك الحقيقة نسجت خيوط المؤامرة بأن وضعت هؤلاء النسوة محترفات النميمة على محك التجربة ذاتها التي تبرأن منها وأعلن طهارتهن تجاهها، فكان أن وضعتهن أمام هذا العبد وجلست تتلذذ برؤيتهن يقطعن أيديهن ويتلفظن بألفاظ الوله والغزل.

نعم كانت السكين في تلك القصة تعبيراً رمزياً قصصياً آخر يعبر بعبقرية عن التجربة بكل قسوتها وحدتها وآلامها ... ففي الوقت الذي كانت فيه الأيدي تقطعها السكاكين ظاهرياً، كانت القلوب والأنفس تمزقها حدة الصراع والرعبة واللهفة داخلياً .. إذن فقد وضعت امرأة العزيز النسوة الأخريات مدعيات الطهارة وحاملات لواء القيم الاجتماعية في مواجهة نفس التجربة .. فسقطن سقوطاً مزرياً مدوياً وأصبح الكل سواء في الخطيئة .. وانتكست رؤوس كانت قد رفعت بالإدعاء وهنا آن للمرأة أن تعلن بلا لوم ولا تثريب ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ مجاهرة بالفحشاء والمنكر والبغي ومن من أولئك النسوة تجرؤ على مراجعتها والحال هكذا؟ .. وأحسب أن لحظة الانتصار تلك التي حققتها المرأة كانت هي التي أعمت عينها الماكرة عن حقيقة كانت هي السبب في تهاوى خيوط المؤامرة الثانية فالأولى

المترتبة عليها، ومن ثم البراءة النهائية ليوسف عليه السلام. كانت نشوة النصر قد أعمت أعين المرأة عن حقيقة أن الجريمة التى يرتكبها شخص واحد فى سرية يصعب جداً اكتشافها، أما الجريمة التى لها شهود أو يشترك فيها أكثر من طرف واحد فغالباً ما تكتشف، وهنا نرى المرأة تعلن على رؤوس أشهاد نواياها وإصرارها، وتعترف أيضاً بالجرم الذى كان فى المؤامرة الأولى. بل وتتباهى به، وتتلمس له الأعذار، فصار جهراً بعد أن كان سراً تتناقله الألسن فى الخفاء، وكانت تلك هى سقطة المرأة التى أودت بها «الاعتراف أمام شهود»، ومن ثم فعند اكتمال المؤامرة الثانية ودخول يوسف السجن كان أن ألهمه الله أن يرفض الخروج منه للقاء الملك إلا بعد انكشاف كل خيوط المؤامرتين، وكان من الذكاء الشديد طلبه التحقيق فى المؤامرة الثانية فقط المشتملة على الشهود اللذين ما إن يتم الضغط عليهن وإنهيارهن حتى يعترفن على المرأة الماكرة بجرمها وشهادتها به أمام الجمع، فلا تجد مناصاً من الإعتراف بمؤامرتها الأولى السرية أيضاً. وهنا ينبغى تذكر نقطتين: الأولى أن امرأة العزيز لم تعترف بالجرم صراحة فى قصة المؤامرة الأولى بل كانت الأدلة هى التى أدانتها، ويبدو أنها كانت لاتزال مصرة على الإنكار وادعاء البراءة رغم كل الأدلة، أما النقطة الثانية فهى أن يوسف عليه السلام لم يطلب من الملك مطلقاً التحقيق فى تلك القضية الأولى، والتى تم فيها تحقيق كامل ينقصه ركن الإعتراف، بل طلب فقط التحقيق فى القضية الثانية والتى أدى انهيارها إلى انهيار المرأة الباغية وبالتالى اعترافها ومن ثم اكتمال أركان البراءة فى القضيتين معاً، ولنراجع ثانية طلب التحقيق هذا من النص القرآنى، قال تعالى:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَآءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف ٥٠)

ثم حدث أن التحقيق الملكى تم فعلاً فى القضية الثانية أولاً مما فضح خيوط المؤامرة الأولى تلقائياً وأدى لحصار المرأة الباغية، يقول تعالى فى الآية التالية عن استجواب الملك للنساء أطراف القضية الثانية مما أدى لانهيار المرأة وثبوت البراءة النهائية فى كلتا

القضيتين ﴿قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ (يوسف ٥١).

واعتذر للقارئ الكريم عن الخوض في الآيتين الكريمتين السابقتين ٥٠، ٥١ المشتملتين على تحقيق الملك وتهاوي المؤامرة وإثبات البراءة النهائية الكاملة ليوسف الصديق قبل موضعهما، لكنها خيوط القصة غير المرئية التي تمتد في الخفاء لتربط بين عشرات الجزئيات فيها في رباط قصصي مدهش. ونعود ثانية لأحداث المؤامرة الثانية في سياق آياتها. فأولاً نرى إحكام المرأة للمؤامرة بدء بتهيئة المكان المناسب في دارها، حيث أحكمت التمويه فـ﴿أرسلت إليهن﴾ لحضور حفل أو مسامرة نسائية كعادة النساء ثم ﴿وأعتدت لهن متكئا﴾ وانظر لتعبير الآية ﴿متكئا﴾ أي أنه ليس فقط مجلساً عادياً بل مكان يتكئن فيه أي يجلسن في استرخاء شديد .. أي أنها قامت بتخدير فرائسها بمنتهى المهارة فجلسن مسترخيات لاهيات حتى إذا داهمتهن المفاجأة سقطن فجأة بلا أدنى مقاومة .. ولا زلت مندهشاً من القدرة القصصية القرآنية على تصوير مدى المكر والدهاء والخسة بل وحجم الشر الكامن في أخلاق تلك المرأة .. فهي قامت بتخدير ضحاياها ثم انقضت عليهن بالمفاجأة .. وكانت المفاجأة هي ظهور يوسف أمامهن بوسامته المذهلة .. وقطعاً كانت المرأة تعلم بوقع المفاجأة ومدى الاضطراب الذي ستحدثه، فانظر ماذا فعلت ﴿وءاتت كل واحدة منهن سكينا﴾، إذن فلم ترد المرأة بإرباكهن وإضفاء الذهول عليهن أن تنطلق ألسنتهن بعبارات الغزل والعشق مما يدينهن فقط، ولا أرادت منهن فقط أن يعذرنها فيما لمتنها فيه، ولم ترد فقط أن تتعلق قلوبهن بعبدها الذي ﴿هو في بيتها﴾ وملك يمينها فتنهار حياتهن الأسرية والاجتماعية فحسب .. بل أرادت أبعد من ذلك، أرادت أن ترى دمائهن تسيل وأعضاؤهن تقطع، بل أيضاً وترك علامة مادية بادية لكل العيون تشهد على عقابها لهن وتشهد على إخفاقهن في إثبات طهارتهن المزعومة .. ولعلنا بعد هذا الاستعراض لشخصية ونفسية تلك المرأة نرثي ليوسف عليه السلام الغلام

المسكين الواقع تحت حكمها وبين فكيها. ونعجب كيف أنجاه الله تعالى منها. وهنا تسلط الأضواء القرآنية ثانية على يوسف عليه السلام وقد اشتد يأسه وأحيط به من كل جانب، فهو حبيس فى دار تلك المرأة الرهيبة التى حرحت بنواياها من السر للعلن والجهر، فلا شيء يثنيها عما أرادت. ليس ذاك فحسب فهناك الآن أيضاً العديد غيرها من النسوة الماكرات كلهن وراءه .. ليحتدم الصراع بين النسوة وتشتد وطأة الإغراءات والغواية .. وتتزايد الإشاعات .. ولا تفرخ المكائد إلا مؤامرات .. حلقات خبيثة متداخلة أحاطت بيوسف الصديق وسجنته بداخلها .. فهو سجين فى عبوديته وسجين فى بيت المرأة وسجين بحلقات المؤامرات وسجين بأعين الرقباء .. سجون متلاحقة تحيط بيوسف .. أونعجب إذن أن يختار يوسف أن يسجن فى سجن حقيقى من سجون المملكة .. ألا يكون ذلك السجن هو الحرية بعينها وهنا كان دعاءه عليه السلام ربه أن يخرجه من تلك الكوارث لسجن حقيقى هو أرحم له ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾، وكان أن استجاب له الله تعالى وأنقذه من ضيقته فأتت مشيئة القوم مسايرة لما أراده الله تعالى استجابة لدعوة يوسف ﴿ السِّجْنُ ﴾.

وتختتم آيات قصة المؤامرة الثانية بالآية الكريمة ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾، وكما أسلفنا فلفظ ﴿ بَدَا لَهُم ﴾ بما فيه من ظنية وعدم تيقن يشير إلى عدم ثبوت أى جرم حقيقى بحق يوسف الصديق، مما أدى بالتالى إلى عدم التيقن من التصرف الملائم بشأنه، كما يشير إلى أن السجن هنا لم يكن عقوبة، بل هو نوع مما نسميه «الاعتقال الوقائى المؤقت»، إبعاداً له عن أوساط المجتمع التى فتنت به ودرءً للفتنة، وكان السجن فى هذا التوقيت وبهذا الشكل إرادة إلهية حكيمة، حتى إذا جاء وقت خروجه مباشرة للعرش والمجد، كان ذلك من السهل حدوثه لعدم وجود تهمة مخلة بالشرف والأمانة اللتين يقتضيهما منصبه الجديد وكان أيضاً من السهل إثبات براءته بإجراء تحقيق جدى كهذا الذى طلبه يوسف نفسه من الملك.

٦- يوسف عليه السلام فى السجن :

تدخل بنا الآيات الكريمة .. بعد استعراض مشاهد المؤامرة مباشرة فى خضم الأحداث الهامة التى جرت داخل جدران السجن والتى أوصلت بيوسف عليه السلام من هذا القاع السحيق إلى ذرى المجد مباشرة .. ولعلنا أسلفنا الحديث عن الكثير من فنون القصة الحديثة التى وجدت فى آيات تلك الصورة الشريفة قبل أن يدعى البشر ابتكارها بزمان طويل، مثل البناء الدرامى والحبكة القصصية وأسلوب السيناريو كما هو متعارف عليه فى المسرح والسينما والتى تجزئ النص إلى لقطات أو مشاهد متعددة، منفصلة باكتمالها الذاتى، فى الوقت الذى تكون فيه متصلة سوياً فى تصاعد درامى معين ومعقد وصولاً للمشكلة الرئيسية وعقدة القصة ثم الحل فالخاتمة .. والقصة الحديثة تتميز دائماً بالبعد عن السردية وأسلوب الحدوتة المسطح وتجنح أحياناً إلى التجريدية أو الرمزية أو الواقعية فى المعالجة ابتعاداً عن المثالية الساذجة التى تصور الشر شراً لذاته كما تصوره شراً محضاً بلا بصيص نورٍ من خير فى ثناياه، وكذلك تصور الخير بصورة هى أقرب للبلاهة .. أقول أن كل أساليب المعالجة القصصية المتطورة جداً يستطيع قارئ السورة أن يلمحه ويتذوقه بسهولة شديدة فى آياتها الكريمة، هذا فى زمان التنزيل، أى فى القرن السابع الميلادى، الذى تميزت أدبياته فى المحيط العربى بشكل معين متعارف عليه باسم الأدب الجاهلى سواء فى أشعاره الغزيرة أو نصوصه النثرية القليلة مما وصلنا، وكلها تتميز بانعدام الخط الفكرى الموحد بين فقراتها المختلفة، مما يمكن رؤيته فى المعلقات الشعرية الشهيرة التى تبدأ بالفخر ثم تدلف للبكاء على الأطلال ثم للحماسة ثم لحكم حول الحياة ثم تدخل فى الموضوع بأبيات قليلة هذا ان استطاع المرء أن يحدد موضوعاً أو أكثر تدورحوله الأفكار، مما يجعل من السهل على المرء أن يحذف أبياتاً كثيرة من القصيدة فلا يحس السامع اختلالاً ما .. أقول أن هذا الرأى ليس تهجماً على أسلوب الشعر الجاهلى أو انتقاصاً من قدره، بل هو فقط إثبات للحالة الفكرية النمطية السائدة فى زمان تنزيل القرآن، مما يجعلها مختلفة تماماً عن هذا الأسلوب القرآنى المتطور جداً فى المعالجة

القصصية، وأعتقد أنها معجزة لايقدر عليها إلا إله واحد جبار، أن يتم تنزيل النصوص القرآنية بشكلها المتطور جداً في تلك البيئة الثقافية المغايرة بل والمشوشة، فتتقبله وتحتضنه تلك البيئة بلا رفض ولا انزعاج، بل والأكثر غرابة أن هذا الأسلوب القصصي القرآني ظل ماثلاً طوال الوقت وعلى الألسن ومع ذلك فلم يحاول أحد ما تقليده أو محاكاته، فظلت المعالجة الفكرية للقصص عموماً في الأدب العربي مترنحة متعثرة، ولعله من المفيد هنا تذكر بعض الحقائق عن الفن القصصي في مصر مثلاً التي ربما كانت من أكثر بلاد المسلمين الناطقة بالعربية تطوراً في الأشكال الأدبية، ولعل مطالعة سريعة لأحد الكتب المتخصصة في مناقشة تطور الفن القصصي ترينا كيف كان حال هذا الفن، وقد تخيرت كتاب «الأدب والحياة في المجتمع المصري المعاصر» للدكتور ماهر حسن فهمي، وهذا الكتاب يناقش في صفحات قليلة الحالة الأدبية لفن القصة في مصر فيذكرنا بأن أول المحاولات القصصية المصرية بدأت خلال الربع الأول من القرن العشرين وكنتيجة لاختلاط الحضارة الأوروبية التي نما فيها الشكل القصصي بالفكر الشرقي، وقد بدأت تلك المحاولات في هذا الوقت بحافظ إبراهيم الذي ألف قصة «ليالي سطيح» متبعاً فيها أسلوب المقامة في وقت لم يعد فيه لهذا الأسلوب مقام - أي أن الشكل القصصي منذ سنوات قليلة وفي القرن العشرين وبعد التنزيل القرآني بثلاثة عشر قرناً كان لا يزال يحاول النهوض من عثرته ويخطو خطواته الأولى متبعاً أساليباً شعرية يعدها الباحثون أساليب «متخلفة» - ثم مرت حقبة أخرى أخذت فيها الترجمة عن القصص الغربي بأساليبه المختلفة اليد العليا، ثم ظهرت بعض المؤلفات القصصية التي يصفها الكاتب بأنها نتيجة «تمخض الوعي عن مزاوجة بين التاريخ الإسلامي والقصص الشعبي والمثل العليا الشرقية والغربية والإنسانية ومثال ذلك قصص جورجي زيدان التاريخية». ويعلق الكاتب على تلك الحقبة من تاريخ القصة المصرية قائلاً: «وللصدف أهمية كبيرة عند زيدان، فهي التي تتدخل في حل الأزمات. أما شخصيات قصصه فهي بسيطة التركيب، لم تكتسب العمق الفني لأن هدف الكاتب هو التاريخ لا الرواية» انتهى. ثم مرت التجربة بما يعده الكاتب فاتحة الفن

القصصي في أدبنا المصري الحديث ألا وهو قصة «زينب» للدكتور هيكل، ويعلق المؤلف على الرواية بقوله «والمؤلف يحاول الوصف التحليلي في رسم شخصياته، ولكنها بالرغم من ذلك بعيدة عن التحليل العميق، فخرجت القصة مصورة لبساطة في الطبيعة المصرية بالنسبة لموضوعها، ومصورة للبساطة في العمل الفني نفسه، ولكنها تمثل فناً يسعى للظهور والتكامل» انتهى.

هكذا رأينا كيف كان الفن القصصي من أكثر أشكال التعبير الفني تخلفاً في بلد هو أكثر بلدان المسلمين العرب تطوراً في الأدب وانفتاحاً على الاتجاهات الفكرية المختلفة في قرننا هذا القرن العشرين، ورأينا كيف أن القصص التاريخي بالذات ممثلاً في رائده في اللغة العربية جورجي زيدان كان موصوفاً من النقاد بالافتقار للعمق الفني لاهتمامه بالتاريخ أكثر من الرواية، ولا يخفى عن المطالعين.. أن الكثير جداً من النقاد وصفوا تلك القصص نفسها بالفقر والمغالطة التاريخية.. ولعله من الجدير بالتذكير هنا أن أنماط النثر العربي في الحقبة الجاهلية، التي كانت تسير جنباً إلى جنب مع الأنماط الشعرية التي نوهنا عنها لم تكن تشمل الأدب القصصي بل كانت غالباً محصورة في ثلاثة أشكال هن الخطابة، والأمثال، وسجع الكهان، والخطابة كانت غالباً تعكس المشكلات الاجتماعية والسياسية التي تقتضي القاء الخطبة وكانت تشتمل على البلاغة والحكمة وقوة التأثير الشخصي وذكر لنا التاريخ أمثلة للخطباء أمثال الحارث بن ظالم، وأكثم بن صيفي، وعمرو بن معد يكرب وغيرهم، أما الأمثال فهي تلخيص مركز لتجارب ومواقف إنسانية بصورة تصبح متداولة بين الناس وقد اشتهر العرب بالبراعة في هذا المجال، أما سجع الكهان فهو نمط آخر له علاقة بالأسلوب الديني المتواجد في تلك البيئة، ويصاغ في صورة جمل قصيرة، مسجوعة، ذات جرس موسيقي، وتنزع للغموض، ومن أشهر كهان العرب الذين عرفوا بالسجع شق، وخنافر بن التوأم، وعفيراء الحميرية، وسطيح الذي يذكر التاريخ سجعه الذي عد نوعاً من التنبؤ بالبعثة المحمدية «إذا كثرت التلاوة، وبعث صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً، ولا

بابل للفرس مقاماً. يملك فيهم ملوك وملكات. بعدد الشرفات، وكل ما هو آت آت»، ولعل ركاكة الأسلوب وتهافت المعانى فى أمثال تلك النصوص شىء واضح بشدة مما يجعله قزماً ضئيلاً أمام الجبل البلاغى القرآنى. أما المحاولات الأولى للفن القصصى العربى خارج مصر فترجع إلى بعض ما جمع من حكايات التراث الشعبى فى ألف ليلة وليلة أو الشكل الرمزى فى كليلة ودمنة والمرجح أنها ترجمة لقصص غير عربية، فارسية أو هندية، ثم ظهرت بعض المحاولات المنفردة فى العصور الوسيطة بعد التنزيل مثل قصة «حى بن يقظان» لابن طفيل، ثم بعض المحاولات غير الناجحة لصياغة فن قصصى عن طريق المقامات، وعموماً فكل هذه المحاولات تمت فى عهود حديثة جداً عن زمن تنزيل القرآن، وترجع فى منابعها الفكرية إلى أصول غير عربية غالباً ولم تكن من بنود الأدب الجاهلى السائدة فى حقبة التنزيل القرآنى.

أما هنا وفى قصتنا القرآنية التاريخية قصة يوسف عليه السلام فرأينا الأسلوب الفنى المبدع المتطور بأسلوب السيناريو الحديث، والذى يجعل من السهل على أى مخرج سينمائى أن يأخذ القصة من الورق للشاشة مباشرة ودون الحاجة لتواجد حرفية سيناريست ما. ورأينا العمق الفنى المتمثل فى تعدد الشخصيات ورسمها بدقة والغوص فى أعماقها وتحليلها وتشابكها مع مراعاة منطقية الأحداث وصحتها ومنطقية التسلسل، ورأينا الواقعية الشديدة فى رسم الشخصيات بلا تطرف فى قدسية تلك الشخصيات كما هو الحال فى قصص الإنجيل، ولا تطرف فى ابتذالها وامتهانها كما هو الحال فى القصص التوراتى، ورأينا تشابك الأحداث وتعدد العقد والمشاكل والحلول المنطقية المتباعدة عن الأفكار الوردية غير الواقعية بل ورأينا أشكالاً أدبية عدها الكثيرون من النقاد نتاجاً للتطور الأدبى فى النصف الثانى من القرن العشرين فقط مثل الرمزية، والقارئ لسورة يوسف يستطيع أن يضع أصابعه على مواضع رمزية كثيرة فى كل مواقف القصة تترك للقارئ مساحة للتحليل والاستنباط والوصول للفكرة بلا خطابية مملة .. فقوام القصة نفسه رمزى يقوم على حلم لبطل القصة، ثم تتصاعد الأحداث حتى يتم تحقيقه بالكامل. والحلم رمز

يتكرر ثانية مع رفيقى السجن وأحلامهما، ومع الملك وحلمه، وتحليل رموز تلك الأحلام وفك شفرتها هو الذى أدى لتصاعد الأحداث من محنة لمحنة أشد لانتصار نهائى يتحقق للبطل .. ولعل تكرار فكرة الرؤيا والحلم فى مواضع عدة بالقصة بكل رمزيته هو ما يدعونا لتحسس المواضع الرمزية فى القصة ذاتها تلك الرمزية التى تربط بين وقت تنزل القصة وبين محمد ﷺ الذى كان يتلقاها وحياً فى وقت كان أشد ما يكون فيه حاجة لمثل هذا التأييد الرمزى، وتلك الرمزية فى الألفاظ هى التى تدفعنا قسراً - كما أسلفنا - للمقارنة بين قصتى يوسف وموسى عليهما السلام، تلك الرمزية التى تربط بين دخول يوسف عليه السلام للسجن وبين إدخاله لبنى إسرائيل لأرض مصر، وتلك الرمزية التى تربط بين الخروج الأول لموسى عليه السلام من مصر وبين إخراجه لبنى إسرائيل منها، وكأن تاريخ بنى إسرائيل بأحواله كلها يروى رمزاً عن طريق قصص أنبيائهم، وتلك الرمزية التى تربط بين تقطيع النسوة لأيديهن بالسكاكين وبين تقطع قلوبهن وتمزق استقرارهن الذهنى بقسوة التجربة وغيرها كثير، ومن هنا أدلف لأحداث السجن ذاتها وأحلام رفيقى السجن كأول حدث يمر بيوسف عليه السلام فى سجنه .. والحلمان رغم رمزيتهما التى فسرها يوسف عليه السلام لا يزالان يحملان رمزاً أكثر عمقاً، فتواجد الفتيين ونص أحلامهما - فى رأيى الشخصى - كان هو التمهيد لتفسير الحلم الأكبر الذى حلمه الملك والذى كان الضربة الفاصلة التى أوصلت يوسف من السجن للمجد .. فالفتيان ومنطوق أحلامهما وتفسيره هو نفسه رمز للفترتين اللتين كان مقدراً على مصر المرور بهما، فترة الجدب والهلاك التى مثلها الفتى حامل خبز القمح الذى تنهبه الطير فوق رأسه فلا يبقى بعد النهب شىء إلا الخواء، وكان مصير هذا الفتى هو الهلاك .. ألا يرمز هذا الفتى للجدب وانعدام إنتاج القمح محصول مصر الرئيسى حينذاك كما تنص الرواية القرآنية.

أما الفترة الثانية اللاحقة فكانت ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يوسف ٤٩)، وعلامة الغوث والنجاة كانت هنا هى كثرة محصول الكرم ووفرته لا كغذاء فقط

بل وللعصر أيضاً كخمر .. أليس الفتى الساقى لربه خمراً هو الرمز الحى لتلك الفترة المزدهرة بمظاهرها .. ألا توافقوننى أن هناك بعض الرمزية فى شخصية رفيقى السجن وفى حلميهما وفى مصيرهما، يشير لفترتين متعاقبتين مرت بهما مصر، وجسدهما حلم الملك ذاته لاحقاً، وألا توافقوننى أن وجود هذين الشخصين على مسرح الأحداث كان تهيئة وتدريباً وإيقاظاً لحواس وملكات يوسف عليه السلام استعداداً للحظة الهامة الفاصلة التى كان عليه أن يخوضها بنجاح تام ألا وهى تفسير حلم الملك الأعظم ذاته، أليس ذلك مثالاً على رمزية قصصية معقدة جداً يصعب حتى على كتاب هذا الزمان أنفسهم من أتباع مدرسة الرمزية القصصية محاكاته، ومثال آخر للرمزية المعقدة جداً فى هذه القصة القرآنية هو القميص .. قميص يوسف الصديق .. ويوسف الصديق فى القصة القرآنية رمز للإنسان المغلف بالصدق مما رمزت له القصة بالقميص الذى هو رمز أدلة الصدق وبرهان الحقيقة فى الوقائع المادية .. القميص ذلك الرمز المادى هو الذى يلتف حول جسد يوسف المادى حماية وستراً، وكذلك الصدق هو الذى يلتف حول الصديق فى المعنى الروحى الرمزى، وكلما نزع هذا القميص عن الجسد كان الصدق ينزع عن الموقف، وكلما استدعت الأحداث القميص للشهادة كان قريناً للصدق والحق فى كل أحواله، انتزعه الأخوة وغمسوه فى دم الكذب ليوهموا الأب أن يوسف افترسه الذئب فلما رآه صحيحاً غير ممزق أدرك الحقيقة وعرف صدق اليقين، وعندما أخذوه من يد المرأة الباغية فى مؤامرتها كانت تمزيقه هو علامة الصدق وبرهان الحقيقة أيضاً .. فالقميص هو الصدق والحقيقة، والحقيقة لاتطمس بل تبقى دائماً هى الحقيقة فى هيئتها العادية، وتبقى كذلك عند تغير تلك الهيئة، كما كان القميص صحيحاً غير ممزق هو الصدق وكما كان أيضاً ممزقاً هو الصدق والبرهان، غمس القميص فى الدم الأحمر القانى الفاقع فلم يكن مقنعاً وعندما شابته رائحة الجسد الصادق الرقيقة كان مبالغاً فى الإقناع لدرجة رد البصر لمن كف بصره (هذه الجزئية أيضاً، جزئية قرآنية صرفة لم يرد ذكرها أو ذكر كف بصر يعقوب عليه السلام من جراء الحزن فى التوراة مطلقاً)، وهكذا الحقيقة مهما خفت صوتها فهى

الصواب الذى تدركه العيون والقلوب . على عكس الزيف الذى مهما بالغ وازداد فى التمثيل والتمويه يبقى فيه شىء ما يدل على زوره وبهتانه .. أليست تلك جزئية أخرى فى القصة تتخذ الرمزية منهاجاً بأسلوب معقد راق جداً يصعب على أعتى الكتاب محاكاته .

وحتى الألفاظ ذاتها التى تخيرها المولى عز وجل للقصة ، فإن الكثير منها يحمل مدلولاً رمزياً عبقرياً ، ولنتأمل مثلاً حلم يوسف عليه السلام فى صباه الأول ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَآ أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ (يوسف ٤) ، وتأمل هذا الطفل فى وصفه للأجرام السماوية التى رآها بالكواكب خلاف الشائع المعتاد ، حيث يقول الناس العاديون رأيت نجوماً حيث أن معظم الأجرام السماوية اللامعة التى نراها فى السماء هى نجوم فعلاً وليست كواكب .. والنجوم أجرام مضيئة بذاتها أى أنها مصدر للضوء بكل خواصه أما الكواكب فهى أجرام باردة ، وإن أنارت يكون ذلك نتيجة لانعكاس الضوء الواصل إليها من النجوم كنجم الشمس مثلاً . أليس فى ذلك إيحاءاً معيناً ورداً كافياً على هؤلاء الذين قالوا إن إخوة يوسف قد صاروا أنبياء لاحقاً وبعد أن تابوا .. أليست لفظة (كواكب) تشير إلى أن هذا ليس بصحيح فهم لم يكونوا أبداً مصدراً للضوء بل على أحسن تقدير عاكسين أو ناقلين له .. أليس ذلك هو ما توصل إليه عظام المفسرين بعد جهد جهيد دون أن يلتفتوا إلى رمزية ومدلول كلمة كواكب ، جاء فى تفسير ابن كثير عن تلك المسألة [وأعلم أنه لم يقم دليل على نبوة أخوة يوسف ، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك ، وفى هذا نظر ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل ، ولم يذكروا سوى قوله تعالى ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ وهذا فيه احتمال ، لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب ، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من أخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم والله أعلم] انتهى .

أما عن رأيى الشخصى ، فإننى أرى أن توضيح رأى ابن كثير فى هذه المسألة يتطلب

منا أن نتذكر الأسلوب القرآني، كالذى جاء في قوله تعالى مثلاً ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ (الجاثية ١٦)، فمثلاً الحديث القرآني هنا في هذه الآية وغيرها يشير إلى بنى إسرائيل (بنى يعقوب) على امتداد أجيالهم وهم مئات الألوف فهل أوتيت النبوة لهم جميعاً، أم تنزلت الرسالة على أفراد بعينهم منهم أو في زمانهم، وليس للكل؟ والمعلوم قرآنياً وتاريخياً ومنطقياً وتوراتياً أن النبوة كانت تؤتى لفرد من كل جيل، وهكذا عندما يقول المولى أنه أنزل الرسالة على الأسباط (ابناء يعقوب الإثنى عشر) فهو أنزلها في واحد منهم أو في زمانهم .. كما وصلهم ما تنزل على أبائهم إبراهيم فإسحاق فيعقوب عليهم السلام، وكذلك وبنفس الأسلوب وهبت النبوة لأخ واحد منهم في زمانهم هو يوسف الصديق.

أقول أن إثبات قضية ما كهذه يحتاج لجهد جهيد، ويمكن حله بالتأمل في رمزية الألفاظ القرآنية التي وصفت هؤلاء الأسباط هنا بالكواكب وليس بالنجوم، أى أنهم ليسوا مصدر ضوء ما مثل ضوء الرسالة، بل هم على أحسن تقدير ناقلين وموصلين له، ألاندرك بسهولة بعد هذا الاستعراض الوجيز لماذا كان القصص القرآني هو ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (يوسف ٣).

ونعود مرة أخرى لأحداث السورة الكريمة حيث ألقت بنا الخواطر مراسيها عند بداية مرحلة السجن وحلم الفتيين وتفسيره، يقول تعالى:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن

سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ * وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف ٣٦-٤٢)

سبق أن أسلفنا أن الحلم ذاته عموماً - حسب علم النفس الحديث - هو عملية رمزية يقوم فيها العقل الباطن بتحويل المفردات والأحداث واختزالها لرموز يصعب فك شفرتها إلا بمعونة صاحب الحلم ذاته . . لذا كان تعبير الرؤى الصحيح لايتم إلا لذى علم واسع وبعد تحليل نفسي دقيق لصاحب الحلم، وأن يتأتى ذلك لشاب صغير فهو يتطلب معجزة إلهية لاتقتضى فقط فك رموز شفرة الحلم بل وأيضاً معرفة دقيقة بنفسية صاحب الحلم ذاته، والذى كان يتم هنا وعن طريق يوسف بدون أى مناقشات مما تتطلبه عادة عملية التحليل النفسي.

وسبق أن نوهنا أن شخصية الرجلين أصحاب الحلمين ذاتها عملية رمزية، فى رأيى الشخصى (وإن كان هذا لايتناقض مع وجودهما الفعلى على مسرح الأحداث) أى أن العملية عملية معقدة من رموز بداخل رموز يتطلب حلها واستخلاص النتائج منها هبة إلهية عظمى لم تكن لتوهب إلا لنبى صادق.

وتجدر هنا الإشارة إلى أن قصة الحلم فى السجن وردت بنفس المعنى فى التوراة أيضاً، وإلى هنا لنا وقفة قصيرة عند موضوع الحلم والرؤيا فى الأديان، فالديانة اليهودية كما يتضح من سطور التوراة تولى الأحلام والرؤى أهمية كبرى وتجعلها الأساس الأول إن لم يكن الأوحد للنبوة، فالنبى شخص يتنبأ بأحداث الغيب المقبلة غالباً عن طريق أحلام معينة (بديل الوحى) ويكون تطابق تفسير رموز الحلم مع أحداث المستقبل هو الدليل القاطع على صدق النبوة، كما نرى فى أسفار التوراة الكثيرة جداً مثل سفر أشعياء المعتمد على رؤى إشعياء بن آموص وسفر إرميا عن رؤى إميا بن حلقيا وسفر حزقيال وكذلك قصص الرؤى فى سفر دانيال التى تشابه فى الكثير من جزئياتها قصص الأنبياء الآخرين لاسيما

قصة يوسف عليه السلام من حيث أن موهبته في تفسير الرؤى كانت هي سبب تسلطه على عقول ملوك بابل والفرس من بعدهم بما يحقق عائداً غزيراً على أحوال بني إسرائيل في السبي (عاصر دانيال الملوك نبوخذ نصر وبيلشاصر وداريوس وفسر لهم جميعاً أحلاماً وقد كان اسمه شهيراً في هذا المجال حتى أن الكثير من كتاب المسلمين اللذين خاضوا في هذا الموضوع زجوا باسمه في الكثير من كتاباتهم عن تفسير الأحلام ونسبوا إليه كتاباً اسمه الأصول لدانيال الحكيم الذى ذكر في كتاب عن نفس الموضوع اسمه تعطير الأنام في تعبير المنام) وكذلك أسفار هوشع ويوئيل وعاموس وميخا وناحوم وصفنيا وملاخي وزكريا (نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو غير زكريا والد يحيى عليهما السلام) وهي أسفار تملأ أكثر من نصف كتاب العهد القديم، وتقوم كلها على رؤى لهؤلاء الأنبياء مما تم تخيره وتصنيفه في الكتابات اللاحقة للتوراة وخاصة في عهد الإنحطاط اليهودى حيث تم تدمير مملكة إسرائيل على يد الاشوريين ثم مملكة يهوذا على يد البابليين، ونستطيع أن نرى أن كل هذه الأسفار قائمة على رؤى تنضح بالحقد والكراهية والعداء الشديد لكل الأمم المجاورة مثل بابل وآشور والممالك العربية في وادى الأردن والشام بل ومملكة مصر ذاتها، التي تثبت كل الكتابات التوراتية مساعدتها وعطفها على هؤلاء اليهود ضد أعداءهم، ومن الملاحظ أن كثير من هذه النبوءات كانت نبوءات كاذبة لم تتحقق تاريخياً أبداً، مما يقضي بالحكم على هؤلاء الأنبياء ونبوءاتهم بأنها كاذبة حسب التبيين التوراتي ذاته، وقد ورد في التوراة أن موسى عليه السلام حذر بني إسرائيل من الأنبياء الكذبة المدعين للنبوة عن طريق إدعاء الرؤى .. قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل [وأما النبي الذى يتجبر فينطق باسمي بما لم آمره أن يتكلم به، أو يتنبأ باسم آلهة أخرى، فإنه حتماً يموت، وإن سألتم في أنفسكم «كيف نميز الكلام الذى لم يصدر عن الرب؟» فإن كل ما تنبأ به النبي باسم الرب ولايتحقق يكون ادعاء منه لم ينطق به الرب، بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخف منه] التثنية ١٨ : ٢٠-٢٢ .

ويبدو من مطالعة التوراة والتاريخ الإسرائيلي ذاته، أن عددا كبيراً جداً، ذكور

وإناث على حد سواء، حاولوا تقمص هذا الدور - دور إدعاء النبى - عن طريق افتعال رؤى معينة .. وقد أفلح البعض منهم وفشل آخرون لظروف سياسية معقدة كانت تحكم المجتمع اليهودى حينذاك .. وأعتقد أنه بمراجعة الكثير من الأسفار التوراتية المعتبرة والقائمة على هذه الرؤى، ومقارنة ما جاء فيها بما حدث فعلاً من أحداث تاريخية والاحتكام للنص التوراتى السابق، فإنه سيثبت زيف وتحريف هذه الأسفار بشكل مروع .. وأود أن أذكر أن موسى عليه السلام فى التوراة ذكر اليهود أيضاً بأن تحقق بعض ما يدعيه هؤلاء قد يكون صدفة مما يعطيه مصداقية نبوة ويكون اتباعه - طبقاً لذلك - كارثة على العقيدة ذاتها. وحقائق التاريخ بل وأسفار التوراة التى لا تزال متداولة حتى الآن بما فيها من زيف وادعاءات لم تتحقق تاريخياً، تشهد بعدم تذكر اليهود لتلك النصيحة الموسوية، قال موسى عليه السلام لبنى إسرائيل مما كتب فى التوراة [إذا ظهر بينكم نبى أو صاحب أحلام، وتنبأ بوقوع آية أو أعجوبة، فتحققت تلك الآية أو الأعجوبة التى تنبأ بها، ثم قال: «هلم نذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفوها ونعبدها». فلا تصغوا إلى كلام ذلك النبى أو صاحب الأحلام. لأن الرب الهكم يجربكم ليرى إن كنتم تحبونه من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم، فاتبعوا الرب إلهكم واتقوه، واطيعوا وصاياه واسمعوا صوته، واعبدوه وتمسكوا به، أما ذلك النبى أو الحالم فإنه يقتل، لأنه نطق بالبهتان ضد الرب إلهكم الذى أخرجكم من ديار مصر] التثنية ١٣ :١-٥.

إلى هنا نرى كيف كانت الأحلام والرؤى - صادقها وكاذبها - ركناً أساسياً فى العقيدة والفكر الإسرائيلى .. أما إسلامياً فالفكر الإسلامى الأصولى فى إيجاز شديد يفصل بين أضغاث الأحلام التى لاتكون رؤيا صحيحة وبين الرؤى الحقة، وبالتالى فإن الفكر الإسلامى الصحيح المستمد من تعاليم الرسول الكريم يدعو إلى عدم إعطاء هذا الأمر وزناً كبيراً مما قد يؤثر فى أنشطة الإنسان الواقعية ويتحكم فى أفعاله بل يدعو لتناسيها وعدم الجرى وراء تفسيراتها التى غالباً ما تكون غير سليمة. وللرسول الكريم ﷺ أحاديث نبوية صحيحة وكثيرة فى هذا المقام (وإن كان المأثور أن الرسول الكريم نفسه

كان أحياناً يعبر الرؤى للصحابة مما يتحقق فعلياً فيما بعد) . أما عن الرؤية الصحيحة فهناك خلاف طفيف بين الأراء الإسلامية ، فهناك من يقول أن هذه الرؤى الصادقة لاتكون إلا للأنبياء والرسل عليهم صلوات الله فقط وأضاف آخرون أهل الصلاح لهم ... وهناك أيضاً الكثيرون الذين يحتجون بأحداث سورة يوسف لإثبات أن الرؤى قد تكون للجميع بلا استثناء ، فرؤية الملك كانت صحيحة وتحققت فعلاً رغم أن هذا الملك كان كافراً ، وكذلك فالرؤية قد تقع للأطفال ذاتهم إعتماداً على أن رؤيا يوسف عليه السلام الأولى ، رآها وهو لايزال بعد في سن الطفولة .

ولا زلت - شخصياً - أعتقد أن الرؤى الصحيحة قد تقع للجميع .. أما رؤيا البشر العاديين فتحتاج لتفسير لرموزها ، وفك لشفرتها ، مما يحتاج علماً غزيراً أو هبة ربانية في التفسير لا تتاح للكثيرين .. أما رؤى الأنبياء والصالحين فهي واضحة جلية مفسرة لهم لا تحتاج منهم للبحث عن تفسير أو تعبير مثل رؤيا إبراهيم عليه السلام التي رأى فيها أنه يذبح ابنه وكانت تلك الرؤيا الواضحة المفسرة بمثابة أمر إلهي قاطع له ، وعليه فقط أن يمتثل كما حدث منه بالفعل عليه السلام .

أما عن رؤى البشر العاديين فقد قال رسول الله ﷺ ما معناه أن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت ، مما يحث على عدم تتبع تفسير وتعبير الرؤى التي كثيراً ما تمر بالإنسان العادي .

وبالرغم من هذا الرأي الشرعي ، الذي هو رأي علمي سديد يحرر الإنسان من عبودية الرموز الغيبية غير السليمة والتي قد تخيفه وتشل حركته ، فإن الكثير من الكتاب المسلمين قد ألفوا عشرات الكتب في تفسير الأحلام وتعبير الرؤى مثل ابن سيرين ، وعبد الغني النابلسي وخليل بن شاهين الظاهري ، وإسماعيل بن الأشعث والمأموني وإبراهيم الكرماني ، وجابر المغربي ، ومحمد بن شامويه ، ومحمد القرشي النصيبي ، وعبدوس وغيرهم كثير عليهم رحمة الله ممن يذكرهم تاريخ هذا العلم ، وحديثاً فإن أرفف المكتبات تمتلىء بالعشرات من نوعية تلك الكتب التي لاندري من أين استقى مؤلفوها ما بها من

كلام، وهو فى غالبيته لا يستند لأسس شرعية أو منهاج علمى.

انتزع نفسى بصعوبة من الخوض والاستزادة فى موضوع «الأحلام والرؤى فى الأديان» حيث أنه موضوع متسع قد يستغرق منا الكتاب كله واكتفى بالعرض الموجز السابق وأعود ثانية لخواطرى وتأملاتى حول آيات سورة يوسف الشريفة من حيث انتهينا.

يقول تعالى أن أول الأحداث التى وقعت بالسجن وهى حلم الفتيين وتأويله :

﴿ ودَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فتيان قَالَ أحدُهُمَآ إنِّى أرانى أعْصِرُ خَمْرًا وقَالَ الأخَرُ إنِّى أرانى أحْمِلُ فَوْقَ رَأسِى خُبْزًا تَأكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بتأويله إنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لا يَأتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إلا نبأتُكُمَا بتأويله قَبْلَ أن يَأتِيَكُمَا ذلكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى إنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بالأخرة هُمْ كَافِرُونَ * واتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءابَآءِى إبْرَاهِيمَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أن نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ ءَأرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إلآ أسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أنتُمْ وءابَآؤُكُم مَّآ أنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إنِ الْحُكْمُ إلا لِلَّهِ أمَرَ ألا تَعْبُدُوا إلآ إيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ أمَّآ أحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا وَأمَّا الأخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأسِهِ قُضِىَ الأمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ * وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (يوسف ٣٦-٤٢)

ولنأت للآية الأولى من هذا السياق الآية ٣٦ لنرى كمّ الإعجاز اللفظى والرمزى الموجود فيها، فبخلاف الإيحاءات اللفظية التى يمكن للمتمعن أن يجد فيها الكثير من العمق، هناك رمزية شديدة جداً أشد حتى مما بيناه سابقاً، فأولاً قوله تعالى ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾. نجد أن حرف الواو هنا يفيد التتابع والتلاحق، أى أن دخول يوسف للسجن كان مباشرة بعد الحكم الظنى الذى أصدروه عليه مما لم يعطه أى فرصة للدفاع عن نفسه أو مراجعة القوم فى هذا الحكم، وكلمة ﴿ مَعَهُ ﴾ تفيدنا فى التحديد الزمنى لفترة سجن يوسف على أنه ﴿ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ أى من ثلاثة لتسعة سنوات فقط وليس أكثر، فهم

دخلوا معه فى نفس التوقيت وأخبروا يوسف بالحلم وفسره لهما ثم لاقا مصيرهما فى فترة زمنية قصيرة (تقول التوراة ثلاثة أيام) ثم بعد ذلك قضى يوسف هذه الفترة ﴿ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ . فلو لم يذكر الله تعالى كلمة ﴿ مَعَهُ ﴾ هنا لكان يمكن للأقاويل أن تقول أنهما دخلا بعده بعشرة سنين أو ما إلى ذلك ، ونحن نرى باستعراض تفسيرات السورة كم يغرم المفسرون فى كل نقطة بمحاولة التحديد الزمنى للأحداث ، ويضرب كل منهم أدلة للتدليل على رأيه أما هنا وبهذه الكلمة فاللفظ القرآنى لايترك مجالاً لتأويل.

كذلك فلفظ ﴿ فَتَيَانِ ﴾ يوحى بجانب القوة والفتوة وصغر السن إلى العبودية .. حيث تخير تعالى هذا اللفظ لوصف عبودية يوسف ورقه عند العزيز وامرأته ﴿ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا ﴾ (يوسف ٣٠) ، مما يشير إلى أن هذين الشخصين كانا - مثل يوسف عليه السلام نفسه - عبدان فى قصر ملكى مما يشير إلى أن هذا السجن كان سجناً متميزاً ملحقاً بالقصر الملكى ، كما يوحى السياق أيضاً بأنه كان سجن تحفظى يودع فيه المتهمون حتى الفصل فى القضايا وليس بسجن عقوبات كما أسلفنا من قبل ، بدليل نجاة أحد المتهمين وتبرئته وإدانة الآخر وقتله فيما بعد ، أى أن التهمة والعقوبة لم تكن مقررة بداية فى حق هذين الشخصين عندما دخلا السجن مع يوسف عليه السلام ، ولعلنا نلاحظ أيضاً الجمال البلاغى فى ﴿ فَتَيَانِ ﴾ و ﴿ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

انتقل الآن لنقطة فى قمة الخطورة والحساسية تتعلق بالفلسفة الكامنة والرمزية المعقدة وراء أحداث القصة .. فالفتيان ذاتهما رمز ، وحلمهما رمز فسره يوسف عليه السلام ،كما أن إتحاد الشخصين بحلمهما رمز آخر أشد عمقاً .. والمتأمل فى نص الآيات قد يساوره خفية سؤال قد يبدو بلا جواب أو يكون جوابه «هذا حدث ولا تفسير له» ، وهذا السؤال هو : لماذا كان ارتباط أحداث حلم الفتيين بنوعين من الشراب والطعام هما خمر العنب المعصور (النبيذ) والخبز بالذات هنا ؟ ثم لماذا ضرب يوسف عليه السلام موعداً لتفسير الحلم مرتبط بموعد الطعام ؟

وتفسيرى الشخصى لهذا الموضوع لايتضح إلا بالمعرفة العميقة بأسلوب الفكر

اليهودي، والذي استمر في الفكر المسيحي ذاته مما تبلور في قصة العشاء الأخير قبل صلب المسيح كما قالوا في الإنجيل. فيوسف عليه السلام نبي من أنبياء بني إسرائيل وله نفس النمطية الفكرية ونفس النفسية التي يخاطبه المولى عز وجل من خلالها .. والفكر اليهودي العقائدي المتمحور حول فكرة القرابين والفداء والتضحية يقدم دائماً نوعين من الطعام كقربان للإله بأشكال مختلفة أحدهما الخمر والآخر الخبز (راجع أسفار اللاويين والعدد) ويهتم بشكلهما ونوعيتهما اهتماماً عظيماً يملأ صفحات طويلة من صفحات التوراة، أما النوع الثاني فهو الدم واللحم، وهناك عشرات الأنواع من الذبائح في الطقوس اليهودية لكل شيء وهناك أسلوباً متفرداً لكل منها من حيث تعامل الكهنة مع الدم ومع اللحم، أي كان هناك دائماً خمراً وخبزاً وكان هناك دماً ولحماً .. بل لعلنا نجد أن فكرة القربان المكون من الخبز والخمر لاتزال مسيطرة على الفكر التوراتي حتى في الروايات التي حدثت في زمان إبراهيم عليه السلام ذاته، حيث جاء في التوراة [وكذلك حمل إليه (إلى إبراهيم) ملكي صادق ملك شاليم، الذي كان كاهناً لله العلي، خبزاً وخمراً وباركه قائلاً: «لتكن عليك يا إبرام بركة الله العلي، مالك السماوات والأرض»] (التكوين ١٤: ١٨-١٩].

ثم جاء الفكر المسيحي فبلور هذه النقطة وأوضحها أكثر فالخمر هو رمز للدم والخبز هو رمز اللحم كما أن المسيح عليه السلام ذاته هو الذبيحة الإنسانية العظمى التي قدمت على مذبح الإله بديلاً لنظام القرابين المعمول به في اليهودية (المسيح عليه السلام كان آخر أنبياء بني إسرائيل وتشير الأناجيل إلى أنه كان من سبط يهوذا بالتحديد)، وعلى ذلك تم نسخ وإلغاء نظام القرابين في الطقوس المسيحية .. يقول العالم المسيحي الذي قام بتقدمة سفر اللاويين في نسخة التوراة التي بين أيدينا «وأما موضوع الكتاب الأساسي فيتلخص في خطة الله التي اعتمدها للتكفير عن الخطايا بسفك دم الذبائح وتقديمها قرباناً. ولم يكن هذا النظام التكفيري بكليته إلا رمزاً لعملية الفداء العظمى التي تحققت بصلب المسيح وسفك دمه للتكفير، مرة وإلى الأبد، عن خطيئة الجنس البشري» ... لذا فلما كان المسيح

هو رمز لذبيحة القربان، كان أيضاً الخمر رمز لدمه والخبز رمز للحمه كما تبلور في قصة العشاء الأخير .. يقول الإنجيل عن تلك الواقعة [وأخذ خبزاً وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً : «هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم. اصنعوا هذا لذكرى» وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً «هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يسفك عنكم»] لوقا ٢٢ :١٩-٢٠.

وكذلك كان المسيح عليه السلام يشير لنفسه حسب الروايات الإنجيلية بكرمة العنب التى يعصر منها الخمر وكذلك بالخبز.

«أنا الكرمة الحقيقية وأبى الكرام .. و «أنا الكرمة وأنتم الأغصان» يوحنا ١٥ :١و٥، كما يقول : «أنا هو خبز الحياة. من يقبل إلى فلا يجوع» يوحنا ٦ :٣٥.

ولعلنا نعرف أنه حتى الآن يقوم الكاهن المسيحى فى القداس بتقديم رشفة النبيذ وقطعة الخبز للمصلين كرمز لدم ولحم المسيح. وكذلك فإن الكثير من الطوائف المسيحية لاتزال تؤمن أن هذا الخمر والخبز يتجسدان داخلهما على صورة المسيح ذاته.

من هذا الاستعراض الوجيز السابق للأسلوب الفكرى الإسرائيلى السائد منذ بداية ظهور بنى إسرائيل ولقرون عديدة حتى ظهر فى الفكر المسيحى نستطيع أن نتلمس الرمزية الكامنة خلف اختيار شخصية رفيقى السجن (ساقى الخمر والخباز) :

١- ساقى الخمر والخباز، والخمر والخبز، هما رمزان فى الفكر الإسرائيلى للدم واللحم، أى رمز للإنسان فى هيئته وحياته الأرضية .. وقد رأى يوسف عليه السلام هذا الرمز فى ضعفه متعرضاً للمحنة ومطروحاً فى السجن (الذى قد يرمز هنا للحياة ذاتها)، وقد ينجو كما نجا أحدهما وقد يهلك كما هلك الآخر. إذن فهناك رمزية معقدة فى تلك القصة ترمز للحياة بذاتها وتقلباتها والطريقين الكامنين خلفها ولا ثالث لهما : الهلاك أو النجاة .. بأسلوب لايمكن فهمه إلا بالغوص فى أسلوب الفكر اليهودى الإسرائيلى ذاته مما ينبىء بعظمة القرآن وشموليته وعبقريته بصورة لا تتأتى لبشر كائناً من كان. فالإعجاز ليس إعجازاً بلاغياً نظمياً وحسب - كما يتصور الكثيرون - بل هو تركيب قصصى رمزى

معقد إلى أقصى درجة لايمكن محاكاته أبدا.

ملحوظة: فكرة استعمال الخبز والخمر كقرابين للآلهة فكرة مصرية فرعونية قديمة، نستطيع أن نراها على جدران المعابد الفرعونية المختلفة، ولابد أن اليهود قد تأثروا بها، ونستطيع أن نجد الكثير من النصوص التى تشير لذلك مثل تالك التى وجدت على مقبرة الوزير خنوم حتب والتى يشير فيها لمهامه المتعلقة بالقرابين الملكية «وبعثت بتماثيل إلى المعبد وخصصت لها قرابينها من خبز وجعة وماء ونبيذ وبخور كما خصصت شرائح لحم للكاهن الجنائزى».

ولعل التفسير الفلسفى الرمزى فى مفردات أحلام الفتيين ومدلولها .. يحل مشكلة تفسيرية ضخمة كانت تلح دائماً على ذهنى .. وهى لماذا كانت هناك فى تلك القصة القرآنية من سورة يوسف أربعة آيات كاملة (٣٧-٤٠) بين سماع يوسف للرؤية من جهة وتفسيره لها من جهة أخرى تمتلئ كلها بتذكر الله عز وجل ووصف صلب العقيدة التى قرر يوسف الإيمان بها، وترك كل العقائد الأخرى الفاسدة (الآية ٣٧) مما لم يتكرر ثانية فى أى موضع بالسورة، وبهذه الكيفية والكثافة، حتى بعد انتصار يوسف النهائى، واكتمال القصة، حيث أورد القرآن الكريم شكر يوسف عليه السلام لله وتذكره لفضله وإثبات ألوهيته ووحدانيته ودعائه إياه كل ذلك فى آية واحدة فقط (الآية ١٠١).

والخلاصة - فى رأى الشخصى - أن وجود هذين الشخصين أمام يوسف الصديق فى بداية خلوته بالسجن كان تعبيراً رمزياً عن الإنسان والحياة والمصير استطاع يوسف الصديق الذى كانت معجزته هى تفسير الأحلام وحل الشفرات والرموز أن يحلها ويعيها .. عموماً فالرمزية القصصية عن طريق أشخاص يجسدون رموزاً معينة ليست بغريبة على الأسلوب القرآنى المبدع، حيث أتت بعض النظائر لذلك فى قصص أخرى مثل قصة داود عليه السلام إذ يقول تعالى:

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ

الصِّرَاطِ * إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ (ص ٢١-٢٤)

وهكذا نرى أنه فى هذا الحلم بالذات، كانت الأفكار والعبر والتفسيرات والمعانى كثيرة معقدة ومتشابكة لحد كبير جداً، لذا فبالنسبة لهذا الحلم بالذات طلب يوسف عليه السلام من ﴿ صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ مهلة زمنية قبل الإجابة بخلاف ما بدر منه عند تفسير حلم الملك نفسه، وهو حلم أعقد وأكثر تشابكاً من حلم الفتيين، حيث قام بإعطاء التفسير مباشرة وبلا فترة توقف فى حالة حلم الملك مما يشير إلى قدرته العظيمة على تعبير الرؤى بمجرد ذكرها أمامه، وكان من الممكن أيضاً أن يستغل هذا الظرف ويساوم القوم على حريته أو إثبات براءته أو شىء آخر من هذا القبيل، ونرى من السياق التصويرى فى القصة القرآنية أن هذه المهلة الزمنية بين سماعه للأحلام وبين تفسيرها أربعة آيات كاملة تمثل فترة زمنية تقع بين ذكر مفردات الحلم وبين تفسير يوسف لها، تلك الفترة الزمنية كلها رجوع لله عز وجل ومعرفة حقة به وترك لملل الشرك ورجوع لملة التوحيد التى تنزلت على أجداده وأبيه وتخصيص للواحد القهار فقط بالألوهية وحق العبادة، وتأمل فى حال الناس فى ذلك الزمان من حيث ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يوسف ٣٨)، و﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف ٤٠)، أربعة آيات كاملة تمتلىء بكل أركان العقيدة الحقة وعلم كامل بجوهرها وشكر جميل للخالق عليها، قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ

إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف ٣٦-٤٠)

وهكذا فإنه عند تلك النقطة من آيات الذكر الحكيم، كان يوسف عليه السلام قد فهم الدرس ووعى العبرة والمدلول من الحدث مما تبلور فيما نطق به من وضوح كامل لكل أركان العقيدة التوحيدية فى ذهنه وتيقنه الكامل من الطريق القويم الذى اختاره له المولى عز وجل.

عند تلك النقطة أخبر الصديق ﴿ صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ بتاويل حلميهما، قال تعالى على لسان يوسف الصديق: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ (يوسف ٤١)، وتأويل الحلم واضح لا يحتاج توضيحاً، فما ذكره لهما يوسف الصديق من تعبير للحلم قد تحقق فعلاً بعد ذلك، وهنا أيضاً بدأت معجزة يوسف من القدرة على تأويل الرؤى تظهر فى القصة حيث أن حلمه الأول فى طفولته لم يستطع هو تأويله بل كان الأب يعقوب عليه السلام هو الذى أدرك مغزاه وعبره .. ولعلنا نحس هنا أن الله عز وجل يؤيد عباده بالمعجزات والآيات .. حتى فى حالة الأنبياء والرسل عليهم السلام .. فقط عند اتضاح معالم الطريق والوصول إلى التيقن العقائدى القاطع بلا شك أو ريبة، والسياق القرآنى فى تلك السورة يرينا أن بداية معجزة التأييد ليوسف عليه السلام بتأويل الرؤى لم يهبها الله عز وجل له إلا بعد أن توصل بالتأمل والمجاهدة لصدق عقيدة التوحيد (الآيات ٣٧-٤٠).

نقطة أخرى جديرة بالإشارة هنا وهى أن الوجود مع الله وفى ظل عقيدته هو اليقين الوحيد الممكن، أما مجرد شبهة إشراك الأسباب المادية فينزل بالإنسان فوراً لدرجة الشك والظن ولنقرأ الآيات الكريمة ثانية ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ * وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ (يوسف ٤١-٤٢).

وانظر لمدى اليقين والقطعية والحدة فى حديث يوسف عندما كان مع الله فقط بعقيدة صافية ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾، وانظر لحاله عندما غفل عن تذكر المسبب الأوحد للأسباب

والنتائج حيث كان ﴿ ظنّ ﴾ .. فالوجود مع الله تعالى والتوكل عليه فقط هو اليقين الوحيد الذى ينعكس على أفعال الإنسان وأقواله، أما شبهة إشراك العباد أو الأسباب والاعتقاد بقدرتها على الوصول للنتائج فيزلزل الرسوخ القطعى فى أقوال الإنسان وأفعاله، وهذا هو الفرق الذى تظهره القصة هنا بين لفظى ﴿ قُضِىَ الأَمْرُ ﴾ و ﴿ ظنّ ﴾، ما أحلى العبارات القرآنية التى على إيجازها تقول لنا الكثير الكثير.

ثم تأتى الآية الكريمة : ﴿ وقال للذى ظنّ أنه ناجٍ منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ (يوسف ٤٢)

وهنا كان عقاب المولى عز وجل للأنبياء المقربين، وكأنه تعالى يقول ليوسف أنك قد فهمت الدرس وعرفت الحقيقة وتبلورت وحدانية الله وتفرده تماماً فى نفسك فلا يصح مطلقاً أن يداخلك الشيطان فى صغيرة ولا كبيرة بعد ذلك .. فلا مجال هنا لدخول الشيطان، لذا كان العقاب الإلهى وشدة العقاب تتناسب بالعدل الإلهى المطلق مع سمو المكانة .. فكلما سما الشخص كان العقاب أقسى وأشد .. وكلما أظهر الله آيات أكثر لعباده ليقربهم من اليقينية العقائدية، كان عذابه وعقابه أشد وأنكى عند النكوص. أليس ذاك هو مصداق قوله تعالى :

﴿ ويقولون لولا أُنزل عليه ءاية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين * وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى ءاياتنا قل الله أسرع مكراً إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ (يونس ٢٠-٢١)

وقوله تعالى : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ (البقرة ٢٠٩)

وقوله تعالى عن حواريى المسيح عليه السلام عندما أنزل إليهم بمعجزة المائدة الهابطة من السماء لتكون كما أرادوا ﴿ قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ﴾ (المائدة ١١٣)

ولما كانت تلك المعجزة آية حسية يقينة يرونها ويعاينونها، لذا كان العذاب عند

الجحود أشد وأنكى. حيث قال الله عز وجل لهم فى ذلك ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (المائدة ١١٥).

وهذا كان درسٌ قاسٍ ليوسف عليه السلام من الهدى الإلهى فى إعداد الرسل والأنبياء ليكونوا قدوة للناس كافة .. لقد زللت يا يوسف زللاً وإن كان يعد طفيفاً لدى عامة الناس، إلا أنه لا يجوز لك كنبى كريم، فها أنت يا يوسف بعد أن ثبت الله البرهان فى قلبك تذكر رب الفتى وترجو نفعه (رب الشىء لغوياً يعنى صاحبه والفتى كان عبداً مملوكاً للملك، ولكن كلمة الرب أيضاً تعنى الإله والملك المصرى سيد الفتى كان هو الإله المعبود للمصريين القدماء، مما يظهر المعرفة القرآنية بالعقيدة المصرية القديمة، التى لم تظهر رموزها بجلاء إلا بعد فك رموز الكتابة الهيروغليفية فى القرن التاسع عشر الميلادى، فكلمة الرب هنا فى هذه الآية تعنى الإله أكثر من كونها تعنى المالك أو الصاحب)، ها أنت يا يوسف تذكر إله الفتى وتطمع فى أن يخرجك من السجن وأنت القائل منذ دقائق معدودة ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ (يوسف ٤٠)، فهذا الملك الإله حسب قولك إله كاذب ليس له سلطان ولا حكم .. ومن الآن فليرسخ فى ذهنك تماماً ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾.

لذا كان عقاب الله لنبيه المقرب يوسف متفقاً مع مكانته ومتفقاً مع البراهين التى أراها له ورسخها فى قلبه .. ولذا احتاج لبضع سنين إضافية فى السجن للتوبة والإعداد قبل أن يخرج من هذا السجن مباشرة لعرش الحكم ... وتلك هى سنة الله فى إعداده لأنبيائه ورسله عليهم السلام كما رأينا أيضاً فى قصة موسى ويونس وغيرهم عليهم السلام.

٧- يوسف عليه السلام يفسر حلم الملك :

ثم تدخل بنا الآيات الكريمة إلى الحدث الهام والمحورى الذى أدى إلى خروج يوسف عليه السلام من السجن وتوليه ناصية أمور الحكم كوالٍ وحاكم على مصر والمهيمن الأول على مقدراتها الاقتصادية، وتلك الفقرة من القصة القرآنية تضمنتها مجموعتين من الآيات الكريمة، تقع المجموعة الأولى فى سبع آيات وتصف حلم فرعون وتأويل ذلك الحلم عن طريق يوسف عليه السلام، أما المجموعة الثانية فتشتمل على الأحداث والمباحثات التى سبقت خروج الصديق من السجن وحتى صعوده لعرش المجد كوالٍ على مصر ومهيمن على اقتصادها، وتقع فى ثمان آيات كريمة.

وعن قصة الحلم ذاته وتفسيره جاء فى القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَآ أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَاىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (يوسف ٤٣-٤٩)

وهكذا فإن الآيات الكريمة تخبرنا أن ملك مصر وإلهها فى ذلك الزمان رأى حلماً احتار فيه واحتارت معه حاشيته وبطانته وعلماؤه فلم يجدوا له تفسيراً.

ملحوظة : من المهم جداً هنا أن نورد ملاحظة تنم عن الدقة القرآنية التاريخية الرهيبة، وهى استعماله تعالى لكلمة ﴿ الْمَلِكُ ﴾ للتعبير عن حاكم مصر فى زمان يوسف أى قبل دخول اليهود لمصر حيث لم يعبر النص القرآنى عن هذا الملك بالفرعون مطلقاً فى تلك القصة، إلا أن لفظ الفرعون استعمله القرآن فى قصة موسى عليه السلام، لوصف

ملك مصر أى بعد دخول اليهود لمصر بزمن طويل واستقرارهم فيها ووقوع حياتهم ومصالحهم تحت حكم هذا الملك، والتاريخ الصحيح يقول أن كلمة فرعون هى التحريف اليهودى لكلمة «بر-عا» أى البيت الكبير أو البيت العظيم والذى يعنى القصر الملكى أو البلاط الملكى، ولم يُعرف ملوك مصر القديمة بين شعبهم باسم فرعون مطلقاً إلا بعد أن حرف اليهود «بر-عا» إلى «فر-عا» لإشكالية نطق الباء والفاء فى العبرية مما تحول لاحقاً إلى فرعون. إذن فتاريخياً وفى زمان يوسف عليه السلام لم تكن كلمة فرعون التى ابتدعها اليهود فى زمان متأخر عن زمان يوسف - الذى كان أول اسرائيلى يستوطن مصر - لم تكن هذه الكلمة معروفة أو متداولة أو موجودة لذا فتاريخياً لا يصح استعمالها مع قصة يوسف عليه السلام، أما فى زمان موسى عليه السلام الذى جاء بعد يوسف بقرون كمخلص لليهود المتواجدين منذ زمن طويل بمصر وتحت حكم ملكها الذى اطلقوا عليه هم اسم «فرعون»، فاستعمال الكلمة يعد صحيحاً بالمقياس التاريخى، إذن فاستعمال كلمة فرعون لوصف ملوك مصر قبل الحقبة اليهودية كان خطئاً فادحاً تفاداه القرآن بإعجازه التأريخى وسقطت فيه التوراة التى أسمت ملك مصر على عهد يوسف أى قبل دخول اليهود إليها بفرعون. بل أن التوراة أطلقت نفس اللقب «فرعون» على ملك مصر المتواجد فى زمان إبراهيم عليه السلام (جد يوسف) قبل دخول بنى إسرائيل لمصر بقرون مما يعد خطأً تاريخياً فادحاً.

وعوداً إلى الآيات الكريمة السابقة محل التفسير لنرى أن الملك قد حلم بسبع بقرات سمان حسان المنظر يأكلهن سبع بقرات عجاف نحيفات بشعات كما حلم بسبع سنابل خضر يانعة وسبع أخرى يابسات خاليات ... مما عجز عن تأويله حكماء الملك واحتاروا فيه، وكان أن تذكر رفيق سجن يوسف الذى نجا من القتل لقائه السابق بيوسف، ومقدرة يوسف على التأويل والتعبير، فاستأذن باقى الحاشية وأهل الحكم حتى يتوجه ليوسف فى سجنه ويقص عليه الرؤيا عله يفسرها ويريح البلاط الملكى من هذا الهم الذى يؤرق أجفان الملك ومن ثم يشيع القلق والاضطراب فى نفوس رجال الحاشية .. ذهب

الرسول ليوسف الحبيس فلم يعاتبه يوسف على تأخره عليه لأنه هنا وعى الدرس وعرف أن الأقدار بيد مسيرها الحقيقى الأوحد - الملك القهار - ولم يساوم ولم يستعل الظرف، بل قام بتفسير الحلم للرسول بل وأعطاه خطة لحل الكارثة المقبلة على الحياة فى مصر فوراً، ولابد أن هذا الرسول قد طار فرحاً وأطار الخبر فوراً للملك حتى تهدأ نفسه ويطمئن باله فأخيراً وجدت المعضلة لها حلاً على يد سجين فى سجن من سجون الملك.

وهنا نرى قبساً آخر من ذكاء النبوة يشتمل على حسن تصرف ودهاء في التعامل، يظهر فيه الثقة بالله وبالنفس، كما يظهر فيه التوكل الحق على الله، يبدو هذا لنا جلياً حينما لم يطالب يوسف لنفسه بأية مكاسب جزاءً لتقديم خدمة ما للملك، بل لبى النداء وأغاث لهفته حتى بدون طلب حريته ولعلنا نرى فى ذلك :

١- الشخص الواثق من نفسه ومن قدرته على الانجاز لا يزكى نفسه فى البداية وهو لا يزال مغموراً بعد .. بل يدع الآخرين ومنهم الرؤساء والقادة يرون عمله أولاً فيطلبون هم وده ومعرفته فيكونون حينئذ فى حالة نفسية ممهدة للاستجابة لأية مطالب له.

٢- هذا الأسلوب أظهر للملك مدى التعفف والترفع والشهامة الموجودة فى التركيب النفسى ليوسف عليه السلام.

٣- تقتضى الفطنة فى معاملة العظماء، أن تكون مقلاً فى طلباتك الشخصية منهم، وأيضاً فإن طلبت فاطلب شيئاً قيماً يكون الأجدر بهذا العظيم أن يلبيه، ولك أن تقارن بين حال سجين لا يزال مجهولاً بالنسبة للملك يرفض أن يلبى طلباً لهذا الملك إلا بعد أن يساومه على مطالب معينة، مما قد يعتبره الملك ابتزازاً يرفض معه الأمر برمته، وبين هذا السجين الضعيف الذى يمد يد العون المخلصة للملك بلا أية مطالب، فيندفع الملك بالطبيعة الإنسانية للسؤال عن هذا الشخص وتهمته، ولماذا سجن؟، ويطلب معرفته ليسأله هو شخصياً عما يريد كمكافأة وليس ثمناً مقدماً - ونلاحظ من سياق القصة القرآنية أن يوسف عليه السلام لم يطلب من الملك حينما أراد أن يتعرف به أن يقوم بالتحقيق فى التهم المنسوبة إليه وإثبات براءته، بل قام بحركة ذكية جداً هى

الاعتصام بالسجن مما يعد في أعرافنا الحديثة احتجاجاً على ظلم وقع، وألقى بمطلب التحقيق هذا في صورة تساؤل موجه للملك لا في صيغة الطلب حيث ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (يوسف ٥٠)

ومن هذا المنطلق ظهرت براءة يوسف الناصعة وازداد شغف الملك بالتعرف إليه، بأن أخرجه من السجن، وأحضره للقصر، واستخلصه لنفسه، وكلمه، وأعطاه الوعد بالمكانة، واعترف له بالأمانة .. هنا فقط طلب يوسف مطلبه الأول الأوحد المتناسب مع مكانة الملك ومكانته ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف ٥٥)

أي أن التعامل مع العظماء يقتضي الصبر والذكاء انتظاراً للحظة الملائمة للطلب، والذي وإن كان وحيداً وجيزاً إلا أنه ليس بالطلب القليل بل يتناسب مع مكانة الطالب والواهب.

٤- تعلم يوسف الدرس القاسي الذي علمه الله تعالى إياه .. فلم يطلب الحرية من يد بشرى هذه المرة بل طلبها من الله عز وجل وعمل لها في عزة نفس وكبرياء وتوكل حق على الله .. فأخرجه الله من ضيقته وسخر له الملك ذاته يلح عليه أن يخرج من السجن، وأن ينال حريته، بل وأن يتملك زمام الأمور.

أليس هذا هو الفكر المنطقي المنتظر من إنسان عبقري تجلت مواهبه الفكرية وحنكته في إدارة شئون إمبراطورية بأكملها أثناء أزمة اقتصادية طاحنة؟ وألا يعتبر أي تصرف مغاير لذلك ضرب من السذاجة والتهور لايمكن أن يكون في نبي عبقري؟

أعود وأذكر أن هذا الموقف برمته غير متواجد في القصة التوراتية التي تقول أن ساقي (فرعون) نسي يوسف ولم يذكره إلا بعد حلم (فرعون)، فتذكر الساقي يوسف، وأخبر (الفرعون) بأمره، فجاء يوسف مباشرة ومثل أمام (فرعون) في البلاط الملكي بعد أن حلق واستبدل ثيابه وقص (فرعون) الحلم أمام يوسف فقام يوسف بتفسيره له وهنا قال (الفرعون): [فاستحسن فرعون ورجاله جميعاً هذا الكلام، وقال فرعون لعبيده هل نجد

نظير هذا رجلاً فيه روح الله؟، ثم قال فرعون ليوسف «من حيث أن الله أطلعك على كل هذا، فليس هناك بصير وحكيم نظيرك. لذلك أوليك على بيتي، ويذعن شعبي لكل أمر تصدره»] التكوين ٤١ ٣٧-٤٠.

وهكذا فالقصة التوراتية تمضي في التضارب، فبعد أن ذكرت أن يوسف عليه السلام دخل السجن بتهمة محاولة اغتصاب امرأة سيده وهي جريمة فيها خسة ونذالة وخيانة أمانة شديدة، لم تظهر القصة التوراتية أية أحداث أو أقوال جرت لإثبات براءة يوسف عليه السلام الذي هو - في تلك القصة - دخل السجن مداناً بتلك التهم الشنيعة ورغم ذلك أخرجه (الفرعون) من السجن عندما علم بقدرته على تفسير الأحلام، وبعد أن فسر يوسف الصديق الحلم (للفرعون) سلمه (الفرعون) مباشرة كل مقاليد الحكم والاقتصاد في البلد . ألا يعد هذا (الفرعون) أبلهاً وساذجاً ليسلم مقاليد الحكم والاقتصاد لعبد تهمته الرئيسية خيانة الأمانة الوحيدة التي عهد بها سيده إليه وبدون أن يكون هناك دليلٌ واحدٌ على براءته؟ ألا يبدو (الفرعون) في تلك القصة وكأنه (يُسلم القط مفتاح المخزن)؟

أقول أن المنطق يقف تماماً ضد القصة التوراتية ويقف تماماً مع القصة القرآنية التي تبدو محكمة عقلانية ذكية إلى أبعد الحدود.

ولنترك الآن تلك الجزئية. ونتنقل لمنطوق الحلم وتفسيره، فالملك رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ورأى سبع سنبلات خضر وأخر يابسات، وكان الحلمان بالبقرات والسنابل ذاتا مغزىً واحد. فالبقرات السمان والسنبلات الخضر هن سبع سنوات تغل فيهن الأرض محصولاً جيداً، ويعقب ذلك سبع سنوات من القحط والشدة، رمز لهما الحلمان بالبقرات العجاف والسنبلات اليابسات.

أي حسابياً فهناك سبع سنوات رخاء وهناك سبع بقرات سمان وسبع سنبلات خضر، ثم سبع سنوات جفاف وقحط وهناك أيضاً سبع بقرات عجاف وسبع سنبلات يابسات.

وكان هذا هو التفسير التوراتي الكامل والشامل للحلم، أما الرواية القرآنية فتضيف

عاماً آخر بعد الأربعة عشر سنة ﴿ثُمَّ يأتي من بعْد ذلك عامٌ فيه يُغاثُ النَّاسُ وَفيه يَعْصِرُونَ﴾ (يوسف ٤٩)، أي بإيضاح شديد، ذكرت القصة التوراتية أربعة عشر رمزاً فسرها يوسف بأربعة عشر سنة بأحداثها وانتهى الموقف عند ذلك، أما القصة القرآنية فتورد أيضاً أربعة عشرة رمزاً يفسرها يوسف عليه السلام بأربعة عشرة سنة ثم يضيف أحداثاً لعام آخر فيه رغد شديد فوق الأربعة عشرة سنة فيصير المجموع خمسة عشرة، وليس أربعة عشرة، فما هو السر الكامن وراء ذلك؟

نقول أن التفسير العلمي للأحلام والرؤى، لايقتصر فقط على الحلم ورموزه، بل لابد أن يأخذ في الاعتبار شخصية الحالم ذاته والأحداث المحيطة به، أي بعبارة أخرى إن أي عالم نفسي لايستطيع أن يعطي مدلولاً معيناً لحلم ما بدون أن يأخذ في الاعتبار تحليل شخصية الحالم وظروفه النفسية والاجتماعية وقت الحلم، وهذا المنطق ليس بجديد أو معاصر فقط، فمثلاً نجد في كتب تفسير الأحلام التي كتبها الأقدمون والتي تقوم على التكهنات أشياء مثل والطين في أحلام أهل الهند بشير خير ولغيرهم نكبة ومصيبة، وكذلك السمك في أحلام الناس رمز للخير والنعمة وفي أحلام اليهود رمز للكوارث ... وهكذا)، ومن هنا نرى وجوب ما يسمى بالشمولية الموضوعية في تفسير حلم ما، فأنت حينما تفسر حلماً ما لاتفسر فقط شفرة رموز مجردة، وإنما تحكم على هذا الحلم من واقع شخصية الحالم ذاتها.

وهنا في السجن يأتي الرسول فيقص على يوسف عليه السلام حلماً مكوناً من أربعة عشر رمزاً، وهنا يفسره له يوسف الصديق بأربعة عشر بنداً أيضاً - كل بند (سنة هنا) يقابل رمزاً - لكنه يضيف بنداً خامس عشر للموضوع فما الذي يدعوه لذلك؟ لابد أن هذا البند الخامس عشر كان جزءً من الحلم أو كان شيئاً أحاط برواية الحلم، وطبعاً لم يكن هناك شيء من جزئيات الحلم تتحدث عن هذا البند الخامس عشر، إذن فالتفسير قاله يوسف نتيجة لوجود ظرف ما أحاط بهذا الحلم ... والبديهة تقودنا إلى تخيل ما كان ماثلاً أمام يوسف أثناء سماعه للحلم .. ولم يكن هناك ماثلاً أمام يوسف إلا الرسول الذي حمل له

قصة الحلم .. وبالرجوع قليلاً للخلف ندرك أن هذا الرسول هو ساقى الملك الذى يقدم له العصير والخمر وهو نفس الفتى الذى ﴿ قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا ﴾ (يوسف ٣٦)، وكان هذا الفتى بعينه هو الذى نجا .. لذا هل يكون غريباً أن يكون هذا الفتى رمز النجاح وعاصر الخمر فى نفس الوقت هو رمز لعام نجاة يعقب أعوام الشدة ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾. ونرجو من القارئ مراقبة منطوق الكلمات نفسها فى الآيتين الكريمتين ومقارنتها ثانية.

من هنا أخلص لنتيجة أن يوسف عليه السلام نفسه كان يرى فى راوى الحلم رمزاً يضاف للرموز الأربعة عشر المتواجدة بالحلم، ولذا فقط أعطى تفسيراً شمولياً لشفرة المشهد الماثل أمامه من رموز حلم وأشخاص أيضاً، مما يتماشى مع ما ذكرناه قبلاً عن رمزية رفيقى السجن فى الصفحات السابقة، وسبحان الله العظيم.

نقطة أخرى سأعود إليها لاحقاً عن هذا الرقم الذى أكمل الأربعة عشر لخمسة عشر يتعلق بالإعجاز الرقمى القرآنى فى السورة والذى أكمل الرقم اليهودى التوراتى المقدس (رقم اليوبيل) والذى لم تستطع القصة التوراتية أن تكمله.

وأود أن أطرق الآن هنا مسألة أخرى محيرة تتعلق بالمعنى المقصود بالألفاظ القرآنية، ومسألتنا هنا هى ما هو الفرق قرآنياً بين كلمتى «سنة» و «عام»؟

دعنا نستعرض أولاً تفسير يوسف عليه السلام لحلم الملك، نرى أن الله عز وجل عبر عن الفترة الزمنية المنصوص عليها فى رموز الحلم بكلمة ﴿ سنين ﴾ أى هناك سبع سنين رخاء يعقبها سبع شداد والمجموع هو أربعة عشر سنة - أما الفترة الزمنية خارج سياق نصوص الحلم فعبر عنها القرآن بكلمة ﴿ عام ﴾ فى ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾.

ومن الممكن مثلاً تفسير ذلك بأن هذا (العام) لم يكن موجوداً ضمن سياق أحداث الحلم ففصله الله تعالى عن تفسير تلك الأحداث التى عبر عنها (بالسنين) وذلك لإظهار تلك النقطة، أو أن اللفظين سنة وعام مترادفين مثلاً، لكن ولكى تتضح الحقيقة أكثر ينبغى

أن نراجع الآيات القرآنية المشتملة على اللفظين معاً فى صعيد واحد :

نأتى أولاً لقوله تعالى فى قصة نوح عليه السلام :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت ١٤)

وقوله تعالى فى قصة العزير عليه السلام :

﴿ قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ (البقرة ٢٥٩) ،ويتسنه : أى يفسد ويتغير بفعل مرور السنين.

والمواضع الثلاثة تلك هى التى يظهر فيها اللفظان سوياً (سنة أو سنين) وكذلك عام، ونرى فى الثلاثة قاسماً مشتركاً هو أن السنة أو السنين فترة زمنية ممتلئة بالأحداث أو بالمشاكل أو بالمصاعب أو بالخسائر .. فمثلاً فى الآيات الكريمة من سورة يوسف نجد أن الأربعة عشرة قسماً الأولى عبارة عن سبع سنين رخاء ينبغى أن تتم فيها الزراعة ﴿ دَأَبًا ﴾ أى كدحاً وبكل قوة، ثم يعقبها سبع سنين أخر ﴿ شِدَادٌ ﴾ فيهن الشدة والشظف والقسوة، فالأربعة عشر قسماً الأولى إذن تتسم كلها بالأحداث والصعاب والشدائد وسماها المولى عز وجل ﴿ سِنِينَ ﴾، أما القسم الخامس عشر فهو قسم رغد ورفاهية تكثر فيه الغلات والثمار، وغير مطلوب فيه أداء فعل بشرى معين، ولم يضع له يوسف عليه السلام أى قدر من الأهمية فى تخطيطه الاقتصادى، لأنه ببساطة رغد لايحتاج كدحاً ونرى أن المولى عز وجل أسماه ﴿ عَامٌ ﴾.

أما عن قصة نوح عليه السلام فحياته كانت ألف سنة إلا خمسين عاماً، أى تسعمائة وخمسين سنة وسط تكذيب شديد وعناد شنيع أدى به فى النهاية أن يدعو على قومه بالدمار والهلاك، وقطعاً كانت تلك الأقسام التسعمائة وخمسين فى جو كهذا مليئة بالصعاب والمشاكل والآلام وعبر الله تعالى عنها بكلمة ﴿ سَنَةٍ ﴾ مفرد ﴿ سِنِينَ ﴾، أما الخمسين قسماً الباقية من الحساب فنوح عليه السلام لم يعشها أساساً بل توفاه الله تعالى

فيها لنا فهي فترة زمنية خلت من الأحداث، والمشاكل الأرضية، والمهام النبوية الثقيلة ونرى أن المولى عز وجل عبر عنها بكلمة ﴿ عامٌ ﴾.

أما عن قصة العزير عليه السلام، فنجد أن فترة موته الساكنة بلا أحداث عبر المولى تعالى عنها بكلمة ﴿ عامٍ ﴾، أما الطعام والشراب الذي كان من المفترض أن يتغير بفعل السنين وتجرى عليه حالات الزمان فعبر عنه المولى عز وجل بكلمة ﴿ يتسنّهْ ﴾، أي لم تمر عليه تغيرات السنين.

ومن هنا أرى أن السنة لفظ قرآني مساوٍ في المدة الزمنية للعام، ولكن السنة فترة صاخبة مليئة بالأحداث والمصاعب والمشكلات، أما العام فهو فترة زمنية مساوية للسنة ولكنها تمتاز بالهدوء والسكينة والخلو من الأحداث الهامة.

وتعالوا نطبق هذه القاعدة على النصوص القرآنية المشتملة على أي من اللفظين:

يقول تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (البقرة ٩٦)

ومعرض الحديث في تلك الآية هو عن تخوف هؤلاء المشركين من الموت المفترض أنه سكون وخلو من الأحداث، فهم لكفرهم بالبعث والنشور يحرصون على إطالة المدة الزمنية للحياة، ويودون ذلك حتى لو كانت تلك الحياة مليئة بالفتن والآلام.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (المائدة ٢٦)

وسنوات تيه بني إسرائيل كانت مليئة بالفتن والمحن والاختبارات والآلام التي قضى بها تعالى عليهم لاتخاذهم العجل من دون الله، مباشرة بعد معجزة إنقاذ الله لهم من الهلاك.

ونرى نفس المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأعراف ١٣٠)

فكلمة ﴿ السنين ﴾ هنا مرادفة للشدة والضربات الإلهية والكوارث.

بل لو عدنا لسورة يوسف نفسها، فسنجد أن المولى عز وجل عبر عن الفترة التي

قضاها يوسف عليه السلام في السجن بآلامها بقوله ﴿فأنساهُ الشيطانُ ذكرَ ربِّه فلبثَ في السجنِ بضعَ سنين﴾ (يوسف ٤٢)

وكأنه تعالى يقول لنا بذلك أن فترة سجن يوسف لم تكن فترة هدوء وسكون وطمأنينة، بل كانت فترة مجاهدة وعناء.

ولعلنا نجد نفس التعبير القرآني مرعياً في مقام الحديث عن الفترة الزمنية التي قضاها أهل الكهف في كهفهم في قوله تعالى ﴿فضربنا على آذانِهم في الكهفِ سنين عددا﴾ (الكهف ١١)

وقوله تعالى ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا﴾ (الكهف ٢٥)

وكأنه تعالى يخبرنا أن تلك الفترة الزمنية لم تكن فترة غياب بموت حقيقي لهؤلاء الفتية بل هي فترة فيها حياة أي أحداث تقع بداخل تلك الأجساد البشرية التي يظهر عليها الموت الظاهري، ومن هنا يمكن فهم المعنى الإيحائي من التعبير عن المدة الزمنية بكلمة ﴿سنة﴾ و﴿سنين﴾ في المواضع الكثيرة التي وردت فيها.

كما يمكن تطبيق القاعدة نفسها على كلمة ﴿عام﴾ التي تشير دائماً إلى فترة زمنية تتميز بالسكينة أو بالتوقف عن العمل. فبخلاف الأمثلة التي ضربناها قبلاً، نجد مثلاً قوله تعالى: ﴿إنَّما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعدَ عامِهم هذا﴾ (التوبة ٢٨)، أي أنه في خلال هذا العام يسمح لهم باستمرارية الاقتراب من المسجد الحرام بلا أي أحداث أو صراع مما يقتضيه منعهم عنه. أما بعد ذلك فهناك منع وحرب وجهاد وطرد وما إلى ذلك، فالتعبير بكلمة ﴿عام﴾ يفيد الامتناع عن قطع الحال السائدة أو إحداث تغير في الوضع المألوف حتى تنتهي المدة الزمنية وبعدها تنقلب الأوضاع وتحدث الأحداث.

ويمكن على ضوء ذلك فهم آيات أخرى كثيرة ﴿أولا يرونَ أنَّهم يُفتنونَ في كلِّ عامٍ مرَّةً أو مرَّتين﴾ (التوبة ١٢٦)، مما يفيد بأن الزمان يجري بأسلوبه المعتاد الرتيب الخالي من الأحداث أو المشكلات باستثناء مرة أو مرتين في الفترة الزمنية هما اللتان تحدث فيهما فتنة ما، أي أحداث ما، أي أن الفتنة والمشاكل والمصاعب هنا شيء طارئ دخيل على سير

الأحداث العادى فى الزمن الذى عبر عنه المولى تعالى بكلمة ﴿ عَامٍ ﴾، ونرى ذلك أيضاً فى قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ (التوبة ٣٧)، و ﴿ النَّسِيءُ ﴾ هو التحوير الزمانى الذى كان يفعله أهل الجاهلية من حيث تأخير الشهر الحرام (الممنوع فيه القتال وسفك الدم أي الخالى من أحداث العنف) من شهر المحرم مثلاً إلى شهر صفر، فيحلون ما حرم الله وهو شهره الحرام (المحرم) ويحرمون ما أحل الله فى الشهر الحلال (صفر)، فـ ﴿ النَّسِيءُ ﴾ هو تأخير فترة الشهر الحرام - الساكنة - (الاسم مشتق من النسيان) ﴿ عَامًا ﴾ وجعله فى موضعه ﴿ عَامًا ﴾ آخر، فاللفظ ﴿ عَامٍ ﴾ هو الملائم لهذا المقام، أما اللفظ ﴿ سَنَةٍ ﴾ فلا يستقيم هنا وفى هذا الموضع.

وكذلك قوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ (لقمان ١٤)

وفترة الحمل والإرضاع رغم أنها ممتلئة بالأحداث، إلا أنها ممتلئة بالأحداث الطبيعية التى سنها الله لخلقه، فسيرها فى تطورها الطبيعى هو المألوف والمعتاد لذلك فهى فترة مألوفة، وعبر عنها تعالى بكلمة ﴿ عَامَيْنِ ﴾ مثنى ﴿ عَامٍ ﴾ لأن مرور هذه الفترة بسلام ووتيرة طبيعية دونما مشاكل حتى وصولها للنهاية هو القاعدة، ولذا يجب التعبير عنها بكلمة ﴿ عَامٍ ﴾ وليس ﴿ سَنَةٍ ﴾، حيث أن التعبير بتلك الكلمة الأخيرة غير سليم هنا حيث أنها كما أسلفنا تفيد فترة زمنية ممتلئة بالأحداث غير العادية أو المشاكل ولو كان حمله وفصاله فى سنتين مثلاً، لربما لم تكتمل السنتان من أصله. إذن فالفرق بين الـ ﴿ عَامٍ ﴾ و الـ ﴿ سَنَةٍ ﴾ والذى استنتجناه من مضاهاة الثلاث مواضع التى ذكرا فيها سوياً يمكن تطبيقه على كل المواضع المذكور فيها تعبير واحد منهما فقط، ومن ثم الإحساس بعبقرية التعبير البلاغى فى ألفاظ القرآن الكريم.

نعود لسياق آياتنا الكريمة محل التفسير ثانية، لنرى أن النص القرآنى قد أظهر أن يوسف الصديق لم يقم فقط بتأويل رؤيا الملك حينما طلب منه ذلك، وإنما زاد عليه

متطوعاً تصوره الشخصي للخطة الاقتصادية الواجب اتباعها لمواجهة الأزمة وبذلك لم يعط الملك تحليلاً لأبعاد الأزمة فقط مما قد يعد عوناً قاصراً، وإنما شفع ذلك بأسلوب المواجهة مما يعد تقدمة مثالية لشخصه ومواهبة أمام ذلك الملك، دونما طلب لثمن أو مساومة.

وهنا ننتقل إلى نقطة أخرى هي التدابير التي اتبعها يوسف عليه السلام لمواجهة الأزمة مما يظهر في القصة القرآنية بإيجاز غير مخل، فالنصوص القرآنية تظهر النقاط التالية:

١- مسئولية الدولة أو الحكومة المركزية عن التخطيط القومي خاصة في مواجهة الأزمات.

٢- طرح الحلول والبدء في اتخاذ الخطوات الملائمة عند توقع الأزمات القومية مما تجلى هنا في:

أ - العمل على زيادة الإنتاج الزراعي في قوله تعالى ﴿ تَزْرَعُونَ - دَأَبًا ﴾ مما يفيد الجد والكد والاستمرارية.

ب- اتباع أحدث الأساليب العلمية المتاحة، ومثالنا هنا هو الاحتفاظ بحبوب القمح في سنابلها داخل الأغلفة الواقية لها (قشرة الحبوب) مما يطيل من عمر المنتج ويمنع تسرب الفساد إليه ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِه ﴾.

جـ- إنشاء التجهيزات اللازمة لمواجهة الأزمة مستقبلاً ومثالنا هنا هو الصوامع والمخازن التي جهزت بأسلوب هندسي صحيح يمنع تسرب الفساد للحبوب المخزونة حتى أنها كانت تشبه الحصون في منعها وقوتها ﴿ مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾.

٣- ما يسميه علماء الاقتصاد بترشيد الإستهلاك والتحكم في الإنفاق، والادخار في مواجهة الأزمات الاقتصادية ﴿ إِلا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾.

٤- اشتراك كل قطاعات الشعب في الخطوات المختلفة لمواجهة الأزمة مما يمنع نشوء الاحتكارات أو الأسواق السوداء التي تتحكم في الأرزاق (الكلام عن الأزمة وحلها كان كله بصيغة الجمع ولاتوجد إشارة أو حتى ضمير واحد يشير ولو من بعيد لاحتكار الملك للمحصول).

٥- الدقة فى إختيار القيادات التى تتميز بالكفاءة والعلم والنزاهة لتولى المناصب القيادية ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

عموماً فخلف تلك الخطوط العريضة يظهر أسلوب إدارى اقتصادى علمى يمكن مقارنته بما نعرفه اليوم عن إدارة الأزمات، تشمل بالإضافة للعناصر السابقة - خطط زمنية مرحلية ذات أهداف واضحة (خطط سباعية هنا) وتظهر فيها جماعية فى الأداء والاشتراك فى المسئوليات، فالقصة القرآنية تظهر كل القطاعات الشعبية تقوم بالتخزين فى أيام اليسر للاستفادة التدريجية من المخزون أيام العسر.

أما عن القصة التوراتية، فتلك هى العجب العجاب .. فهى تظهر يوسف الصديق النبى الصالح فى صورة أبشع من أى مراب جشع مصاص للدماء، ينتج سياسة اقتصادية احتكارية استغلالية انتهازية تنتهى بثلاثة نتائج:

١- الإفقار والاستعباد الفعلى لجميع أفراد الشعب المصرى (للفرعون) الذى أصبح يملك أراضيهم جميعها وعلاتها، بل وأنفس العاملين فيها وللأبد، مما يشكل نظاماً اقطاعياً فردياً ينتهى بالشعب كله للرق والذل والخضوع التام (للفرعون).

٢- تقوية طبقة الكهنة والنظام الكهنوتى الدينى الوثنى، الذى سلمت أرضه من المصادرة لصالح (الفرعون)، مما قوى مراكز العبادة الوثنية فى مواجهة الشعب بل و(الفرعون) ذاته، مما أعطاها تمكيناً في الأرض يصعب اختلاعه أو التخلص منه.

٣- ترسيخ السلطة الزمنية كملك والسلطة الدينية كإله (للفرعون) للإبد.

وتعالوا لنراجع هذا المخطط الأسود من قلب نصوصه، لنرى هل يليق هذا بنبى كريم؟ وهل نصدق هذا الافتراء.

[سياسة يوسف الزراعية

ونفد الخبز فى جميع البلاد لشدة المجاعة، وأقحلت أرض مصر وأرض كنعان من الجوع. فقايض يوسف القمح الذى بيع بكل الفضة الموجودة فى أرض مصر وفى أرض كنعان، وحملها إلى خزينة فرعون. وعندما نفدت الفضة من أرض مصر ومن أرض كنعان

أقبل جميع المصريين إلى يوسف قائلين: «أعطنا خبزاً، فلماذا نموت أمام عينيك؟ إن فضتنا قد نفدت». فأجابهم: «إن نفدت فضتكم، فهاتوا مواشيكم أقايضكم بها طعاماً». فأتوا بمواشيهم، فقايضهم يوسف خبزاً بالخيل ومواشي الغنم والبقر والحمير. وهكذا قايض جميع مواشيهم بالخبز في تلك السنة.

وعندما انقضت تلك السنة، أقبلوا إليه في السنة التالية قائلين: «لا نخفي عن سيدي أن فضتنا قد نفدت، وأن مواشي البهائم قد أصبحت عند سيدي، ولم يبق أمامه إلا أبداننا وأراضينا، فلماذا نموت نحن، وأرضنا أمام عينيك، اشترنا نحن وأرضنا لقاء الخبز فنصبح نحن وأراضينا عبيداً لفرعون. وأعطنا بذوراً لنزرعها فنحيا ولا نموت ولا تصير أراضينا مقفرة».

وهكذا اشترى يوسف لفرعون كل أرض مصر، لأن جميع المصريين باعوا حقولهم من جراء المجاعة التي ألمت بهم، وصارت كل الأرض ملكاً لفرعون. أما الشعب فقد نقلهم إلى المدن من أقصى حدود مصر إلى أقصاها. إلا أن أرض الكهنة لم يشترها، إذ كان للكهنة مخصصات معينة أجراها عليهم فرعون، فكانوا يأكلون منها، فلم يبيعوا أرضهم.

ثم قال يوسف للشعب: «ها قد اشتريتكم اليوم أنتم وأرضكم فصرتم ملكاً لفرعون، فإليكم البذار لتزرعوا الأرض. ويكون في موسم الحصاد أنكم تقدمون لفرعون خمس الغلة وتحتفظون لكم بالأربعة الأخماس لتكون بذاراً للحقل وطعاماً لكم ولمن في بيوتكم ولأولادكم».

فأجابوا: «لقد أنقذت حياتنا، فيا ليتنا نحظى برضى سيدنا فنكون عبيداً لفرعون»

ومن ذلك الحين إلى يومنا هذا جعل يوسف فريضة الخمس هذه ضريبة على كل أرض مصر، تجبى لفرعون، باستثناء أرض الكهنة التي لم تصبح ملكاً لفرعون.] التكوين ٤٧: ١٣-٢٦

والآن هل هذا منطق يمكن تقبله عن أي نبي أو مصلح أو حتى رجل عادي يوجد في قلبه ذرات ضئيلة من خير؟ عموماً فلي رد قصير ألحقه لعدم مصداقية القصة التوراتية،

وهو أن الدولة المصرية في ذلك الوقت كان لها نظام قانوني قوى يظهر في كل القصة القرآنية، كما يظهر أيضاً بجلاء في تعذر استعباد يوسف لأخيه بنيامين أثناء الأحداث نفسها، ومن ثم استبقائه معه، إلا بحيلة ماكرة أثبت فيها أن هذا الأخ سارق، وكان هذا هو الأسلوب الوحيد للاسترقاق في القانون المصرى .. يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (يوسف ٧٦)

وتلك الواقعة لاتخفيها النصوص التوراتية في الإصحاح ٤٤ من سفر التكوين كله، ولننظر لقول يوسف في التوراة حينما تشفع الأخوة لبنيامين عند يوسف حاكم مصر حينذاك ليأخذ أحدهم أو كلهم عبيداً بدلاً من الفتى [فقال «حاشا لي أن أفعل هذا، إنما الرجل الذى عثر معه على الكأس هو يكون لى عبداً، أما أنتم فامضوا إلى أبيكم بأمان»] التكوين ٤٤: ١٧.

وها هي التوراة تعترف بما أقره القرآن، من أن الرق كان هو عقوبة السارق، وأن هذا القانون كان من الأسباب القليلة التي لولاها ما كان ليوسف أن يتمكن من ضم أخيه .. وأن العدل كان مرعياً بشدة لدرجة لاتسمح باستبدال أخ مكان آخر في الرق والعبودية .. ورجل هذه أخلاقه التي أظهرها النص الأخير، بل وتلك هي القوانين التي تحكمه، هل يعقل أن يطلق له الفرعون وسدنة الديانة والشعب المصرى كله بقوانينه المتعارف عليها يده حرة طليقة للتحكم فيهم والتعامل معهم بأسلوب «الاستعباد الجماعى» .. أعتقد أن هذا يجافي المنطق تماماً.

وأرى أنني ولعشرات الأسباب مصدقاً للقصة القرآنية تماماً وغير قادر على ابتلاع ما جاء بالنصوص التوراتية. حيث أرى أن تلك النصوص محرفة بأسلوب لايعبر إلا عن النفسية الإسرائيلية الخبيثة في جانبها المادى القائم على احتراف الربوية وامتصاص الدماء.

عموماً فالقصة التوراتية في تلك الجزئية تظهر تعامل يوسف مع المشكلة بشكل اقتصادى بحت فقط، يقوم على تخزين الغلات في فترة الرخاء، ثم مقايضة الشعب

المصرى عليها - فى فترة الجدب - بكل ما يملكون من مال وماشية ثم الأراضى والأنفس ذاتها، أى أنه ليست هناك فى النص التوراتى أية إشارة ولو بعيدة لأى أسلوب زراعى أو هندسى أو علمى انتهجه يوسف لمجابهة المشكلة، هذا بخلاف النص القرآنى الذى أظهر الجزئية الاقتصادية المتمثلة فى التخزين ثم السحب التدريجى المحسوب للمخزون ﴿إلا قَليلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، بالإضافة للخطة الزراعية التى تمثلت فى قوله تعالى ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾، والتى اقتضت مواصلة الزراعة بدون انقطاع على خلاف ما كان متبعاً من أسلوب الدورات الزراعية المصرية فى ذلك الوقت والمكون من ثلاثة مواسم زراعية كل سنة، ثم أيضاً جزئية اتباع أفضل الأساليب العلمية المتاحة حينذاك لحفظ الحبوب وهى تخزينها فى سنابلها بدون أن تدرس أو تطحن فى محاولة لحفظها سليمة لفترة طويلة ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾، ذلك بالإضافة أيضاً لتشييد الإنشاءات الهندسية المطلوبة للتخزين ﴿مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

أيضاً لم يظهر لنا النص التوراتى سبب المجاعة وجدب الأرض مطلقاً حيث عبر عنه النص بعبارات مثل «يتلف الجوع الأرض» و «المجاعة» ... الخ فقط، بخلاف النص القرآنى الذى أظهر السبب فى قوله تعالى ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾، حيث ينزل الغيث (المطر) بوفرة كبيرة لنهاية المجاعة، مما يحتم كون هذه المجاعة نتيجة لدورة من دورات الجفاف وانقطاع المطر كما هو ثابت علمياً الآن عن دورات المناخ المتقلبة فى منطقة منابع النيل التى تتأرجح دوماً بين انقطاع للمطر الذى يؤدى للجفاف والمجاعة، وبين ارتفاع معدلات المطر التى قد تؤدى للفيضانات.

وهناك ملاحظة مثيرة جداً للإنتباه فى النص القرآنى الذى عبر عن سبب انتهاء المجاعة بعبارة ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾، والمعلومة البديهية تعرف أن (مصر هى هبة النيل) كما قال هيرودوت. وأن الحياة الزراعية والاقتصادية فيها تقوم على شبكة القنوات والترع والروافد النهرية، وكذلك نظام الزراعة بل والحياة المصرية كلها. وقد يقفز للزهن هنا سؤال: هل تعتمد الزراعة المصرية على المطر حتى يورد تعالى نزول

المطر كمرادف لنهاية المجاعة وازدهار الحاصلات الزراعية؟، ونرد قائلين: أن نظام الزراعة المصرى المعتمد على النهر وروافده غير غائب مطلقاً عن المعرفة القرآنية، قال تعالى على لسان فرعون ملك مصر ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ (الزخرف ٥١)، وهنا يظهر النص الكريم أن العز والجاه والثروة المقترنة بمصر لاتكون إلا باقترانها بالنهر وروافده.

والاستنتاج هو أن علم المولى تعالى كان فى تلك الآية لايقارن بعلم البشر فى تلك الحقبة الزمانية، حيث ثبت من الرحلات الاستكشافية فى القرون الحديثة والتى خرجت لاستكشاف منابع النيل، أن النيل ينبع أساساً من هضبة الحبشة نتيجة هطول الأمطار أو الغيث عليها، ولذا فالنهر ومنسوب الماء فيه هو ابن الغيث، وتلك معلومة لم تكن متاحة فى زمان التنزيل، ولعلنا نعجب من الأساطير التوراتية الواردة فى بداية سفر التكوين عن الأنهار مثل دجلة والفرات والتى تشير إلى أنها تنبع من الجنة - أى من عند الله فى السماوات - وليست من الأرض لنرى كم الفرق بين ما هو أسطورة وصناعة بشرية وبين ما هو وحى حق.

عموماً فالوحى الحق الذى تنزل على محمد ﷺ فى أوائل القرن السابع الميلادى أورد الكثير جداً من الحقائق التى عرفت مؤخراً عن الدورة المائية، بل ومنابع الأنهار علمياً ودعنا نتأمل النص التالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ (الأنعام ٦)، والآية الكريمة تقرر هنا:

١- حقيقة عن الأنهار، غير متاحة لسكان الجزيرة العربية من البدو ﴿ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾.

٢- تربط بين هطول الأمطار الشديد من جهة وجريان الأنهار من جهة أخرى، كحقيقة علمية عرفت مؤخراً جداً عن زمان التنزيل وسبحان الله العظيم.

وهناك ملاحظة أخرى، وهى أن يوسف عليه السلام كان يقول ذلك لملك مصر،

أفهل يعنى هذا أن تلك الحقيقة كانت معروفة للمصريين القدماء؟ ولعل شخصية يوسف عليه السلام فى التاريخ الفرعونى والتى كشفنا عنها فى هذا الكتاب لتواكب بدايات رحلات التعرف على منابع النيل التى بدأت فى نهايات الدولة المصرية القديمة تحت رعاية يوسف نفسه (كما سيأتى).

نعود ليوسف عليه السلام - وهو ما زال فى السجن - لنرى المباحثات والإجراءات والتحقيقات التى سبقت إطلاق سراحه وتلك هى الفقرة الثانية من آيات حلم الملك من الآيات ٥٠-٥٧ من السورة.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَآءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَآئِنِينَ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (يوسف ٥٠-٥٧)

ترينا تلك الآيات الكريمة ما سبق أن نوهنا عنه من حيث الذكاء والحصافة والدراية فى التعامل من يوسف تجاه الملك، بخلاف القصة التوراتية التى تقول أن يوسف لما علم بطلب (فرعون) حلق وبدل ثيابه وذهب مسرعاً للقاء (فرعون) فى قصره، تظهر القصة القرآنية تريث وعدم تهافت يوسف على لقاء الملك فى عزة نفس يؤازرها توكل على الله عز وجل.

فها هو الملك تصله رسالة يوسف من تفسير للحلم الذى أرق مضجعه مشفوعة بخطة تفصيلية لإدارة الأزمة، أى وصله عمل متكامل عبقرى من شخص لم يطالب بأى

تمس وهو فى قاع المحنة، مما زاد الملك شغفاً للقاء هذا الشخص فأرسل يطلبه عن طريق إرسال نفس الرسول (الساقى) الذى أظهر معرفته بيوسف كنوع من التلطف، وقطعاً يختلف الوضع فى أسلوب الاستدعاء بين إرسال صديق وبين إرسال ثلة من الحرس مثلاً، وعند تلك النقطة رفض يوسف مبدئياً الخروج من السجن حتى ثبوت براءته النهائية، مما يزيد من إثبات تعففه وعزة نفسه وكأنه أرسل للملك ما معناه وكيف أخرج من السجن وسيف الإتهام معلق فوق رقبتى؟ أطلب التحقيق فى التهم المنسوبة إلىّ، فإن ثبت جرمى فيها أنا فى السجن لم أخرج. وإن ثبتت براءتى أخرج ولك أن تحكم فى هذه المظالم التى حاقت بى.. إذن فقد رفض يوسف عليه السلام الخروج من السجن للقاء الملك بتصرف مماثل لما نسميه حديثاً «الاعتصام» حتى نهاية التحقيق.

وكان طلب التحقيق ذاته فى الوقائع كما جاء على لسان يوسف عليه السلام هو قمة الفطنة والذكاء، حيث أرسل هذا المطلب فى صورة تساؤل واستنكار، قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام فى هذا الموقف ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، وهنا ولمرة أخرى تظهر حصافة وفطنة الصديق يوسف. فهو يطلب التحقيق فقط فى الواقعة الثانية وهى الواقعة المباشرة التى أدخلته السجن. كما أنها جريمة جماعية يشترك فيها أطراف كثيرة مما قد يظهر تضارب الأقوال عند التحقيق الجدى الذى سيظهر حتماً براءة يوسف، بخلاف الجريمة الأولى التى كانت جريمة فردية يصعب التحقق من البراءة فيها، هذا بالإضافة لأن الجريمة الثانية مترتبة على الأولى كنتيجة مباشرة لها وتشتمل على اعتراف المرأة أمام باقى النسوة الشهود... إذن فانهيار الجناة وبالتالى الجناية الثانية سيؤدى تلقائياً إلى انهيار الجريمة الأولى وهذا هو ما حدث. وتأمل النص القرآنى ثانية فى الآية ٥١ لتجد أن التحقيق تم فقط مع النسوة الضالعات فى المؤامرة الثانية واللائى ما إن انهرن واعترفن بالحقيقة، انهارت الجانية فى الجريمة الأولى تلقائياً بلا أى تحقيق معها، يقول تعالى عن تلك الواقعة: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ

امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾، ولنتأمل أيضاً منطوق ألفاظ التحقيق، لنرى أنها تظهر العلم العام عند المحقق بأن يوسف عليه السلام لم يكن هنا متهماً بمراودة النسوة عن أنفسهن، أى محاولة اغتصابهن، بل على العكس كان معلوماً أن النسوة هن اللاتى راودن يوسف عن نفسه، لكن التحقيق كان لإثبات أو نفى التحريض والغواية والفتن من جانب يوسف لهن .. أى ببساطة هل فعل يوسف شيئاً ما مما قد يعد دافعاً لهن ومحفزاً على الجريمة؟ وحدث أن انهارت النسوة واعترفن بالنفى، وفى قولهن ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾، نفى للعلم بوجود أى سوء من جانبه تجاههن وأيضاً تجاه المرأة الأولى (امرأة العزيز)، وهكذا ضمنياً تم جر القضية الأولى إلى التحقيق وانكشف كل مستور، وباتت براءة يوسف ناصعة ساطعة، وهنا حوصرت المرأة الباغية فلم تجد مناصاً ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ واعترفت تفصيلياً بوقائع الجريمة واعترفت بصدق يوسف وبراءته.

بعد ذلك تأتى الآيتان الكريمتان : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وقد اختلفت التفسيرات بشدة حول معنى وتفسير هاتين الآيتين، ولنا رأى شخصى نورده بعد إيراد نص ما جاء فى الآيتين فى تفسير ابن كثير وهو من الكتب الشاملة الرائعة فى التفسير القرآنى، حيث جاء فيه : [﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسى ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾، تقول المرأة: ولست أبرئ نفسى، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته، ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ أى إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام، وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي

لَمْ أَخُنْهُ ﴾ في زوجته ﴿ بالْغيب ﴾ الآيتين، أي إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز ﴿ أنى لمْ أخُنْهُ ﴾ في زوجته. ﴿ بالْغيْب وأنَّ اللَّه لا يهْدى كيْدَ الْخائنين ﴾ الآية، وهذا القول هو الذى لم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم سواه. قال ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة فسألهن هل راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿ قُلْنَ حَاشَ للَّه مَا عَلِمْنَا عَلَيْه من سُوءٍ قَالَت امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ ﴾ الآية، قال يوسف: ﴿ ذَلكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ فقال له جبريل عليه السلام: ولا يوم هممت بما هممت به؟ فقال: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾الآية، وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والسدي، والقول الأول أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك]. انتهى

أما عن رأيي الشخصي، فأنا أتفق تماماً مع الرأى الذى سانده ابن كثير في أن هذا الكلام كله كلام لامرأة العزيز، ولى رأى خاص فى قوله تعالى على لسانها ﴿ ذَلكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾، حيث أرى أن الغيب هنا لايعنى ما غاب عن المرء بالمعنى الفقهى المتعارف عليه، بل أن ﴿ الْغَيْبِ ﴾ هنا تعنى الغيبة والاغتياب مثل الرهبة والرهب فى حملهما لنفس المعنى، فالمرأة بعد أن حوصرت واعترفت تماماً وهى منذ البداية ظاهر جرمها من التحقيق الذى أجراه زوجها وأهلها، بل وتباهت بفعلتها تلك أمام نسوة المدينة، أقول أن هذه المرأة كان من الممكن أن تسوق بعض الافتراءات لتبرير فعلتها الشنعاء، مثل ادعاء أن يوسف كان يغازلها أو يغويها أو يفتنها أو ما إلى ذلك من ذرائع تكون أسباباً مخففة لجرمها مما يدخل فى باب الغيبة والاغتياب، إلا أن المرأة هنا أحجمت عن هذا الغيب والاغتياب، ولعلها أدركت من كل الأحداث ما نطق به لسانها فى تبرير هذا الإحجام ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾. وعلى ذلك فقد امتنعت المرأة عن الجدال والإصرار على الظلم بالامتناع عن ﴿ الْغَيْبِ ﴾ الذى هو الغيبة بالقاء شبهات ظالمة على الفتى.

ولعل هذا المعنى أقرب للمنطق فى تلك الآية، وإن كان معنى الغيب هنا هو المستور فقط كما هو متعارف عليه فيكون هناك سؤال منطقى: وهل هناك خيانة بالمواجهة؟

وبالقطع فإن الخيانة دائماً تقتضى الحدوث بالغيب والسرية والخفاء، لذا لو كان هذا هو المعنى المقصود لاكتفت البلاغة الإلهية فى القرآن بقول ﴿ لَمْ أَخُنْهُ ﴾ وحسب.

إذن وعند تلك النقطة امتنعت المرأة عن سوق ما قد نسميه «ذرائع وأسباب مخففة للجرم»، مما قد يلقى بشبهات ظالمة جديدة على يوسف عليه السلام، واكتفت فقط بذكر الأسباب النفسية حيث أن النفس البشرية دائماً تنزع للشر والسوء ولا عصمة من ذلك إلا برحمة الله عز وجل الذى هو ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، أى هو الذى يغفر الذنوب ويرحم الخاطئين، فيجدر بالبشر أن يتحلوا بنفس الصفات (الغفران والرحمة).

وهنا نرى أن المرأة، ولأول مرة فى القصة بدأت فى ذكر الله عز وجل، فهل كانت تلك توبة حقيقية ورجوع لرحاب الله؟ أم هى دائماً عادة المجرمين الذين ما أن يسقطوا وينكشف جرمهم، يبدأون بالبكاء والعويل وإظهارالندم على فعلتهم، وغالباً ما يكثرون من ذكر الله عز وجل بصوت مرتفع أمام الناس لإثبات أن معدنهم جيد، ولكنها الظروف القاسية هى التى دفعتهم للجرم ترقيقاً للقلوب وكسباً للتعاطف.

للرد على ذلك نسوق حقيقتين من القصة القرآنية بغرض الفهم والمعرفة : هل كانت المرأة تائبة حقاً؟ وهل أحجمت عن زيادة الظلم ليوسف بإضافة الغيبة إلى مظالمها السابقة لوجود قدر من الورع والتقوى بداخلها؟ أم لظروف أخرى؟

١- التحقيق هذه المرة كان يجريه الملك المعظم ذاته، رئيس زوجها، وإله المصريين حينذاك وليس تحقيقاً يجرى أمام زوجها المحب أو جماعة ﴿ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾.

٢- لابد أنه نما لعلمها - كما هى العادة فى أجنحة النساء في القصور الملكية من التسمع على الأخبار - بخبر صعود نجم يوسف عليه السلام وعلو مكانته لدى الملك ذاته، ولابد أنه نما إلى علمها أن هذا العبد المظلوم مرشح لتولى أعلى منصب فى الدولة، بل هو منصب زوجها ذاته «عزيز مصر» .. حيث تظهر القصة القرآنية أن هذا اللقب الذى كان يحمله زوجها حمله يوسف من بعده، ولذا فقد ناداه به إخوته قبل معرفتهم لشخصيته ﴿ قَالُواْ يَآ أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ (يوسف ٧٨).

باستعراض هذين الطرفين. نتساءل هل كان ممكناً أن تستمر المرأة في ظلم يوسف عليه السلام وخيانته؟

قطعاً الإجابة واضحة، وإني والله لأعجب ممن يضيفون من عندهم حبكة قصصية إدعاءاً للعلم والفقه بقولهم أن يوسف عليه السلام تزوج من تلك المرأة لاحقاً بعد توبتها، وأقول أن الله تعالى رسم لنا صورة رائعة بارعة دقيقة لنفسية تلك المرأة مما يجعلها تجسيداً لكل معانى الشر والكذب والخيانة والنذالة مما لايستقيم لنبى حكيم مثل يوسف عليه السلام أن يتزوجها ولعل هذا الكلام كان تسرباً إسرائيلياً يطل علينا، وأنى والله لأعجب أكثر لمن يلجأون للتفاسير الإسرائيلية لمحاولة تفسير بعض القصص القرآنى الذى أراه واضحاً منطقياً مفسراً بذاته لذاته ولا يحتاج لهذه الأقاويل المحرفة.

عند هذا الحد من القصة القرآنية - اطفأت الأضواء على مشهد التحقيق، وأعلنت البراءة الكاملة ليوسف، وانتهى ذكر المرأة الباغية تماماً، وانتهى معه ذكر المحن والفتن والشرور التى مرت بيوسف الصديق، ثم أضيئت أضواء الآيات الكريمة على مشهد النصر فى قصر الملك ويوسف يخاطب الملك مكللاً بإكليل الفخر والطهر والتمكين ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلأَجْرُ الأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾.

ونلمح فى البداية فى الآية ٥٤ كم التغير النفسى الذى حدث للملك تجاه يوسف بعد إظهار براءته التى أضيفت إلى فضائله الكثيرة الأخرى التى عاينها الملك بنفسه، ففى تلك الآية يطلب الملك اللقاء بيوسف الصديق وفى ذهنه خطة واضحة عما يريده منه، ولذا فنراه يقول ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾، أى أن الملك أراد أن يلتقى به ليستأثر به وبمواهبه لنفسه ولمملكته، هذا بخلاف المرة الأولى التى طلب فيها اللقاء بلا خطة واضحة، بل ربما ليتعرف فقط على هذا الشخص السجين الذى يغلب الظن أنه

مذنب، أو مثلاً، ليشكره أو ليلبى له مطلباً متواضعاً.

حيث أنه فى طلب اللقاء الأول فى الآية ٥٠ كان قد قال ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ ﴾ فقط، إذن فالملك كانت فى ذهنه خطة محددة عند طلب اللقاء بيوسف عليه السلام هذه المرة، وكان ينقص هذه الخطة اللقاء المباشر به حتى يستطيع تقييمه ووزنه وسبر أغواره والحكمة تقول «المرء مخبوء تحت لسانه فإن تكلم ظهر» إذن تم اللقاء والتقييم الذى اختزله التعبير القرآنى ببراعته فى كلمتين ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ وأصبح الوقت الآن مواتياً للملك ليعلن عن ثقة قراره بالنسبة ليوسف الصديق ﴿ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾، ولنلاحظ كلمة ﴿ الْيَوْمَ ﴾ والتى تعنى اكتمال حيثيات القرار بعد اللقاء الذى تم فى ذلك ﴿ الْيَوْمَ ﴾ وليس قبله حيث كانت الأمور لا تزال فى منعطف «الأفكار القابلة للتطبيق» فقط.

وإلى هنا نرى مدى دقة وحكمة وذكاء هذا الملك مما يليق بملك لإمبراطورية عظمى، ونرى أيضاً كيف أظهر لنا القرآن هذه السمات ببراعة تتناقض مع النص التوراتى الذى لايمكن من خلاله الحكم على هذا الفرعون إلا بأنه «ساذج أبله»، ما يهمنا جداً هنا هو أن يوسف الصديق ترك الملك يأخذ قراره بنفسه بعد أن قام هو بإقناعه بمواهبه وملكاته بكل الطرق والأساليب ومعظمها خفى ذكى، وأن هذا الملك قد أصبح مهيئاً نفسياً بعد كل هذه الأحداث للإستجابة لمطالب يوسف عليه السلام، وحانت تلك اللحظة والإشارة عندما قال الملك له ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾، أى شهد له «بالأمانة» التى هى نقيض «الخيانة» التى كان قد أتهم بها من قبل .. كما أقر له بالمكانة والتمكين التى وعد الله بها يوسف من قبل وهو فى قاع الاستضعاف فى الآية ٢١ من السورة .. وحتى الآن لم يكن يوسف قد طلب أى مطلب من الملك، ولما حانت اللحظة طلب طلباً وإن كان واحداً فقط إلا أنه كان مطلب عظيم يليق بمكانة الشخصين، مما لم يجد معه الملك بداً من الاستجابة وخاصة أن القرار كان جاهزاً فى ذهنه ﴿ قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾.

ونرى من حصافة يوسف عليه السلام، أنه لم يكتف فقط بالضرب فى الوقت المناسب وبعد أن هيأ الظروف تماماً لنجاح ضربته، بل أشفع طلبه للملك بما قد نسميه

اليوم «أوراق اعتماده» أو «سيرته الذاتية» حيث قال في هذا المقام مقروناً بالطلب ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، أى ذكر للملك كونه :

١ - ﴿حَفِيظٌ﴾ : أي شديد المحافظة وهى مرتبة أعلى من ﴿أمينٌ﴾ لأن الحفيظ أمين فى طبعه ماهر حاذق عليم فى تصرفه. والله عز وجل هو (الحفيظ) الأعظم لكنه لم يتخذ سبحانه (الأمين) من الأسماء الحسنى.

٢ - ﴿عَلِيمٌ﴾ : أى شديد العلم والدراية والحنكة.

والصفتان علمهما الملك ذاته عن يوسف الصديق قبل أن ينطق الأخير بهما .. فحفظه للأمانة ثبت من براءته من الخيانة فى بيت سيده رغم الضغوط والمغريات وعلمه مثبت لاحسب فى تأويل أحلام الفتيين وحلم الملك، بل تجلى بصورة أشد فى وضع مفردات الخطة الاقتصادية المحكمة لمواجهة الأزمة المقبلة.

وبالطبع ومن تصاعد المنطقية وترتيب الأحداث فإن موافقة الملك كانت حتمية حتى أن النص القرآنى المحكم لم يذكرها، فذكرها بعد ذلك إنما هو تحصيل حاصل.

وعند تلك الجزئية وبعد تمام الانتصار كان لابد للمولى عز وجل أن يخبرنا بالعبرة المستفادة والحكمة المستقاة قبل أن ينتقل بنا فى آياته المحكمات لجزئية أخرى تالية.

قال تعالى فى هذا المقام : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

فأولاً وبعد اكتمال الشكل النهائى للقصة، يذكرنا المولى بما قد قرره من قبل وفى البداية (الآية ٢١) من السورة ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ حيث أننا قد اندهشنا فى البداية لتلك المقولة المخالفة للظروف المحيطة بيوسف، وبعد أن سارت الأحداث فى مسارها يذكرنا الله تعالى ثانية بهذه المقولة ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (الحج ٤٧).

ثم نتوقف برهة قصيرة عند قوله تعالى ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾، وتلك نعمة عظمى قرنها الله تعالى هنا وناظرها بتولى الحكم والملك بالنسبة ليوسف، ولعلنا نفهم

ذلك لو تذكرنا أن تلك النعمة الكبرى «حرية الحركة والتنقل» كانت متعذرة على يوسف عليه السلام طيلة حياته .. ففي بيت أبيه كان أبوه يقيد حركته عن اللعب واللهو كباقي الصبيان مخافة عليه، ثم ها هو حبيس البئر المظلمة، ثم حبيس القيد مع قافلة السيارة، ثم حبيس بيت السيد المصرى وزوجته، ثم حبيس السجن الفعلي .. فهو يمر من حبس إلى حبس ومن تقييد إلى تقييد، لذا فنعمة التحرك والتنقل ﴿ حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ لمثل هذا الرجل لهي نعمة لا تدانيها نعمة ولا حتى الملك ذاته .. وما أحلى الدقة القرآنية التى تسبر أغوار النفسيات وتظهر لنا دائماً ما قد يفوت على أدق الفاحصين.

ثم تختتم الآية الكريمة ٥٦ بالوصف الذى اختاره المولى تعالى لهذا النبى الكريم «الإحسان» فى قوله تعالى ﴿ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾، وهو وصف وصفه به المولى تعالى فى أكثر من موضع بالسورة ووصفه به إخوته المتآمرون ووصفه به رفيقى السجن أيضاً مما يوحى بتلازم هذه الصفة له فى الصبا والرجولة، فى ظلام السجن وعند اعتلائه الحكم، وبعدها فى تصرفه فى شئون المملكة، وكلها مواضع أتى فيها وصف الصديق بهذه الصفة.

ولا ينسى المولى عز وجل فى هذا المقام - مقام الانتصار فى الدنيا ومقام المجد والعز بعد الذل والانكسار - أن يذكرنا بأن هذا ليس بكل شيء، بل هو جانب فقط من الأجر، وجزئية صغيرة من جزاء المولى للمحسنين، فأجر الآخرة أجل وأعظم وأسمى، وهو أجر كريم ينتظر مستحقيه من المؤمنين بالقلب المتقين بالفعل.

ولعله لايفوتنا التذكير باقتران ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ تلازماً يوجب الأجر لمن اقترن فيهم صدق العقيدة فى القلب بصدق العمل، وهذا أسلوب قرآنى له دلالة بأن أحدهما فقط: إيمان بلا عمل، أو عمل بلا إيمان، لا قيمة له إنما هو التلازم والاقتران.

إلى هنا انتهت قصة محنة يوسف فى الغربة وانتصاره النهائى فيها وبقى القصاص الأعظم والانتصار على المحنة الأولى التى تسببت مباشرة فى الثانية .. وكما رأينا فى قصة محنة سجن يوسف، فإن انكشاف المؤامرة الثانية كان هو التمهيد لانهيار خيوط المؤامرة الأولى، كذلك فإن انقشاع غيوم المحنة الثانية كلها (محنة مصر) كانت هى التمهيد

والسبب لإمكان انقشاع غيوم المحنة الأولى «محنة أرض كنعان» وانتصار يوسف النهائى على أول من بغوا عليه ألا وهم عصبة الأخوة.

وهذا التماثل والتركيب المنطقى العجيب فى ثنائيات الأحداث إنما يشير إلى وجود قوة فاعلة خلف الأحداث كلها مما يسير تلك الأحداث على منهاج واحد وخطة متجانسة.

٨- عزيز مصر (يوسف عليه السلام) يقابل الإخوة :

تأخذنا الآيات الكريمة المتبقية من القصة مباشرة لأحداث الصراع وتصاعده بين يوسف عليه السلام الذى أصبح عزيز مصر وواليها وبين إخوته .. ونرى تلك التفاصيل مدونة فى الآيات على صورة رحلات مكوكية لعصبة الإخوة ذهاباً وعودة بين مصر وفلسطين. ثلاث رحلات ذهاب وعودة كاملة، ثم ارتحال أخير ونهائى من أرض فلسطين لمصر، مما جعل هؤلاء الإخوة يقطعون المسافة سبعة مرات بين ذهاب وعودة، ولعل هذه إضافة أخرى للرقم سبعة فى القصة لتصبح سبعة سبعات (سبع بقرات سمان وسبع عجاف وسبع سنبلات خضر وسبع يابسات وسبع سنوات ازدهار وسبع شداد) ولعل تلك الرحلات السبعة كن سبع شداد حقاً فى حياة هؤلاء الإخوة، وهذا من الغرائب الرقمية القرآنية التى نجد لها مئات الأمثلة فى القرآن بل فى نفس السورة كما سنذكر فيما بعد.

ويجب التذكير هنا أن التوراة أوردت رحلتين كاملتين ونصف فقط أى خمس مرات بين ذهاب وعودة، وهذا خلاف آخر بين القصة القرآنية والتوراتية سنفصله معاً بتوالى الأحداث إن شاء الله.

الرحلة الأولى من فلسطين لمصر وبالعكس:

تحتل أحداث تلك الرحلة الآيات الكريمة ٥٨-٦٧ من السورة الشريفة، ورحلة الذهاب من فلسطين لمصر والتى وقعت فى بلاط العزيز تحتل الخمسة الأول منها من ٥٨-٦٢، ورحلة العودة وأحداث بيت يعقوب تحتل الآيات الخمسة التالية من ٦٣-٦٧، يقول تعالى :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ

لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَآ أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَابَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (يوسف ٥٨-٦٧)

وسياق القصة في الآيات الكريمة واضح كل الوضوح، فحين بدأت المجاعة تضرب أرض مصر والبلاد المجاورة لها مثل فلسطين التي كان يقيم بها إسرائيل (يعقوب) وبنيه، شح الطعام وبدأت الوفود تتوافد على مصر من كل حدب وصوب لتشترى من مخزون الطعام الموجود لديها - في صوامعها وحصونها وخزائنها وتحت إمرة يوسف عليه السلام - وجاء أخوة يوسف من ضمن من جاء من أرض فلسطين ليشتروا طعاماً لهم ولأهلهم فتعرف عليهم يوسف عليه السلام، أما هم وبعد هذه المدة الطويلة التي بلغ فيها يوسف مبلغ الرجال وتغيرت هيئته لهوية مصرية خالصة، وأيضاً لما أسلفنا، من جهلهم بمصيره بعد أن ألقوه في البئر، فلم يتوقعوه، وأين للصبي العبراني الصغير من الوالي المصرى الملبس واللسان في أبهة حكمه؟ .. تقص علينا الآيات الكريمة أن يوسف عليه السلام باع لهم ما يحتاجون من ميرة ومؤونة، وتقول الروايات أنه كان قاسياً عليهم واتهمهم بالتجسس ولما أنكروا وأخبروه بقصتهم وعددهم وأبيهم وموطنهم طلب منهم أن يأتوا معهم المرة القادمة بأخيهم الذى بقى مع أبيهم (بنيامين شقيق يوسف) كدليل على صدقهم وعدم كذبهم، وإلا فليحذروا الحضور لمصر مرة ثانية، حيث أن عدم إحضار الأخ سيكون دليلاً دامغاً على كذبهم على الوالي، وبالتالي فلا قمح ولا ميرة ولا مؤونة، بل حذرهم حتى من الاقتراب من البلاد في هذه الحالة، فوعده الإخوة أنهم سيبذلون كل الجهد للرجوع بهذا الأخ عند عودتهم ثانية لمصر قائلين ﴿ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾.

وهنا يطل علينا الفعل (يراود) برأسه مرة أخرى، وهو فعل فيه مكر ودهاء، وفيه ترغيب وترهيب وفيه اثم باد، فعلته امرأة العزيز حين حاولت اغتصاب يوسف، وفعلته النسوة حين أردن أن يقضين وطرهن منه، واختيار هذا اللفظ القرآني هنا يوحى بالمكر والخسة في نوايا الإخوة ودواخل نفسياتهم التى لم تراع شيخوخة الأب ولا ضعف الابن كما فعلوها من قبل مع يوسف .. فهم ورغم كل الحجج والمعاذير التى ساقوها عن المصلحة العامة وزيادة الكيل وخلافه لايقيمون لرابطة الإخوة مع هذا الأخ وزناً، وما كان هلعهم عند احتجازه في مصر إلا لميثاق الله الذى وثقوه مع أبيهم، كما يُظهر فعل (يراود) هذا أيضاً أن بنيامين كان حبيباً لصيقاً ليعقوب يصعب انتزاعه منه كما كان صعباً بل مستحيلاً على النسوة أن يقضين حاجتهن من يوسف عليه السلام.

أما عن يوسف فبعد أن حذر الإخوة ورهبهم وأخذ منهم وعداً بالرجوع بشقيقه بأسلوب خفي ذكي، فإنه أمر الفتيان والعبيد القائمين على شحن الغلال فى رحال القوافل أن يدسوا ثمن البضاعة الذى دفعه كل أخ منهم فى رحله، حتى إذا عادوا لبلدهم وبدأوا فى تفريغ الغلال وجدوا هذا الثمن موجوداً فيها، فيكون ذلك سبباً آخر وتحفيزاً لهم كى يعودوا، وقد أورد ابن كثير فى تفسير ذلك رأيين لا أرى أحسن منهما وأوردهما بالنص بلا زيادة ولا تعقيب : [﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بها، قيل خشى أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها، وقيل : أراد أن يردهم إذا وجدوها فى متاعهم تحرجاً وتورعاً، لأنه يعلم ذلك منهم، والله أعلم] انتهى.

وإلى هنا انتهت الزيارة الأولى لإخوة يوسف لمصر وبعدها انقلبوا عائدين لفلسطين، حيث قابلوا أباهم وأخبروه بأخبارهم، وما صار إليه أمرهم مع عزيز مصر، وتشككه الظاهر فى نواياهم، وطلبه الوحيد منهم لإثبات صدقهم، والذى كان الرجوع المرة القادمة لمصر بهذا الأخ الصغير الذى ادعوا وجوده وإلا فهم كاذبون، وبالتالى يمنع بيع القمح والمؤونة لهم، بل عليهم إن أرادوا السلامة ألا يقتربوا حتى من الحدود المصرية ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

ساق الإخوة القصة كلها ليعقوب عليه السلام طالبين منه أن يرسل معهم أخيهم فى زيارتهم القادمة حتى يستمر تدفق القمح على بنى إسرائيل فى فلسطين، مع وعد بالحفاظ على هذا الأخ ورعايته .. هنا وقف الإخوة أمام الأب طالبين الابن الصغير مستعملين نفس العبارة التى قالوها من قبل حينما راودوا أبيهم عن يوسف ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٢ السورة) ، وكأن الله عز وجل يقول لنا بأن موقفهم تجاه بنيامين لم يكن بأفضل من موقفهم تجاه يوسف ، فحتى العبارات التى كانوا يسوقونها فى الخداع لم تزل كما هى لم تتغير ، ولابد أن تلك العبارة التى صكت مسامع الأب الشيخ قد ذكرته بنفس الموقف السابق ، فكان رده ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ ، وقد وعدتم بالحفاظ عليه وتباهيتم بأنكم له حافظون ، فما رعيتم وعداً ولا حفظاً إنما ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ لأنه تعالى ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ، بخلافكم أنتم القساة غلاظ الأكباد .. وحتى هنا فيعقوب عليه السلام كان رافضاً للأمر بعناد وإصرار شديدين ، ويبدو أنه كانت هناك علامة أحسها قلب هذا الشيخ حدثت فيما بعد ، غيرت من الرفض القاطع فجأة إلى سماح وموافقة ، وكما قلنا من قبل فآيات سورة يوسف الكريمة تجيد باقتدار وصف شخصية يعقوب عليه السلام الشيخ الأب ، الذى وإن كان فطناً حذراً إلا أنه مستسلم ، لا للأبناء ومكائدهم ، بل مستسلم لمشيئة الله عز وجل ، الذى حباه بخاصية واضحة جداً فى آيات السورة هى نوع من جلاء البصر والبصيرة أو ما يسميه الصوفيون «العلم اللدنى» ، ولم لا ؟ فهو نبى كريم ابن نبى ابن أبى الأنبياء كلهم إبراهيم عليه السلام ، وفيه يقول الله تعالى فى نفس السورة ونفس الحادثة ذاتها حينما تحول من الرفض للقبول ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف ٦٨) ، أى أن له خاصية علم مميزة يتميز بها عن سائر الناس ، وكما أوضحنا من قبل أنه كان يعلم بالمكيدة التى دبرها الإخوة ليوسف ولم ينخدع ، بل وكان يعلم بمكان يوسف وأنه بمصر حينما أمر أبناءه بالبحث عن يوسف فى نفس مكان بنيامين ، ومكان بنيامين معلوم له من حيث أنه محتجز لدى عزيز مصر فى قوله تعالى ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ (يوسف ٨٧) .

نعود مرة ثانية ونقول أنه كانت هناك علامة معينة هى التى حولت موقف يعقوب عليه السلام للنقيض وقرر إعطاء بنيامين لإخوته رغم علمه اليقينى بسوء طويتهم والذى يتضح من الألفاظ القرآنية كما أسلفنا، فما هى تلك العلامة؟، أقول أنها الآية التالية مباشرة لآية الرفض، ولنقرأ ثانية الآيات الثلاثة بعناية، نجد الأولى رفض بات قاطع، ثم نجد فى الثانية أحداثاً معينة، ثم نجد فى الثالثة تحولاً للقبول وإن كان مشروطاً، قال تعالى:

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَآ أَبَانَا مَا نَبْغِى هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

فبين الرفض القاطع فى الآية ٦٤ ثم الموافقة فى الآية ٦٦ كان هناك حدث ما، وهذا الحدث كان هو جلاء البصيرة للأب الشيخ التى دلته على أن فاعل ذلك كان ولابد أن يكون هو ولده الحبيب يوسف عليه السلام، كان رد البضاعة (الثمن وقالت التوراة أنه فضة)، فى متاع الإخوة هو النداء الخفى من نبى لنبى، ومن ابن بار لأب مكلوم، تلقاها الأب بموهبة العلم الزاخر التى وهبها الله له ففهمها وترك الأمور تجرى حسب المشيئة الإلهية، فكل قضاء نافذ .. أليس ذلك ما يقوله تعالى بعد آية واحدة فى الآية ٦٧ ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ثم يؤكده تعالى ثانية فى الآية التالية (٦٨) ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾.

وأقول لمن يعتقد أن هذه المقولات قيلت فى مقام طلب يعقوب عليه السلام من أبنائه ألا يدخلوا من باب واحد، ولذا فهى تنطبق على تلك القصة وحدها، ولا علاقة لها بالرفض ثم القبول من جهة يعقوب، إن طلب الدخول من أبواب متفرقة ذاته مترتب على تلك الرسالة الخفية بين النبيين كما سيأتى حالاً، وهو جزء مكمل لفهم الأب لرسالة الابن وغير منفصل عنه بالمرة.

أعود فأقول أن الأب النبى تلقى حدث وجود ثمن القمح فى متاع الإخوة، وكانت تلك هى العلامة الفارقة التى قرر بعدها أن يعطى بنيامين لإخوته، فهو يعلم أنه ذاهب لأخيه عزيز مصر يوسف عليه السلام، وهنا سكن القلب وارتاحت العاطفة، وهنا تبرز جزئية رمزية أخرى من عشرات الرمزيات في البناء القصصى لتلك السورة، فتلك الفضة الراجعة فى متاع الإخوة من مصر كانت رمزاً من نبى لنبى آخر عليهما السلام بلغة أعلى وأعقد من رموزنا نحن البشر العاديين، لا يقدر على فعلها أو فك شفرتها إلا نبى مقرب ممن وصفهم تعالى ﴿ وإِنَّهُ لَذُو علْمٍ لِمَا علَّمْناهُ ولكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يعْلَمُونَ ﴾.

وهنا أصر على أن عدم فهم تلك الجزئية بأسلوبها الصحيح، سيجعل من تفهم باقى الأحداث عملية صعبة ومعقدة، وأما فهمها بتلك الطريقة وكما قصه الله عز وجل علينا فهو يؤدى إلى رؤية تماسك الأحداث بشكل عجيب، وتفهم لحرفية النص القرآنى بشكل يحلق بنا، فيه جلاء بصرى يجعلنا نفهم الأحداث ولا نتلعثم أو نتعثر أمام مجرياتها.

أما تفسير الحدث فهو أن الأبناء - على مشهد من أبيهم - وجدوا حدثاً عجيباً يعرض لهم عند رجوعهم لفلسطين من مصر، فقد وجدوا فضتهم وما لهم فى رحالهم، مما أدى إلى إظهارهم تلك الحادثة للأب على أنها بشارة خير وبركة، فها هو المال مردود لهم مع كامل المؤونة التى اشتروها، إذن فما يضير أيها الأب أن يرسل معهم أخيهم للحصول على قمح آخر، يكون أوفر هذه المرة لوجود شخص آخر يزاد له فى الكيل «حيث يعطى كل رجل أو بعير مكيالاً معيناً»، أو هل هذا بكثير على الخير المرجو من ورائه؟ كان هذا هو منطق الإخوة الذى أصر على أنه لم ينطلِ على يعقوب «ذو العلم الإلهى» بل كان كشف البصر وجلاء البصيرة هو الحادثة ذاتها.

وهنا نلمح الذكاء والفطنة والدهاء البالغ فى أسلوب يعقوب عليه السلام، الذى أظهر الاقتناع بمنطق الأبناء، ثم زاد حبكة التمثيل عليهم بأن طلب طلباً يسيراً منهم كبرهان على صدقهم ألا وهو الحلف بالعهود والمواثيق، وكأن هذا الشيخ الذى وصفه المولى عز وجل بأنه ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَّا عَلَّمْنَاهُ ﴾ لا يدرى أن الفرج يأتى للص إذا طلب

منه الحلف والقسم، بل أن الأب، وللمرة الثانية كما حدث فى قصة الإخوة مع يوسف من قبل، أعطى الأبناء أيضاً المبرر الذى سيعودون به إليه ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلآ أن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾، وكان هذا هو ما حدث بالفعل لاحقاً، وكان هذا هو المبرر الذى ساقه الإخوة الذين أحيط بهم بجند مصر وداخل أرضها فلم يجدوا مخرجاً من تسليم بنيامين، المهم أن الأب خدع مخادعيه فاقتنعوا بكل يسر بأنه صدقهم فحلفوا وأقسموا .. وهنا قال الأب مقولته التى ختم بها الجدل ﴿ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾، فهذا الموقف الشائك هو أكثر المواقف احتياجاً للتوكل ولذا يقول هذا الأب ثانية وفى الآية التالية مؤكداً رضوخه وإذعانه لمشيئة الله وتوكله عليه ﴿ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

أعود فألخص أن رد الثمن فى متاع الإخوة كان رمزاً شفرياً من نبى لنبى .. فهم يعقوب من خلاله مصير ومكان ابنه يوسف عليه السلام، وما كان ذلك ليتسنى إلا ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف ٦٨)، والأدلة على ذلك تأتى من سياق القصة القرآنية نفسها:

١- التحول المفاجئ فى موقف الأب من الرفض المطلق لإرسال الأخ الأصغر بنيامين مع الإخوة إلى قبول معلق على شرط واه شكلى.

٢- الإشارات القرآنية الشديدة لوجود علم ذو طبيعة خاصة عند يعقوب من لدن الله عز وجل ذاته مما لايتيسر لأكثر الناس.

٣- يعقوب كان يعلم بمكان يوسف عليه السلام وأنه بمصر وأن بنيامين معه، بل يعلم أنه هو الذى احتجز بنيامين كما أسلفنا.

٤- اقرأ الآيات الكريمة من السورة من ٨٣-٨٦ لترى رد فعل يعقوب عليه السلام عندما علم بفقد بنيامين واحتجازه فى مصر، كان الحزن والألم كله على يوسف وذكراه واللوعة لفراقه، ولم يذكر مطلقاً بنيامين المفقود حديثاً وكأنه يعلم أنه فى أمان تام مع أخيه الأكبر، قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ

وابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف ٨٣-٨٦).

وتأمل الآيات عندما عاتبه الإخوة على تذكره ليوسف في هذا المقام وكأنهم يقولون: ما لنا ويوسف الآن ولماذا تذكره .. نحن نكلمك عن بنيامين؟، وانظر لرد الأب هنا عليهم في قوله تعالى على لسانه ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾، والرد أوضح من أى إطناب في تفسير.

طلب الأب من أبنائه طلباً واحداً يؤدونه عند عودتهم لمصر ودخولهم على عزيزها، وكان هذا الطلب مناط تحير لدى كثير من المفسرين، قال يعقوب لأبنائه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَابَنِيَّ لا تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ونرى هنا أن هذا الأب الشيخ العالم أعطى نصيحة واحدة لأبنائه، وهى ألا يدخلو على عزيز مصر من باب واحد، أى لا يدخلوا جماعة، بل يدخلوا أحاداً متفرقين، ويظهر من خطابه لهم وعباراته أنه كان يخشى عليهم خشية شديدة من خطر داهم عند دخولهم، وقد أجمع المفسرون أن يعقوب عليه السلام نصح أبنائه بتلك النصيحة لأنه كان يخشى عليهم الحسد والعين .. أما - عن رأيى الشخصى - فأرى أن هذا السبب الواهى الضعيف ما كان ليكون هو المسيطر على فكر الرجل في ذلك المقام، وخاصة مع افتراض كونه في حالة قلق شديد على بنيامين الصغير لا على الرجال الأشداء، وما كان القرآن الكريم بما رأيناه من إحكام عبقرى تجلى في كل حرف من تلك السورة ليفرد آيتين كاملتين للحديث عن هذا الخطر الوسواسى الذى يترفع عنه نبى كريم، إنما أرى أنه على ضوء السابق من فهمنا لعلم يعقوب بمكان ومصير يوسف عليه السلام الذى هو عزيز مصر حينذاك، والذى رد الثمن مع المؤونة نستطيع أن نفهم مقولة الأب وقلقه على الأبناء الكبار تلك المرة، فالأب يعلم أنهم ذاهبون إلى يوسف في مجده وعزه وعرشه وقوته، داخلون إليه في قصره، أليس إذن

دخولهم عليه من باب واحد هو دخول جماعة أو باللفظ القرآني ﴿ عُصْبَةٌ ﴾؟ ألم يكن هذا التجمع والتعصب هو المحرض والمحفز لظلم هؤلاء الإخوة ليوسف الذى صار ذو قوة وشوكة الآن ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف ٨)؟، ألم يكونوا عصبة وجماعة وهم يلقونه فى الجب؟ ألم يكن هذا التعصب والتجمع مصدر فخر ومباهاة بالقوة الغاشمة لهم على الدوام ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾ (يوسف ١٤)؟، إذن ما هو المنتظر حدوثه منطقياً لو رآهم يوسف يحملون معهم الأخ الصغير بنيامين ويدخلون من باب واحد كعصبة وجماعة عليه .. أفلا يهيج ذلك الذكريات المريرة؟ ألا يعيد كل تفاصيل المأساة أمام عينيه؟ ألا يحتمل أن يبطش بهم جميعاً انتقاماً؟ واقرأوا الآيات ثانية ﴿وَقَالَ يَابَنِيَّ لا تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف ٦٧-٦٨).

ألا تلاحظون هنا مدى خوف الأب الذى دفعه لتلك النصيحة؟ ألا ترون تكرار عدم غنى التدبير الأرضى عنهم مرتين فى آيتين متلاحقتين؟ ألا ترون ذكر حاكمية الله؟ ألا ترون ذكر العلم المؤيد لهذاا لنبى؟ ألا توافقوننى فى النهاية على أن ما ذهبت إليه من تفسير هو الأقرب للصحة من حيث الأسلوب القرآنى وألفاظه ومنطقه؟

ملحوظة : لايوجد فى كتب التفسير المختلفة إلا ثلاثة أقوال أو أراء حول تلك النقطة نوردها هنا :

أحدها : أنه خاف عليهم العين، وكانوا أولى جمال وقوة، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة.

والثانى : أنه خاف أن يغتالوا لما ظهر لهم فى أرض مصر من التهمة (تهمة الجاسوسية) قاله وهب بن منبه.

والثالث. أنه أحب أن يلقوا يوسف في خلوة، قاله إبراهيم النخعي.

ولا زلت شخصياً - والله أعلم - أرى أن ما ذهبت إليه من تأويل هو الأقرب لعقلي آخذاً بتفسير أحداث السورة ككل، حيث أنني أرى أن تفسير آية ما لابد أن يكون مرتبطاً بما قبلها وبما بعدها، ولا استحب طرح تأويلات دون سند للآيات وبصورة منفصلة مما يتعارض مع الأسلوب القرآني عامة، وفي تلك السورة خاصة، وأترك الحكم للقارئ.

وهناك ملحوظة أخرى أود التنويه إليها وهي أن ذكر «الأبواب» في القصة القرآنية يعد في حد ذاته دليلاً على الإعجاز القراني الذي يتضح هنا أنه كان ملماً بأساليب عمارة المدن في الدولة المصرية القديمة، حيث كانت تلك المدن تحاط بأسوار لها أبواب معينة حصينة، كما كان ملماً بالمسئوليات الإدارية في تنظيم الحكومة المصرية القديمة حيث كانت تلك المدن تحاط بأسوار لها أبواب معينة حصينة، كما كان ملماً بالمسئوليات الإدارية في تنظيم الحكومة المصرية القديمة حيث أن مسئولية فتح تلك الأبواب «الملكية» كانت من اختصاص الوزير فقط «وظيفة يوسف عليه السلام عند الملك». يقول كتاب الناس والحياة في مصر القديمة للمؤرخة دومينيك فاليل ص ٥٢، عن مهام الوزير: (بداية يتسلم الوزير اختام الحجرات المحصنة ويشرف على فتحها ثم يحاط علماً بالأوضاع في قلاع الشمال والجنوب، وتعرض عليه مصروفات وإيرادات الأملاك الملكية وأرض المقر الرسمي لعاهل البلاد، ويقدم مدير الشرطة ورؤساء المراكز تقاريرهم إليه، ثم يتجه إلى القصر الملكي لتقديم فروض الولاء للملك، ومقابلة مسئول الأختام، ليتباحث معه في إجراءات الأمن الخاصة بفتح جميع أبواب الأملاك الملكية التي تجري مرتين في اليوم، وينجز الوزير كل هذه الأعباء في صدر النهار) انتهى.

ولعلنا نندهش أشد الدهشة من الوصف القرآني الصحيح تاريخياً تماماً لتلك النقطة التي ظلت مجهولة حبيسة الطلاسم الهيروغليفية وما تكشفت لنا إلا في زمان قريب جداً.

نقطة أخرى أود التنويه عنها وهي أن تلك الجزئية من القصة هي إختصاص قرآني

صرف لم ترد فى التوراة مطلقاً وهذا حلاف آخر .

وإلى هنا انتهت أحداث رحلة الإخوة الأولى من فلسطين لمصر ذهاباً وإياباً ، وإلى حد كبير كانت تلك الرحلة طعماً ، استعل فيها يوسف عليه السلام ذكاءه وفطنته لتوريط الإخوة وإلقاء الشباك عليهم ، حتى لايفلتون منه إلا بعد تحقيق كامل أهدافه .

أما عن أخبار تلك الرحلة فى التوراة ، فهى تحتل الإصحاح ٤٢ كله من سفر التكوين ويفضل قراءتها قبل الوصول للمقارنات التالية :

١- القصة التوراتية سردية تنتهج أسلوب الحكاية أو الحدوتة وتفتقر لأى عمق فى رسم وبناء الشخصيات وخاصة بالنسبة ليوسف ويعقوب عليهما السلام كما رأينا فى القصة القرآنية ، كما تتخلف عن الأسلوب الأدبى القرآنى خاصة فى عمق التصوير والرمزية .

٢- هناك بعض الاضطراب فى الرواية التوراتية مثل تكوين القافلة مثلاً ، تقول التوراة أن القافلة كانت مكونة من حمير أتى بها الإخوة من فلسطين لمصر ليحملوا عليها القمح بينما النص القرآنى قال أنها كانت من العير أى من الجمال أو الإبل ، وهل يعقل أن يقوم الإخوة العشرة برحلة شاقة من فلسطين لمصر وبالعكس ليعودوا فقط بحمل عشرة حمير من القمح ، ولنا أن نتخيل ما هو ثقل القمح الذى يستطيع كل حمار أن يحمله آخذاً فى الاعتبار أن هذا الحمار عليه أيضاً أن يحمل راكبه بأمتعته الشخصية بل ويحمل علفه أيضاً .. فلو كان الأمر كما قالت التوراة لكانت تلك الرحلة الشاقة قد عادت بقمح لايكفى بنى إسرائيل فى فلسطين لمدة أسبوع واحد ، هذا مع الأخذ فى الإعتبار أن تلك الرحلة كانت رحلة صحراوية عليها أن تخترق صحراء النقب ثم صحراء سيناء ثم صحراء مصرالشرقية ، والحمار غير معروف عنه أى قدرة على السفر فى الصحراء ، بخلاف الجمل الذى هو سفينة الصحراء وقادرعلى العمل الشاق وحمل الأثقال ، فأى الروايتين نصدق منطقياً .

عموماً فالتوراة تورد فى العديد من المواضع أن الجمل كان حيواناً معروفاً عند القبائل

العبرانية فى زمان إسحاق ويعقوب عليهما السلام. تقول التوراة عن رفقة التى غدت زوجة لإسحاق عند لقائها مع عبد إبراهيم فى أرض حاران [واحتار العبد عشرة جمال وحملها من جميع خيرات مولاه التى فى يده] (التكوين ٢٤ : ١٠)، أى أن القافلة التى أرسلها إبراهيم عليه السلام لخطبة رفقة لابنه كانت مكونة من الجمال، ثم عندما قابلت القافلة رفقة [قالت: «واستقي لجمالك أيضاً حتى ترتوى»] (التكوين ٢٤ : ١٩) [ثم ركضت نحو البئر فاستقت لكل جماله] (٢٤ : ٢٠)، ثم استضافت العبد فى بيت أبيها [فدخل الرحل إلى المنزل، وحل عن الجمال، وقدم لها تبناً وعلفاً] (٢٤ : ٣٢).

هذا عن إبراهيم وإسحاق، أما يعقوب ذاته فلما أراد الهرب من خاله كانت قافلته [فقام يعقوب وحمل أولاده ونساءه على الجمال] (التكوين ٣١ : ١٧)، وقامت زوجته أثناء ذلك [وكانت راحيل قد أخذت الأصنام وأخفتها فى رحل الجمل، وجلست عليها] (٣١ : ٣٤).

وهكذا أتى ذكر الجمل كمكون رئيسى للقوافل فى تلك المواضع وغيرها مما يشير إلى معرفة عشائر اليهود قبل زمان يوسف ويعقوب بهذا الحيوان، مما يثير تساؤلاً عن عدم استعماله فى القوافل الذاهبة لمصر لجلب القمح رغم وجوده - خاصة - فى مقتنيات يعقوب ذاته.

وهناك رأى معين أود مناقشته ألقى به أحد كتاب التاريخ هو زينون كاسيدوفسكى فى كتابه الواقع والأسطورة فى التوراة ص ٥٤ : [والحقيقة أن الأحبار اليهود عندما بدلوا النصوص التوراتية ادخلوا إليها بعض السخافات المنافية للعقل لكنها قليلة جداً. فإذا كان هؤلاء قد أكدوا مثلاً على وجود الجمال لدى الآباء الأوائل فقد حدث ذلك لأن الجمال فى عهدهم كانت منتشرة فى كل مكان. غير أنه منذ فترة وجيزة فقط أصبح معروفاً لنا أن الجمال كوسيلة نقل لم تظهر على مسرح التاريخ قبل القرن الثانى عشر قبل الميلاد، أى بعد عصر الآباء الأوائل بعدة قرون. وتجدر الإشارة إلى أنه من المحتمل

جداً أنه كانت بين يدى الأحبار اليهود أساطير شعبية قديمة جداً عن الآباء الأوائل (حتى المكتوبة منها) أدخلوها اقتباساتهم دون تغيير تقريباً] انتهى.

ومناط مناقشتى لهذا الرأى هو عبارة «مسرح التاريخ» التى قالها الكاتب والتى تعنى قطعاً الوثائق والنقوش الآتية من العصور المختلفة، وقطعاً فمعظم إن لم يكن كل هذه النصوص هى مصرية قديمة، حيث أن الشعب الأوحد الذى عنى بهذا التدوين الدقيق كان هو المصريين، والجمل كان حيواناً غير معروف أو مستعمل لدى المصريين فى بيئتهم الزراعية، وقد يكون أن ظهر على «مسرح التاريخ» عندما تعرف المصريون عليه وبدأوا فى استعماله لاحقاً ربما نتيجة لاختلاطهم بقبائل البدو العبرانية، مثله مثل الخيل تماماً.

أما عن العبرانيين، فرغم أن الجمل ممكن استعماله لديهم فى التنقل، إلا أنه لايؤكل لحمه ولايقدم كقربان حيث أنه يعد من «البهائم النجسة»، لذا فلم يكن يعدد ضمن رؤوس الماشية التى تذبح، ومن هنا جاءت ندرة ذكره فى أية نصوص عبرية مما قد تتعلق بأحداث الحياة اليومية.

أما عن قول الكاتب أن الجمل استعمل وأصبحت الجمال «منتشرة فى كل مكان» بعد عدة قرون، فأقول أنه حتى هذه العدة قرون كانت فترة زمنية غير كافية لاستئناس حيوان ما بضخامة وطباع الجمل مما يجعل استعماله متداولاً بكثرة، بعد أن كان حيواناً برياً.

والمرجح فعلاً، أن الجمل كان موجوداً ومعروفاً منذ القدم لدى العشائر البدوية العبرانية كما اعترفت التوراة ... والسؤال هو: لماذا لم يتم ذكره فى موضعه المفترض لتكوين قافلة أخوة يوسف المتجهة ليوسف لجلب القمح؟

٣- هناك تضارب فى أحداث القصة التوراتية، فمثلاً تقول القصة أن الإخوة اكتشفوا وجود الفضة (ثمن القمح) فى امتعتهم لأول مرة عندما نزلوا فى خان (فندق صغير) بالطريق فهلعوا [فقال لإخوته: «لقد ردت إلى فضتى، انظروا ها هى فى عدلى».

فغاصت قلوبهم، وتطلع بعضهم إلى بعض مرتعدين وقالوا : «ما هذا الذى فعله الله بنا»] التكوين ٤٢ ٢٨ .

ثم تعود القصة ثانية وبعد عدة سطور فتقول أنهم اكتشفوا الفضة لأول مرة فى بيت أبيهم يعقوب فى فلسطين مما أصابهم بالهلع [وإذ شرعوا فى تفريغ عدالهم وجد كل واحد منهم فضته فى عدله، وما إن رأوا هم وأبوهم ذلك حتى استبد بهم الخوف] التكوين ٤٢ : ٣٥ .

والسؤال الملح هنا هو : متى بالضبط اكتشف هؤلاء الإخوة الفضة فى متاعهم؟ وهل من الممكن أن يجدوها مرتين «لأول مرة»، وهل فى كل مرة كانوا يرون الفضة كان يستبد بهم الهلع أم ماذا؟ ولا يزال هناك تضارباً أشد فى تلك الجزئية يتجلى بصورة أوضح فى الرحلة الثانية كما سيأتى .

٤- تذكر القصة التوراتية أن يوسف عليه السلام أخذ أحد الإخوة المسمى شمعون كرهينة عنده، حتى يعود الإخوة بأخيهم الأصغر لمصر، بينما لم تذكر القصة القرآنية شيئاً عن هذا .

وهنا يثور سؤال صعير : إن كانت القصة التوراتية صحيحة، ألا يظهر ذلك يوسف عليه السلام بمظهر الظلم والاستبداد، والذى بالتالى سيجعل الأب متردداً ألف مرة قبل أن يعطى الإخوة أخاهم الأصغر بنيامين الأثير لديه والمطلوب شخصياً من قبل هذا الحاكم الظالم الذى لايتردد فى سجن وحبس الناس لمجرد الشك؟ وألا يكون هذا الاحتجاز مفسداً لخطة يوسف ذاتها لاستدراج أخيه الأصغر ثم أبويه؟ ثم لماذا يضع يوسف الفضة (ثمن القمح) فى متاع الإخوة كحيلة يعودون بها ثانية لمصر إن كان أحدهم بالفعل رهينة عنده؟ تشير القصة التوراتية إلى أن وضع الفضة فى متاعهم كان لزيادة الترهيب والغموض، أفلا يزيد ذلك من إفساد هدف يوسف من استدراج الأخ الأصغر من عند أبيه؟

ثم أن القصة التوراتية فيما بعد تظهر عدم رضا الأب عن هذا الابن الرهينة (شمعون) لذا لم يعطه أرضاً خاصة به من ميراث الأب هو ونسله، بل أعطى أرضاً وسط

أراضى سبط آخر هو يهوذا .

أوهل يغامر الأب حينئذ بابن حبيب له هو بنيامين إنقاذاً لشمعون خاصة أن المغامرة غير مضمونة النتائج ، وقد تنتهى بفقد الاثنين معاً ؟ . وهذا تظهره القصة التوراتية فى قول يعقوب لابنائه مودعاً لهم حينما اصطحبوا بنيامين معهم [ولينعم عليكم الله القدير بالرحمة لدى الرجل فيطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين أيضاً ، وأنا إن ثكلتهما ، أكن قد ثكلتهما] التكوين ٤٣ : ١٤ .

ثم من الأصل لماذا يقوم يوسف عليه السلام بتلك الفعلة وهو يعلم أن الإخوة عائدون لا محالة ، حيث أن المجاعة تضرب أرضهم وكل ما حصلوا عليه كان فقط حمل عشرة (حمير) من القمح مما لن يكفى حاجتهم لفترة طويلة ؟ .

ثم حسب القصة التوراتية ذاتها ، فإن احتجاز الأشخاص فى مصر وفى سجن يوسف لم يكن سهلاً هيناً هكذا وإنما يخضع لتكييفات قانونية معينة ، وإلا لم قام يوسف بكل المجهود والحيل لاحتجاز بنيامين لاحقاً فى مصر بأن أخفى «صواع الملك» فى متاع بنيامين ليتهمه بالسرقة ، وكان هذا هو الأسلوب الوحيد لتحقيق هذا الاحتجاز ، ولماذا لم يحتجزه هكذا بلا حيلة ولا ذريعة إن كان الأمر سهلاً ؟ والتوراة تعترف بقصة حيلة يوسف لاحتجاز بنيامين فى الإصحاح ٤٤ من سفر التكوين وتقول على لسان يوسف عليه السلام [«فالذى أجدها معه يصبح عبداً لى ، والباقون يكونون أبرياء»] التكوين ٤٤ : ١٠ ، وكذلك قول يوسف لهم عندما طلبوا إبدال بنيامين (السارق) بأحدهم ، مما يظهر وجود قانون خاص بالاحتجاز وليس هكذا خبط عشوائى ، جاء فى التوراة عن لسان يوسف عليه السلام فى هذا المقام [«حاشا لى أن أفعل هذا ، إنما الرجل الذى عثر معه على الكأس هو يكون لى عبداً ، أما أنتم فامضوا إلى أبيكم بأمان»] التكوين ٤٤ :١٧ .

وتلك النصوص التوراتية تتوافق هنا مع النص القرآنى الذى أشار إليه قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ﴾ (يوسف ٧٦) .

ثم تأتى نقطة أخرى فى سياق الجدل من التوراة ذاتها، حيث تورد التوراة أن احتجاز هذا الأخ (شمعون) كرهينة هو الذى ذكر الإخوة بظلمهم ليوسف عليه السلام ذاته، وأن ما حدث هو عقاب من الله لهم على تلك الفعلة .. ألا يرى معى القارئ أن أخذ الرهينة أفسد خطة يوسف تماماً من حيث التنكر الشديد وإخفاء حقيقة شخصيته عن هؤلاء الإخوة حتى يأتوه بشقيقه الأصغر .. أى كان هذا الفعل هو الذى ذكرهم بيوسف .. تقول التوراة أنه بعد أن طلب يوسف من الإخوة احتجاز الرهينة [وقالوا «حقاً إننا أذنبنا فى حق أخينا. لقد رأينا ضيقة نفسه عندما استرحمنا فلم نسمع له، لذلك أصابتنا هذه الضيقة» فقال رأوبين «ألم أقل لكم لاتجنوا عليه فلم تسمعوا؟ والآن ها نحن مطالبون بدمه»]. التكوين ٤٢: ٢١-٢٢.

ولا زلت أقول أن المنطق كله يدفعنى تماماً لتصديق النص القرآنى والتشكك الشديد فى القصة التوراتية.

رحلة الإخوة الثانية من فلسطين لمصر وبالعكس:

تحتل أخبار تلك الرحلة الطويلة الآيات القرآنية من ٦٨ إلى ٨٦ من السورة الشريفة، يقول تعالى :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَآؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

* قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُواْ يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ * فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَآ أَبَانَآ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَآ أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُواْ تَاللَّه تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف ٦٨-٨٦)

وهنا سلم يعقوب عليه السلام ابنه الأصغر بنيامين للإخوة الذين قاموا بالرحلة من فلسطين لمصر، ثم دخلوا على عزيزها كما أمرهم أبوهم من أبواب متفرقة، ويرينا المدلول اللفظي لأول آيات تلك الرحلة، الآية ٦٩. أن يوسف عليه السلام كان لا يزال واجداً ناقماً على هؤلاء الإخوة وأفعالهم مما يظهر من خطابه لأخيه بنيامين ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي أن الإخوة الصادقة عندي هنا، أما هؤلاء الظالمين فلا أخوة عندهم وأعمالهم كلها لا تؤدي إلا إلى البؤس والحزن والغم، مما يؤيد ما ذهبنا إليه قبلاً من هدف نصيحة يعقوب لهؤلاء الإخوة بأن يدخلوا من أبواب متفرقة، وألا يدخلوا على يوسف عصبة وجماعة مما قد يزيد الطين بلة، ويزيد من نقمة يوسف عليه السلام.

وهنا في تلك الآية نرى جزئية أخرى اختلفت فيها القصة القرآنية مع القصة التوراتية.

فالقصة القرآنية تقول أن يوسف عرف نفسه لشقيقه الصغير وطيب خاطره وطمأن

باله منذ البداية ﴿ ءاوى إليه أخاه ﴾ . أما القصة التوراتية فتظهر أن هذا الشقيق كان جاهلاً بالموقف وبحقيقة شخصية يوسف . مثل باقى الإخوة تماماً ، ولم يعرف بها مطلقاً إلا عندما كشف يوسف عن نفسه أمام كل الإخوة ، وبعد كل الحيرة والخوف والاضطراب والهلع الذى مر بهم جميعاً ومنهم الصبى الصغير بنيامين ، وما إن انتهت تلك الأحداث حتى [ثم تعانق يوسف وبنيامين وبكيا ، وقبل يوسف باقى إخوته وبكى معهم . وعندئذ فقط تجرأ إخوته على مخاطبته ﴾ التكوين ٤٥ : ١٤-١٥ ، وقد يقول رأى سطحى أن القصة التوراتية أكثر منطقية فى تلك الجزئية ، ذلك لأن يوسف أمعن فى التخفى فلم يرد لشخصيته أن تكتشف إلا حينما يريد هو ذلك ، فأخفى حقيقتها حتى عن بنيامين نفسه ، حتى لا يصرح بشىء للإخوة ، ونرد قائلين :

١ - أن بنيامين لم يكن مع الإخوة مطلقاً ، فقد تم فصله عنهم عند اكتشاف ﴿ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ فى جهازه ، ومن ثم تم احتجازه عند يوسف عليه السلام بعيداً عن الإخوة ، اللذين كانوا - حسب النصوص التوراتية - يتنقلون بين «المدينة» و قصر يوسف عزيز مصر نائحين باكين متشفعين لبنيامين المنتزع منهم .. إذن فلم يكن هناك أدنى خطر من معرفة الإخوة لأى شىء من فم بنيامين ، لأنه ببساطة لم يكن معهم مطلقاً .

٢ - إذن والحال هكذا .. ولا خطر من تسرب الخبر عن طريق بنيامين .. هل كان يوسف الصديق يترك شقيقه الصغير الحبيب إلى قلبه والمظلوم مثله يمر فى محنة شديدة مثل الاتهام بالسرقة ، ثم الانتزاع من الإخوة ، ثم السجن ، فالحكم بالعبودية ، دون أن يطمأنه ويعلمه بالحقيقة خلف الأمور؟ هل كان يوسف عليه السلام ليساوى بين الإخوة الجناة وبين الصبى الهش فى العقاب ؟ حتى ولو كان عقاباً نفسياً على الأقل؟

أقول أننى لازلت - ولمرة أخرى - موافقاً للقصة القرآنية ورافضاً للقصة التوراتية تماماً من منطلق منطقى بحت .

نعود ثانية لقصتنا القرآنية ، لنبحر فى أحداثها المشوقة ، فبعد أن طمأن يوسف عليه السلام أخيه حتى لايهلع من هول الأحداث التالية التى ستصيب الإخوة وتحيط به .. بدأت

الحيلة بأن جهز يوسف الإخوة بالميرة والمؤونة المطلوبة، أمر خدمه بدس كأس الملك في متاع أخيه بنيامين، تلك الكأس التى كانت تستعمل للشرب ﴿ السِّقَاية ﴾ وللكيل ﴿ صُوَاع ﴾.

وأرانى هنا متفقاً مع الرأى الذى أورده ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهما من حيث كون الكأس (يكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك) ، ولكننى أضيف فقط أنه لايتحتم أن يكون الكأس ذاته الذى يستعمله الملك فى الشرب هو الذى يكال به لجميع الناس غلتهم، بل أن حجم أو مكيال هذا الكأس كان هو المقياس الذى يكال به القمح، مما يتوافق مع ما ذهب إليه الشيخان الجليلان من عزة الطعام وندرته حيث أن هذا المكيال بالطبع كان مكيالاً صغيراً .. وحدث بعد أن غادر الإخوة قصر الحكم عائدين لأرضهم أن أرسل يوسف عليه السلام حرسه وجنوده خلفهم حيث نادوا عليهم قائلين ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ .. فعاد الإخوة بقافلتهم تجاه الحرس يتساءلون : ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ ؟.

يرينا هذا المشهد التصويرى الرائع .. إخوة يوسف فى القافلة محاصرين وحولهم الحرس يحيط بهم ويستجوبهم ويفتشهم، وهنا ترسم لنا الألفاظ القرآنية الشريفة مشهداً شاخصاً نراه أمامنا هو بالضبط ما عبر عنه يعقوب عليه السلام من قبل ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ (يوسف ٦٦) ، وكأن النبى الشيخ كان يرى - ببصيرة خاصة - هذا المشهد أمامه وهو يكلمهم، مثلما كان يرى مشهد الدم الكذب فى أول القصة ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ (يوسف ١٣).

وحتى تلك النقطة كانت الإحاطة بالإخوة عن طريق الجنود وعلى رأسهم العزيز ذاته قد تمت. ثم ترسم لنا الآية التالية بداية الحوار والاستجواب فتقول ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾، وهنا تظهر لنا الآية جانباً آخر من جوانب التشريع القانونى المصرى القديم والذى أظهرنا جانباً منه سابقاً فى قصة يوسف مع المرأة ثم مع نسوة المدينة .. بوضوح ترينا الآية الكريمة أن يوسف عليه السلام لم يأمر جنوده مباشرة بالهجوم على القافلة وتفتيشها وإثبات الجرم والتلبس .. بل كانت هناك «إجراءات» لابد من اتباعها واحترامها، فهنا يُطلب من المشتبه فيهم أولاً الاعتراف

الاختيارى ورد المسروق طواعية . وهذا الفعل إن تم لايؤدى فقط لاسقاط التهمة ، بل ومكافأة المشتبه فيه لإعادته للمسروقات مثلما يحدث فى كثير من التشريعات القانونية الوضعية التى نراها فى دول العالم المتقدم .. إذن فهناك اجراءات لابد من رعايتها وتشريع قانونى متبع مستقى من فقه دينى معين فى تلك الدولة ، مما عبرت عنه الألفاظ القرآنية ببراعة بلفظ ﴿ دِينِ الْمَلِكِ ﴾ .

إذن وبعد اتخاذ الإجراء المبدئى ، وعرض رد المسروقات طواعية على الإخوة وتقديم المكافأة ﴿ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ المضمونة بكلمة شرف من الحاكم نفسه ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ ، أنكر الإخوة حادثة السرقة تماماً ونفوها نهائياً فى الآية ٧٣ ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ .

وبخلاف إظهار الإنكار من جانب الإخوة كما يظهر فى الآية الكريمة .. نرى أيضاً فيها التكييف القانونى الوصفى لنوعية تلك الجريمة والتى ليست فقط حادثة سرقة بسيطة بل هى أولاً اعتداء من أجانب على ممتلكات الحاكم ذاته الذى هو رمز للدولة كلها ، مما يحولها إلى جريمة (فساد فى الأرض مقترنة بالسرقة) ، مما يدعو لعقوبة مغلظة ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ .

هنا تنتقل بنا الآيات الكريمة إلى إجراء قانونى آخر فى التشريع المصرى القديم ، مما يظهر تعقد ورقى تلك الإجراءات وبالتالى يشير إلى التنظيم الإدارى المتقدم فى تلك الدولة ، يقول تعالى : ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .

وهنا نرى أنه بعد العرض المبدئى بالاعتراف ورد المسروقات والذى قُوبِلَ بالرفض ، قام يوسف عليه السلام بإجراء قانونى آخر بالنظر لكون المتهمين أجانب عن البلد أو بتعبيرنا المعاصر «رعايا دولة أجنبية» ، فنراه عليه السلام يسألهم عن العقوبة المعمول بها لديهم وفى تشريعهم بالنسبة لتلك الجريمة حال ثبوتها ، وذلك أسلوب يتمادى فى العدالة حيث يستفسر ويسأل عن العقوبة فى التشريعات القانونية المعمول بها عند هؤلاء

الأجانب لأخذها بعين الاعتبار عند إصدار الحكم. ولما كانت تلك الجريمة - كما أسلفنا - جريمة مركبة من سرقة، وخيانة أمانة، واعتداء على الرمز الأعلى للدولة والفساد في الأرض، لذا فكان رد الإخوة يعني عدم وجود تشريع واضح لديهم لتلك الجريمة ﴿ قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَآؤُهُ ﴾ .. وسلموا بالعقوبة المنصوص عليها في التشريع المصرى المتواجد فعلاً ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾.

وإلى هنا فقد أقام يوسف عليه السلام الحجة على هؤلاء الإخوة وانتهج الإسلوب القانوني السليم والعادل بخطواته المتعددة، قبل أن يبدأ في التفتيش الفعلي وإثبات الجرم والتلبس، ومن ثم إصدار الحكم حسب التشريع القانوني الديني المصرى الذى سلم به الإخوة، وارتضوه حكماً وفصلاً.

ملحوظة : هناك رأى تفسيرى آخر للآية وهو الرأى المعتمد تقريباً، نورده هنا للأمانة واكتمال العرض ونطرحه للمناقشة والمقارنة حول الآية ﴿ قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَآؤُهُ ﴾، ورد في تفسير الإمام الطبرى للآية الكريمة في ذلك : [وقال إخوة يوسف ثواب السرق من وجد في متاعه السرق فهو جزاؤه فالذى وجد في رحله ثوابه بأن يسلم من سرق منه حتى يسترقه ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أى: كذلك نفعل بمن ظلم ففعل ما ليس له فعله من أخذه مال غيره سرقاً.

حدثنا ابن وكيع قال حدثنا عمرو عن أسباط عن السدي: قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه. تأخذونه فهو لكم، ومعنى الكلام قالوا ثواب السرق الموجود في رحله، كأنه قيل ثوابه استرقاق الموجود في رحله، ثم حذف استرقاق إذ كان معروفاً معناه، ثم ابتدئ الكلام فقيل هو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين. فيكون معنى الكلام حينئذ قالوا جزاء السرق من وجد السرق في رحله فهو ثوابه يسترق ويستعبد] انتهى.

وكذلك فقد قال الإمام ابن الجوزى في تفسير نفس الآية : [في المراد بالدين ها هنا قولان:

أحدهما : أنه السلطان. فالمعنى في سلطان الملك، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثاني. أنه القضاء فالمعنى في قضاء الملك لأن في قضاء الملك إن من سرق إنما يضرب ويغرم قاله أبو صالح عن ابن عباس. وبيانه إنه لما أجرى أخاه على حكم الملك ما أمكنه حبسه لأن حكم الملك الغرم والضرب، فحسب فأجرى الله على ألسنة اخوته أن جزاء السارق الاسترقاق، فكان ذلك مما كاد الله ليوسف لطفاً حتى أظفره بمراده بمشيئة الله فذلك معنى قوله: ﴿إلا أن يشاء الله﴾ وقيل: إلا أن شاء الله إظهار علة يستحق بها أخاه] انتهى.

وهنا نرى أن هذه التفاسير استندت إلى أن ﴿هُوَ﴾ في ﴿فَهُوَ جَزَآؤُهُ﴾ تعود على السارق ذاته، أى كأنها (فهو شخصياً جزاؤه)، ومن ثم تم تفسير ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أن يوسف بهذا الإقرار بالعقوبة فى تشريع الإخوة وعلى لسانهم تم له أخذ أخيه الذى ما كان ليجوز مطلقاً فى التشريع المصرى القديم، وكان استنطاق الإخوة بالعقوبة المعمول بها لديهم جزء مكمل من المكيدة.

أما نقطة الخلاف عما ذهبنا نحن إليه فهى رؤيتنا لكون ﴿هُوَ﴾ بأنها تعود على جزاؤه وليست على شخص السارق ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ﴾، وكان الآية تعنى (فجزاء هذا الجرم هو جزاؤه عندكم)، وبالتالى فإن ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ﴾، تعنى بهذا الأسلوب أن هذا الجزاء كان جزء من التشريع المصرى ولم يكن معمولاً به فى التشريعات العبرانية المطبقة فى بيت يعقوب والله أعلم.

عموماً فحتى التفسير الأول القديم لايزال غير متناقض مع الفكرة العامة التى ذهبنا إليها، بل يقويها بشدة حيث أن الاسترقاق والاحتجاز فى الشريعة المصرية لم يكن سهلاً ميسراً حيث أنه عقوبة غير منصوص عليها فى القانون المصرى، مما يتناقض مع احتجاز أحد الإخوة (شمعون) كرهينة عند يوسف، كما جاء فى القصة التوراتية.

أما أدلتنا على ما ذهبنا إليه فهى أن الشواهد التوراتية التى تُطلعنا على الأحكام المعمول بها فى العقوبات المختلفة لم تكن فى صف أصحاب الرأى القائل بأن عقوبة السرقة

والإفساد فى الأرض عند شريعة إخوة يوسف كانت الاسترقاق والعبودية، بل فى الحقيقة فإنها كانت الموت.

فى مشهد مماثل، أتهم حمو يعقوب وخاله «لابان» يعقوب بسرقة أحد الأصنام قبل أن يغادر أرضه وذهب لتفتيش متاعه ومتاع أهله جميعاً، قال يعقوب فى هذا الموقف رداً على سؤال حميه [«والله لماذا سرقت آلهتى؟» فأجاب يعقوب: «لأننى خفت أن تغتصب ابنتيك منى، والآن، من تجد آلهتك معه فالموت عقابه، فتش أمام اخوتنا كل ما معى»] التكوين ٣١: ٣٠-٣٢.

وكذلك وإقراراً بنفس العقوبة فقد رد إخوة يوسف عليه السلام قبل التفتيش بحثاً عن صواع الملك [«من تجد معه الكأس من عبيدك يمت، ونكن نحن أيضاً عبيداً لسيدى»] التكوين ٤٤: ٩.

وعلى ذلك فالعقوبة فى شريعة بنى إسرائيل عن السرقة وخيانة الأمانة كانت القتل ولم تكن الاسترقاق الذى كان هو العقوبة فى التشريع المصرى دون العبرانى.

أما النظام القضائى المصرى القديم، وهناك الكثير من الوثائق التى تثبت رقيه وتقدمه، فى ذلك الوقت، سواء فى الوثائق القانونية أو النصوص الأدبية مثل القصة المعروفة باسم الفلاح الفصيح والتى جرت أحداثها فى الأسرة العاشرة وبالذات فى عصر الملك «نب كا وو رع» والتى تروى أسلوب المحاكمة الذى خضع له أحد الولاة الظلمة عندما اشتكاه أحد الفلاحين البسطاء وكيف أن المحكمة حكمت بمنح جميع ممتلكات الوالى الظالم للفلاح المضطهد بعد اقتناع المحكمة بمظلمته .. وهذا النظام القضائى كان له حكماً معروفاً فى بعض الجرائم مثل جريمة السرقة وفى ذلك يقول كتاب تاريخى متخصص هو «الناس والحياة فى مصر القديمة» للكاتبة دومينيك ڤالبيل ص ٤٣ :

(أما الخاضعون للسخرة ثم هجروا أعمالهم، أو من تركوا مواقعهم وفروا، والمخالفون والمدينون المشاكسون واللصوص والهاربون والمجرمون، فهؤلاء جميعاً يقدمون للمحاكمة ويسجنون بعد إدانتهم فى «السجن الكبير»، ويتحولون إلى وضع شبيه بوضع

الأرقاء، فيتم توريثهم، كما يمكن التنازل عنهم للغير أو بيعهم) انتهى.

وتلك الدراسات التاريخية بالإضافة لما أسلفنا من النصوص التشريعية فى التوراة تثبت أن الرق كعقوبة للسرقة كان هو الإسلوب القانونى الفرعونى ﴿ دِينِ الْمَلِكِ ﴾ ولم يكن كذلك بالنسبة للتشريعات العبرانية المعمول بها لدى بنى إسرائيل حيث كانت عقوبة السرقة حينذاك هى الموت .. ولعله من المهم هنا تأمل الإعجاز الشديد فى المعرفة القرآنية بالتشريعات الفرعونية المعمول بها فى زمان يوسف عليه السلام، وهذه الإشارات التشريعية لم ترد فى القصة التوراتية مطلقاً، كما كانت وقت التنزيل عبارة عن نقوش هيروغليفية مبهمة طواها النسيان بعد آلاف السنين ولم يمكن حل رموزها وإدراك بنودها إلا فى القرن الثامن عشر على يد العالم شامبليون بعد عثورالحملة الفرنسية على مصر على حجر رشيد.

تتوالى الأحداث بعد ذلك فيقول تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

وهنا قام يوسف عليه السلام وجنده بتفتيش أمتعة الإخوة بدءاً بالإخوة الكبار وانتهاءاً بمتاع بنيامين لزيادة التورية، واستخرج ﴿ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ من أمتعة بنيامين الأخ الأصغر، وهكذا فقد حق له أن ﴿ يأخذ ﴾ هذا الأخ له حسب التشريع القانونى الدينى المصرى ﴿ دِينِ الْمَلِكِ ﴾، وهكذا أتم المولى عز وجل كيده الذى عزز به يوسف عليه السلام بالحيلة والذكاء والعلم.

وتختتم الآية بموعظة إلهية تتحدث عن رفعة الله لعباده درجات فوق بعض، بالعلم، وأن هذه الرفعة هى مشيئة من المولى عز وجل، فهو الذى يهب أسبابها المؤدية إليها لخلقه وييسرهم لها، يقول تعالى ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

والحكمة واضحة مشرقة كما يبدو من ظاهر النص الكريم. أما لماذا يوردها المولى عز وجل هنا، ولكل لفظ وعبارة فى القصة معنى ومغزى هام لابد من إدراكه؟ أقول أن هذه

جزئية أخرى من السورة لم يتكلم عنها أحد من قبل كعشرات الجزئيات السابقة .. وأرى أن فهم وجود تلك الحكمة فى هذا الموضع لن يتسنى إلا بالفهم الذى أوردناه من قبل لشخصية يعقوب عليه السلام ذاتها، وفهم مغزى طلبه من أولاده بأن يدخلوا من أبواب متفرقة على عزيز مصر، وبأنه كان يعلم بجلاء بصيرته أن هذا العزيز هو يوسف ذاته، ولم يكن ذلك الطلب خوفاً من الحسد والعين وحلافه. تظهر القصة أن يعقوب عليه السلام اتخذ التدابير الملائمة للتقليل من نقمة يوسف على إخوته حتى لايحتجز أحداً منهم بما لايتعارض طبعاً مع علمه بنفاذ المشيئة الإلهية، لذا قال تعالى فى موضعين، وآيتين متتاليتين عن هذا التدبير ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ (يوسف ٦٧) و ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ (يوسف ٦٨)، مما يشير ويؤكد عدم جدوى تلك الحيلة والتدبير الذى أفسده تدبير يوسف المضاد، فها هو يحيط بالإخوة وينتزع بنيامين من وسطهم ويذل أنوفهم مما دعا أحد الإخوة (الأكبر رأوبين حسب القصة القرآنية) إلى المكوث فى مصر ورفض العودة للأب مع الآخرين العائدين لأبيهم بالذل والهوان.

وهنا كان تخطيط يوسف عليه السلام الذى هو مكيدة إلهية ﴿كِدْنَا﴾ أقوى من وغالب على مكيدة يعقوب الإنسانية. ونرى هنا عبقرية اللفظ القرآنى فقد عبر عن مكيدة يوسف الإلهية بأنه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، والله هو العليم سبحانه وتعالى، أما ﴿ذِى عِلْمٍ﴾ فهو هنا يعقوب الذى قال عنه القرآن وفى نفس السورة ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾. أى أنه فوق علم العلماء وترتيبهم دائماً يأتى علم الله وترتيبه كما كان الحال فى تلك القصة، علم يعقوب عليه السلام فوقه علم الله تعالى، وليس علم يوسف الذى لم يكن له دور فى التخطيط، فالمكيدة والتدبير إلهيان أوحى بهما الله تعالى ليوسف .. ففوق علم الأرض هناك دائماً علم السماء .. وفوق تدبير المخلوق هناك دائماً تدبير الخالق.

ونرى هنا أن القرآن الكريم قد عبر عن مكيدة يعقوب البشرية بعبارة ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ ولذا فهذا التخطيط ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

واستعمال كلمة ﴿ كُلّ ﴾ في عبارة ﴿ وفوق كُلّ ذى علمٍ عليمٌ ﴾، إنما هى فى حد ذاتها الموعظة المستقاة من تلك الحادثة، فهى تشير للكلية والشمولية وإن الأمر على الإطلاق والتعميم وليس التخصيص لتلك الحادثة بالذات، وكأن هذه الكلمة الوجيزة تقول أنه دائماً مهما حطط البشر ورتبوا وكادوا واستعملوا كل مهاراتهم وذكائهم، فإن الترتيب الإلهى أعلى، وأقوى، وغالب، وقاهر، ونافذ.

نعود لسياق القصة القرآنية مرة أخرى من حيث انتهينا، حيث أحيط بالإخوة ونفذت مشيئة الله واستبقى يوسف عنده شقيقه الأصغر، ثم يقول تعالى:

﴿ قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

وهنا وسط ذهول المفاجأة ووسط الخوف عند افتضاح المسروقات فى متاع الأخ الأصغر، سقط القناع عن وجه الإخوة وظهر ما يضمرونه حقيقة تجاه أخيهم الأصغر بنيامين الشقيق الأوحد ليوسف .. هنا تذكروا يوسف الذى اختطفوه وألقوه فى الجب من قبل لحب الأب له، وبالتالى استئثاره بالميراث .. وكأن لسان حالهم يقول: ها هو يفقد بنيامين ويضيع للأبد نتيجة لأفعاله فهو مستحق للعقاب .. كما كان يوسف يستأثر بأبيه فاستحق أيضاً عقابنا .. ولما كان هذا العقاب لبنيامين عادلاً إذن فعقاب يوسف منا كان عادلاً أيضاً ولم نكن عليه باغين، بنيامين سرق الصواع ففقد من الأسرة، ويوسف سرق أيضاً ... سرق حب أبينا وكاد أن يسرق منا نصيب الميراث، فاستحق أن يفقد مثله، وهكذا يخلو لهم وجه أبيهم تماماً.

والعبارة تظهر بجانب الشماتة لفقد بنيامين الموثق بالأدلة والشهود، ارتياحاً خفياً فى صدور هؤلاء الإخوة لتبرير فقد يوسف أيضاً، لتطابق الحالين من وجهة نظرهم، وهذا الإحساس بالنقمة على أخيهم بنيامين والمشابه لمشاعرهم تجاه يوسف عليه السلام سبق أن أوضحنا أن اللفظ القرآنى تكفل به سابقاً بإعجاز.

ولنا هنا وقفة صغيرة مع ما ورد فى بعض التفسيرات مثل تفسير الإمام الطبرى

وغيره عند تفسير تلك الآية [﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ أرادوا بذلك عيب نبي الله يوسف وسرقته التي عابوه بها : صنم كان لجده أبي أمه فأخذه وإنما أراد الله بذلك الخير فعابوه] انتهى.. وهذا أيضاً هو رأى سعيد بن جبير عن قتادة.

ولا زلت لا أدرى من أين جاءوا بهذا الرأى ؟ وعلام استندوا ؟ وهو لم يأت بالقرآن الكريم والحديث الصحيح مطلقاً، كما أنه حتى غير موجود فى التوراة على الإطلاق، ولا زلت أرى أن هذا الكلام هو إطلاق للمخيلة لاستحداث حدث ما فى محاولة لتفسير النص حيث أن قصة سرقة راحيل (أم يوسف) لصنم أبيها فى التوراة لم يرد فيها أى ذكر مطلقاً لسرقة يوسف لذلك الصنم حتى وإن كان لتحطيمه كما قال هؤلاء المفسرون، ولكن التوراة تذكر فقط دفن يعقوب عليه السلام لتلك الأصنام فيما بعد، ولا دخل ليوسف هنا مطلقاً [فأمر يعقوب أهل بيته، وكل من كان معه : «تخلصوا من الآلهة الغريبة التى بينكم، وتطهروا وأبدلوا ثيابكم، ثم تعالوا لنذهب إلى بيت إيل لأشيد هناك مذبحاً لله الذى استجاب لى فى يوم ضيقتى، ورافقنى فى الطريق التى سلكتها». فسلموا يعقوب كل الآلهة الغريبة التى كانت لديهم والأقراط التى فى آذانهم، فطمرها يعقوب تحت البُطْمَة التى فى شكيم]. التكوين ٣٥ : ٢-٤.

عموماً وبالرغم من هذا الاستفزاز من جانب الإخوة نتيجة لمقولتهم فقد تمالك يوسف عليه السلام نفسه، فلم يظهر امتعاضاً، أو يبدو على ملامحه ما يفضح أمره، بل كتم ضيقه فى صدره، تقول التفاسير المتوافرة لدينا إن ما أسره يوسف عليه السلام كان هو العبارة التالية أى ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ وأيدها ابن كثير فى تفسير عن ابن عباس رضى الله عنه، وسواء أسر يوسف الكلمة أو أسر الشعور بالضيق وقال الكلمة. فهناك إعجاز بلاغى قرآنى عظيم يستوقفنى عند الكلمة نفسها وأسلوبها حيث أن يوسف لم يقل رداً على إخوته مثلاً (أنتم أشر مكاناً) أى فى مكانة أكثر شراً عندما رموه بالسرقة، لأنه إن قال ذلك فكأنه وضع موقفه من السرقة المزعومة موضع مقارنة مع موقفهم هم، بأفعل التفضيل، وفى ذلك إقرار ضمنى بأنه قد سرق فعلاً (حتى حب الوالد

أى حصل عليه بغير حق) مما كان سيتعارض مع باقى نص الجملة ﴿ واللَّهُ أعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾، حيث سبق أن أوضحنا أن ﴿ تصفُون ﴾ دائماً تعنى فى اللفظ القرآنى تفترون وتكذبون، لذلك فهذا الإسلوب القرآنى إشارة إلى وجود الإخوة وحدهم فى مكانة ومقام الشر وتنزه يوسف وبراءته التامة منه .. ونرى لمثل هذا الإسلوب البلاغى المنطقى نظير آخر فى نفس السورة وهو عندما جاء الإخوة يراودون يعقوب عن ابنه الأصغر بنيامين قائلين ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحافظُون ﴾، فرد عليهم يعقوب عليه السلام ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافظًا ﴾ حيث رفض يعقوب عليه السلام هنا وضع هؤلاء الكذبة فى موضع مقارنة مع الله تعالى ولو بأفعل التفضيل كأن يقول مثلاً (فالله أحفظ منكم) أو (فالله خيرُ حافظ) مما قد يشير ولو بأدنى درجة إلى وجود مقارنة ما بين قدرة هؤلاء الكذبة على الحفظ وبين قدرة الله تعالى، وهكذا فاللفظ القرآنى بالغ الدقة بدرجة تصيب بالدوار.

وإلى هنا انتهى نص الآية ٧٧ والتى تشير إلى رد الفعل التلقائى والفجائى الذى انبعث من صدور الإخوة، وقبل أن يفكروا جيداً فى أبعاد المأزق الذى وقعوا فيه وإسلوب التخلص منه. بعد أن مرت المفاجأة ورد فعلها تذكروا الأب الشيخ النبى ومدى نقمته إن عادوا بغير بنيامين، وخاصة أن لهم سوابق مماثلة فى الإجرام، وتذكروا أنه يستطيع الآن أن يحرمهم من الميراث، أو يصب عليهم اللعنة وهو نبى مستجاب الدعاء، وبدأوا فى انتهاج الأسلوب الوحيد المتوفر لديهم ... أسلوب الاستعطاف والاسترحام النابع من ذل إحساسهم بالضعف أمام هذا الحاكم القوى المكين .. وسبحان الله الذى أذل نفوس الطغاة لضحيتهم ومرغ أنوفهم أمامه فى الوحل.

يقول تعالى : ﴿ قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾

وهنا نرى مدى التمزق الذى كان يلف الإخوة، ونرى تذللهم للعزيز ومحاولة استرحامه بذكر مكانة هذا الصبى الذى احتجزه عند أبيه الشيخ الطاعن فى السن، وكيف ستكون هذه الحادثة قاسية على شيخوخته وضعفه، ونرى هذا التذلل عند عرضهم عليهم

بأن يستبدل أحداً منهم مكان هذا الصبي كعبد عند العزيز، وفي كل الأحوال لم يكونوا يملكون وصفاً ليوسف إلا نفس الوصف الذى وصفه به الله عز وجل وهو ﴿ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾، فبعد أن أقام عليهم الحجة والبرهان، حلا تصرفه معهم من أى شائبة ظلم، وها هو الإحسان الرفيع المرتبة يطل علينا ثانية كوصف ليوسف فى سطور القصة، ومن فم أعدائه وظالميه وشانئيه أنفسهم.

وها هو يوسف عليه السلام يرد على إخوته، بنفس الكلمة التى تملأ فمه دائماً عندما يواجهه الظلم أو تداعبه المعصية ﴿ معاذ اللّه ﴾ وهى نفس الكلمة التى قالها لامرأة العزيز لما راودته عن نفسه ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ (يوسف ٢٣)، ويوسف الصديق عندما يقول تلك الكلمة فهو يعنى أنه يلجأ لله ويدخل فى حماه وكنفه، فيكون الله عز وجل ذاته هو الحائل بينه وبين العصيان، وما أعظمه من حائل، فهل ينتظر أحد استجابة منه لشر وهو فى هذا الحصن؟ لم تنلها امرأة العزيز قبلاً رغم المكائد والمكر والخداع، ولم ينلها الإخوة رغم الاستعطاف والمبررات والزرائع .. رفض الصديق رفضاً قاطعاً أن يقترب من هذا الظلم، وصمم على استبقاء الأخ الأصغر لديه، وكان موقف الإخوة يثير الرثاء.

يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

ويشير لفظ ﴿ اسْتَيْئَسُوا ﴾ إلى طول التضرع والتذلل وكثرة المحاولات التى باءت كلها بالفشل، كما يشير أيضاً إلى الحالة النفسية التى كان عليها الإخوة من يأس شديد وقنوط، وانفرد هؤلاء الإخوة بأنفسهم يتناجون، ويتداولون فيما آل إليه أمرهم، ولنلاحظ هنا أن القرآن الكريم له ألفاظ معينة ذات دلالات محددة، فتباحث الإخوة وتداولهم هنا عبر عنه القرآن بكلمة (النجوى) فى قوله تعالى ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ والتى دائماً ما تعنى قرآنياً السرية والغموض بل والتدبير المبيت المستور.

يقول تعالى . ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (التوبة ٧٨)

ويقول تعالى . ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ﴾ (الزخرف ٨٠)

ويقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (المجادلة ٨)

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ (المجادلة ١٠)

ويقول تعالى . ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (النساء ١١٤)

وغيرها من الآيات الكريمة التى تظهر كلها عدم رضا الله عز وجل عن هذاالأسلوب ﴿ النَّجْوَى ﴾ والنهى عنه.

نعود لقصتنا فنقول أن كل المباحثات والمكائد التى دارت بين الإخوة انتهت لخلاصة واحدة هى اليأس ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾، وهنا بدأ الحزن والتخبط والندم، فتذكروا حرج موقفهم مع أبيهم الذى أعطوه ﴿ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ بأن يحافظوا على ابنه الآخر بنيامين، وتذكروا أنهم أصحاب سابقة إجرامية مماثلة مما سيدفع بالأب لعدم تصديقهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، واعتصم الأخ الأكبر بمكانه فى مصر، وقرر عدم العودة مع الباقين للقاء الأب، وبأى وجه يلقاه، وقرر ألا يعود حتى يقتنع الأب بالبراءة ويطلب منه العودة، أو يظهر الله براءتهم هذه المرة بالبرهان، ويحكم له بالعفو والخير، وينظر فى أمره، وبخلاف ذلك فلن يعود، بل سيبقى فى المنفى، ويجرى عليه ما جرى على بنيامين ويوسف عليه السلام من قبله، وما أشده من يأس وقنوط وحرج.

قبل أن نغادر تلك الآية الكريمة لناملحوظة أخرى نود أن نذكرها وهى عن ماهية الشخصيات المختلفة فى الأحداث. يقول القرآن الكريم أن الأخ الذى انفعل بالأحداث بشدة مما انعكس فى اعتصامه بأرض مصر ورفضه العودة لأبيه حتى يحكم الله فى الأمر كان ﴿ كَبِيرُهُمْ ﴾ أى كبير الإخوة المسمى «رأوبين»، أما التوراة فلا تورد قصة هذا الاعتصام

لأنها أيضاً لم تورد قصة الرحلة الثالثة للإخوة بين فلسطين ومصر، بل تقول أن تشفع أحد الإخوة عند يوسف أنهى المسألة في الرحلة الثانية. تقول التوراة أن هذا الأخ هو «يهوذا» - الأخ الرابع في الترتيب - وتولي التوراة هذا الأخ شرف الفضل في قيادة الإخوة، والتشفع عند يوسف، مما أدى لكشف يوسف عن شخصيته الحقيقية، وعودة الفرح للجميع.

ولعل القارئ الجيد للتوراة يدرك بسهولة، مدى الأهمية والشرف اللذين تسبغهما القصص التوراتية على هذا الرجل «يهوذا» وتطنب في الحديث عن مكانته لدى أبيه وتقحمه إقحاماً في كل قصة، ولن يكون ذلك بغريب لو تذكرنا أن التوراة الأصلية كانت قد ضاعت، وأن نسخة بديلة كتبها حفاظ التوراة والكتبة في الأسر البابلي، وكان هؤلاء الكتبة وكل اليهود في الأسر البابلي من نسل «يهوذا» الذي كان قد انشق نسله عن باقي بني إسرائيل، وقاموا بتكوين مملكة مستقلة هي «مملكة يهوذا» المنفصلة عن «مملكة إسرائيل»، ومن هنا كانت النصوص التوراتية كلها مشايعة ليهوذا هذا، ناسبة له كل الفضل، بل ومؤكدة على أن كل ملوك اليهود لابد أن يكونوا من سبط يهوذا (داود ثاني ملوك اليهود ومن بعده نسله كانوا من سبط يهوذا وقد انتزع الملك من شاول (طالوت) الملك الأول لليهود والذى هو من سبط بنيامين، مما أدى فيما بعد إلى انقسام المملكة إلى اثنتين أحدهما مملكة يهوذا الخالصة لنسله والأخرى مملكة إسرائيل المكونة من نسل معظم الأسباط الآخرين).

ولعلنا هنا وفي قصتنا هذه نحس محاولة إقحام يهوذا بأى شكل في القصة للأسباب التى ذكرناها، فمثلاً في البداية عند خطف يوسف والقاؤه في الجب لاتستطيع النصوص التوراتية أن تخفى أن رأوبين الأكبر كان هو الوحيد الذى أراد إنقاذ يوسف وهو الذى اقترح عليهم القاؤه في البئر بدلاً من قتله، آملاً أن يعود فيما بعد ليستخرجه ويعيده لأبيه، وبرغم ذلك تخفى القصة دور رأوبين لاحقاً وتدفع بيهوذا دفعاً لمقدمة الأحداث في نفس الإصحاح، وتنسب إليه اقتراح بيع يوسف لتجار الإسماعيليين (مما أثبتنا عدم منطقيته) وكأن رأوبين صاحب الاقتراح الأول كان غائباً تماماً عن المشهد في تناقض عجيب لا نجد له

إيضاحاً.

وللمرة الثانية نجد التوراة تقحم يهوذا فى أحداث التشفع عند عزيز مصر يوسف لتخليص بنيامين، رغم أن رأوبين هو الأخ الأكبر والابن البكر ليعقوب ودائماً القيادة فى العقائد اليهودية البدوية كانت للابن الأكبر الذى له مكانة لاتدانيها مكانة فى الفكر الإسرائيلى، وأيضاً فإن التوراة لاتخفى أن رأوبين الأكبر كان هو الضامن لسلامة بنيامين عند أبيه يعقوب [فقال له رأوبين «اقتل ابنى إن لم أرجع به إليك. أعهد به إلى وأنا أرده إليك»] التكوين ٤٢ . ٣٧ . وها أيضاً تقحم التوراة يهوذا مرة أخرى ليدخل فى الحوار بين الأبناء والأب الذى استجاب فقط لضمانة يهوذا دون رأوبين، كما نلاحظ أيضاً فى التوراة استمرار مسلسل تحطيم حقوق الأبناء الثلاثة الأبكار، الأكبر من يهوذا فيتمزق ميراثهم جميعاً فى أرض فلسطين حسب وصية يعقوب، فرأوبين زنى بزوجة أبيه (بلهه) فحرمه أبوه من امتياز البكورة وأعطى نسله أرضاً فى شرق الأردن وليس فى فلسطين، وأما شمعون ولاوى فلم يباركهما الأب لأنهما قتلا بعض الناس ظلماً، فشمعون يرث أرضاً وسط أرض يهوذا الذى يسيطر عليه ضمن جزء ضخم من الميراث يضمن له مملكة مستقلة عن كل الإخوة الآخرين.

ونسل لاوى لايرثون أرضاً مستقلة منفصلة بل يكون منهم طبقة الكهنة (ومنهم موسى وهارون عليهم السلام) ويعيشون فى نقط متفرقة وسط أراضى الأسباط الأخرى بنفس الإسلوب الذى يحاوله اليهود الآن مع الفلسطينيين بإعطائهم بعض قطع الأرض المتفرقة وسط أرض اليهود لتكون جزراً متقطعة غير متصلة لايكون لها أبداً إرادة مستقلة.

والخلاصة أنه من منطلق فهمنا للإتجاه التوراتى نحس التحيز الشديد ليهوذا فى كل صفحة، كما نحس أن وجوده فى موقف التشفع كما هو فى الكثير من المواقف الأخرى مقحم تماماً، وأميل للاعتقاد بأن الأخ الذى كان يحس بالمحنة أكثر ويقود الشفاعة من أجل بنيامين، ولما يفشل مسعاه يعتصم بالأرض حزناً وخجلاً كان هو رأوبين ﴿ كَبِيرُهُمْ ﴾ كما يقول النص القرآنى الكريم (ملحوظة : لم يستثن كتاب التوراة كعادتهم فى تمريغ جبين

عظمائهم في الوحل حتى يهودا نفسه، فرغم كل المجد والفخار الذى أحاطوا عنقه به، ذكروا قصصاً (الإصحاح ٣٨ كله) تشير إلى أنه كان شيخاً فاسقاً لايتورع عن الزنا على قارعة الطريق وأنه زنى يوماً بأرملة ابنيه الاثنين الراحلين (كنته) وولد له منها ابنين كان منهما كل ذريته، أى أن كل من هم من نسل يهوذا بما فيهم داود وسليمان عليهما السلام من نسل زنا غير عادى فهو زنا محارم والعياذ بالله).

نعود لقصتنا القرآنية ثانية، فنجد أن نجوى الإخوة ومحاولاتهم باءت بالفشل الذريع وخلصت بهم إلى اليأس والقنوط، فاعتصم الأخ الأكبر بأرض مصر ورفض العودة قائلاً لإخوته ما جاء نصه فى الآيات :

﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

قال لهم الأخ الأكبر عودوا لأبيكم فى فلسطين وأخبروه أن ابنه بنيامين قد سرق، وافتضح أمره، واحتُجز عبداً عند عزيز مصر، ثم قال عبارتين يشيان بمدى الضعف والعجز واليأس المعتمل فى نفوسهم. قال أولاً ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا ﴾، وهنا يظهر النص القرآنى حقيقة هامة عن (العلم)، فالبشر العادى لايعلم من الأمور إلا ظاهرها، ويصعب عليه جداً بدون المساندة الإلهية أن يدرك كنه بواطنها وخلفياتها ومغزاها، فها هم الإخوة يقرون أن حادثة سرقة بنيامين لـ ﴿ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ كانت هى مبلغ علمهم المبنى فقط على مشاهداتهم، وهذا كله زائف غير صحيح، أى أنهم رغم مشاهدتهم رأي العين للأحداث كان علمهم زائفاً مزوراً، ويتضح ذلك الفرق عند البحث فى كلمة العلم بالنسبة لشيخ مسن حبيس الدار على بعد مسافات شاسعة من الأحداث، فلا يرى الحادثة رأى العين، لكنه يقول لهم ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾، ويرى ببصيرته التى جلاها الله حقيقة الأمور لأنه تعالى هو ﴿ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾، فيعقوب علمه مستقى من صاحب العلم الكلى الحقيقى.

فالعلم الحقيقى الصحيح المتكامل بالأمور جميعها هو عند الله عز وجل، ويكون

بالتأييد منه. أما البشر فهم ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾ (الروم ٧) ، ويحكمون على الأمور ويقسمون ويأكدون ما علموه. وما هو إلا القشور الخارجية للحقيقة التى لا تنفذ للب إلا إن شاء الله.

أما العبارة اليائسة الثانية التى قالها الإخوة فكانت ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾، وهنا يتخلى البشر عن غرورهم ويعرفون قدرهم وحجمهم ... أليس هؤلاء الإخوة هم من قالوا وسط عزة عصبتهم لأبيهم عن نص الصبى بنيامين ﴿ وإنا له لحافظون ﴾، فهاهم الآن يقرون ويعترفون بالضعف والعجز، وللبشر أن يفتروا ما شاءوا، وأن يقطعوا العهود ويبرموا المواثيق ما شاءوا، لكنه وفى النهاية لن يكون هناك إنفاذ لعهد ولا بر بميثاق إلا أن يشاء الله عز وجل ﴿ ولا تقولن لشاىء إنى فاعل ذلك غدا * إلا أن يشاء الله ﴾ (الكهف ٢٣-٢٤) و ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ (التكوير ٢٩).

وخلاصة تلك الآية (٨١) أن الإخوة اتخذوا قرار مواجهة الأب بما ظنوا أنه الحقيقة التى أوصلهم إليها مبلغ علمهم مما شاهدوه، وكان هذا القرار مغلفاً بإقرارهم بالهزيمة والضعف البشرى.

ثم تأتى الآية الثانية (٨٢) بالأسانيد التى ازمعوا الاستناد عليها لتأييد مقولتهم، وهى أن يطلبوا من أبيهم للتثبت من صدق مقولتهم أن يسأل كل من أقبل من محل الواقعة حيث أن الأمر كان معلناً والقصة معروفة، بل عليه أن يسأل كل من أقبل معهم فى القافلة من هذا البلد، كان الإخوة حقاً صادقين هذه المرة فيما حدث لأخيهم الصغير، رغم قصور علمهم عن النفاذ لباطن الحقيقة، وهنا كانت مقولتهم لأبيهم قوية حاسمة غير مترددة ﴿ وإنا لصادقون ﴾، بعكس المرة الأولى التى أتوا فيها أباهم كاذبين بشأن فقد يوسف عليه السلام، حيث كانت المقولة مترددة مهتزة، لا نلمس فيها الصدق اليقينى بأسلوب «يكاد المريب يقول خذونى» حيث قالوا فى ذلك المقام الأول ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ (يوسف ١٧)، وما أروع البلاغة القرآنية التى تتخير الصياغة الوحيدة الممكنة لكل حال نفسى ببراعة منقطعة النظير، مما يحس حلاوته ذو الذاكرة القوية التى لاتنسى

قالب الصياغة مع توالى الآيات الكريمة بل تحفظها فى الذاكرة لتقارنها بالأحوال المتغيرة فى الأحداث التالية.

وبدأت رحلة الإياب وعاد الإخوة لأبيهم ليس فى عتمة العشية هذه المرة بل فى وضح النهار وبأدلة وأسانيد على صدقهم ليدور بينهم وبين أبيهم حواراً ساخناً مليئاً بالأشجان جاء ذكره فى الآيات الكريمة.

قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف ٨٣-٨٦)

وهنا تفاجئنا الآيات الكريمة بمقولة يعقوب عليه السلام، والذى أظهر لنا التصوير القرآنى لشخصيته خاصية جلاء البصيرة وثاقب المعرفة المستوحاة من الله عز وجل، فهو يعلم القصة تماماً ويعلم ما حدث، ويعلم صدق أولاده هذه المرة، وأمامه الشهود والأدلة المادية التى تؤيد دعوى الأبناء، نراه رغم ذلك يقول لهم نفس المقولة التى قالها فى مواجهة إدعائهم الكاذب فى قصة يوسف، فالأب يقول نفس المقولة لهم فى الكذب الأول والصدق الثانى ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (١٨، ٨٣ من السورة).

فهل كذب حدس يعقوب عليه السلام فى هذا المقام ولم يستطع إدراك صدق رواية الأبناء؟

وأرد قائلاً: لا والله، وانظروا لباقى الآيات بتدقيق، فالرجل هنا لم يكن يذكر الأخ الصغير وحده أبداً، أو يبدى قلقاً وتخوفاً أو ألماً على مصيره كما فعل مع يوسف من قبل، فهو بجلاء بصيرته كان يعلم مكانه ومصيره ويأمن عليه فى كنف أخيه الشقيق يوسف عليه السلام، إنما كان الحديث كله منصباً على يوسف وحده وبطريقة أثارت ضيق الإخوة الذين قالوا: وما الذى يدعوه لتذكر يوسف هنا؟ وما دخل يوسف الآن والمقام هو عن

الحادثة التى ألمت بشقيقه الأصغر بنيامين؟ أهو خرف الشيخوخة ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ (يوسف ٩٥) ؟ أم هو رجل مغرم باجترار الأحزان وتجميع الآلام ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾؟

ولنلاحظ أيضاً أن يعقوب عليه السلام فى هذا المقام لم يرم أولاده بالكذب كما حدث فى المرة الأولى، حين قال بعد ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ قال : ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾، أى على كذبكم، بل قال ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾، وهو دعاء ورغبة فى رحمة الله وعطائه، بلا أى إتهام موجه للأبناء، إذن فهو فى المرة الثانية كان يعرف صدق إدعائهم وعدم كذبهم.

وهنا يظهر ثانية الفرق بين العلم الأرضى القائم على المشاهدات الظاهرية السطحية، وبين العلم الإلهى الذى يمن به الله تعالى على من يصطفيه من عباده، ومثالهم هو يعقوب عليه السلام الذى كرر لأبنائه نفس قولته الأولى كما ذكر القرآن الكريم، وكأنه تعالى يقول لنا هنا بهذا التكرار أن الحادثتين ليستا منفصلتين، بل هما حادث واحد، ترتبت فيه الجزئية الثانية (فقد بنيامين - الأخ الأصغر) على الجزئية الأولى (فقد يوسف)، كما وكأنه تعالى يقول أيضاً هنا أن يعقوب عليه السلام كان يذكر يوسف المفقود ويتذكر شجون ولوعة الفراق فى تلك اللحظة، وتلك المقولة ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ كانت لا تزال فى المرة الثانية أيضاً بشأن يوسف عليه السلام مثلها مثل المرة الأولى تماماً كما يظهر من أسلوب الصياغة ولا تحمل أى تعقيب على قصة احتجاز بنيامين الأصغر وفقده التى ساقها الأبناء، وكأن يعقوب عليه السلام بهذه التكرارية للعبارة يقول لبنيه أنه لولا الإفك الأول الذى واكب فقد يوسف لما حدثت كل النكبات والكوارث التالية، فيعقوب لم يكن مخرفاً ولا واهماً ولا مجتراً للآلام، بل كانت قولته إشارة لعلم عميق ما يفتىء الرجل أن يشير إليه فى كلامه ولكن هيهات أن يفهموا ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾.

وبعد أن رد يعقوب بعبارته المتكررة التى نمت عن معرفته العميقة بمصير يوسف

وإخوته كما أسلفنا تعزى بالصبر الجميل القائم على اليقين آملاً ﴿ عَسَى اللَّهُ أن يأتيني بِهِمْ جَمِيعًا ﴾، ولنلاحظ هنا أن الكلام في الآية يأتي بصيغة الجمع بدلاً من المثنى عند الإشارة للأبناء المفقودين (يوسف وبنيامين وكبيرهم رأوبين) مما يظهر وحدة الفكرة في القصص القرآني من حيث ذكر قصة اعتصام رأوبين بمصر ورفضه مغادرتها مما لم يأت له ذكر بالمرة في القصص التوراتي، مما يشير بوضوح إلى جانب العشرات من الحقائق التي سقناها قبلاً إلى عدم تأثر القصة القرآنية بالقصة التوراتية مطلقاً، وتتوالى آيات النقاش بين يعقوب وأولاده مظهرةً لوعة الفراق ليوسف عليه السلام في مقام لايوجد فيه أي أثر ظاهري ليوسف، فالمقام مقام قصة بنيامين الأصغر ورأوبين الأكبر، ودلالة ذلك أسلفناها قبلاً، فيقول تعالى ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ففراق يوسف هنا - لم يزل يمزق مشاعر الأب الشيخ - الذي ما إن يظهر هذه المشاعر ويقول تلك الأقاويل - لأسباب خاصة عنده من علم إلهي ووحي - فلن يفهمها أحد من المحيطين به، بل سيرمي بالخرف ويرمي بحب النكد وعدم المعقولية ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ .. لذا فالرجل كان يكتم أحزانه التي لن يفهم مبعثها أحد، ويعيش في عزلته الفكرية والعاطفية منفصلاً عن الواقع المحيط به والرافض لأفكاره ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾، لذا كانت أحزانه كبتاً وكظماً وضغطاً عصبياً بلا تنفيس ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، مما أوقعه في شراك ما يسميه الطب المعاصر «الأمراض النفس-جسمية»، والتي من أشهرها مرض السكري الذي يؤدي إلى اعتام عدسة العين، وبالتالي فقد البصر، فيتسع بؤبؤ العين محاولاً التقاط أي بصيص من الضوء، وتبدو تلك العدسة المعتمة في خزانة العين الأمامية كسحابة بيضاء، وما أحلى الوصف الإكلينيكي لتلك العبارات التي دلت على السبب (الاضطراب النفسي مع عدم التنفيس) والمرض العام ثم مضاعفاته على العين كما يتضح من فحصها ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾ والنتيجة من ذلك على العضو (فقد الإبصار).

وكان قدر هذا الشيخ أن يحزن ويكظم ويتدهور صحياً قرب حافة الهلاك ﴿ حَتَّى

تكون حرضا أو تكون من الهالكين ﴾، ولم يكن موقفه ليسمح حتى بالعلاج المشروع إلهيا ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون * وجزاؤا سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ (الشورى ٣٩-٤٣)، فالكل أبناء له، والمشيئة مشيئه الله، فلا مجال هنا للانتقام أو القصاص، بل الصبر الذى رجاه جميلاً، ولم يكن هناك مجال بعد للعفو والإصلاح والغفران مما هو فوق طاقة الأب المكلوم الذى ما استطاع أن يقرن كظمه للغيظ هنا بدرجات أعلى، مثل العفو ثم الإحسان، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ (آل عمران ١٣٤)، فالعلاج القرآنى حسب الوصفة الربانية يمر بثلاثة مراحل هى الكظم ثم العفو ثم الإحسان ولابد من تعاقب وتلازم تلك المراحل سوياً، للتنفيس عن هذه النار المحرقة بالصدر وإلا انتهى الإنسان إلى الهلاك والمرض.

عموماً، فقصة كف بصر يعقوب حزناً على ولده يوسف عليهما السلام، هى جزئية قرآنية خالصة لم ترد مطلقاً فى التوراة، إلا أن المتأمل فى النص التوراتى قد يلاحظ ما يلى:

١ - تلازم التعبير عن الاجتماع واللقاء بين يعقوب وابنه يوسف وعلى لسان يعقوب ذاته بكلمات مثل «الرؤية، النظر، البصر». فمثلاً جاء عن يعقوب فى التوراة متحدثاً عن يوسف وقصته [أن زوجتى قد انجبت لى ابنين، فقدت أحدهما وقلت: إنما هو قد افترس افتراساً. ولم أره إلى الآن] (التكوين ٤٤ :٢٧-٢٨)، وهل يتوقع أحدٌ أن يرى إنساناً ما بعد أن تم افتراسه - جملة عجيبة - قد تشير لضياع البصر أكثر من ضياع الولد ذاته، ولنتأمل فى كلمات يعقوب عند البشارة بأن ابنه يوسف حى [وقال: «كفى! يوسف ابنى حى بعد، سأذهب لأراه قبل أن أموت] (التكوين ٤٥ :٢٨)، ثم أن الله يقول ليعقوب عن ذلك بعدها [«أنا أصحبك إلى مصر، وأنا أرجعك أيضاً، ويغمض يوسف أجفانك بيديه عند موتك»] (التكوين ٤٦ :٤)، ولاحظ أن التعبير

عن الموت هنا بصيغة إعماض الأعين والجفون، وأخيراً بعد أن رأى يعقوب عليه السلام ابنه قال له [«دعني أموت الآن إذ قد أبصرت وجهك ورأيت أنك ما زلت حياً»] (التكوين ٤٦ : ٣٠) .. وتكرارية وإلحاح العبارات لايحتاج لتعليق.

٢- لاتخفى القصة التوراتية مدى الصدمة النفسية التي أصابت الأب حينما جاءته البشارة باقتراب اجتماعه مع ابنه يوسف حيث تقول أنه غُشيَ عليه من وقع الصدمة.

٣- لم تذكر التوراة أن يوسف أرسل قميصه مع الإخوة لأبيهم، بينما وفي الوقت ذاته تخبرنا بالتفاصيل عن إهداء يوسف لإخوته حال عودتهم لأبيهم بالكثير من الثياب (القمصان).

عموماً فالآية ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ تشير إلى أن صبر النبي الشيخ وكظمه، كان لهما متنفس فقط مع الأوحد الذي يستطيع فهم بواعث مشاعره ومدلولاتها وهو الله عز وجل، فالرجل كان يفزع لكنف الله وحده يشكو إليه آلامه، وببساطة لأن الله عز وجل وحده كان هو الموحي لهذا الشيخ بكل ما يعلم من حقائق لا يعلمها الأبناء الذين لايعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فهم لا يستمعون، وإن استمعوا لايفهمون، وإن فهموا لا يصدقون ولا يقدرون.

وأرجو هنا ملاحظة دقة التعبير القرآني عن الحالة النفسية ليعقوب عليه السلام، فهي وسط الناس والمكذبين (كظيم - وتولى عنهم) أي إخفاء للمشاعر وسط السرية والكتمان، أما مع الله فهي (بث) أي نشر وإذاعة وبوح وإسهاب، والمقابلة هنا بين الكظم وسط الناس والبث مع الله عز وجل هي التفسير لكلمة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فمع الناس وأكثرهم مكذب أو غير متعاطف يكون الجلد والكظم والكتمان، أما مع الله عز وجل فلا يستحب طلب الصبر بل طلب العافيه والمعافاة والدعاء وأن يجأر الإنسان بشكواه للواحد القادر على دفع البلايا كما وجهنا رسولنا الكريم ﷺ.

تأتي الآية الأخيرة في آيات الرحلة الثانية بتأييد قوى وبرهان شديد على ما سقناه قبلاً، يقول تعالى : ﴿يَابَنِىَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ

لا يَأْيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلا القَوْمُ الْكافِرُونَ ﴾ (يوسف ٨٧) .

وهنا نرى هذا النبى الكريم يأمر أولاده بالعودة مرة أخرى لتحسس أخبار بنيامين وأين كان بنيامين؟ يعلم الأب مكانه تماماً وأنه محتجز فى مصر، ونجد هنا أن الأب يأمر أبناءه بتحسس الأخبار عن ﴿ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أى أنه عليه السلام كان يعلم بوجود يوسف فى مصر بل وأكثر كان يعلم أنه موجود مع بنيامين، بل وأنه هو العزيز الذى احتجز شقيقه، ويختتم أمره لأبنائه بعبارة ﴿ وَلا تَأْيْئَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَأْيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾، وهنا نرى من الألفاظ الإعجازية القرآنية إشارة عجيبة أخرى إلى الفرق بين ما هو بشرى وما هو إلهى .. فالأب ينهاهم عن اليأس من روح الله بلفظ ﴿ لا تَأْيْئَسُوا ﴾ أى بصيغة (فَعَلَ) أى لا تقاربوا هذا الفعل مطلقاً ومن بدايته، أما حينما كانوا يتعاملون مع البشر فكان الفعل ذاته فى صيغة استفعل ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ ﴾ (يوسف ٨٠)، والذى يوحى بالولوغ الشديد والدخول العميق فى الفعل حتى النهاية، أى بعبارة أبسط (لا تيأس من الله وإن استيأست من الناس) أى لا تقارب ذلك السلوك مع الله وإن وصلت لمنتهاه مع الناس.

عموماً فنفس المعنى جاء واضحاً وبنفس الألفاظ تقريباً فى آية كريمة من آيات العبر والحكم الواردة فى آخر السورة ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف ١١٠)

فهنا وفى حالة الرسل بالذات، فالتدخل الإلهى والفصل الربانى، قادم لا محالة، إلا أن الحليم يعطى أقصى مدى من الفرصة الزمنية للناس للإستجابة، إلى الحد الذى يصل بالرسل أنفسهم إلى الاستيئاس من وجود أى جدوى أو خير فى النفوس البشرية، ويصبح جلياً أنه لن يحدث أى تغيير للأفضل فى عقائد وسلوكيات البشر، عندها يأتى أمر الله عز وجل بالنجاة لمن شاء، وبالويل الذى لا مرد له ولا وقاية منه للمكابرين والمعاندين .. إذن فلا مقاربة ليأس من روح الله حتى فى وسط محنة الاستيئاس من الناس.

إلى هنا، وعند تلك النقطة تنتهى أحداث رحلة الإخوة الثانية بين فلسطين ومصر،

وبين يعقوب ويوسف عليهما السلام، والتى نراها فى مجملها رحلة عذاب وآلام ومحنة وتمزق، فقدوا فيها أخاهم، وذاقوا مرارة الذل والضعف، وأرهق وجوههم الهون أمام يوسف فى مصر، وأمام يعقوب فى فلسطين، فصاروا بين شقى رحى لا ترحم، دفعوا فيها ثمناً كبيراً لخطاياهم مما يتضح فى التصوير القرآنى المبدع للتغيير الذى طرأ على شخصياتهم ونفسياتهم فى الرحلة الثالثة والتى شاء المولى عز وجل أن ينتهى فيها تمزقهم وآلامهم وأن يفتح لهم - جل علاه - صفحة جديدة تحكم الرحمة سطورها.

رحلة الإخوة الثالثة بين فلسطين ومصر وبالعكس:

نود أن نذكر قبل أن نخطو خطواتنا الأولى فى تفاصيل تلك الرحلة، أن هذه الرحلة إنفردت بها القصة القرآنية ولم يأت لها ذكر فى القصة التوراتية التى أنتهت الأحداث فيها خلال الرحلة الثانية، وهذا خلاف تفصيلى آخر بين القصتين نسوقه لمن سولت لهم أنفسهم التقول بأن القصة القرآنية هى الترجمة العربية بحرفية النص للقصة التوراتية العبرانية.

تقع أحداث تلك الرحلة - الفاصلة فى أهميتها - بين الآيات ٨٧ و ٩٨ من السورة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَآ أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُواْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ * قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّآ أَن جَآءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُواْ يَآ أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ

أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (يوسف ٨٧-٩٨)

وها نحن نرى أن أحداث الرحلة ذهاباً وإياباً تتبع نفس الإسلوب القرآنى ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ للذهاب - و ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ الْبَشِيرُ ﴾ للإياب، مثلها مثل الرحلة الأولى التى بدأت بـ ﴿ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ ذهاباً وبدأت الإياب بـ ﴿ فَلَمَّا رَجَعُواْ ﴾، وكذلك الرحلة الثانية التى بدأت ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا ﴾ ذهاباً وبدأت الإياب بـ ﴿ ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ ﴾، كذلك الرحلة الرابعة التى كانت ذهاباً فقط بلا إياب والتى بدأت بـ ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ ﴾.

فهناك دائماً فى النص القرآنى للسورة فصل تصويرى رائع يشبه سيناريو الأحداث السينمائية، بفصل كل رحلة ذهاباً وإياباً بنفس أسلوب «القطع» الموجود فى أدبياتنا التصويرية السينمائية والمسرحية المعاصرة جداً، بدأت القصة الثالثة بالذهاب من فلسطين لمصر، ودخول الإخوة على العزيز وخطابهم له فى الآية (٨٨) ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَآ أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾، وهنا نرى أن مجمل الخطاب لم يكن يتطرق لقضية الأخ الأصغر المحتجز عند العزيز (يوسف) كما وعدوا أباهم، بل كان منصباً على مسألة التجارة والحصول على المؤونة فقط، ولعلنا نحس أن ذاك وفى هذا الموقف لم يكن خيانة للأمانة، بل كان قولهم ووعدهم إرضاءاً منهم لمشاعر الأب الشيخ المكلوم الذى أصاب الكبر عقله بالضلال - حسب اعتقادهم - فأخذ يذكر كل أبنائه المفقودين معاً، ويذكر على رأسهم يوسف نفسه بدون داعٍ، مما دعاهم لتطييب خاطره بادعاء أن رحلتهم كانت لتحسس الأخبار عن بنيه، أما الحقيقة فكانت أن علمهم الظاهرى كان يقف عند حد أن أحد الإخوة مفقود لايعلم له مكان فهو منسى (يوسف)، والآخر محتجز لدى عزيز مصر القوى لجرم مشهود ولا أمل فى أى تشفع حيال أمره (بنيامين)، حيث جرب الإخوة ذلك فى رحلتهم السابقة وانتهت بهم الضراعة والشفاعة إلى منتهى اليأس ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُواْ ﴾، فمن وجهة نظرهم العقلية كان لا مجال هنا لكلام آخر فى هذا الموضوع، وهم قد فعلوا ما يسعهم، وتبقى أمر إنقاذ باقى الأهل فى فلسطين الذين كانت المجاعة تطحنهم بلا رحمة فى

ذاك الوقت، فهم الأولى الآن بالجهد والشفاعة، دخل الإخوة على يوسف عليه السلام وهو على عرش عزيز مصر، واشتكوا له مر الشكوى من الضيق والفاقه التى مستهم وأهليهم، مما اكتشفه بنفسه من نوعية البضاعة التى جاءوا بها، وهى ﴿ بِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ أى بضاعة كاسدة ضعيفة لا تصلح للمقايضة، وجاء فى تفسير ابن كثير لتلك الكلمة : [﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ أى ومعنا ثمن الطعام الذى نختاره وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن، وقال ابن عباس : الردىء لا ينفق، وفى رواية عنه : الدراهم الرديئة التى لاتجوز إلا بنقصان، وقال الضحاك : كاسدة لاتنفق، وأصل الإزجاء الدفع لضعف الشىء] انتهى.

وبعبارة أوضح كانت تلك البضاعة ستاراً وهمياً لتسول الطعام، كما نرى المتسولون يفعلون أحياناً بعرض بضاعة ساذجة ثمناً لطعام يقتاتون به، ولم يخف النص القرآنى هذا الحال من التسول والفاقه البادى على مظهر الإخوة بل أورد على ألسنتهم، طلب الصدقة والإحسان لا طلب التجارة والمقايضة ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾، مثلما يحدث دائماً عندما يذكرك المتسول فى الطريق بالله عز وجل حتى يرق قلبك، ويلين فؤادك، وهذا ما لم يتوان الإخوة عن فعله فى هذا المقام، فها نحن نسمعهم لأول مرة يذكرون الله عز وجل وفعاله ومرضاته، وهو إسلوب استعطاف واسترحام أكثر من كونه مقام وعظ وإرشاد.

لعل التدقيق فى الدلالات اللفظية للآية الكريمة هو ما يبين لنا إجابة لسؤال قد يحير البعض، ألا وهو : لماذا قرر يوسف فجأة وبعد الموقف الذى حددته الآية محل البحث مباشرة أن يوقف حرب التمزق النفسى الذى يعصف بالإخوة وأن يكشف عن شخصيته لهم فى هذه الرحلة، ولماذا لم يشتتهم ويضنيهم ذهاباً وإياباً عشرات المرات؟، مما أعاد السكينة والطمأنينة لقلوبهم ومما أدخلهم بعد ذلك فى كنفه ورعايته بعد أن غفر لهم خطاياهم تجاهه بل ودعا لهم بالمغفرة والرحمة من الله وعز .. هنا وجد يوسف الصديق نفسه أمام ضغط عاطفى ونفسى هائل، فها هى عصبة الظلمة تقف أمامه فى حال يرثى له، تشكو الفقر، وتتسول الطعام، بل وترقق قلبه بذكر الله عز وجل مما يشى بذلهم وإنكسارهم ليس هم وحدهم فقط بل ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾، وأهلهم هم أهله وفيهم

أبويه، فكان أن قرر النبى البار الرحيم أن ينهى المسألة عند هذا الحد، وأن يمد يد الرحمة لأهله ينتشلهم من وطأة المجاعة والفاقة التى كانت تعصف بأرض فلسطين.

وهكذا تأتى الآية ٨٩ (آية الإعتراف) قائلة : ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾

وهنا بدأ يوسف فى كشف سر شخصيته للأخوة بعتاب رقيق يذكرهم فيه بفعالهم الشريرة تجاهه وتجاه شقيقه، وكأنه يقول لهم لقد جئتمونى اليوم ضعاف وأنا قوى، أفهل تذكرون يوم أن كنت أنا ضعيفاً وأنتم الأقوياء؟ لقد جئتم تطلبون الرحمة باسم الله فهل راعيتم قدسية هذا الاسم وأنتم تفعلون ما فعلتم؟، وهنا أراد قلب يوسف الرحيم أن يشفع العتاب بالعذر فقرن عتابه لهم بمعرفته بجهلهم وجاهليتهم حينذاك. وكأن لسان حال يوسف فى هذا الموقف يتمثل قوله تعالى ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام ٥٤)، وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء ١٧)، وقوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل ١١٩).

وهنا أيضاً وفى هذا الموقف تحققت نبوءة الله عز وجل التى ساقها ليوسف عليه السلام وهو فى قمة الضعف والهوان صغيراً بين أيدى الطغاة ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف ١٥)، فها هو يوسف وقد تبدل الحال غير الحال يخبرهم بما فعلوا به .. وكان هذا الإخبار هو الذى عرفهم بشخصيته، حيث أن ما حدث كان سراً بين طرفين هما الجناة من ناحية، والمجنى عليه من الناحية الأخرى، ولا يعرفه إلا الطرفان فقط، إذن فمعرفة العزيز الجالس على عرشه أمامهم بتفاصيل القصة كانت دليلاً لايرقى إليه الشك فى أنه هو يوسف عليه السلام نفسه، حيث أن بنيامين الأخ الشقيق ليوسف لم يكن حاضراً للمشهد (مشهد التخلص من يوسف صغيرا) أو عالماً به، كما يبدو أيضاً - والله أعلم - أن يوسف قد

خاطبهم هنا مباشرة بالعبرانية لغتهم دون المصرية القديمة التي اعتاد على مخاطبتهم بها عن طريق مترجم مما أفصح عن هويته الحقيقة.

وهنا رد الإخوة بإسلوب دهشة وتعجب واستغراب شديد ﴿ قَالُواْ أَءِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

أمام تلك المفاجأة المذهلة قرر يوسف الصديق أن يكشف لهم عن شخصيته فقال ﴿ أَنَا يُوسُفُ ﴾، نعم هذا الحاكم المجلل بالمجد فوق عرشه هو ﴿ أَنَا يُوسُفُ ﴾ أخوكم الذي ألقيتموه في الجب صغيراً من قبل، ثم ﴿ وَهَذَآ أَخِي ﴾، وقد يتساءل البعض هنا لماذا قال ﴿ وَهَذَآ أَخِي ﴾ مع أنهم يعرفون بنيامين جيداً، وما دام يوسف قد عرفهم بنفسه فهو إذن أخ للصبي فما جدوى ﴿ وَهَذَآ أَخِي ﴾؟ ونقول أنه بهذه الكلمة أشار إلى ما قالوه من قبل عن هذا الأخ الذي تبرأوا منه وقت الضيق ونسبوه ليوسف فقط، وكأنه ليس بأخيهم أيضاً. ﴿ قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾، نعم ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَآ أَخِي ﴾، لسنا شركاء في صفات السرقة والإثم كما زعمتم كذباً بل ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

عند تلك المفاجأة المباغتة، ظهرت الحقائق واضحة أمام الإخوة، ليس فقط عن حقيقة الشخصيات بل عن حقيقة المواقف أيضاً، هنا أدركوا نفس الحقيقة التي أسلفناها من قبل، وهي أن حب الأب يعقوب النبي عليه السلام لولده يوسف لم يكن حب بنوة وحسب بل حب نبوة، وإدراك ملهم بأن هذا الصبي هو المختار لحمل الرسالة بعد إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وإن خوف يعقوب على ولده، لم يكن بجهالة ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (السورة ٨)، بل كان عن رسالة.

عرفوا فاعترفوا قائلين ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أي أن الأثرة ليوسف لم تكن من جهة يعقوب بل كانت من جهة الله عز وجل وبأمره ومن خصائص مشيئته تعالى.

ومع الإقرار بالذنب والاعتراف بالخطأ والتوبة النصوح يكون الأمل دائماً قائماً فى غفران الله تعالى ورحمته، فها هو موقف نبوى كريم من نبى كريم، يعفو عن ظالميه ويحرر أعناقهم من حقه الشخصى أمام الخالق، حيث أن غفران الله يتطلب أولاً التحلل من حقوق العباد، فها هو يوسف الكريم بعد أن كظم غيظه منهم فى كل المراحل، عفا عنهم، ثم دعا لهم بالغفران كإحسان منه إليهم تمثلاً بقوله تعالى ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران ١٣٤)، فذلك النبى الذى وصفه الله تعالى بالإحسان فى مواضع عديدة بالسورة يأبى إلا أن يرتقى درجات البر كلها مع ظالميه، الكظم، فالعفو، فالإحسان، فقال لهم فى هذا الموقف ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

أليس ذاك هو ما فعله سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ يوم فتح مكة، يوم أن وقف منتصراً يخاطب شانئيه وظالميه الذين أذاقوه كل أنواع العذاب والعداء والحرب، حيث قال لهم «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، أوليس هذا الموقف هو نبوءة قرآنية عجيبة لمحمد ﷺ تحققت بعد أكثر من عشرة سنوات خاصة - إن علمنا - أن تلك السورة كانت تتنزل على الرسول الكريم وهو فى قمة الضيق والحصار والعداء السافر من أهل مكة، حينما مات مناصروه وبقى وحيداً مع عشيرته الأقربين محاصراً فى شعب بنى هاشم .. أليس ما قاله يوسف لإخوته هو بالضبط ما قاله محمد ﷺ لمن قالوا له «أخ كريم وابن أخ كريم»، نقول أن تنزيل السورة فى ذلك الوقت كان تثبيتاً هائلاً لمحمد ﷺ ونبوءة تحققت بكل التفاصيل، وهذا إعجاز قرآنى آخر يستحق التأمل والدهشة.

ونحس أن تلك اللحظات من حياة محمد ﷺ والتى تراهاالعين البشرية قمة الضعف واليأس، كانت بالعين الإلهية الحكيمة العليمة هى لحظة التمكين فى الأرض، تماماً كما أقرت سورة يوسف لنبى الله يوسف عليه السلام بالتمكين فى الأرض فى أشد لحظات الضعف وفى ذروة المحنة، عندما بيع عبداً طفلاً بدراهم معدودة لبيت تسترقه فيه امرأة طاغية (الآية ٢١ من السورة) هل يمكن لأى لبيب أن يتذرع بالصدفة هنا؟ وهل يمكن لأى

لبيب أن ينكر كل إشارات الربط بين تلك القصة وبين ما مر بمحمد ﷺ لاحقاً ومنها ما حدث لكليهما من التمكين في الأرض، فقط بعد غربة، وفي أرض بعيدة عن الأهل والإخوة الحاقدين المعادين؟

بعد أن اطمأن الإخوة بالأ بعفو يوسف عليه السلام، امتد بره النبوى ليشمل الكل، الحاضر والغائب، القريب والبعيد، فأمرهم يوسف عليه السلام ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

وسبق أن ناقشنا الفكرة الرمزية المتكررة (للقميص) في هذه القصة القرآنية ومدلولها، فالقميص هو رمز للحقيقة والصدق الذى يغلف هذا النبى الصديق، أمر يوسف عليه السلام إخوته أن يذهبوا بالقميص بل نصاً ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي ﴾ هذا الوجه الذى طوحوا بيوسف عليه السلام في المجهول ليخل لهم، أمرهم عليه السلام أن يحملوا هم بأنفسهم القميص ويدخلوا على أبيهم به كبشير للقاء، كما حملوه من قبل ودخلوا عليه به كنذير للفراق، فيرتد الإبصار في وجه الأب الذى لم يخل لهم مطلقاً حتى بعد استبعاد يوسف، بكلا المعنيين: المجازى منه والفعلى المتمثل في كف بصر الأب، كما أمرهم أن يأتوا بأهلهم جميعاً من أرض كنعان التى تضربها المجاعة ليدخلوا مصر ليعيشوا فيها بأمان ما قدر الله لهم أن يعيشوا.

وأدعو الجميع للتأمل في حلاوة التقابل في اللفظ القرآني بين ﴿ اذْهَبُوا ﴾ و ﴿ يَأْتِ ﴾ في الآية ٩٣ ثم بين ﴿ أَلْقَاهُ ﴾ و ﴿ فَارْتَدَّ ﴾ في الآية ٩٦.

ثم تطفأ الأنوار على هذا المشهد في قصر العزيز بمصر، لتضاء مرة أخرى في بيت يعقوب عليه السلام الذى اختصه تعالى بجلاء البصيرة والكشف البصرى رغم كف بصره، تقول الآيات التاليات:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ

سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾

ويجب أن نلاحظ هنا البلاغة القرآنية في كلمة ﴿ فصلت العير ﴾ ، فالفصل نقيض وعكس الوصل، فالمعتاد في تعبيرنا أن نقول (وصلت العير) أي أتت إلى موقعنا هنا ، أما القول بعكسها ﴿ فصلت العير ﴾ فيعني أنها لاتزال في منتهى مدى البعد أي لا تزال هناك . أي أن البلاغة القرآنية استعاضت بهذا التعبير الرائع عن الإسهاب الوصفي في «ولما بدأت العير التحرك من موقعها في أرض مصر بإتجاه فلسطين».

على هذا البعد الشاسع أحس الأب بالبصيرة النافذة بإلهامها الإلهي بانتهاء المحنة قائلاً ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ ، وها هي المقابلة ثانية تأتي بين الخبر والعلم الآتي من جهة البشر بسرعة العير ، وبين العلم الإلهي الذي هو خاصية لهذا النبي والآتي بسرعة الريح - والمقارنة بين العير والريح في السورة جزئية رمزية أخرى تقول الكثير من الحكمة .

كانت روح اليقين ترفرف على النبي الشيخ رغم البعد ، ورغم التكذيب من المحيطين المحجوبين خلف ستار العلم الظاهري ، حتى جاءت القافلة بالبشرى والدليل الملموس .

جاء البشير بالقميص ، وجاء بالنبأ اليقين ، وحدثت المعجزة في ثوان معدودة وبسرعة شديدة كما تبينهاالألفاظ القرآنية فيما بين الإلقاء والارتداد ، وعاد الأب بصيراً ، وهنا ذكّر أولاده بمقولته التي تذكرنا نحن أنفسنا بسره الذي ما برحت تومئ إليه الآيات القرآنية ، سر البصيرة الثاقبة التي ما غابت وإن غاب البصر ذاته ، ولا أرى هناك أي مجال للجدال في إشارة القرآن الواضحة لوجود خاصية جلاء البصيرة التي تتجاوز أستار العلم المادي عند النبي يعقوب عليه السلام ، الذي رسمت آيات سورة يوسف صورته ببراعة لا تدانيها براعة مما بلور خصائصه الشخصية والنفسية - ولربما وبشكل أوضح من يوسف عليه السلام ذاته في سورة يوسف .

ولعل هذا الوصف الرائع للأحداث في رسمها لتلك الخاصية عند يعقوب عليه السلام هو ترجمة تفصيلية لقوله تعالى موضع آخر وسورة أخرى بلا تفصيل ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ﴾ (ص ٤٥) .

قال لهم يعقوب فى هذا المقام ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾، وهنا ظهرت الحقيقة أمام الأبناء الذين ما برحوا يرمون الأب بالضلال من مبدأ الأحداث لمنتهاها ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ كما هى فى ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف ٨)، أدركوا أن ما أسموه ضلالاً كان فى الحقيقة قصوراً فى الفهم لأفعال الأب وأقواله، والتى لم تكن تستند فقط على العلم المادى مثلهم، بل تستند على ما هو أعمق بكثير مما لم يتسنى لهم فهمه ولا يتاح له البوح به. اعترف الأبناء بخطاياهم وطلبوا الغفران من الأب وطلبوا منه الدعاء لهم بالغفران.

وليلاحظ القارئ هنا أنهم لم يقوموا هم بالدعاء لأنفسهم ولو بطلب المغفرة فى هذا المقام، وكيف لهم ذلك وقد أدركوا أن أباهم هذا الشيخ الضال، إنما هو نبى ملهم له درجة رفيعة عند ربه وعلم إلهى لا يصل إليهم، وهنا انتهت أحداث المحن كلها وصفت القلوب وعاد الفرح ثانية يرفرف على بيت يعقوب، وما كان باقياً إلا اجتماع الشمل.

الرحلة الرابعة والأخيرة لكل بيت يعقوب (إسرائيل) من فلسطين لمصر ذهاباً فقط:

تروى لنا الآيات القرآنية هذه الرحلة التى كانت باتجاه واحد - من فلسطين لمصر - حيث جاءت العودة منها فى الاتجاه المعاكس متأخرة لقرون عديدة قضاها بنو إسرائيل فى مصر، حتى أذن الله تعالى لهم بالعودة لموطنهم الأصلى، وموطن آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب فى زمان موسى بن عمران عليه السلام، تروى لنا الآيات القرآنية أخبار تلك الرحلة فى الآيتين من قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ۞ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَآ أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (يوسف ٩٩-١٠٠)

وهنا نرى أن الجمع لما دخل على يوسف ﴿ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ وسبق أن أوردنا أن القرائن كلها تؤيد القصة القرآنية من حيث وجود الأبوين معاً فى هذا المشهد، أى وجود الأم مع الأب، مما يتناقض مع الرواية التوراتية التى نصت على موت أم يوسف قبل هذا الحدث، وهنا كان يوسف فى ناحية وعلى عرشه، وكان أمامه جمع الإخوة وكل أهلهم أجمعين بما فيهم الأبوين فى ناحية أخرى، فعندما يأوى يوسف أبويه إليه فهو يبدأهما بأفعاله أولاً قبل أن يخاطب الآخرين كما تنص الآية، وكما يؤكد المنطق السليم، ثم يأويهما بأن يختصهما برفق وبر معين تحت جناح الاطمئنان الذى يستطيع توفيره، وبالتالى فهناك فصل للأبوين عن باقى الجمع فى الكلام والفعل، بالضبط مثلما حدث فى الرحلة الثانية عندما ﴿ ءَاوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ (يوسف ٦٩) أى فصله عن الآخرين واختصه بكلام معين يطمأن قلبه وكشف له عن سره بما لم يفعله مع الباقين.

يؤكد القرآن هذا المعنى بقوله تعالى ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾. أى أنه فصلهما عن باقى المجموع وأعطاهما مكانة عليا فوق العرش معه، والرفع هو نقيض الانخفاض الذى

يستوجبه ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾.

أقول بعد هذا التمهيد رأيى الشخصى فى أن نص الصياغة القرآنية يبعد تماماً عن مخيلتى سجود الأب والأم ليوسف مع باقى الجمع، كما قالت كل التفاسير تقريباً، فسجود الإنسان للإنسان غير مشروع وخاصة وأننا أمام نبيين أحدهما أب والآخر ابن، أفهل يسجد نبى لنبى؟ وهل يسجد أب لابن؟ حتى ولو كان الناس العاديين يفعلون ذلك فى أزمنة ما قبل الإسلام فهل يناقض يعقوب ويوسف أبسط السلوك الذى يرضى الإله؟ وأرى أننى لازلت مصمماً على تفسيرى الأول بأن الأبوين لم يسجدا ليوسف مع الساجدين، ولا ترضينى مقولات مثل أن هذا السجود كان سجود توقير واحترام وليس سجود عبادة، ففعل السجود ذاته تعبير جسدى فى الصلوات عن توقير هائل للرب الذى نصلى له، ولا زلت أرى هنا أن الرمزية التى تمسك بلحمة وسداة القصة فى سورة يوسف لا تزال شاخصة فى هذا المشهد، فسجود الأحد عشر كوكباً (الكوكب جرم غير مضىء بذاته بل عاكس وناقل للنور) مَثَلَهُ وفسره سجود الإخوة الأحد عشرة مما يشير إلى سجود كل أسباط إسرائيل إلى ما يمثله يوسف عليه السلام من رمز للتوحيد الذى كان هو ميراثه من إبراهيم فإسحاق فيعقوب .. وأما الشمس فلم تكن أبيه، بل كانت امبراطورية الشمس، إمبراطورية الإله رع (بأشكاله المختلفة) إله الشمس، أى مصر، التى كان فى تلك اللحظة يطأ عرشها بقدمه، والتى ما خرج بنو إسرائيل منها إلا بعد أن نكس الله علم الوثنية فيها الممثل فى فرعونها الإله وجيشه الجرار إلى الأبد على زمن موسى عليه السلام.

وأما القمر فهو رمز للمنطقة التى كانت تتخذ القمر إلهاً لها باسم «عشتار»، وهى الشعوب الساكنة فى فلسطين ولبنان وبابل والتى انتهى صراع بنى إسرائيل معهم لإلحاق ضرر فادح بتلك العقيدة مما أدى لزوالها لاحقاً.

وعن عبادة القمر كإله وتأثيرها الخطير ودورها الهام فى المناطق الممتدة من منطقة بين النهرين (الرافدين أو العراق) مروراً بالشام وفلسطين وحتى تخوم مصر (مملكة الشمس) والصراع الذى نشأ بين العقيدتين، فإننى ألجأ لبعض فقرات من أحد الكتب

التاريخية البحتة وهو كتاب (الواقع والأسطورة في التورات) تأليف زينون كاسيدوفسكى، وتلك نبذة من الفقرات المطولة التي تتحدث عن دور عبادة القمر، بل وتعزو هجرة إبراهيم عليه السلام نفسه إلى صراع بينه وبين أتباع عقيدة عبادة القمر المتعصبين، يقول الكتاب ص ٦٣ : [على صعيد آخر لدينا أسس تجيز لنا أن نفترض أن عشيرة تارح عبدت إله القمر. وهذا ما تشير إليه العبارة التالية التي جاءت في كتاب يشوع بن نون: «أباؤكم سكنوا في عبر هذا النهر (نهر الفرات - المؤلف) منذ الدهر. تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور وعبدوا آلهة أخرى» (الاصحاح الرابع والعشرون).

ومن النصوص التوراتية نعرف لماذا ترك إبراهيم حاران وتوجه إلى أرض كنعان. فسبب هجرته هو تحوله إلى الهنوتيبيزم (الاعتراف بعدد من الآلهة وعبادة واحدة منها فقط - المترجم) الأمر الذى تقول التورات أنه جرى في مدينة اور. وفي أوغاريت ثمة اسطورة من الأساطير المكتوبة على ألواح مسمارية تروى لنا قصة صراع عابدى الشمس والقمر الذى أدى إلى هزيمة عابدى القمر وطردهم. زد على هذا أن آثار عبادة القمر وجدت في فلسطين أيضاً. ويعتقد العلماء أن اسم تارح أبي إبراهيم جاء من كلمة مشتركة بين اللغات السامية كلها وتعنى القمر.

في عام ١٩٥٧ توجه عالم الآثار الإنكليزى ديفد ستورم ريس إلى جنوب تركيا واكتشف هنا أطلال مدينة حاران، وظهر أن هذه المدينة كانت تقع على نهر ناربالي رافد الفرات الأعلى وعلى مسافة ستين كيلو متراً إلى الشمال من مدينة اور. ولقد أخبرتنا مختلف النصوص البابلية القديمة أن مدينة حاران كانت مركزاً لعبادة إله القمر وأن أهلها امتازوا بتعصبهم الديني. ثم اظهرت الأبحاث التى قام بها الآثارى الانكليزى أن عبادة القمر بقيت قائمة في هذه المدينة طيلة فترة بقاء الإمبراطورية الرومانية على قيد الحياة، وأن المسيحية كانت عاجزة كل العجز عن الصراع معها، وأن الإسلام كان مضطراً أن يتعايش معها بسلام طيلة قرون عدة. ولم يجر هدم معبد إله القمر في حاران إلا في عهد صلاح الدين حيث أقيم مكانه مسجد في عام ١١٧٩م هدمه المغول في القرن الثالث

عشر.

تحت حطام بوابات المسجد الثلاث وجد ريس ثلاث صفائح من الحجر نقشت عليها رموز إله القمر. وكانت الصفائح موضوعة بحيث يطؤها المسلمون عند دخولهم إلى المسجد وخروجهم منه دلالة على أن عبادة إله القمر تحطمت إلى الأبد.

استناداً إلى هذه المعطيات افترض ريس أن عبادة إله القمر ما برحت قائمة فى حاران حتى القرن الثالث عشر الميلادى. ما هى الاستنتاجات التى تترتب على ما تم عرضه؟

إذا افترضنا أن إبراهيم التوراتى كان موجوداً حقيقة فهذا يعنى أن رحيله عن حاران، كمؤسس لعبادة جديدة، كان هروباً من ملاحقة المتعصبين لعبادة إله القمر. وهو يشبه فى ذلك محمداً ﷺ الذى اضطر للرحيل عن مكة] انتهى.

عموماً فإن تلك الأفكار السابقة والتى تحاول إيجاد أية رؤية منطقية للتاريخ اليهودى المهلهل، لايمكن تجاهلها بالمرة لمجرد أنها تعبر عن فكر مادى إلحادى يتميز به الكتابُ عموماً، ونحن قد سقناها هنا فقط للإشارة إلى عظم عقيدة عبادة القمر والتى كانت لا تقل قوة عن عقيدة عبادة الشمس فى ذلك الزمن، ولعل بعض آثارها تبقى فى العقيدة الحالية للفئة الموجودة فى العراق والمسماه الصابئة التى يوجد منها حالياً فرقة واحدة هم الصابئة المندائيون بينما انقرضت فرق أخرى مثل الروحانيون وأصحاب الهياكل وأصحاب الأشخاص والحلولية والحرانيون ويتميز جميعهم بعبادة الكواكب والقمر وتقديسها.

أما عن القرآن الكريم ذاته فهو يشير فى آيات محكمات إلى تلك العبادات الوثنية الشائعة فى ذلك الزمان وهى عبادات الشمس والقمر والكواكب فى مقام قصة إبراهيم عليه السلام جد يوسف الأكبر ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ * وحَآجَّهُ قَوْمُهُ قال أتُحَآجُّونّى فى الله وقدْ هدان ولآ أخافُ ما تُشْرِكُون به إلآ أن يشآء ربّى شيْئًا وسع ربّى كُلَّ شىْء علْمًا أفلا تتذكَّرُون * وكيْف أخافُ مآ أشْرَكْتُمْ ولا تخافُون أنّكُمْ أشْركْتُم بالله ما لمْ يُنزّلْ به عليْكُمْ سُلْطانا فأىُّ الفريقيْن أحقُّ بالأمْن إن كُنتُمْ تعْلمُون * الّذين ءامنُوا ولمْ يلْبسُوا إيمانهُم بظُلْم أولآئك لهُمُ الأمْنُ وهُم مُّهْتدُون * وتلْك حُجّتُنآ ءاتيْناهآ إبْراهيم على قوْمه نرْفعُ درجات مّن نّشآءُ إنّ ربّك حكيمٌ عليمٌ﴾ (الأنعام ٧٦-٨٣)

وهنا ترينا الآيات الكريمة أن إيمان إبراهيم عليه السلام بالله الواحد الحق، كان ينبغي له أن يمر عبر معاناة فكرية عميقة، يقارن فيها أديان الشرك وآلهة الشرك المتواجدة فى زمانه بالمنطق والرؤية المستقيمة، وقطعاً فذكر الكواكب والقمر والشمس هو إشارة رمزية واضحة إلى الأديان التى كانت تعبدها وتقدسها وليس لذواتها شخصياً. فإبراهيم عليه السلام الناضج عمرياً وفكرياً فى تلك المرحلة لايمكن بسذاجة تصوره يرى هذه الأجرام لأول مرة فى حياته وفى سنه هذه، أو يعلم أن القمر والشمس لهما مواقيت للأفول مثلاً، ولكن ذكر تلك الأجرام السماوية هنا هو إشارة رمزية للأديان الممثلة لها والتى ثبت - تاريخياً - أنها كانت تسيطر على أقوى ممالك الأرض فى ذلك الزمان ومما كان ممتداً حتى زمان الحفيد يوسف الصديق وما بعده.

ولعله لا يفوتنا هنا أن نلاحظ أن آيات المحاجة بين إبراهيم وقومه هى إشارة لأحد أوجه الصراع بين عقيدة التوحيد المنطقية التى توصل إليها إبراهيم عليه السلام بإرشاد الله العظيم، وبين أنصار العقائد الوثنية تماماً كما تدل التصورات التاريخية المعاصرة التى سقنا نبذة منها من كتاب زينون كاسيدوفسكى، مما نجم عنه هجرة إبراهيم عليه السلام فراراً بدينة وعقيدته.

ولعل التفسير الصحيح لحلم يوسف والذى سقناه هو المتبع للمنهج القرآنى كما ظهر فى قصة إبراهيم عليه السلام التى سقناها فى هذا الموضع، وليس التدليس التوراتى.

ولعل التفسير الذى سقناه أيضاً هو ما عاش فى مخيلة بنى إسرائيل لقرون طويلة

وانعكس فى كتاباتهم ونبوءاتهم التى كتبت وضمت للتوراة فيما بعد، جاء فى نبوءة اشعياء الواقعة فى سفر اشعياء الإصحاح ١٩ :١٨-٢٥.

[فى ذلك اليوم يكون فى ديار مصر خمس مدن تنطق بلغة كنعان، وتحلف بالولاء للرب القدير، وتدعى إحداها مدينة الشمس. فى ذلك اليوم يقام مذبح للرب فى وسط ديار مصر، ويرتفع نصب للرب عند تخومها، فيكون علامة وشهادة للرب القدير فى ديار مصر، لأنهم يستغيثون بالرب فى مضايقهم، فيبعث إليهم مخلصاً ومدافعاً ينقذهم. فيعلن الرب نفسه للمصريين. وفى ذلك اليوم يعبدونه ويقدمون ذبيحة وقرابين وينذرون للرب نذوراً ويوفون بها. ويضرب الرب مصر؛ يضربها ويبرئها، فيرجع أهلها تائبين إلى الرب فيستجيب دعاءهم ويشفيهم.

فى ذلك اليوم يمتد طريق من مصر إلى أشور، ومن أشور إلى مصر، فيعبد المصريون والأشوريون الرب معاً. فى ذلك اليوم يكون إسرائيل ثالث ثلاثة مع مصر وأشور، وبركةً فى وسط الأرض، فيباركهم الرب القدير قائلاً: «مبارك شعبى مصر، وصنعة يدى أشور، وميراثى إسرائيل»]. انتهى

واعتقد أنه لاتعليق على النص إلا بالتذكير بأن أشور وسومر وبابل هى حضارات ودول متعاقبة فى منطقة بين النهرين وكان القمر هو إلهها المعبود جميعاً بمعابده الضخمة المسماه «الزيجورات» والتى أسماها اليهود لاحقاً برج بابل.

كما لا يفوتنى هنا التذكير بأن مصر فى ذاتها ونفسها كانت هى مملكة الشمس ومملكة القمر فى آن واحد فى ذلك الوقت، فأعظم إلهين فرعونيين كما خلدتهما الأساطير المصرية هما أوزيريس وإيزيس، والإله أوزيريس يمثل الشمس فى عنفوان شروقها، وكانوا يصورونه عادة على شكل رجل برأس محاط بلفائف بيضاء، أما الآلهة إيزيس، وهى القمر، فكان يرمز إليها بأشكال مختلفة، وبالأخص جالسة يعلو رأسها قرص القمر بين قرنى ثور، إذن ففى نفس هذا المشهد (مشهد اللقاء) كان أسباط إسرائيل جميعاً ينحنون ويسجدون ليوسف بما يمثله من عقيدة التوحيد، وفى ذات الوقت، كان يوسف هذا جالساً

مع أبويه فوق عرش مصر الذى انحنى له وخضع، هذا العرش الذى يمثل مملكة الشرك والوثنية بإلاهيها العظيمين الشمس والقمر.

ولعله من المهم جداً هنا أن نذكر أنه فى عصر الدولة المصرية الحديثة وبالذات فى زمان الرعامسة، يبدو أن آلهة القمر البابلية والفينيقية عشتارت بذاتها قد تم الاعتراف بها كمعبود مصرى فى مناطق الدلتا (نفس المناطق التى أقام بها بنو إسرائيل ردحاً من الزمن، ولبنى إسرائيل مع عشتارت هذه والشرك بها مع الله قصص طويلة فى التوراة)، حيث أن المصادر التاريخية تؤكد ذلك بل وتؤكد أن الحى الشرقى من مدينة طيبة تم تسميته باسم عشتارت (بجوار الأحياء المسماه بأسماء الآلهة المصرية آمون وست وواجت) (الناس والحياة فى مصر القديمة - دومينيك ڤالبيل ص ١١٩)

وللأمانة العلمية أورد للقارئ ما جاء فى تفسير ابن كثير عن تلك الجزئية (جزئية تحقق حلم يوسف) وهو ملخص شامل لما جاء فى كل التفاسير القديمة تقريباً، ولا زلت أرى أن الأحاديث النبوية الواردة فى هذا النص لا تزال تؤيد منحى تفكيرى ولو فى جزء ما.

[﴿وخروا له سجداً﴾ أى سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً، ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل﴾ أى التى كان قصها على أبيه من قبل، وقد كان هذا سائغاً فى شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا فى هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره، وفى الحديث: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها» (الحديث فى الصحاح)، وفى حديث آخر : أن سلمان لقي النبى ﷺ فى بعض المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبى ﷺ، فقال: «لاتسجد لى يا سلمان واسجد للحى الذى لايموت». والغرض أن هذا كان جائزاً فى شريعتهم، ولهذا خروا له سجداً] انتهى.

والخلاصة هى - فى رأيى الشخصى - أن الشمس والقمر فى حلم يوسف كانا رمزين للعقائد الوثنية السائدة فى الممالك العظمى المسيطرة على الأرض فى ذلك الزمن، وأن

سجودهما ليوسف، هو رمز سجود أكثر أشكال الوثنية ضلالاً لعقيدة التوحيد مما تحقق على أرض الواقع بنهاية أحداث القصة.

ثم يورد النص القرآني الشريف شطر الآية الثاني ﴿ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ ،ولنا عند هذا الشطر عدة ملاحظات، فكون يوسف عليه السلام يخاطب الجمع بكلمة ﴿ ادْخُلُواْ مِصْرَ ﴾ فإن ذلك يعنى أنهم حتى هذه اللحظة لم يكونوا قد دخلوها بعد، أى أن يوسف عليه السلام كان قد خف للقاء أبويه عند حدود مصر مما يشير إلى التحديد الجغرافى لواقعة اللقاء أولاً، كما يشير إلى الشوق واللهفة وتوقير الأبوين ثانياً.

والملاحظة الثانية أسوقها للذين أعمتهم بغضاء مصر والمصريين عن الصواب بقولهم أن كلمة ﴿ مِصْرَ ﴾ عندما تأتى فى القرآن فهى لاتعنى البلد مصر بالذات، بل تعنى أى بلد، لأن ﴿ مِصْرَ ﴾ هى مفرد أمصار والتى تعنى لغوياً أقطار أو بلاد أى هى أى بلد أو قطر وليس بالضرورة الوطن المعروف باسم ﴿ مِصْرَ ﴾.

ونقول أن القصة فى سورة يوسف وكلمة ﴿ مِصْرَ ﴾ ومعناها وموقعها الجغرافى واضح جداً لايحتاج منا لأى مجهود لأن نهاية القصة كانت دخول بنى إسرائيل لمصر التى قضوا فيها قرابة عدة قرون وما خرجوا إلا على يد موسى عليه السلام وهل هناك مصر أخرى بها فراعنة وحضارة فرعونية؟ وأدعوهم لتأمل الآية ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ (الزخرف ٥١)

أما عن الآية التى لغطوا فيها مكابرين ومعاندين ﴿ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ (البقرة ٦١)، وهى من خطاب موسى عليه السلام لقومه عندما تذمر هؤلاء القوم من وجود طعام واحد متاح لهم هو المن والسلوى، وحنوا لطعامهم القديم فى أرض مصر، فأشار عليهم موسى عليه السلام بـ ﴿ اهْبِطُواْ مِصْراً ﴾ موطن هذا الطعام الذى تشتهون وأيضاً موطن الذل والعبودية التى حرركم الله تعالى منها، يقترح هؤلاء المكابرون أن ﴿ مِصْراً ﴾ هذه تعنى أى مصر من الأمصار، ولا تعنى الوطن المسمى مصر، وكأنهم يستكثرون على هذا الوطن أن يذكره الله عز وجل عدة مرات (٥ مرات) فى قرآنه

الكريم، ولهم نقول إننا حتى ولو تقبلنا كلامكم، فإن أقرب مصر لهؤلاء التائهين فى صحراء سيناء كان لا يزال هو ﴿ مصْر ﴾ الوطن، مع الأخذ فى الإعتبار أن فلسطين كانت محرمة عليهم حينذاك ولمدة أربعين سنة.

وأخيراً كلمة نسوقها للإعلاميين المصريين الذين يكتبون هذه الآية الكريمة على كل مداخل مصر وموانيها ومطاراتها ﴿ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ ، نقول لهم أنه يجب عليكم أن تتذكروا أن تلك الآية كانت موجهة لبنى إسرائيل، وكانت هى الكلمة التى سبقت دخولهم مصر مباشرة، وما خرجوا منها حتى تم خرابها تماماً، وقد أخرجهم المولى منها للأبد وبلا رجعة، وفى التوراة نصوص كثيرة بالتحريم القطعى لعودتهم لمصر أو سيرهم فى طريق الخروج منها عكسياً مرة أخرى،، واليوم فمصر دولة إسلامية للأبد إن شاء الله، ولن يدخلها بنو إسرائيل ثانية ما دام فيها عرق مسلم ينبض، فنرجو الإعلاميين مراجعة وضع هذه الآيات على مداخل مصر لمناسبتها التاريخية، ونقول لهم أنها ليست أبداً عبارة ترحيب بزوار مصر، فهى عبارة قالها نبى من بنى إسرائيل لقومه اليهود يوم أن كان بنوا إسرائيل هم حاملى لواء التوحيد للبشرية، أما الآن وبعد آلاف السنين من خروجهم من مصر حيث نراهم يتجمعون ويحتشدون على حدودنا، ناكرين لدينهم وديننا، فلا دخول ولا أمن ولا ترحيب إلا بعد رد الحق السليب، والاحتكام إلى شرائع الله المدونة فى القرآن عندنا والتوراة عندهم.

نعود لأحداث قصتنا الكريمة ثانية، ونتوقف قليلاً عند الآية ١٠٠ التى تقص علينا نهاية أحداث القصة كلها ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَآ أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَاىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

وهنا نرى يوسف يأوى إليه أبويه بجانبه على العرش تكريماً وبراً مما يعبر عنه الله تعالى بفعل ﴿ رَفَعَ ﴾ الذى هو عكس الإنزال والهبوط الذى يقتضيه ما فعله الآخرون

جميعاً عندما ﴿ خَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ والذى يفيد أيضاً اعترافهم بمكانة يوسف عليه السلام وسطهم، فهو حاكمهم الذى لا ينازع بالضبط كما هو حاكم مصر القوى، ونرى فى هذا التصوير بالسجود له ولما يمثله من عقيدة ورسالة، تصويراً رمزياً آخر يغنى عن الإسهاب في الكلام، فالخضوع والامتثال الكامنان فى فعل السجود ينبئاننا بعدم حدوث قلاقل من جانب بنى إسرائيل تجاه يوسف عليه السلام فيما تبقى له من عمر معهم، خاصة إذا تذكرنا كم القلاقل الرهيب الذى سببوه لموسى عليه السلام طوال تواجده معهم قبل وبعد الخروج من مصر، وقبل وبعد الرسالة، وحتى لحظة وفاته.

بعد ذلك يخلص النبى الابن بالنبى الأب متدارسين العبرة من الأحداث، لتنتهى القصة بالتذكير بالحدث المسبب لكل التداعيات والانفعالات التى مرت بها الوقائع ألا وهو حلم يوسف الصبى فى بداية الأحداث، فها هو تأويل الحلم يصير واقعاً معاشاً أخرجه المولى عز وجل من إطار الرمزية إلى أرض الواقع، ويتذكران معاً أيضاً التراتيب الإلهية لتحقيق مشيئته عز وجل بإسلوب خفى يعجز عن إدراك مساره أو أهدافه البشر، فهذا هو اللطف الذى يعنى لغوياً الدقة كما يعنى الرفق فهو دقيق لا تدركه الأبصار، رفيق لا تحسه الجوارح، ماضياً لأهدافه فمحققها، حتى وإن بدا للعين البشرية فى حكم المستحيل ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

وهكذا انتهت أحداث القصة القرآنية الرائعة، بعد مائة آية قد تتطلب مجلدات ضخمة لمحاولة التزود من ينابيعها.

٩- آيات التلخيص والعبر :

تأتى السورة بعد ذلك بعشر آيات كريمات هن تلخيص وبلورة لأحداث القصة، فالمقدمة والأحداث تقع فى مائة آية، ثم تأتى عشرة آيات تلخص المائة ثم تأتى آية واحدة تلخص العشرة وبالتالى المائة لتكتمل آيات السورة ١١١ آية، والمتأمل هنا يجد إعجازاً رقمياً عجيباً فالمائة تلخصها وتعكسها عشرة والعشرة تلخصها واحدة، بقاعدة التقسيم

العشرى (القسمة على عشرة) لتكتمل آيات السورة ١١١ آية، أى رقم (١) فى خانة المئات، ورقم (١) فى خانة العشرات، ورقم (١) فى خانة الآحاد، وللأرقام القرآنية هنامعجزات رمزية عجيبة نتركها للباب القادم إن شاء الله.

يقول تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّ فِى الدُّنْيَا وَالأَخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ * ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوٓا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوٓا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف ١٠١-١١٠)

ومعانى تلك الآيات واضحة صريحة، حيث تبتدئ الآية الأولى بتلخيص من يوسف عليه السلام لقصته، واعتراف منه بفضل الله، وتعديد للأساليب التى اتبعها المولى لتحقيق المشيئة الإلهية من نصر له ولما يمثله من رسالة فى الحياة الدنيا (الحكم والعلم) مقترناً بإقرار بالوحدانية وبراءة من الشرك، ثم دعاء بأن تختتم تلك الحياة على الطريقة المثلى التى يتقبل بها الله عباده الصالحين (الإسلام)، ثم دعاء آخر يتعلق بالثواب فى الدار الآخرة كما يأملها من وجه ربه الكريم.

ثم تنتقل بنا الآيات الكريمة إلى خطاب إلهى لمحمد ﷺ والمؤمنين برسالته بأمور متعددة هى عبر من السورة (١٠٢-١٠٧) ثم أمر من الله لمحمد ﷺ وبالتالى المؤمنين (١٠٨)، ثم خطاب ثان لمحمد ﷺ بعبر تترتب على هذا الأمر السابق (١٠٩-١١٠) أى

أن العشرة آيات من (١٠١ - ١١٠) من السورة، في مظهرها الخارجي هي تلخيص لكل الحكمة المستقاه من أحداث السورة بإسلوب متنوع يتراوح بين مناجاة يوسف عليه السلام لله عز وجل، ثم خطاب من الله عز وجل لمحمد ﷺ يتراوح بين صيغة الإخبار وصيغة الأمر لنصل إلى العبر والتي نورد بعضاً منها:

١- الإسلوب الإلهي للتمكين في الأرض يأخذ بأسباب القوة، ويقرن بين الملك وبين العلم بكل أنواعه سواء الشرعي منها أو المادي.

٢- الإسلوب الإلهي لطيف، يدق على الكثير من الأفهام، وقد يصل لغاياته في مخلوقاته مروراً بأكثر الطرق صعوبة وتعقيداً بل واستحالة.

٣- خواتيم الأعمال من مفاتيح المرور إلي رحمة الله عز وجل ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾.

٤- الدرجات في الدار الآخرة هي إختصاص إلهي بحت، لا يصل إليها المرء بعمله مهما عظم، بل هو لمن يتولاه الله في الآخرة ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾، فإن كان للتمكين في الحياة الدنيا أسباب وطرق (الحكم والعلم)، فالتمكين في الآخرة له طريق واحد هو رحمة الله تعالى ومشيئته.

٥- الصدق في الإخبار عن الغيب، دليل على صدق الوحي.

٦- تزيين الإيمان في القلوب، رحمة من الله يختص بها من يشاء، وأي إسلوب مهما عظم، لن يدخل الإيمان في قلب من لم يشاء الله له الهداية ﴿ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾.

٧- سنة الله تعالى في خلقه أن تجتمع الأكثرية من تعداد البشر على المكر والمكائد، وأن تكون الأكثرية في الجانب المناقض للإيمان، لكن الأقلية الموالية للإخلاص والإيمان موجودة دائماً ويتحقق نصرها بالمشيئة الإلهية.

٨- الأكثرية من البشر تتجاهل كل حقائق المنطق والعلم المؤدية للإيمان رغم وضوح تلك البراهين والآيات.

٩- الأكثرية من البشر يتجاهلون الوعيد الغيبي من الله كما يتجاهلون الحقائق المادية الملموسة.

١٠- الأكثرية من البشر، يتجاهلون حقائق التاريخ الواضحة من سير الأمم السابقة كما يتجاهلون العلم ويتجاهلون الوعيد.

١١- الأكثرية من البشر وإن دخلوا في الإيمان لايخلو إيمانهم هذا من الشرك.

١٢- من رحمات الله عز وجل الغامرة، أن يرسل الرسل لخلقه بشراً، من نفس نوعية البشر على الأرض، ليكونوا أقرب إليهم في التكوين وبالتالي أقدر على الوصول لقلوبهم وعقولهم، وأيضاً يمكن للإنسان العادى أن يتخذهم قدوة ومثلاً مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۞ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء ٩٤-٩٥).

ومن هذا المنطق السديد، يكون الأقرب لتوصيل الرسالة للبشر بشر مثلهم بل يجعلهم تعالى من نفس أهلهم، وذويهم غير غرباء عنهم ولا عن حياتهم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ (يوسف ١٠٩)

١٣- عاقبة الشر والكفر دائماً هى الخسران والدمار.

١٤- الدار الآخرة هى ما يجب أن يسعى إليه الإنسان فى عمله الدنيوى لأنها هى المرتبة الصادقة الخالدة.

١٥- الله عز وجل حليم صبور، يرسل الرسل من نفس نوعية البشر، ويؤيدهم بكل البراهين القطعية مادية وحسية وغيبية، ويأمرهم بالصبر الطويل الشديد فى توصيل الرسالة حتى يصل الأمر لمرتبة (الاستيئاس) فى قوله تعالى ﴿ اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ قبل أن يأخذ الله الكافرين بكفرهم.

١٦- لا يخلف الله وعده.

١٧- لا توجد أى قوة تستطيع رد أو دفع قضاء الله إن أتى.

١٨- قضاء الله، بعنفوانه وشدته التى تقتضيها عزته - إن أتى - فسيأتى عندما يصل الأمر بالبشر لدرجة الإجرام، والذى يقتضى الإنكار العقائدى والحسى مقترناً بالأفعال

المادية البالغة الظلم.

١٩- النجاة فى الدنيا كما هى فى الآخرة، طريقها الوحيد هو المشيئة الإلهية، وليس العمل البشرى فقط، وانظر لقوله تعالى ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾، ولم يقل تعالى مثلاً (فنجى الذين آمنوا) أو الذين أصلحوا أو ما شابه، بل هى المشيئة الإلهية بعلمها المطلق اللا محدود.

٢٠- العلم الدنيوى المادى علم قاصر غير كامل ولا يحيط إلا بالمحسوسات ﴿ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾.

٢١- الدعوة إلى الله تعالى تتطلب اليقين والبصيرة والبراءة من الشرك.

٢٢- الدعوة المثلى لله عز وجل تقوم بها الجماعة حيث أن الفردية فى الأداء حتى وإن كانت ممن لهم أرفع الدرجات كالأنبياء تكون صعبة شاقة ووجود الجماعة أقوى تأثيراً وأوسع انتشاراً ﴿ أَدْعُواْ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾.

٢٣- أساليب الدعوة متعددة وتشمل آليات كثيرة منها الوعيد والترهيب، ومنها الأدلة العلمية، ومنها التذكير بعبر التاريخ، ومنها ما يختص به الرسل والأنبياء من معجزات خاصة كالإنباء بالغيب مثلاً.

وهناك الكثير الكثير الذى يمكن استخلاصه من تلك الآيات الرائعة (١٠١-١١٠ فى السورة) مما يمكن تتبع أثره فى القصة القرآنية الواردة فى سورة يوسف والعثورعلى الحوادث التى أفرزت تلك العبر.

١٠- آية الختام:

ثم تأتى تلك الآية لتكون حقاً مسك الختام، آية واحدة تلخص كل الأهداف والعبر والنتائج من العشر آيات التى تسبقها، ومن ثم فمن المائة آية التى تروى الأحداث، يقول تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ

الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف ١١١)

وهكذا فتلك السورة القصصية لها أهداف تلخصها تلك الآية بوضوح شديد، وينبغي على قارئ السورة أن يضع تلك الأهداف نصب عينيه وهو يتابع الأحداث القرآنية مع توالي الآيات فلا يكون - والعياذ بالله - ممن لا يتجاوز القرآن الكريم فيهم صوتاً يتردد في الحناجر وحسب، وتلك الأهداف هي :

١- ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾، مما يعني استخلاص العبر ووضوح الرؤية خاصة من حيث الإسلوب الإلهي والمشيئة الربانية فيما يختص بكل الأحداث الإنسانية الدنيوية وكيفية تنظيم وترتيب الحياة، والإيمان دائماً بأن النظرة البشرية للأحداث القريبة هي دائماً نظرة يشوبها القصور وقلة العلم والبصيرة، بخلاف النظرة الإلهية التي ترى المطلق الكامل من المبتدأ للمنتهى، ولا يحكمها سجن الزمان والمكان الذى يحكم النظرة البشرية ويقيدها في جزئية صغيرة من الحدث الأكبر ككل، فتكون أحكامها دائماً خاطئة ظالمة لو لم تتذكر أن لله عز وجل سنناً «لطيفة» تخفى علينا.

لذا فالقصص القرآني، قصص له أهداف عميقة يراها المتفكرون المتأملون، ولم يرد بها المولى عز وجل هنا الترفيه والتسلية أو الرواية والإبهار فحسب بل هي كشف من المولى عز وجل لعباده عن جانب خفي من طرق إنفاذ المشيئة ولله الحمد والمنة.

٢- ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾، وتلك نقطة ثانية تترتب على النقطة الأولى، كما تترتب على السورة كلها، من حيث صدق التاريخ بظهر الغيب، وأساليب الصياغة المعجزة، والإبهار المنطقي واللغوى والرمزى والواقعي والرقمي، فمن غير المولى يستطيع أن يضع كل هذا وفوقه كثير في وريقات قليلة.

ولعل المعنى المراد بـ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ليظهر جلياً عند مقارنة القصة القرآنية نفسها، بالمماثل لها في الكتب الأخرى المشوشة بالتحريف البشرى، ولعل اختيار المولى لقصة يوسف عليه السلام ليفرد لها سورة كاملة من القرآن لدعوة لنا للمقارنة بين القرآن الكريم والكتب الأخرى وبالذات التوراة التي أوردت تلك القصة بصورة مسهبة تحتل أكثر

من نصف سفر التكوين (سفر التكوين يحكى من المنظور التوراتى خلق الكون وآدم وحواء وابنى آدم وقصة نوح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، بصورة مسهبة وبتفاصيل متعددة حاولوا بها إضفاء الدقة على القصص فكانت مطعناً لا يرقى إليه الشك فى التحريف والتزوير الذى ارتكبوه) ، إذن فلما كانت قصة يوسف عليه السلام هى من أطول إن لم تكن الأطول إطلاقاً بين القصص التوراتى، فالله عز وجل يرينا فى قرآننا الحقائق الواردة فى هذه القصة فى آيات قليلة، تشتمل على كل الأحداث، وتحذف الأباطيل المدسوسة، وتورد الحقائق الصحيحة، وتورد الأدلة على زيف التحريف البشرى، وتحذف الشخصيات الهامشية، وتبلور الأحداث، وتركز العبر والنتائج، بإسلوب يخالف أسلوب الحدوتة السردية التى تتبعها التوراة ... وما كان ذلك ليتسنى لمحمد ﷺ النبى الأمى الذى لا يقرأ لغته العربية ذاتها، فكيف له إن كان يفتريه أن يتبحر فى تلك الأحداث المكتوبة بالعبرية فى كتاب معقد متضارب كالتوراة، ثم لا ينقل الأحداث كما هى، بل هو يورد الإطار العام الصحيح فقط، أما كل التفاصيل فمختلفة كل الإختلاف بإسلوب مؤرخ متعمق متمكن من أدوات المنطقية والبحث العلمى فى النصوص والمخطوطات .. أوهل يتسنى ذلك لرجل أمى ﷺ ولد فى زمان تاريخى هو الجهل والجاهلية المجسدة، وفى بقعة مكانية منعزلة هى وكر كانت لا تتكاثر فيه إلا الخزعبلات؟

أترك لكم الإجابة والحكم مع إتخاذ أقصى احتياطات الحيادية والمنطقية والموضوعية وبعيداً عن كل العواطف.

٣- ﴿ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، ولفظ ﴿ وَلَكِن ﴾ هذه تترتب على النفى فى ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ ، فهى نقطة ثالثة تترتب على الثانية، ولعل فى تلك الحقيقة الواردة فى العبارة رداً على من يتساءلون: لماذا يا رب تورد سورة كاملة بالقرآن، لتوضع موضع مقارنة مع أكبر القصص بأهم سفر من أسفار التوراة، مما يسقط مصداقية القصة التوراتية، وبالتالى يضع التوراة كلها موضعاً حرجاً؟ وهنا يجىء الرد القرآنى المنطقى الرائع بأن وجود مثل تلك السورة وإن كان يكشف التحريف الوارد بالتوراة، إلا أنه يؤكد

وجود القصة ذاتها ... فالعلة في تلك الكتب ومنها التوراة هي التحريف أي التزوير البشرى في بعض المواضع والألفاظ والأحداث لخدمة أهداف معينة وليس الاختراع والابتداع لقصة كاملة لا وجود لها من العدم ... فلولا تأكيد القرآن على حدوث القصة بالفعل لكانت مثلاً شيئاً من التراث الشعبى كقصص ألف ليلة وليلة لا يوجد دليل عليها، ومن وجهة النظر العلمية البحتة فالقرآن هو الكتاب السماوى الوحيد المعلوم المصدر بكل الأدلة، وهو الكتاب الوحيد الذى تنطبق عليه شروط علم التوثيق.

ومن هنا كان نزول القرآن بأمثال تلك القصة له هدف هام هو الإقرار بوجود هذه الشخصيات، وإطار الأحداث التى مرت بها تصديقاً لما هو موجود فى الكتب السماوية السابقة، بالرغم من كشف الزيف البشرى الموجود بها، ولهدف آخر هو الإتيان بالحقائق المصححة لكل الأخطاء التي وقع فيها البشر عند تدوين هذه القصص.

٤ - ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾. أى تفصيل شديد لكل وقائع الأحداث، وهنا يضع المولى عز وجل يدنا على مفتاح التحريف الذى شاب الكتب السماوية ومنها التوراة، فالقصة القرآنية رغم شموليتها، تعد قصيرة نسبياً إذا ما قورنت بالقصة التوراتية الموجودة حالياً والممتلئة بالتفاصيل غير المنطقية والمتضاربة (عدد آيات السورة القرآنية ١١١ منها ١٠٠ فقط للأحداث أما القصة التوراتية فتقع فى ١٤ إصحاح يشتمل على ٤٤٩ فقرة).

فأن يأتى المولى عز وجل ويقول لنا أن القصة القرآنية هي المفصلة، إذن فالقصة الحقيقية التي جاءت في التوراة الصحيحة هي قصة مجملة لم تتطرق كثيراً للتفاصيل، ولهدف ما أراد كتاب التوراة أن يفصلوها ويضخموها كنوع من التفسير والشروح التى اختلطت بالنص الأصلي فيما بعد، أو كنوع من محاولة إضفاء الدقة والمصداقية على القصة والذى أتى بنتيجة عكسية، أو لمحاولة لى الأحداث التاريخية لتغليب الفكرة العنصرية عن سيادة بنى إسرائيل، وتخير الله لهم فقط من دون البشر، ثم العمق أكثر فى العنصرية لتغليب سبط واحد هو سبط يهوذا على باقى الأسباط كما نرى فى كل التوراة أو لأسباب متعددة غيرها. إذن فأهم آليات التحريف التوراتى كانت هى «التفصيل» الذى لم يرد

أساساً بالنص الأصلي. فالتفصيلات الكثيرة التي أضيفت على القصص الأصلي الموجود في التوراة سواء كانت تفسيرات وشروح للنص ثم اختلطت ودمجت بالنص الأصلي أو كانت إضافات مزورة بهدف إضفاء المصداقية مما قلب الأمور وأفسد المصداقية تماماً أو غيرها هي السبب الرئيسي لتهافت النص التوراتي وتضاربه وعدم تماسكه. فالله تعالى لا يخطئ، وخطأ واحد في كتاب مقدس - بداهة - يفقد كل الكتاب مصداقيته تماماً. ومثال صغير على ذلك نضربه من قصة يوسف التوراتية وهو الإصحاح ٣٨ كله، والذى لا علاقة له بالقصة مطلقاً بل هي قصة زنا وفسق وزنا محارم ومكائد ساذجة تختص بيهوذا وكنته ثامار مما أفقد النص اتصاله وأعطى إحساساً عميقاً بأن هذا الإصحاح الطويل كله مقحم على الرواية بلا هدف. أليس هذا هو مصداق قوله تعالى ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (الفرقان ٣٣).

٥- ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾، فالمولى عز وجل بهذه القصة القرآنية الكريمة وغيرها يعلمنا الكثير والكثير بإسلوب مشوق ممتع، فهو يكشف لنا الكثير عن ذاته المقدسة، وعن سننه في الخلق والخلائق، وينير أبصارنا في ظلمة الحياة، فتلك القصص ﴿ هُدًى ﴾، ومن ثم فهي ﴿ رَحْمَةً ﴾ لأنها تخرجنا في خضم أحداث الحياة من يأس النظرة البشرية المحبوسة في الجزئية لآفاق الأمل في رحمة الله الذى قد يذيقنا أحياناً ما نكره ولا يكون هناك طريق أمثل من ذلك للوصول لما نحب .. ولما كانت الثمرة لا تأتى إلا لمن كان مستعداً لها ومستحقاً، لذا فإن الهدى والرحمة هما لمن يقبل الله في قلبه ويعرفه سبحانه المعرفة الحقة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

ولعلني بعد أن انتهيت من محاولة التفسير المقارن لسورة يوسف، أجد نفسي أمام رأى خاص - فرضه علىَّ كم الإعجاز الهائل في السورة - وهو أن إسلوب المجادلة الذى أمرنا الله تعالى به في الآيتين ١٢٤-١٢٥ من سورة النحل:

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾.

إسلوب المجادلة هذا، رغم شموليته، إلا أن فيه تخصيصاً لليهود (أصحاب السبت) بالذات استناداً إلى الآية السابقة لآية المجادلة، حيث أن تخيير كلمة أصحاب ﴿ السَّبْتُ ﴾ يعني بجلاء أن هذا الكلام موجه أساساً عن أصحاب الفكر اليهودي والسبت. والذي تشير الآية الكريمة هنا أنه قد تم إقراره عليهم إلهياً، ليس لأنه صحيح عقائدياً وإلا لكان تعالى قد فرضه علينا في ملته السمحاء، بل لكثرة اللغط فيه وادعاؤه، لذا فقد ألزمهم تعالى بالعنت الذي افترضوه في دواتيهم الرقمية. أما أسلوب مجادلتهم ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ فأرى أنه هو ﴿ أحسن القصص ﴾ أي بالقصص القرآني عموماً وسورة يوسف خاصة التي وردت فيها تلك العبارة الأخيرة حيث أن سورة يوسف بالذات تفضح كل الأكاذيب التوراتية وتحريفها كما رأينا، وليس فقط بمعنى الرفق واللين اللتين شملتهما عبارة ﴿ الموعظة الحسنة ﴾.

تم تفسير سورة يوسف

والحمد لله والمنة من قبل ومن بعد

الباب الثانى
الخفايا المذهلة لسورة يوسف
(علمياً وتاريخياً)

عجائب رقمية من سورة يوسف:

لأن سورة يوسف هي أساساً عن نبي من أشهر أنبياء بني إسرائيل، وهو النبي المختار من الجيل التالي لإسرائيل (يعقوب) ذاته، وهو الذي أنقذ بني إسرائيل من الهلاك في المجاعة، وهو النبي الذي أدخلهم مصر، لذا فمقارنة القصة القرآنية التي وردت بشأنه في سورة كاملة، بالقصة التوراتية هو أمر حتمي ولا مفر منه على الأقل من الجانب اليهودي، لذا فالقصة القرآنية في اختلافاتها العديدة عن القصة التوراتية تعطي في ثناياها الكثير من المؤشرات على صحة وحيها، من بين سطور التوراة ذاتها ومن تلك المؤشرات، المؤشرات الرقمية، ودعنا نطالع بعضها :

١- السبعة سبعات ٧×٧:

تتميز القصة القرآنية عن القصة التوراتية بذكر هذا الرقم، فهناك سبعة رحلات لإخوة يوسف بين مصر وفلسطين (التوراة قالت خمسة) وبالإضافة لتلك السبعة، هناك سبع بقرات شداد، وسبع بقرات عجاف، وسبع سنبلات خضر، وسبع سنبلات يابسات، وسبع سنين رخاء، وسبع سنين شداد، وبهذا يكتمل الرقم سبعة سبعات في القصة القرآنية.

والرقم سبعة له قدسية هائلة في العقيدة اليهودية، فحسب اعتقادهم أن الله عز وجل خلق الكون في ستة أيام ثم استراح في السابع (السبت) ، لذا فيوم السبت (سابع أيام الأسبوع) مقدس لا يقومون فيه بأي عمل كان طبقاً للتشريعات الموجودة في التوراة (الخروج ٢٠ :٨-١١) و (٣١ :١٢-١٨) و (٣٥ :١-٣) وغيرها، وقد فرض الله تعالى عليهم فريضة السبت هذه وعاقب من خالفها منهم بمنتهى الشدة، كما جاء في القرآن قصة أصحاب السبت، وكما جاء في التوراة أيضاً، وقد امتد هذا التشريع من نطاق البشر ليشمل الأرض نفسها، فيما يسمى شريعة السنة السابعة، ثم شريعة سنة اليوبيل بعد سبع سبعات من السنين أي بعد مرور ٤٩ سنة وحلول السنة الخمسين المسماة سنة اليوبيل، والتي لها تشريعات توراتية خاصة.

جاء في التوراة : [شريعة السنة السابعة : وقال الرب لموسى في جبل سيناء : «أوص بني إسرائيل : متى جئتم إلى الأرض التي أهبكم، لا تزرعوها في السنة السابعة، ازرع حقلك ست سنوات، وقلم كرمك ست سنوات، واجمع غلتهما. وأما السنة السابعة ففيها تريح الأرض وتعطيها سبتاً للرب. لا تزرع فيها حقلك ولا تقلم كرمك. لا تحصد زرعك الذي نما بنفسه، ولا تقطب عنب كرمك المحول، بل تكون سنة راحة للأرض. وما تغله الأرض في سنة الراحة يكون طعاماً لك ولعبدك وأمتك وأجيرك والمستوطن النازل عندك، وكذلك تكون كل غلتها طعاماً للبهائم والحيوان الراعي فيها.

تقديس سنة اليوبيل: وبعد انقضاء تسع وأربعين سنة، أي بعد سبع سبوت من السنين، في اليوم العاشر من الشهر السابع، من كل خمسين سنة عبرية، تنفخون بوق الهتاف في يوم الكفارة في جميع أرضكم، وتقدسون السنة الخمسين وتعلنون فيها العتق لجميع سكانها، فتكون لكم يوبيلاً، وترجعون كل واحد ملكه وعشيرته. وتكون لكم السنة الخمسون هذه يوبيلاً، لا تزرعوا فيها ولا تحصدوا غلتها ولا تقطفوا كرمها المحول. إنها يوبيل، سنة مقدسة لكم. لا تأكلوا إلا ما يجنى مباشرة من الحقل. وفي سنة اليوبيل هذه يرتد كل واحد إلى ملكه. فإن بعت مواطنك، أو اشتريت منه، فلا تظلمه. يكون شراؤك من صاحبك وفقاً لعدد السنين بعد اليوبيل، وبيعه لك يكون بناء على سني الغلة. فكلما كثرت السنون تزيد قيمته، وكلما قلت السنون ينخفض ثمنه، لأنه يبيعك بناءً على عدد الغلات، فلا يظلمن أحد صاحبه، بل اتق إلهك، لأني أنا الرب إلهكم. فاعملوا بفرائضي وراعوا أحكامي ومارسوها، لتسكنوا في الأرض آمنين] (اللاويين ٢٥ :١-١٨)

ومثل تلك القداسة الرقمية تنطبق أيضاً على المحاصيل وعلى كل شيء كما تنطبق على الأرض.

جاء في التوراة : [عيد الأسابيع : احسبوا سبعة أسابيع منذ ابتداء حصاد الزرع، ثم احتفلوا بعيد الأسابيع للرب إلهكم، حيث تحضرون ما تسخو به نفوسكم حسب ما

يباركك الرب به، فتحتفلون أنتم وأبناؤكم وبناتكم وعبيدكم وإماؤكم، واللاويون المقيمون في مدنكم، والغريب واليتيم والأرملة الذين بينكم، لدى الرب في الموضع الذى يختاره ليحل اسمه فيه. وتذكروا أنكم كنتم عبيداً في مصر، فأطيعوا هذه الفرائض واعملوا بها] (التثنية ١٦ :٩-١٢).

كما أن هناك المئات من الأمثلة الأخرى التي تحكم كل أنشطة الحياة اليهودية حسب التشريع التوراتي منها [«لاتؤخر تقديم باكورة محصول بيدرك ومعصرتك، واعطني أبكار بنيك، وكذلك تفعل ببقرك وغنمك، سبعة أيام تبقى البكر مع أمه، وفي اليوم الثامن تقدمه لي»] (الخروج ٢٢ .٢٩-٣٠).

وعن شريعة الختان التي تعد من أهم أعمدة العقيدة اليهودية، جاء في الإنجيل عن مريم عليها السلام [ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سمي يسوع] (لوقا٢ :٢١).

ويظهر من هذا النص أن أيام التطهير اللازمة بعد النفاس هي سبعة أيام وكذلك فالصبي يجب أن يمر بدورة أيام سباعية كاملة قبل ختانة. وهناك غيرها العشرات من النصوص في العهدين القديم والجديد، والتي تشير إلى قدسية الرقم سبعة ومضاعفاته وبالذات السبعة سبعات كما سنفسر لاحقاً في باب «الخرافة الرقمية التوراتية».

وكما تنطبق تلك القدسية الرقمية على الأرض والمحاصيل فإنها تنطبق على السنوات من حيث حساب سنوات سبع، ثم السبع x سبع (سنة اليوبيل)، كما يمكن تطبيق ذلك على الأيام (دورات سباعية من ستة أيام للنشاط ثم تكتمل بدورة واحدة لإكمال السبعة)، على النمط الذى إدعوه لخلق الله للكون، وبالتالي يتبعونه في أنشطة الحياة، ونرى أن تلك التشريعات مطبقة أيضاً على الأيام نفسها.

جاء في التوراة : [يوم الخمسين: ثم تحسبون سبعة أسابيع كاملة، ابتداءً من اليوم التالي للسبت الذى تحضرون فيه حزمة الترجيح، فتحسبون خمسين يوماً إلى اليوم التالي للسبت السابع، ثم تقربون تقدمة جديدة للرب] (اللاويين ٢٣ :١٥-١٦)

ومن هنا نرى أن القصة القرآنية تفردت عن التوراتية برقم ٧ x ٧ أو السبعة سبعات

المقدسة فى التوراة، ولم تستطع التوراة الإتيان بها أو تحقيقها فى تلك القصة، كما هو ملاحظ كما سيأتى فى كل التأريخ التوراتى بإسلوب نمطى يعتمد على السباعيات ومضاعفاتها، وكأن المولى عز وجل يقول لهؤلاء اليهود أن الرقم المقدس سيوجد فقط فى ثنايا النص المقدس الصحيح، عموماً فكل الفكرة التوراتية تنزع إلى تزييف التاريخ بهذه الدورات السداسية من النشاط يعقبها دورة كمون واحدة لتكتمل دورات سباعية متكاملة، كما سنوضح فى باب الخرافة الرقمية التوراتية.

ملحوظة (١) : من المنظور الرقمي نستطيع أن نرى أن يوسف عليه السلام لما عبر رؤيا الملك فسر ١٤ بنداً كما أسلفنا بـ ١٥ بنداً، بإضافة (١) عام ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (يوسف ٤٩)، أى أن إضافة الرقم (١) هنا أكمل السبعة سبعات التى هى ٤٩ إلى ٥٠ أى أكمل رقم اليوبيل - الرقم اليهودى المقدس - فى مفردات الحلم.

ملحوظة (٢) : القصة القرآنية الواردة فى سورة يوسف بها سبعة سبعات أخرى خلاف التى ذكرناها من قبل، فالمقدمة والأحداث تقع فى مائة آية بالضبط (رقمى يوبيل ٢ x ٥٠)، ومجموعة الدورات الأولى الواقعة فى الخمسين آية الأولى هى دورة المحنة والأكاذيب التى أحاطت بيوسف، أما الدورة الثانية فهى تبدأ بالتحقيق الملكى فى تهم يوسف وتدور كلها حول يوسف فى مرحلة القوة والقدرة، ويظهر هذا التقسيم السباعى الذى نوهنا عنه فى مجموعة الدورات الأولى (الخمسين آية الأولى) بالذات بشكل واضح جداً، حيث نجد أن آيات المقدمة والحلم يبلغ تعدادها (٦) آيات (دورة نشطة لأن الأحداث التى ترتبت عليها لم تكتمل إلا بإنتهاء القصة)، ثم يعقبها ١٤ آية تمثل مؤامرة الإخوة المكونة من شقين أحدهما المباحثات الكلامية، يعقبها التنفيذ الفعلى (دورتين كاملتين لاكتمال المؤامرة ٢ x ٧)، ثم تأتى آيتان (٢) الأولى منهما عن مرحلة الصبى والثانية عن مرحلة النضج والاشتداد العمرى ليوسف، ثم تأتى ٧ آيات تحكى مؤامرة إمرأة العزيز (دورة مكتملة لإكتمال المؤامرة)، ثم ٦ آيات تحكى مؤامرة النسوة (دورة نشطة لعدم اكتمال المؤامرة والتى أدى انهيارها إلى انهيار المؤامرة الأولى)، ثم تأتى ٧ آيات هن

أحداث حلم صاحبى السجن، ثم تأتى ٧ آيات هن حلم الملك وتفسيره، ليصل عدد الآيات هنا إلى ٤٩ آية (٧ × ٧)، يعقبها الآية رقم ٥٠ والتى أشارت إلى طلب الملك لخروج يوسف من السجن أى كانت تشير إلى أول إرهاصة لفك الأسر (راجع تشريعات اليوبيل)، وعلى هذا نرى أن النصف الأول من الأحداث مبنى كله على دورات سباعية ما عدا حدثين لم يكتملا فتمثلا فى دورات سداسية هما حلم يوسف ذاته، ومؤامرة النسوة (المؤامرة الثانية)، ولإكمال ذلك أتى الله بآيتين وسط الأحداث أحدهما عن مرحلة الصبا، ويمكن إضافتها لجزئية حلم يوسف الذى حدث فى صباه، أما الثانية فهى عن مرحلة بلوغ الشدة فى العمر والنضج ويمكن إضافتها لأحداث مؤامرة النسوة.

أى أن الترتيب الرقمى لآيات أحداث النصف الأول من أحداث السورة (٥٠ آية) تقع كالتالى ٦، ١٤، ٢، ٧، ٦، ٧، ٧، والتى تمثل على الترتيب (المقدمة مع حلم يوسف، ثم مؤامرة الإخوة، ثم آيتين للتدريب الإلهى فى فترتين عمريتين مختلفتين، ثم مؤامرة امرأة العزيز، ثم مؤامرة النسوة، ثم حلم صاحبى السجن، ثم حلم الملك).

ملحوظة (٣): بالنظرة المدققة نستطيع أن نلاحظ أن آيات الأحداث الخالصة تقع فى ٩٧ آية، وهناك ٣ آيات للمقدمة و ١١ آية للعبر فى نهاية السورة إذن فكل الآيات التى تشتمل على الفلسفة المستخلصة من أحداث السورة، تقع فى ٣ + ١١ = ١٤، أى عدد ٢ دورة سباعية مكتملة.

٢- التقسيم العشرى:

من العسير جداً تخيل المصادفة فى الرقم الممثل لعدد آيات السورة القرآنية، خاصة إن انطبقت خصائص الرقم على تقسيم عبقرى للسورة ذاتها، فعدد آيات السورة هو ١١١، أى رقم ١ فى خانة المئات، ثم ١ فى خانة العشرات، ثم ١ فى خانة الآحاد. أى رقم (١٠٠) ثم عُشره ثم عُشر العُشر بالضبط، ولو عدنا لآيات السورة الكريمة لوجدنا أن الـ (١٠٠) آية الأولى هى كل أحداث القصة بالتمهيد اللازم لها بالكامل، ثم تأتى ١٠ آيات (عشر المائة) هن عبر وأحكام وموعظة تلخص المائة وتلقى عليها الضوء، ثم تأتى آية

واحدة (١) أى عشر العشرة تلخص العشرة السابقة لها، ومن ثم تلخص وتبلور المائة الأولى.

والعارف بالتوراة يجد أن نظام التقسيم العشرى متغلغل بعمق فى الديانة اليهودية، حيث أنه هو أساس النظام الاقتصادى الدينى، ونظام الزكاة عندهم المسمى (نظام العشور)، حيث يقوم كل اليهود بتقديم أفضل عشر ١ / ١٠ من مكاسبهم للاويين (طبقة كهنوتية هم أبناء لاوى أكبر الأسباط ولا ميراث لهم فى أرض إسرائيل إلا العشور).

ثم يقوم هؤلاء اللاويون بتقديم أفضل عشر من هذا العشر لطبقة الكهنة (أبناء هارون وهم صفوة اللاويين).

فالناتج الاسرائيلى كله يبلور أحسن عشره فى صورة زكاة يتلقاها اللاويون والذين بدورهم يبلورون أحسن عشر من هذا العشر لبنى هارون، فالتقسيم العشرى هو من الطقوس المقدسة التى يحرص اليهود على تطبيقها بحرفية تجنباً لغضب الله.

جاء فى التوراة: [عشور اللاويين : وقال الرب لموسى: «أوص اللاويين وقل لهم: متى أخذتم من الإسرائيليين العشر الذى جعلته نصيباً لكم، تقدمون منه عشره للرب. فيحسب تقدمتكم مثل الحنطة من البيدر أو تقدمة عصير الكرمة. أوهكذا تقدمون أنتم أيضاً تقدمة للرب من جميع عشوركم التى تأخذونها من بنى إسرائيل، وما تقربونه للرب، تعطونه

لهارون الكاهن] (العدد ١٨ : ٢٥-٢٨)

بتذكر النص السابق نتساءل هل يمكن أن يكون هناك مصادفة بتطابق الخطة العامة للسورة القرآنية مع الخطة الإقتصادية التوراتية القائمة على نظام العشور، مع الأخذ فى الإعتبار، أن مهمة يوسف عليه السلام إبان وجوده فى مصر، كانت مهمة اقتصادية فى المقام الأول، حيث أن السورة القرآنية تتبع نفس التقسيم العشرى الذى أسلفناه؟

٣-الرقم١١١:

عدد آيات سورة يوسف كما أسلفنا هو ١١١ آية، وتحليل هذا الرقم هو ٣ x ٣٧، وعموماً فالرقم ٣٧ رقم غير مألوف أو مطروق ولا يقبل القسمة إلا على نفسه، ولو نظرنا لقصة يوسف التوراتية لوجدنا فيها ثلاثة ٣٧ أى ٣ x ٣٧، وهى :

أ - تبدأ قصة يوسف فى سفر التكوين التوراتى من الإصحاح ٣٧ وحتى نهاية السفر.

ب- عاش يوسف ١١٠ سنة حسب القصة التوراتية (التكوين ٥٠ : ٢٢ و ٢٦)، أما أبوه يعقوب فقد عاش ١٤٧ سنة (التكوين ٤٧ :٢٨)، فالفرق بين مدة حياة يعقوب ويوسف عليهما السلام هو ١٤٧ - ١١٠ = ٣٧ سنة.

جـ- التقى يوسف بإخوته كحاكم لمصر لأول مرة وكان عمره ٣٧ سنة (كان عمره ثلاثون سنة عندما تولى الحكم (تكوين ٤١ :٤٦) ثم مرت سبع سنوات رخاء (تكوين ٤١ -٤٧) ثم قابلهم فى بداية المجاعة التى أعقبت سنوات الرخاء أى كان عمره ٣٧ سنة).

٤-الرقم١١:

تمت أحداث قصة يوسف عليه السلام كلها فى مائة آية ثم أعقب ذلك ١١ آية (ايات العبر والنتائج)، ولابد أن نعجب إن تذكرنا أن إخوة يوسف كانوا ١١ أخاً، وكذلك كان ترتيبه بين إخوته هو الرقم ١١، وحاصل ضرب ١١ x ١٠ = ١١٠ وهو مدة عمر يوسف فى الدنيا، ،كذلك فقد جاء ذكر يوسف فى القرآن ٢٧ مرة، وجاء ذكر يعقوب ١٦ مرة، فالقرآن الكريم ذكر يوسف أكثر من يعقوب ١١ مرة.

أما سورة يوسف في القرآن، والتى تتحدث عن يوسف وإخوته (أبناء يعقوب أو الأسباط)، فيقع ترتيبها رقم ١٢ بين سور القرآن الكريم أى بعدد أبناء يعقوب الإثنى عشر سبطاً بالضبط، وكذلك تبدأ السورة فى الجزء ١٢ من القرآن الكريم.

٥- منتصف السورة

إذا أردنا أن نطالع الآية التى تقع رقمياً فى منتصف السورة تماماً نجد أنها الآية ٥٦، حيث تقع ٥٥ آية قبلها و ٥٥ آية بعدها، والمدهش أن تلك الآية بالضبط هى منتصف الأحداث أيضاً، فقبلها ٥٥ آية عن قصة يوسف عليه السلام فى مرحلة الاستضعاف وبعدها ٥٥ آية عنه فى مرحلة القوة والحكم.

يقول تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف ٥٦)

أى أن الآية ٥٦ هى المنتصف الرقمى للسورة وكذلك فهى المنتصف الحدثى لها أيضاً.

٦- الشفرة الرقمية لسورة يوسف

وتلك هى معجزة المعجزات الرقمية حيث يؤدى حلها إلى ظهور اسم يوسف عليه السلام أو لقبه بالمصرية القديمة، وكذلك بالعبرية (اللقب الذى ناداه إخوته به فى مصر ولم تذكره التوراة الموجودة لدينا) وبالتالى التعرف على شخصيته فى التاريخ كما سيأتى.

الخرافة الرقمية التوراتية:

يقوم التزييف الرقمى والزمانى والتاريخى الإسرائيلى على فكرة بسيطة جداً، لو تنبهنا لها ووضعناها فى الإعتبار، لاستطعنا أن نفهم كم التزييف التوراتى وبالتالى استبعاد التوراة نهائياً كأداة للتاريخ بأى شكل.

تقوم فكرة الخلق والحياة التوراتية على دورات سداسية من النشاط تعقبها دورة كمون لتكتمل الدورة السباعية، فدائماً يحاولون جعل كل التاريخ والحياة تتأرجح بين رقمى ٦، ٧، فالستة هى رمز النشاط والحياة والازدهار، ولذا فرموزهم السياسية كلها

تتخذ الرقم ٦ شعاراً، مثل النجمة السداسية والشمعدان السداسي وأساليب القرابين السداسية النمط، أما ما يختص بالتاريخ ككل فهو عندهم لابد أن يمر في سباعيات متتالية لأن ذلك - في رأيهم - هو الإسلوب الفكرى النمطى الإلهى، ولعلنا نذكر ما نوهنا إليه من قبل من أهمية الرقم ٧ ومضاعفاته في الطقوس العقائدية التوراتية.

وتعالوا نستعرض كم الخرافة الزمنية القائمة على تلك الفكرة لإدراك كم لووا عنق الحقيقة ليطوعوها لمنظورهم الرقمي.

١- الخلــق:

أتم الله خلق الكون كله والكائنات الحية جميعاً في دورة نشاط مدتها ٦ أيام ثم استراح أو سَبَتَ في دورة خمول وكمون مدتها يوم لتكتمل دورة الخلق بالرقم ٧.

وطبعاً لم يقل لنا كتاب التوراة ماذا فعل الله بعد أن مر بتلك الدورة السباعية اللهم إلا التدخل في حياة البشر وبنى إسرائيل بالذات بإسلوب يعتمد على الدورات السباعية المتكررة.

ولعله من الهام جداً التذكير هنا بأن القرآن الكريم لم يساير تلك الفكرة السباعية اليهودية في الخلق، فإن كان القرآن قد أقر بأن الله عز وجل أتم دورة الخلق في ستة أيام أو أحقاب، فهو لم يقر بدخول الله عز وجل في فترة زمنية سابعة من الكمون والراحة بل على العكس، فهو استوى على العرش المجيد للأبد ليدبر أمر السماوات والأرض، وفترة الاستواء هذه فترة منطقية جداً تمتد منذ اكتمال الخلق وللآن وللأبد، فهي لاتخضع لتقسيم زماني معين يمكن مقارنته بالفترة الزمنية للخلق، كما أنها فترة فعل إيجابي مستمر وليست فترة راحة أو كمون أو خمول، مما يعطى الفكرة القرآنية المصداقية المنطقية التي تتطلب بداهة عدم غياب الخالق عن كونه المخلوق، أو وجود محدودية لقدراته عز وجل تتطلب المرور بفترة راحة كالتي تمر بنا نحن البشر، يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

(الأعراف ٥٤)

والمتأمل فى تلك الآية الكريمة يرى العجب العجاب من المنطق القرآنى، فالخلق تم فى ستة أيام أو أحقاب ثم استوى الخالق جل علاه بعد ذلك على عرشه المجيد، ولم يقل مثلاً (استوى في اليوم السابع)، مما يحدد فترة للإستواء أو حتى بدايتها بيوم معين، ومن هنا فالقرآن يرفض فكرة دورات النشاط والكمون، فالقدرة الإلهية شىء أزلى متعاقب مثل دورة الليل والنهار التى تسير بشكل (حثيث) أى دائب دائم لا تقطع فيه، وهو فى هذا الاستواء مدبر أزلى لأمر الكون كله الذى هو ﴿ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ ﴾ بديمومة أزلية لايغيب فيها الخالق عن مخلوقاته، وهو لم يكتف بالخلق فقط بل ﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾، أى الخلق مع ديمومة الإشراف على مجريات أمور هذا الخلق.

وللإيضاح ومن نفس المنطلق يقول تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (يونس ٣)

وهو القائل سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد ٤)

والآيات الثلاثة السابقات كلها تتناول موضوع الخلق بإعجاز واقتدار منطقى ينفى تماماً فكرة الدورات الإلهية، فهو فى الآية من سورة يونس يقرن الاستواء بالتدبير الأزلى للأمر، فلا يسمح بتدخل كائن من كان فى أى صغيرة أو كبيرة إلا بإذنه وبمشيئته، وهو فى الآية من سورة الحديد يقرن الاستواء بكمال العلم المطلق فلا توجد غائبة عن علمه سبحانه مطلقاً فى السماوات أو الأرض أو الإنسان ذاته.

لذا فوجوده جل علاه فى كونه وجود ديمومة أزلية، بعلم مطلق لا خفاء فيه، وتدبير دائم لا يتوقف.

وباختصار فالفكرة القرآنية مناقضة تماماً لفكرة (دورة النشاط والكمون الإلهى)

الموجودة في التوراة. بل هو ديمومة تواجد إيحائي أزلية لا تختفي عن الكون ولا تمر بدورات .. بل أن الستة أحقاب أو أيام ذاتها ليس فيها تقطع أو تعاقب في الخلق كالفكرة التوراتية التي تقول أن الله عز وجل صنع كذا في أول يوم، وكذا في ثاني يوم، وهكذا حتى أتم الخلق في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع .. لكن الفكرة القرآنية تقوم على تداخل الخلق وتشابكه بلا انفصال لمفرداته مثلما إدعت الفكرة التوراتية التي أثبت العلم الحديث فشلها الذريع بهذا التصور، وهناك آية قرآنية أخرى تصف مدة الخلق بثمانية أيام وليس ستة كما أقر سبحانه في معظم آيات الخلق، والتفسير الوحيد لذلك هو تداخل الخلق وليس انفصاله، فإن كان أحد المفردات كخلق الأرض مثلاً تم في يومين، فإن هذين اليومين ليسا منفصلين عن خلق السماوات مثلاً، بل كانا يتمان في نفس التزامن والتوقيت مع خلق السماوات مما يتلاقى مع الحقائق العلمية الثابتة.

يقول تعالى ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (فصلت ٩-١٢)

والقارئ السطحي يعدد أيام الخلق في الآيات السابقة (٢ + ٤ + ٢=٨) وقد يظن أن هناك تضارباً رقمياً كما حاول بعض المستشرقين إثارة هذا الموضوع، والحقيقة أن ذكر أحقاب الخلق بهذا الشكل هو الإسلوب العلمي الوحيد المقبول، فاليومين الأخيرين (يومي خلق السماء) لم يكونا منفصلين أو يقعان في ترتيب بعد الستة الأولى المخصصة للأرض، بل هما متداخلان معها في نفس الفترة الزمانية، أي أنه بينما كانت الأرض تتكون، كانت السماء تتكون أيضاً، وهذا هو ما أثبته العلم الحديث تماماً، وسبحان الله العظيم، والمتأمل أيضاً في تلك الآيات يرى أن الخلق الفعلي ذاته تم في يومين بالنسبة للأرض، وكذلك في يومين بالنسبة للسماوات، أي أن الفترة الزمنية لخلق الأرض والسماوات كانت متساوية،

وتلك حقيقة علمية أخرى تقر أن الأرض هي من نفس مكونات السماء، وجزء منها مشابه لها، ولعل كلمة ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾، هنا تشير لحدوث التمايز والتفرد المتدرج فى تكوين مفردات السماوات، والذى أدى لتكوين مفردات مميزة لكل منطقة كونية، حيث أن تكاثف المادة الكونية الأولى أدى فى بعض المناطق لتكون النجوم بأنماطها وأشكالها المختلفة، وكذلك التوابع (الكواكب) وتوابع التوابع وهكذا، كما أن تكاثف المادة الكونية لم يحدث فى مناطق أخرى بل بقى فيها متناثراً مشتتاً فيما يسمى مناطق الفراغ الكونى.

عموماً فالحديث يطول جداً عن علمية فكرة الخلق القرآنى، وما يهمنى هنا هو إثبات أن القرآن لم يساير فكرة دورات النشاط والراحة الإلهية كما صورتها التوراة بصورة منافية لطبيعة الإله المنزهة وكذلك للحقائق العلمية الثابتة.

أما الخرافة الرقمية الزمانية فى التوراة فقد أدت إلى كل الزيف الزمنى والتاريخى بكل التدليس الذى خلط الأوراق عند المؤرخين، فالرقم ٦ فى التوراة هو رمز النشاط الإلهى، وهو شعار شعب اليهود الذى تكتب له دائماً الغلبة وسط النشاط الإلهى فى حدود هذا الرقم، مما أدى إلى إتخاذ الرموز السياسية اليهودية من الرقم ٦ مثل النجمة السداسية لداوود والشمعدان السداسى وغيره، فهم بحق «شعب التدليس» أو شعب السداسيات»، أما الدورات الزمنية الكاملة فى التاريخ عندهم فلابد من تحويرها لتسير مع الرقم ٧ رقم الدورة الإلهية الكاملة.

٢- أجيال البشرية:

خرافة رهيبة ناقشناها فى كتاب «الخلق»، ولما كان التعاقب يتم من جيل لجيل باسم شخص واحد فقط كعلامة لكل جيل، فكان لابد للشخص المميز للجيل ٧ من خصوصية متفردة .. والسلسلة عندهم هى آدم - شيث - انوش - قينان - مهللئيل - يارد - اخنوخ - متوشالح - لامك - نوح، والرقم ٧ فيها هو أخنوخ وهو الوحيد الذى أضفت عليه التوراة قصة عجيبة هى «وسار أخنوخ مع الله، ثم توارى من الوجود، لأن الله نقله إليه»

(تكوين ٥ : ٢٤) ، فأخنوخ رمز الجيل السابع ، انتقل ورفع للسماوات ليخلد مع الله ولم يمت كباقي خلق الله بالإسلوب الطبيعي .

٣- عدد أنفس بيت يعقوب في كنعان :

والتي انتقلت لمصر كان ٦٦ أى الرقم ٦ مكرر مرتين ، ولتكتمل الراحة بالاجتماع الأسرى ، ومن ثم تنتهى المأساة أضيف إليهم يعقوب ذاته ثم يوسف وابنيه إفرايم ومنسى الموجودين في مصر ليكتمل الرقم إلى ٧٠ أى عشرة سبوتات (١٠ × ٧) (التكوين ٤٦ : ٨-٢٧) .

٤- عدد أنفس بني إسرائيل الخارجة من مصر مع موسى عليه السلام :

كان ستة مائة ألف من الرجال والمشاة (٦٠٠,٠٠٠) أى مائة ألف ستة ، ذلك لأن الخروج كان فعلاً يقتضي وجود ذروة دورة النشاط السداسية .. عموماً فهذا الرقم ذاته خرافة أثبتت الإحصائيات زيفها وعدم تماشيها مع المنطق - يقول زينون كاسيدوفسكى فى التعقيب على هذا الرقم فى قصة الخروج ومحاولة تبريره : [يرى بعض العلماء أن محررى النص التوراتى هم الذين ارتكبوا ذلك الخطأ ، لأن الحديث يجرى عن ستة آلاف رجل مسلح ، وإذا ما أضفنا إليهم النساء والأطفال يصبح عددهم خمسة وعشرون ألف نسمة ، كما أشار هؤلاء الباحثون إلى أن الكلمة اليهودية القديمة (elef) والتى لا تعني العدد ألف فقط بل وتعنى من جملة ما تعنيه أيضاً « فصيل ، جماعة عائلية وجيل » يعطينا هذا التأويل لكلمة (elef) رقماً أقل أيضاً ؛ لأن المقصود هنا ستة مائة عائلة فقط وليس ست مائة ألف مسلح . ونحن نرى أن هذا الرقم الأخير هو الأقرب إلى واقع الأشياء ، وما يدعم هذا الإفتراض أن قابلتين فقط كانتا كافيتين للقيام بمهام توليد النساء الإسرائيليات كلهن فى مصر] انتهى .

٥- سنوات السبى البابلى :

بتتبع هذا الموضوع نرى أن الفكرة اللاهوتية التوراتية كانت تنص على أن غضب الرب على إسرائيل ومملكة يهوذا كان دينونة حتمية بسبب خطاياهم ، لذا قضى الله

عليهم بالسبى فى بابل. حتى تستوفى الأرض سبوتها أى فى ٧٠ سنة، فأما الخطيئة الرئيسية التى أدت إلى هذا العقاب فكانت هى عدم المحافظة على الدورة الرقمية الإلهية (السبوت)، ونرى ذلك واضحاً جداً فى سفر إرميا المتنبيء بالغزو البابلى ودمار أورشليم وفى فقرة طويلة بعنوان «التشديد على المحافظة على السبت» (ارميا ١٧ :١٩-٢٧) مما يعكس الأثر الشديد للدورة الرقمية الساعية فى الفكر الكهنوتى الإسرائيلى.

حيث جاء فى تلك الفقرات : [هذا ما يقوله الرب : احترسوا لأنفسكم ولا تحملوا أحمالاً فى يوم السبت ولا تدخلوها فى بوابات أورشليم، ولا تنقلوا حملاً إلى خارج بيوتكم فى يوم السبت ولا تقوموا بأى عمل إنما قدسوا يوم السبت كما أوصيت اباءكم». مع ذلك لم يطيعوا ولم يصغوا، بل قسوا قلوبهم لئلا يسمعوا ولئلا يقبلوا التأديب] (ارميا ١٧ :٢١-٢٣)

أما الخطيئة الأخرى التى ساقها ارميا لتبرير سبب هذا العقاب الإلهى فكانت نقض الميثاق الذى أبرمه الله مع بنى إسرائيل القائل بـ : [هذا ما يعلنه الرب إله إسرائيل : «إنى عقدت ميثاقاً مع آبائكم حين أخرجتهم من ديار مصر من أرض العبودية قائلاً : ليطلق كل واحد منكم فى ختام سبع سنين أخاه العبرانى الذى باع نفسه لك، وخدمك ست سنوات، ليكون حراً، فلم يطعنى آباؤكم ولم يسمعوا لى] (ارميا ٣٤ :١٣-١٤)

ما يعنى عدم احترام تشريعات السنة السابعة وتشريعات اليوبيل، وهكذا نرى أن خطيئة بنى إسرائيل التى كان عقابها السبى ببابل كانت هى عدم احترام الدورات الإلهية السداسية والسباعية فى المواقيت والتشريعات.

أما عن المدة الزمانية للعقاب بالسبى فكانت لا تزال تحترم بشدة هذا الفكر الرقمى اليهودى حيث جاء فى نبوءة ارميا : [فتصبح هذه الأرض بأسرها قفراً خراباً، وتستعبد جميع هذه الأمم لملك بابل طوال سبعين سنة. وفى ختام السبعين سنة أعاقب ملك بابل وأمته، وأرض الكلدانيين على إثمهم، وأحولها إلى خراب أبدى] (ارميا ٢٥ :١١-١٢).

وكذلك جاء فى نفس النبوءة : [ولكن بعد انقضاء سبعين سنة عليكم فى بابل،

ألتفت إليكم وأفي لكم بوعودى الصالحة بردكم إلى هذا الموضع] (ارميا ٢٩ : ١٠) .

وهكذا نرى أن مدة السبى التى زعموا أن الله قد حددها لهم تقع فى عشرة دورات إلهية كاملة (٧×١٠) حتى تستوفى الأرض سبوتها (حسب التعبير التوراتى) .

إذن والخلاصة أن الخطأ كان هو عدم اتباع الدورات الرقمية التوراتية من قبل بنى إسرائيل بصرامة ، وأما العقاب فكان محترماً لتلك الدورات .

٦-حلم الملك (الفرعون) وتفسير يوسف له:

فى القصة التوراتية عن حلم (الفرعون) نجد أن الرقم ٧ هو المسيطر من حيث سبعة بقرات سمان ، وسبع عجاف ، وسبع سنابل خضر ، وأخر يابسات ، وسبع سنوات رخاء ، وسبع مجاعة وشدة ، ومع ذلك نرى القصة التوراتية تعجز عن إضافة السنوات السبع السابعة ليكتمل رقم اليوبيل (السنة الخمسين أى السنة الآتية بعد سبعة سبعات) ، أما القرآن الكريم فأكمل لهؤلاء اليهود سبعة اليوبيل بأن ذكر أن الإخوة قطعوا المسافة بين مصر وكنعان سبعة مرات ليكتمل الرقم القرآنى فى القصة سبعة سبعات ، أما القصة التوراتية فأوردت أن عدد مرات الرحلة كان خمسة فقط ، وهذا هو الإعجاز الرقمى الذى يرسم لبنى إسرائيل قصة نبيهم كما ينبغى أن تكون حسب منطقهم الفكرى الرقمى ، مما يثبت أنه على دراية عميقة جداً بالإسلوب الرقمى التوراتى ، وإيراد رقم اليوبيل هنا فى القصة هو ضربة إعجازية فى إحكام الصياغة لتكون لهم آية ، مما يرينا قدرة الإفحام المتفردة للقرآن فى الصراع الرقمى بين النصين .

٧-قصة نوح التوراتية:

لا تزال القصة كلها تحكمها الدورات السداسية للنشاط والسباعية لإكمال الدورة ، فمثلاً الطوفان حدث بعد دورة إنذار من سبعة أيام ، واستمر الماء مغطياً الأرض سبعة شهور ، وبعد أن كان الأمر الإلهى لنوح [وتأخذ معك فى الفلك زوجين ، ذكراً وأنثى ، من كل كائن حى ذى جسد ، لاستبقائها معك] (التكوين ٦ : ١٩) . نجد فى الإصحاح التالى مباشرة وبعد عدة سطور تغير الأمر الإلهى لصيغة أخرى هى [خذ معك من كل نوع من الحيوانات

الطاهرة سبعة ذكور، وسبع إناث، وزوجين ذكراً وأنثى من كل نوع من الحيوانات الأخرى غير الطاهرة، وخذ معك أيضاً من كل نوع من الطيور سبعة ذكور وسبع إناث لاستبقاء نسلها على وجه كل الأرض فإني بعد سبعة أيام أمطر على الأرض أربعين يوماً] (التكوين ٧: ٢-٤)

وهنا نرى الرقم ٧ ثانية يتكرر بشدة في الحيوانات الطاهرة (التي تصلح قرباناً)، خلافاً للنص الأول بالأمر الإلهي، وحيث أن نوح قرب زوجاً من كل منها عند انقضاء الطوفان، فتحول الرقم إلى ٦ رقم النشاط المطلوب للتكاثر، وطبعاً تلك الفقرة التي تفرق بين الحيوانات الطاهرة و النجسة في العدد المطلوب لنجاتها، إنما تعطي فرصة البقاء لما يسمى (الحيوانات الطاهرة) ستة أضعاف ما تحصل عليه (الحيوانات النجسة) التي حمل نوح من كل منها زوج واحد فقط، مما كان سيؤدى إلى هلاك النوع كله لو هلك فرد واحد منها فقط، فهذه الفقرة تظهر جهلاً شديداً بأهم قوانين الحياة المعروفة باسم قانون التوازن البيولوجي، حيث أن ما يسمونه بالحيوانات النجسة له دور هام وحيوى جداً لنفس وجود واستبقاء ما أسموه «الحيوانات الطاهرة».

وإذا ما تركنا مفردات رحلة نوح لنقوم بمراجعة الأرقام المميزة لشخص نوح ذاته، فسوف نجد أنها مكتوبة بشكل قائم على الدورات السداسية والسباعية بشكل عجيب، فنوح عاش ٩٥٠ سنة (أى ١٩ يوبيلاً كل منها ٥٠)، منها ست مائة سنة في الدعوة قبل الطوفان، أى أنه قبل الطوفان عاش مائة دورة نشاط سداسية سنوية (٦×١٠٠) ثم عاش بعد الطوفان سبعة يوبيلات (٧×٥٠=٣٥٠) أى (٧×٧×٧+٧=٣٥٠) أى أنه عاش في مرحلة الهدوء التي أعقبت الطوفان سبعة دورات يوبيلية كاملة كل منها ٧×٧+١ سنة للإحتفال .. أليس ذلك بمثير للتفكر.

٨- قصة يعقوب التوراتية:

ويقعوب له ١٢ ولداً أى رقم يمثل ٦×٢ أى دورتى نشاط، منهم ٦ (دورة نشطة) من زوجة واحدة هي (ليئه) أم لاوى ويهوذا أهم الشخصيات التوراتية، فأحدهما هو سبط

الكهانة، والآخر سبط الملكية، ولتدخل دورة النشاط عند تلك الزوجة رقم الكمون والاكتمال (٧) أضيف إليه عنصر يعدونه خامل ويستبعدونه من حساباتهم هو أنثى واحدة (دينه) التى اكتمل بها الرقم سبعة ليتوقف بعدها الإنجاب عند تلك الزوجة.

٩- سفر التكوين:

وهو أهم أسفار التوراة والذى يحكى قصة أفعال الله منذ خلق الكون فآدم، فذريته، فنوح ثم إبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (إسرائيل) وأبنائه الأسباط الذين هم بداية تكوين شعب إسرائيل، وحتى دخولهم مصر، ثم ينتهى باستقرار بنى إسرائيل فى مصر بأمان تحت كنف يوسف، أى أنه تكوين الله لشعبه المختار، نرى أن أفعال الله هذه كلها تمت فى ٥٠ إصحاح أى (٧ × ٧ + ١ = ٥٠) أى رقم اليوبيل.

١٠- الرقم الخطير - الفترة الزمنية لبنى إسرائيل فى مصر:

كان هذا الرقم الخطير الذى هو قمة التزييف، عاملاً أساسياً فى ارتباك التاريخ كله، فقد قالت التوراة: [وكانت مدة غربة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر أربع مئة وثلاثين سنة وفى اليوم الأخير بالذات، فى ختام أربع مئة وثلاثين سنة خرج جميع أجناد الرب من أرض مصر. هى ليلة تكرس للرب إذ أخرجهم فيها من أرض مصر] (الخروج ١٢: ٤٠-٤٢).

وهذا الرقم (٤٣٠) سنة خطير جداً. فبجانب التزوير التاريخى والجغرافى فى قصة الخروج بإيراد اسم «رعمسيس» كمنطلق لخروج اليهود، تم زيادة التشويش التاريخى كله بإيراد هذا الرقم، حيث دأب المؤرخون على البحث عن فرعون الخروج أو فرعون موسى فى فترة الرعامسة إستناداً لذلك الاسم (رعمسيس) بلا فائدة، لأنه غير موجود فعلاً فى هذه الفترة، كما كفوا عن البحث عن شخصية يوسف عليه السلام فى التاريخ المصرى لأنهم كانوا يعودون بالتاريخ ٤٣٠ سنة من زمن الرعامسة فلا يجدون شخصية شبيهة بيوسف على الإطلاق.

والحقيقة أن هذا الرقم مزيف بشدة ومصنوع على نفس النمط الدوراتى السابق،

تقول التوراة [وكان موسى فى الثمانين من عمره، وهارون فى الثالثة والثمانين، عندما خاطبا فرعون] (الخروج ٧ : ٧)

ولاحظ أن الفقرة التى ذكرت عمرى موسى وهارون كانت هى الفقرة ٧ من الإصحاح ٧ من سفر الخروج.

إذن فموسى المخلص الذى انتظره شعب إسرائيل كان عمره ٨٠ سنة عندما قام بتخليصهم، لذا فالمخلص ولد بعد سبعة يوبيلات (٣٥٠ سنة) أى ٧ × ٥٠ سنة أى (٧×٧×٧+٧) أى عندما يستوفى الرب سبوتهم فى مصر، وبالتالى يتم خلاصهم بعد ٣٥٠ سنة + ٨٠ عمر موسى = ٤٣٠ سنة، وهذا هو منشأ هذا الرقم الخطير الذى أربك كل الحسابات، ولذا فإنه رقم مصنوع لايصلح مطلقاً لاستعماله كأداة من أى نوع فى التأريخ.

والحقيقة أنهم قضوا فى مصر فترة أطول من ذلك ربما تمتد من أواخر الدولة القديمة الفرعونية مروراً بالدولة الوسطى كلها حتى تم كسرهم عسكرياً فى أواخر أيام الدولة الوسطى الفرعونية وتبقت فلولهم كعبيد كما تقضى بذلك الشرائع الفرعونية حتى تم إخراجهم على يد موسى فى فترة تقع قبل فترة الزعامسة فى الدولة الفرعونية الحديثة.

ملحوظة : وهناك إثبات آخر لزيف الرقم ٤٣٠ سنة هذا والذى ضربته التوراة لبقاء بنى إسرائيل فى مصر فيأتى من التوراة ذاتها، فأولاً تورد التوراة أن لاوى أخو يوسف الأكبر وولده قهات، كانا ضمن الداخلين لمصر فى عهد يوسف، ثم أن قهات ولد عمرام، وعمرام مباشرة ولد موسى وهارون، أى أن الأجيال بين يوسف وموسى كانا جيلين أو ثلاثة على الأكثر مما لا يتطابق مطلقاً مع ضخامة هذا الرقم.

كما أن تضخم التعداد الإسرائيلى من سبعين نفساً عند دخولهم مصر على عهد يوسف إلى أكثر من مليونين (الرجال فقط كانوا ست مئة ألف) عند الخروج على زمان موسى، لا يمكن أن يتم بأى شكل فى تلك الحقبة الزمانية أو فى خلال جيلين أو ثلاثة.

١١- تناقض الإحصاء البيولوجي مع الأرقام التوراتية:

سبق أن ضربنا مثلاً شبيهاً لذلك بأنواع الكائنات الحية التي كان على نوح عليه السلام أن يحملها في الفلك، وأثبتنا أن كاتب الفقرات قطعاً ليس بالله عز وجل أو بإرشاده، لأن هذه الأرقام تتناقض تماماً مع التوازن البيولوجي وأساليبه التي خلقها الله وقررها العلم، إنما هي أرقام كهنوتية يكتبها ذو نظرة قصيرة لعالم الأحياء لا تنظر للمملكة الحيوانية إلا على أنها مصدر لحيوانات القرابين.

ثم تعالوا لنلقي نظرة على بيت يعقوب ذاته والذى جاء تركيبه في التوراة مزيج من فكرة الدورات السداسية والسباعية مختلطة بالنظرة البدوية المتخلفة ذات المنشأ العسكرى والقبلي والتي تقدس الذكور وتحتقر الإناث، لذا فهي تنزعهم تماماً من التعداد، وتعالوا للفقرة المسماه «ذرية يعقوب» في الإصحاح ٤٦ :٨-٢٧ من سفر التكوين.

[وهذه أسماء أبناء إسرائيل الذين قدموا معه إلى مصر. يعقوب وأبناؤه: رأوبين بكر يعقوب. وأبناء رأوبين: حنوك وفلو وحصرون وكرمي. وأبناء شمعون: يموئيل ويامين وأوهد وياكين وصوحر وشأول ابن الكنعانية. وأبناء لاوى: جرشون وقهات ومرارى. وأبناء يهوذا: عير وأونان وشيلة وفارص وزارح. ومات عير وأونان في أرض كنعان. وأما ابنا فارص فهما حصرون وحامول. وأبناء يساكر: تولاع وفوة ويوب وشمرون. وأبناء زبولون: سارد وإيلون وياحلئيل. هؤلاء جميعهم أبناء ليئة الذين انجبتهم ليعقوب في سهل أرام، فضلاً عن ابنته دينة. فكان مجموع عدد بنيه وبناته وأحفاده من ليئة ثلاثة وثلاثين.

وأبناء جاد صفيون وحجي وشوني وأصبون وعيرى وأرودى وأرئيلي. وأبناء أشير: يمنة ويشوة ويشوى وبريعة وأختهم سارح. أما ابنا بريعة فهما حابر وملكئيل. هؤلاء هم بنو زلفة جارية ليئة التي وهبها إياها لابان، فكان عدد ذريتها التي انجبتها ليعقوب ست عشرة نفساً.

أما ابنا راحيل زوجة يعقوب فهما يوسف وبنيامين. وولد ليوسف في أرض مصر منسى وأفرايم اللذان انجبتهما له أسنات ابنة فوطي فارع كاهن أون. وأبناء بنيامين بالع

وباكر وأشبيل وجيرا ونعمان وإيحى ورروش ومفيم وحفيم وأرد هؤلاء ذرية راحيل الذين ولدوا ليعقوب. وعددهم جميعاً أربعة عشر شخصاً.

وابن دان هو حوشيم. وأبناء نفتالي: يا حصيل وجوني ويصر وشليم. هؤلاء بنو يعقوب الذين أنجبتهم له بلهة جارية راحيل التي أعطاه إياها أبوها لابان، وعددهم جميعاً سبعة أشخاص. فكان عدد جميع الأشخاص الخارجين من صلب يعقوب، ممن وفدوا إلى مصر، ستة وستين شخصاً ما عدا زوجات أبنائه. وابنا يوسف اللذان ولدا له في مصر هما شخصان. فيكون عدد بيت يعقوب التي قدمت إلى مصر سبعين نفساً] انتهى.

فهذه الفقرة تكتب تعداد نفوس إسرائيل الداخلة لمصر بسبعين نفساً وتستبعد تماماً زوجات أبنائه (ما عدا زوجات أبنائه)، فلا تدخلهم مطلقاً في الإحصاء مع أنهن أمهات الأحفاد المذكورين، كما نلاحظ أنها تستبعد زوجاته الثلاث الأحياء حسب النصوص التوراتية أيضاً من التعداد (ليئة وزلفة وبلهة)، وذلك لإكمال التعداد (٦٦) أي ستة تكتب وتكرر مرتين ليكتمل العدد في النهاية لدورة سبوت (٧٠) أي (٧×١٠) بإضافة يعقوب ويوسف وإبرام ومنسى. مع التطبيق الصارم لإسلوب الدورات واتباع نظرة جاهلية تستبعد الإناث.

ثم تعالوا للتوازن البيولوجي الإحصائي بين الذكور والإناث والذى يتراوح دائماً بالتساوى بين ٥٠٪ ذكور و ٥٠٪ إناث في الطبيعة، لنرى أنه مخترق بشدة في تعداد بيت يعقوب .. فالجيل الأول جيل الأبناء هم ١٢ ذكراً وأنثى واحدة (أضيفت لإكمال دورة) أى أن الإناث يكوّن ٧,٥٪ فقط من التعداد الكلى لجيل الأبناء.

أما جيل الأحفاد الداخلين مع يعقوب من الجيل الثاني والثالث، فنجد أنثى واحدة بين ٥٨ ذكراً أى بنسبة ١,٧٪ للإناث في التعداد العام، أى أن كل نسل يعقوب ثم أولاده ثم أحفاده وأولادهم كانوا ذكوراً فقط مع استثنائين وحيدين مما يتضارب بعنف مع الحقائق الإحصائية بل وإسلوب الحياة وفلسفتها.

ونرى مثلاً لهذا الاستبعاد التعدادى في نهاية فقرة (ليئة) والتي تحسب في التعداد

ابني يهوذا الميتين وتستبعد دينة ابنته الحية من التعداد النهائي [فكان مجموع عدد بنيه وبناته وأحفاده من ليئة ثلاثة وثلاثين]، وأى تعداد هذا الذى يعد الأموات ويستبعد الأحياء لمجرد أنهن إناث؟.

ثم تأتي الفقرة الأكثر دهشة وهي [فكان عدد جميع الأشخاص الخارجين من صلب يعقوب، ممن وفدوا إلى مصر، ستة وستين شخصاً ما عدا زوجات أبنائه. وابنا يوسف اللذان ولدا له في مصر هما شخصان. فيكون عدد بيت يعقوب التى قدمت إلى مصر سبعين نفساً]، وأدعو أى شخص يمتلك آلة حاسبة أن يرافقنى فى هذا التعداد العجيب.

فأولاً مجموع تعداد أبناء ليئة وأحفادها ثلاثة وثلاثون (مع عدم استبعاد ابنى يهوذا الميتين ولكن استبعاد دينة ابنة ليئة الحية)، وذرية زلفة ست عشرة وذرية راحيل أربعة عشر وذرية بلهة سبعة فيكون المجموع ٧٠، فكيف يكون عدد النفوس التى وفدت على مصر من أبناء يعقوب ٦٦ نفساً (قد يقولون أنهم استبعدوا يوسف وابنيه وبنيامين الموجودين فى مصر فيكون المجموع ٧٠-٤=٦٦) ونقول :

١- أين هو يعقوب ذاته فى التعداد أم أنه غير محسوب من نفوس بيت يعقوب؟ ولماذا؟

٢- أين زوجات يعقوب نفسه الأحياء فى التعداد ولماذا لم يتم حسابهن؟

٣- لماذا تم استبعاد زوجات أبناء يعقوب من التعداد وهن عبرانيات وأمهات للأحفاد؟

٤- لماذا تم إقرار تعداد حفيدين ميتين ليعقوب هما عير وأونان اللذين توفيا فى أرض كنعان ولم يدخلا مصر وحسبا ضمن النفوس وتم استبعاد دينة ابنته فى فقرة ليئة؟

ألا ترى معى عزيزى القارئ كم التضارب الرقمى الهائل الموجود فى الفقرات والذى يدعو لاستبعاد أية أرقام توراتية بصرامة من أية افتراضات علمية.

نكتفى الآن بهذا القدر من الخرافات الرقمية التوراتية وأخلص فقط لنتيجة واحدة وهى : وجوب استبعاد الأرقام التوراتية تماماً فى أى فرضيات علمية أو تاريخية جادة.

وجهة النظر التاريخية لشخصية يوسف عليه السلام:

لعل عدم التماسك بل والتضارب الشديد الموجود في القصة التوراتية عن يوسف عليه السلام، بالإضافة لغياب أية وثائق تاريخية عن هذا النبى الإسرائيلى الذى تولى منصب الوزير (مهامها حالياً هى مهام ما نعرفه برئيس الوزارة) وهو منصب خطير فى الحضارة المصرية التى سجلت معظم أحداثها واكتشفت، هو الذى أدى بالمؤرخين إلى اتخاذ موقف مناقض ومعادى لوجود هذه الشخصية من أساسه، وإدراجها ضمن أساطير العشائر الإسرائيلية التى أثبت علماء التاريخ بالأدلة القاطعة (أهمها تضارب النصوص التوراتية وغياب المنطقية التاريخية فيها) أنها نصوص مزيفة منسوبة لموسى عليه السلام الذى تشككوا فى وجوده هو نفسه شخصياً لنفس العلة. وخاصة أن سفر التكوين الذى تقع فيه قصة يوسف هو أول الأسفارالخمسة المنسوبة فى التوراة لموسى بينما تشير كل الأدلة إلى أنها مزيفتو أنها عبارة عن قطع ممزقة مبعثرة، كتبت فى عهود وأزمان متباعدة على يد كتاب ينتمون لعشائر عبرانية مختلفة، وتم جمعها فى وقت ما مختلطة بالأساطير الشعبية العبرانية، وكذلك بثقافات وعادات وعبادات الشعوب المحيطة بهم جغرافياً وزمانياً، وأهمها تلك النابعة من الحضارة المصرية الفرعونية، والحضارات البابلية والآشورية والسومرية والكنعانية المختلفة، لتخرج علينا فى نموذجها النهائى على صورة التوراة المتداولة حالياً، بعد إضافة كتابات متعددة كتبت على مر آلاف السنين لكتاب عدة عدتهم بعض المصادر الكنسية نفسها بأكثر من أربعين كاتباً، وسأعرض عليكم الآن جزءاً مما كتب فى هذا الموضوع، وقد انتقيته لأن به تلخيصاً شبه شامل لكل الآراء التاريخية المعمول بها حالياً بعيداً عن القصص الدينى، يقول زينون كاسيدوفسكى فى كتابه «الواقع والأسطورة فى التورات» عن التحليل التاريخى لشخصية يوسف عليه السلام وتحت عنوان «يوسف .. حقيقة أم أسطورة شعبية»، يقول كاسيدوفسكى:

(من المعروف أن الوقائع التاريخية المؤثرة تكتسب سمات الأسطورة وغالباً ما يصل الأمر إلى درجة يصعب فيها التفريق بين الحقيقة والخيال. وقد تكون قصة يوسف اسطورية

لكن هذا لا ينفي امكانية أن يكون فرع ما من فروع اليهود انتقل ليسكن مصر فعلاً وعاش أفراده هناك في بحبوحة . وقد يكون يعقوب نفسه وأولاده هم المهاجرون وان أحد أبنائه المسمى يوسف استطاع أن يغدو ذا شأن في قصر فرعون.

يهتم العلماء الآن بهذه المسائل اهتماماً جدياً لكن غياب الوثائق التاريخية غياباً تاماً يرغمهم أن يقتصروا على عرض الفرضيات فقط . ولذلك دعونا الآن نتتبع سير محاكماتهم وسوف تكون رحلتنا ممتعة جداً لأنها تسمح لنا أن ننفذ إلى أسرار الأساليب والطرق التي يستخدمها العلماء في إعادة بناء التاريخ . زد على ذلك أنها سوف تعطينا تلك المتعة الجمالية التي يعيشها العقل عندما يصل إلى حل منطقي لمسألة ذات معطيات مشتتة متبددة .

بعد إجراء حسابات في غاية الدقة والتعقيد ، ولذلك لن نشرحها هنا ، قام بين العلماء رأى مفاده أن يعقوب عاش بعد مائتين وخمسين عاماً من زمن إبراهيم . وإذا صح هذا التقدير تكون قصة يوسف قد وقعت في القرن السابع عشر قبل الميلاد تقريباً . وتتراوح التواريخ التي يتوقعها العلماء بين عام ١٧٣٠ وعام ١٦٣٠ قبل الميلاد . وتجدر الإشارة إلى أن مصر عاشت قبل هذا التاريخ بزمن قصير مرحلة من أكثر مراحل تاريخها الطويل غلياناً . ففي حوالى عام ١٨٧٠ قبل الميلاد اجتاحت البلاد أحداث ثورية عاصفة هزتها هزاً عنيفاً . فقد انتزع المضطهدون السلطة وأداروا دفة الحكم لفترة معينة وامتدت آثار هذه الأحداث حتى القرن السابع عشر قبل الميلاد حيث اهتزت القوة السياسية المصرية بشدة .

في هذه الفترة عانت فيها مصر من انهيار سياسي حقيقي حلت بالبلاد كارثة رهيبة . فقد اندفعت من الشرق جحافل لا حصر لها من الجنود الغرباء واجتاحت مصر كسيل جارف . وكان هؤلاء الجنود يركبون عربات سريعة تجرها الخيول ويحملون سيوفاً طويلة ويلبسون دروعاً من الحديد . ودبت في صفوفهم فوضى رهيبة . لقد كان الجنود المصريون يحاربون على شكل انساق من المشاة وكانوا شبه عراة وقبل أن يتمكنوا من استخدام

رماحهم ومقاليعهم وسهامهم كانت العربات والخيول تسحقهم. إنهم ببساطة كانوا عاجزين تماماً أمام وتيرة القتال التى فرضها العدو عليهم. وهكذا قضى على جبروت الدولة المصرية وخبا مجد الفراعنة لقرنين من الزمن تقريباً.

لقد كان الهكسوس هم أولئك المستعمرون الغاصبون. فأخذ قادتهم مظاهر السلطة الفرعونية كلها واستمرت سلطتهم فى مصر المقهورة حوالى مائة وخمسين عاماً سحقوا خلالها كل شكل من أشكال العصيان بالسيف والنار. لكن الهكسوس لم يستعمروا إلا مصر السفلي مع دلتا النيل ومع ذلك فقد خضع حكام مصر العليا لسلطانهم وادوا لهم الإتاوات.

أما عاصمة سادة مصر الجدد فكانت مدينة اڤاريس التى تتوضع فى الجزء الشرقى من الدلتا.

وفيما يخص تأويل تسمية الهكسوس نفسها فثمة آراء مختلفة: بعضهم قال أنها تعنى «سادة الصحارى» أو «ملوك الرعاة». أما الأبحاث الحديثة فاظهرت أن ينبغى ترجمة هذه الكلمة بمعنى «ملوك البلاد الأجنبية». كان الهكسوس من الشعوب السامية ولغتهم كانت قريبة - على الأرجح - من أحد الأشكال المبكرة لتطور اللغة اليهودية القديمة. وتفيدنا الكتابات المنقوشة على الجدران أن الهكسوس أنفسهم لم يشكلوا سوى فئة قليلة العدد كانت على رأس المقاتلين، أما الجمهرة الرئيسية من هؤلاء الأخيرين فقد تألفت من شذاذ الآفاق الذين يقطنون الصحراء والجبال ومن اللصوص والمغامرين والمتشردين. لقد كان هؤلاء متوحشين مصاصي دماء انقضوا على مصر كسحابة من الجراد.

لقد كان غزو الهكسوس نتيجة لتطورات إثنية كبرى عاشتها منطقة ما بين النهرين، هذا المرجل الإثنى الفائر. ففى الألف الثانية اندفعت إلى هنا من الشمال قبائل الغوريين الآسيوية وأزاحت الشعوب السامية، بمن فيها الهكسوس، إلى سورية وفلسطين وقد اظهرت التنقيبات الأثرية فى مدينة اريحا أن الهكسوس شغلوا هذه المدينة القديمة لوقت ما. وهكذا يجوز لنا أن نفترض أن مستعبدى مصر كانوا يسيطرون على فلسطين أيضاً.

والسؤال الآن: ما هي علاقة يوسف واخوته بهذه الأحداث؟

يتفق العلماء الآن أن هجرة الإسرائيليين الستة والستين إلى مصر حدثت في الفترة نفسها التي سيطر الهكسوس فيها عليها. ويتوقع أن تكون عشيرة يعقوب قد جاءت مصر مع زحف الهكسوس عليها أو بعد أن اقاموا سيطرتهم فيها. وقد استقبل يعقوب ومن معه استقبالاً طيباً في مصر لأنهم كانوا من أقرباء المحتلين ويبدو أن هؤلاء الأخيرين اهتموا بجذب أكبر عدد ممكن من الأسيوين للعيش في مصر. ويجدر أن نشير في هذا السياق إلى أن المؤرخ اليهودى يوسف فلافي يتحدث عن الهكسوس على أنهم أجداده، من جهة أخرى تذكر الوثائق المصرية التي يرجع تاريخها في القرن السادس عشر قبل الميلاد القبائل الكنعانية الرعوية المتنقلة التي جاءت واستقرت في مصر.

وعلى هذه الخلفية السياسية نجد التأويل المنطقي لكثير من الأحداث التوراتية التي تثير الشك وقبل كل شيء مسألة صعود يوسف وتبوئه منصب ممثل فرعون. فمن الصعب أن نعقل قبول المصريين تسلم واحد من الأسيويين منصباً هاماً كالذى روى أن يوسف تسلمه لأنه ليس خافياً على أحد أن المصريين كانوا يحتقرون الأسيوين كل الاحتقار. فقد جاء في سفر التكوين عن اليهود حرفياً ما يلي: «... لأن كل راعي غنم رجس للمصريين» (الاصحاح السادس والأربعون، السطر الرابع والثلاثون). من جهة أخرى ليس من الصعب أن نتوقع أن الفراعنة الهكسوس لم يثقوا بالمصريين وكانوا يثقون بانسبائهم الآسيويين الذين يجمعهم معهم المنشأ واللغة وخصوصاً أولئك الذين أتوا من كنعان. بل أن الفراعنة المصريين كانوا يتبعون مثل هذه السياسة أحياناً. فاخناتون الذى أسس الوحدانية في مصر وعبد إله الشمس اتون (حوالي منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد) كان مرغماً على خوض معركة ضد معارضيه من الكهنة والارستقراطيين ودوائر اجتماعية اوسع حافظت على إيمانها بالإله آمون التقليدى. فاختار مقربيه من الفئات الاجتماعية المضطهدة لأنه كان باستطاعته أن يثق بها أكثر. ويجدر بنا أن نشير هنا إلى الكتابة التي وجدت في مقبرة أحد أفراد حاشيته: «لقد كنت شخصاً ذا منشأ وضيع من جهة أبي وأمي لكن الملك

أوقفني بكرمه وأعطاني قوتي اليومي، أنا الذى كنت فيما مضى استجدى كسرة الخبز».

اكتشف في تل العمارنة (عاصمة هذا الفرعون نفسه) تابوت أحد النبلاء الذى كان في خدمة اخناتون. وكان النبيل يدعى نيحيم وهو آسيوى. أما وزير هذا الفرعون المدعو يانحامو فقد غدا شخصاً جباراً في القصر الفرعوني مع أنه كان آسيوى المنشأ.

تأسيساً على ما سبق لم يكن صعود يوسف إلى قمة السلطة في قصر فرعون مسألة فريدة غير عادية. أضف إلى ذلك أنه أدار شؤون مصر بطريقة تتميز بها سياسة كل مستعمر. فقد استغل السنوات السبع العجاف وباع القمح للشعب لقاء الذهب ثم الفضة والمعادن الثمينة وبعد ما نفذت هذه سلب المصريين الأرض ثم حريتهم الشخصية. إذاً ادت سياسة يوسف هذه إلى استعباد الفلاحين واضعاف طبقة مالكي الأرض. فقد غدت الأرض والناس العاملين فيها ملكية خاصة لفرعون. ومن المرجح أن سلطة فرعون المطلقة قد بدأت في مصر منذ ذلك التاريخ.

ولم ينج من المصير الذى وصلت إليه حال المصريين سوى الكهنة الذين كانوا قد احتفظوا باحتياط من المواد التموينية في أملاكهم الواسعة كما ولم يكن باستطاعة الهكسوس ألا يحسبوا ألف حساب لتأثيرهم ولذلك لم يجرؤوا على إثارة غضبهم. وهكذا يكون يوسف قد أحدث في مصر ثورة اقتصادية عميقة كانت لها آثار بعيدة المدى.

كنا قد اشرنا إلى أن مصر عرفت خلال تاريخها الطويل عدداً من الثورات الدموية التي عاشت تقاليدها في وعي الجماهير المضطهدة. كان السبب المباشر للثورة هو تفشي وباء الجوع الذى كان يتكرر دورياً كل فترة زمنية تطول أو تقصر. أما عن سير الانتفاضة نفسه فيخبرنا البردى الليدى الذى حمل قصيدة شعرية تروى تلك الأحداث وقد نسبت إلى امير مصرى يسمى إيبوفير. ونقرأ لدى هذا الأخير العبارة التالية، على سبيل المثال: «لقد غدا الفقراء أصحاب ثروات وفي الوقت الذى كانوا لايملكون فيه حتى وقت قريب زوجاً من الأحذية اصبحوا الآن أصحاب كنوز». ونقرأ له في مكان آخر ما يلي: «لقد ضربوا رؤوس اطفال النبلاء بالجدران، الكل يهرب من المدن .. ومن لم يكن له جدار

يستند إليه غدا اليوم صاحب مروحة كبيرة. من لم يكن له زورق صغير أصبح يملك سفناً. ومن لم يكن يحصل على كسرة خبز أصبح الآن يملك وفرة من الغذاء.. من كان ينام فيما مضى بغير زوجة بسبب فقرة يمكنه أن يجد الآن نساء نبيلات». ثم يقول: «لقد اغتصبت عاصمة الملك فى أقل من ساعة. وطردت حاشية القصر منه وقتل الموظفون وسلبت الوثائق».

لا ريب أن الفرعون الهكسوسى قد اخذ تقاليد مصر الثورية بعين الحسبان وخاف انفجار انتفاضة شعبية أخرى تزعزع أركان سلطته خاصة وأنه كان طاغية غريباً ومكروهاً. ولذلك عندما اقترح يوسف خطته لتفادى خطر الجوع المحدق استقبله فرعون استقبال قرين نعمة الهية. وهذا ما يفسره الوضع المتميز الذى حظى به يوسف فى القصر والنعم التى أغدقها فرعون عليه.

قد يعارضنا مرتاب ويقول. إن هذا البنيان كله قائم على محاكمات تعتمد بدورها على اشارات مقتضبة جداً جاءت بها التورات فلم يقم الدليل حتى الآن على أن الإسرائيليين قد انتقلوا إلى مصر فى مرحلة سيطرة الهسكوس عليها. أما التأريخ التوراتى نفسه فيتصف بالإشكالية ولا يمكن الركون إليه ولذلك لانستطيع أن نقول بثقة متى هاجرت عشيرة يعقوب إلى مصر. قد تكون هاجرت إليها قبل الغزو الهكسوسى أو بعد طرد الهكسوس.

إننا نجد الإجابة على هذه الشكوك فى كتاب عالم المصريات الفرنسى بيير مونتيه «مصر والتورات». فى هذا الكتاب يشارك مونتيه قراءة المشاهدات التالية:

لقد عرفنا أن يعقوب سكن أرض جاسان التى تتوضع إلى الشرق من دلتا النيل. أما يوسف فقد عاش فى العاصمة قرب فرعون كونه نائبه. عندما أخبروا يوسف بوصول عائلته أسرع فركب عربته وتوجه للقاء أبيه ثم عاد إلى فرعون ليخبره عن رحلته هذه. ونحن نعلم من التورات أن هذه الأحداث وقعت خلال فترة وجيزة قد لاتتعدى اليوم الواحد.

في سفر التكوين (الإصحاح الخامس والأربعون، السطر العاشر) يعد يوسف أباه أن يسكنه أرض جاسان أى بالقرب منه. ويقودنا هذا إلى نتيجة مؤداها أن العاصمة التى عاش فيها يوسف كانت قريبة من أرض جاسان، أى فى الدلتا نفسها، أى لايمكن أن تكون ممفيس أو طيبة أو الفيوم. فهذه المدن تقع بعيداً عن جاسان وكان ينبغى على يوسف أن يركب العربة لعدة أيام. أضف إلى ذلك أن المصريين - كما يؤكد العالم الفرنسى ماسبيرو - لم يستخدموا العربات للرحلات الطويلة بسبب عدم وجود الطرقات المناسبة. وكانت تتم مثل تلك الرحلات بواسطة قوارب تسير على مياه النيل.

توجه المعطيات المومأ إليها كلها انظارنا إلى مدينة افاريس عاصمة الهكسوس. فنحن نعلم الآن أن افاريس كانت تقع فى دلتا النيل لأن إطلال هذه المدينة اكتشفت إلى جانب قرية صان الحجر المعاصرة وفيها كثرة من الكتابات الهكسوسية. وإذا كان يوسف قد حكم فى أفاريس فسوف تسقط الشكوك كلها ويغدو ثابتاً أن قصة حياته تعود إلى عصر الهكسوس وليس إلى أية فترة لاحقة لأن فراعنة الأسرة الثامنة عشرة نقلوا العاصمة إلى طيبة بعد طرد المستعمرين من بلادهم.

لكن ما يثير الدهشة فى الأسطورة التوراتية هو الدقة التاريخية فى إعادة إنشاء العادات المصرية. وهذا ينسحب فى المقام الأول على مراسم الدفن المرتبطة بوفاة يعقوب ويوسف. فقد حنطت جثتيهما لأربعين يوماً ووضعتا فى صندوق خشبى. ويخبرنا هيرودوت أن عملية التحنيط فى مصر كانت تستمر أربعين يوماً. وهذا ما تؤكده الوثائق التاريخية التى وجدت فى مقابر الملوك والأمراء المصريين.

وإذا عدنا إلى الوراء قليلاً لابد أن نتذكر أنهم عندما أخرجوا يوسف من السجن شذبوا له شعره وزينوه قبل أن يأتوا به إلى فرعون. ومع أن هذه المسألة تبدو صغيرة للغاية إلا أنها تدل دلالة قاطعة على معرفة دقيقة بعادات المصريين وتقاليدهم. ومن المعروف الآن أنه لم يكن مسموحاً لأى كان فى مصر أن يطلق لحيته فهذا الامتياز تمتع به الفراعنة وحدهم حتى أنهم كانوا يحملون لحى اصطناعية. ويبدو أن يوسف اليهودى كانت له لحية

طويلة لذلك حلقوها له قبل دخوله إلى فرعون كما تقتضي قواعد السلوك.

لقد جرت مراسم تنصيب يوسف نائباً لفرعون وفق التقاليد المصرية أيضاً، وفق الطقس الذى نتعرف إليه فى الوثائق والرسومات التى حملتها إلينا المدافن. فقد تسلّم الأمير الجديد من فرعون هدايا تليق بمنصبه الجديد: سلسلة من الذهب الخالص وضعت حول عنقه، ثياباً ثمينة وزوجة من علية القوم. وفى الموكب الاحتفالى المقام خصيصاً بمناسبة تنصيبه ركب يوسف واحدة من العربات المرصعة بالذهب وسار خلف فرعون مباشرة. ونشير هنا إلى أن المصريين أخذوا عن الهكسوس عادة استخدام الخيل وحافظوا عليها حتى بعد طرد الهكسوس من بلادهم.

وتتميز الأسطورة التوراتية أيضاً بأن الأسماءالواردة فيها هى أسماء مصرية صرف. فقد أطلق فرعون على يوسف اسم صفنات فعنيخ الذى يعنى «الله يقول: فلتحيا». اما اسم زوجته فهو اسنات ويعنى «تابعة نيت» (نيت هى الهة مبجلة فى دلتا النيل) وأخيراً اسم فوطيفار أو فوتيبيرا وهو تحريف لاسم «فو-تي-با-ري» ويعنى (ذلك) الذى أعطاه (الإله) رع».

ويجدر بنا أن نضيف أيضاً أن اسطورة يوسف تعطى تصوراً دقيقاً عن الطبغرافيا المصرية لأن التفاصيل الدقيقة المذكورة فيها تسمح لنا أن نتجه اتجاهاً صحيحاً لنصل إلى أرض جاسان ونحدد العاصمة التى عاش فيها يوسف استناداً إلى دلائل غير مباشرة.

قصارى القول أن المادة التى استخدمت فى بناء مسرح الأحداث التى جرت فى مصر اجتازت امتحان الأبحاث العلمية الحديثة بنجاح تام. ونعتقد أنه ليس مفيداً أن نهدر مزيداً من الوقت والجهد لإثبات حقيقة وجود يوسف كشخصية تاريخية أو عدم وجوده فالأمر الأهم والذى لايثير أى شك هو أن اسطورة يوسف ظهرت فى مصر نفسها. وكان مؤلفوها يعرفون هذه البلاد معرفة فى غاية الدقة وعاشوا فيها ردحاً طويلاً من الزمن. ونجد فى هذه القرينة تأكيداً على أن فرعاً ما من فروع اليهود - قد تكون عشيرة يعقوب - هاجر فعلاً إلى مصر وسكن منطقة دلتا النيل فى أرض جاسان الخصبة.

ولا يستبعد أيضاً أن تكون قصة يوسف صدى لحدث تاريخي واقعي تمثل في أن أحد اليهود باسم يوسف قد بلغ شأناً كبيراً في قصر فرعون. ثم نسجت الأسطورة إياها حوله فيما بعد كتعبير عن افتخار اليهود بهذا الجد (ينظر عدد من الباحثين الغربيين إلى قصة يوسف والاثني عشر شيخاً على أنها إعادة صياغة لبعض الأساطير اليهودية القبلية القديمة أعدت في القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد في مدينة أورشليم بهدف إحداث تأثير أيديولوجي على القبائل التي انفصلت عن الدولة اليهودية بعد موت سليمان وأسست دولة إسرائيل في الشمال).

ولكن إذا كان الأمر كذلك فعلاً فلماذا لم تأت أية وثيقة مصرية على ذكر يوسف هذا؟ فالمعروف عن الوثائق المصرية أنها تحوى أدق التفاصيل، ووجود سامیٌ في قمة السلطة كان حدثاً في غاية الجدية وأكبر بكثير من أن يهمل. وهذا الواقع بالذات هو الذى أثار الشكوك حول واقعية وجود شخصية يوسف.

غير أنه لايجوز لنا أن نغفل أمراً في غاية الأهمية: لقد كان المصريون يكرهون الهكسوس كرهاً عجيباً لدرجة أنهم اتلفوا الوثائق التى تعود إلى عصرهم كلها ومحوا من الوجود كل ما يذكرهم بهم. وحتى كتبة الوثائق والأسفار التاريخية لا يشيرون إلى الاستعمار الهكسوسى من قريب أو بعيد. فالسجلات التاريخية تنقطع فجأة عند عام ١٧٣٠ قبل الميلاد لتعود وتستأنف سرد الأحداث التاريخية بعد عام ١٥٨٠ قبل الميلاد. وكان يوسف أحد ضحايا إهمال هذه المائة والخمسين عاماً من تاريخ مصر. فقد نفذ سياسة الهكسوس تنفيذاً أعمى وغدا مسؤولاً عن أحداث تغييرات اقتصادية عميقة لم تكن معروفة للمصريين. وقد تركت أعماله هذه أثرها القاسى على الإسرائيليين الذين بقوا في أرض جاسان زمناً طويلاً بعد وفاته (لا أحد من علماء اليوم ينفى امكانية وجود اليهود مع جيوش الهكسوس. وبعد أن طرد المصريون الهكسوس كان من الطبيعي أن يهرب اليهود معهم. ولا نظن أنهم بقوا في مصر بعد تحريرها. تدون لنا وثائق تلك الحقبة اسماء عدد من القبائل اليهودية التى عاشت في بحبوحة في القرون التالية التى تطلق عليها التورات

اسم العبودية المصرية وكانت قد توزعت على السهوب العربية فى شبه جزيرة العرب وسيناء وشرقى الأردن وفى المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية. غير أن هذا لا ينفى أن تكون بعض الجماعات اليهودية الصغيرة قد بقيت تعيش فى مصر المحررة من الهكسوس واستعبدها المصريون). انتهى

ولعلنا بعد هذا الاستعراض نرى كم الجرم الذى ارتكبه المحرفون تجاه الحقيقة، ولعلنا هنا نتذكر كلمات القرآن الكريم التى تعدد أسباب الإتيان بقصة يوسف عليه السلام فى سورة قرآنية كاملة بأنه كان منها ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (يوسف ١١١)، بالإضافة إلى ﴿ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (يوسف ١١١) فالسورة القرآنية تمسك بالقصة التوراتية الواقفة بين يديها لتعطيها المصداقية التى تفتقدها تماماً، بإضافة تفاصيل القصة السليمة مما يؤدى بالقارئ المتعمق إلى إدراك سر الاضطراب الشائع فى القصة التوراتية وهو (التفصيل) .. التفصيل الكاذب والمتضارب الذى يسقطها تماماً كنص .. فالأصل فى التحريف هنا يضع القرآن يدنا عليه ببراعة مقتدرة وهو بالضبط ما اكتشفه علماء التأريخ المعاصرين ألا وهو «إيراد التفاصيل غير الموجودة فى القصة الإلهية»، والتى قاموا - كحل منطقى لها - بردها للأساطير الشعبية والكتابات التى تمت صياغتها فى أزمنة متعددة، والتى تم ضمها بصورة غير منتظمة، بالإضافة لإضافات أخرى كشروح وتفاسير الكهنة التى أدمجت لاحقاً بالنص ذاته مما أفسده، ولعلى هنا أذكر بما قلته سابقاً من أن الله تعالى أوضح لنا تلك الحقيقة بأن أورد القصة القرآنية فى سورة قرآنية مكونة من ١١١ آية فقط، منها ١٠٠ للأحداث، بخلاف التوراة التى أوردت القصة مطولة جداً فى ١٤ إصحاحاً تشمل ٤٤٩ فقرة (الفقرة التوراتية مناظرة للآية فى القرآن الكريم) .. أى أن القصة القرآنية رغم أنها أقل من الربع حجماً مقارنة بالتوراتية الحالية، فالله عز وجل يصفها بأنها المفصلة جداً ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾، إذن فالقصة الإلهية الصحيحة فى التوراة قبل التحريف كانت مجملة قصيرة، على نفس نسق الوصايا العشر، وبإسلوب يمكن عملياً الاحتفاظ به فى تيه الصحراء، حيث أن الاحتفاظ بتلك السجلات التوراتية الضخمة التى

قيل أنها أنزلت على موسى، على ألواح حجرية كالوصايا العشر مثلاً، أو حتى على رقاع من الجلد كان يتطلب آلية ضخمة لنقلها مع التائهين في الصحراء، هذا بالإضافة لأنه ليس هناك أى ذكر لتلك الأسفار المقدسة، كأحد مقتنيات بنى إسرائيل المذكورة بنداً بنداً فى التوراة كلها، وكانت هذه التفاصيل المشوشة والتى أدخلت لاحقاً فى التوراة هى نتاج عمل بشرى مخل.

يقول تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة ٧٩) .. ويل لهم فى الدنيا حيث يكتشف كذبهم وافتراءهم ويوصمون بالكذب والتزييف ويسيرون فى الحياة بقضية بلا مصداقية ويحتقرون أنفسهم فى كل يوم لأنهم يعرفون أنهم محتالون .. وويل لهم فى الآخرة، يوم تحيط بهم خطاياهم، ويخلدون فى جهنم لأبد الآبدين.

أعود للفقرة التاريخية التى أوردناها من كتاب زينون كاسيدوفسكى وألخص الأفكار التى وردت فيها فى التالى:

١- النصوص التوراتية كلها متضاربة وتعارض بعضها بعضاً ويبدو فيها الزيف عند أول تحقيق علمى.

٢- شخصية يوسف عليه السلام نفسها مشكوك فى وجودها تاريخياً؛ لأنه بالإضافة لورودها فى نص ثبت تزييفه تاريخياً، لا توجد أية أدلة أو وثائق على وجودها الحقيقى، خاصة وأن المجتمع المصرى القديم كان شديد التدقيق فى تسجيل تلك المسائل.

٣- هناك علاقة شديدة تربط بين اليهود والهكسوس من العسير تحديد أبعادها (هذا الهاجس ذاته كان يراود العشرات من المؤرخين على مر التاريخ).

٤- التأثير الاقتصادى والاجتماعى المدمر الذى أحدثته سياسات يوسف فى مصر حسب القصة التوراتية، مما خالفته القصة القرآنية تماماً، مما لايمكن تفسيره إلا من موقع معاد

لمصر مثل كون يوسف من المستعمرين الهكسوس.

٥- صعوبة التحديد الزماني الموثق والدقيق للأحداث.

وعموماً فعلماء التاريخ الغربيون ينظرون للقصص الديني وينتقدونه على ضوء المنظور التوراتي وحده، والذى ثبت زيفه لديهم مما أدى إلى رفض القضية برمتها وإحالتها لقسم الخزعبلات والخرافات والأساطير والفولكلور الشعبى، وفاتهم أن يقوموا بمضاهاة القصة بالقصص القرآني لتثبت الحقائق التاريخة الدامغة الموضحة لكل شيء من القرآن كما سأسردها واحدة واحدة مستعيناً بالسراج المنطقى الصحيح الوحيد (القرآن)، وبدون أية تشنجات عاطفية أو حماسات بلاغية بل هو العلم والتاريخ والوثائق فقط.

من هو يوسف عليه السلام ؟

منذ آلاف السنين واللغط يتصاعد، والخلافات تشتد، والحيرة تطغى علي العقول، والتشكك يطل برأسه حول هذه القضية، فعلماء التاريخ يشككون فى وجود تلك الشخصية من الأساس، ويرفضونها تماماً لغياب الأدلة، ولوقوعها في وثائق مزيفة هى التوراة، ويقول أكثرهم تسامحاً أن تلك الأدلة ربما وجدت يوماً ما، لكن كل آثارها فقدت مع فقد كل الوثائق التاريخية عن حقبة وجود القبائل الأسيوية السامية المكونة لشعوب الهكسوس فى مصر، ممن ينتمى لهم يوسف عليه السلام .. أما التوراة نفسها ومع عجزها الشديد عن أى إيضاح رغم محاولة ذكر بعض الأسماء الفرعونية فى الثنايا لمحاولة إضفاء مصداقية ما، مثل صفنات فعنيح وإسنات وفوطى فارع وغيرها .. إلا أن التدقيق فى التاريخ يكشف السر عن المحاولة الإسرائيلية فى تزييف التاريخ وطمس معالمه عن طريق التواريخ والأسماء المغلوطة، مما جر بالمؤرخين وعلم التاريخ كله فى متاهة لا خروج منها .. فاسم واحد مغلوط فى التاريخ التوراتى سبب كل هذا الإرتباك، وهو اسم المدينة التى كان يحيا فيها الإسرائيليون، والتى تظهر كعاصمة للبلاد فى ذلك الوقت وهى مدينة «رعمسيس»، مما دعا كل المؤرخين المتعاطفين والمعارضين على حد سواء لمحاولة تفصيل التاريخ الإسرائيلى على تلك الحقبة الزمانية المتأخرة من تاريخ الإمبراطورية المصرية

والمعروف بعصر «الرعامسة» في أواخر الأسرة الحديثة، والتي يرجع تأسيسها لرمسيس الأول الذى كان على الأرجح ضابطاً في جيش حور محب، الذى حكم مصر بعد عهد إخناتون وتوت عنخ آمون وأسس الأسرة التاسعة عشرة المعروفة باسم «الرعامسة»، وكان ثلاثة من ملوكها على الأقل يحملون الاسم «رعمسيس» حوالى ١٣١٥ ق.م، وحتى عام ١١٧٥ ق.م.

وعلى هذا فقد بدأ تخيل المؤرخين للتاريخ، وبدأ البحث عن فرعون الذى قام بطرد اليهود من مصر من بين ملوك تلك الأسرة المتأخرة واقترحوا بالذات «رمسيس الثانى» الذى وجدت مؤمياؤه حديثاً سليمة وثبت من الفحص الطبى أنه مات من الشيخوخة وتصلب الشرايين، وليس من الغرق، وكذلك كانت كل سيرته تتراوح بين الحروب والمعاهدات مع الحيثيين فى الشام، وأخبار كل غزواته الحربية مسجلة وموثقة، ولا يوجد فيها أى إشارة لاصطدامه بأية شعب أو قوة عسكرية فى الطريق بين مصر والشام ذهاباً وإياباً.

وعلى هذا فقد سقطت فرضية كون رمسيس الثانى هو فرعون اليهود، ورغم ذلك فالتوراتيون لا يزال يراودهم هذا الهاجس ولا زلنا نقرأ دائماً على الترجمات التفسيرية للتوراة عن الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة لموسى أنه تم كتابتها «فيما بين ١٤٢٠-١٢٢٠ ق.م. وبوحى من الروح القدس قام موسى بتدوين هذا الكتاب ليكون سجلاً إلهياً ووثيقة مقدسة». ولنلاحظ هنا فى تلك المحاولات التاريخية غير العلمية، وبرغم إعطاء مساحة زمنية قدرها قرنين كاملين أى مائتى عام لوقوع الحدث، فإنها كانت تحاول محورة الحدث حول فترة الرعامسة وبالذات رمسيس الثانى الذى أنشأ مدينة «بر رمسيس Per Ram-sis»، غير المعروف مكانها بالتحديد وإن كان المؤرخون استناداً لمقولة أنه هو فرعون اليهود يرجحون أنها تقع فى مكان ما فى أقصى شرق الدلتا، بين مصر وفلسطين، وإن كانت الحفريات الحديثة تدل فعلاً على وجودها فى هذا المكان فى منطقة «حت وعرت» التى كانت فى زمان أقدم محلاً لمدينة «أواريس» عاصمة الهكسوس.

عموماً لقد قام العلماء بمسح كل المعلومات الممكنة عن فراعين تلك الأسرة وأهمهم

«مرنبتاح» ابن «رمسيس الثانى» نفسه، ولم ينطبق على أى منهم شبهة أنه فرعون اليهود وبقى اللغز محيراً؟

ولعلى مدين للقارئ ببعض الاعتذار لأننى بدأت القصة اليهودية فى مصر من نهايتها .. من الخروج .. لكن الحقيقة أن تلك النقطة هى مفتاح اللغز كله لأنها هى التى أدت لكل هذا الإرتباك الذى سقنا بعضاً منه، وهى التى أدت بالمؤرخين لمحاولة البحث عن هوية يوسف فى زمان أبعد وأقدم من زمان الرعامسة بحوالى ٤٣٠ سنة (وهى الفترة التى تزعم التوراة أنهم قضوها فى مصر بين دخولهم على يد يوسف وخروجهم على يد موسى)، وطبعاً باءت كل المحاولات بالفشل لأن التاريخ التوراتى كان مغلوطاً تم فيه نقل حقبة تاريخية بأكملها (فترة وجود اليهود فى مصر) إلى الأمام مسافة قرنين على الأقل إما لهدف خبيث جداً أو لغلطة شنعاء من كتبة للنصوص يجهلون التاريخ، عموماً فالاستناد على هذا التاريخ أدى لعجز كامل عن الحصول على أية شخصية مشابهة ليوسف فى زمانهم المفترض، ونزيد الآن بعض الألغاز الأخرى:

١- لا تزال الخرائط التوراتية المرفقة بالكتاب المقدس ترسم طريق الخروج كما حددته التوراة مدينة فمدينة بدقة بادئة بمدينة «رعمسيس» التى قد تكون هى تاريخياً «بر رمسيس» والتى لم يمكن تحديد مكانها، فافترضوا أنها لابد أن تقع فى شرق الدلتا لتكون قرب أماكن تواجد اليهود فى منطقة جاسان (محافظة الشرقية حالياً)، ووضعوا نقطة تمثل تلك المدينة بالضبط شرق الدلتا وشرق بحيرة المنزلة .. ولما كان هذا غير ثابت تاريخياً مطلقاً ولا دليل عليه إلا الوهم والافتراض فما هى إذن بداية رحلة الخروج وما هى الحقيقة حول تلك المدينة «رعمسيس»؟

٢- نلاحظ فى الخرائط التوراتية ذاتها والتى تمثل خروج بنى إسرائيل (لكونها مقيدة بأسماء المناطق التى مروا عليها) لا تمر مطلقاً بالبحر الأحمر ولا حتى بخليج السويس بل تمر من الصحراء الشرقية إلى سيناء مباشرة بدون عبور لأى مجرى مائى .. على النقيض من القصة التوراتية والتى صدقتها القصة القرآنية بعبور بنى إسرائيل عن

طريق اليم (مجرى مائى) وتلك هى معجزة الخروج الكبرى.

والحقيقة، وإجابة كل تلك الألغاز يمكن فى الزيف الذى أحاط باسم المدينة عمداً لإخفاء حقيقة تاريخية معينة .. فالصحيح أن اسم المدينة هو «أواريس» أو «أفاريس» وليست رعمسيس على الإطلاق (واليهود دائماً يخلطون فى النطق بين الواو والفاء والباء)، وقد تم استبدال اسم المدينة لسببين أراهما :

١ - «أواريس» (فرعونياً كان الاسم هو حة وعرت ثم تحور إلى حوارة ثم حرفه اليهود وحذا الإغريق حذوهم إلى أفاريس) .. وهذا التحوير الاسمى والنطقى من جانب اليهود والإغريق للنطق الفرعونى هو سبب لكثير من المشاكل مثل تحوير اسم «من نفر» إلى «ممفيس» التى سماها العرب منف، وأيضاً أدى لإخفاء حقيقة الهوية اليهودية فى مصر - كما سيأتى - وهذه المدينة أواريس كانت هى عاصمة الهكسوس فى مصر، وهى المدينة التى هاجمها المصريون عندما هاجموا بنى إسرائيل، وبناء عليه فقد بدأت رحلة الخروج من أواريس وليس رعمسيس، التى بنيت على أنقاضها فى زمان تاريخى أحدث، مع ملاحظة أن مدينة رعمسيس المزعومة موجودة على الخرائط اليهودية فى نفس مكان أواريس بالضبط شرق الدلتا وشرق بحيرة المنزلة، وقد تم إبدال الأسمين لإخفاء هوية الحقبة اليهودية فى مصر «حقبة الهكسوس» والذي ظل المصريون لعشرات القرون يكنون لهم كراهية عظيمة.

٢ - تم إعادة كتابة التوراة الضائعة فى وقت الأسر البابلى، أو وقت أن كانت مصر تحكم فعلاً بواسطة «الرعامسة» أو خلفاؤهم، وكان من السهل جداً وقوع الكهنة كاتبى التوراة فى خطأ التسمية سهواً .. إذن فالحقيقة أن اليهود هم الهكسوس أنفسهم، وهذا هاجس ظل ينتاب المؤرخين بلا دلالة قوية عليه، وخاصة مع عملية تزوير التاريخ التى قام بها كتاب التوراة، ودفعت بالتاريخ اليهودى القديم فى مصر قرنين كاملين للأمام للتنصل من حقيقة كونهم هم الهكسوس أنفسهم ودعنا نناقش تلك الفرضية ونضع نظريتنا الجديدة على أسس سليمة.

اليهود هم الهكسوس

تقول المصادر التاريخية الموثقة أنه لما ضعف ملوك الأسرة الثالثة عشر (الدولة الوسطى - الكاتب) وتفككت البلاد من جراء ما نشب بين أمراء الأقاليم، من نزاع وحروب مستمرة، أغار على مصر قوم أسيويون، اختلفت أراء المؤرخين في تحديد أصلهم، وتباينت أراؤهم في أسباب إطلاق اسم الهكسوس عليهم.

فمن المؤرخين من يقول أن كلمة هكسوس معناها «حكام الرعاة» إذ تتكون من شقين: «هك» Hyk ومعناها في لغة المصريين القديمة «ملك» و «سوس» Sos أي راعي، أي أن الكلمة تعني ملوك الرعاة، ويقولون أن المصريين هم الذين أطلقوا هذا الاسم على الغزاة الأسيويين، وزادوا على ذلك، بأن وصفوهم بأنهم برابرة وكفار، لأنهم لما غزوا مصر، خربوا المعابد وقتلوا النساء والأطفال، وعاملوا الناس بقسوة ووحشية .. ويقول البعض أنه من المرجح أن الهكسوس هم قوم ساميون من العرب أو الفينيقيين، كانوا يحكمون سوريا وفلسطين، ثم غزوا مصر وحكموها، وقد أشار إلى ذلك أحد ملوكهم، إذ دون اسمه وكلمة أخرى قريبة الشبه في نطقها بكلمة Sos «سوس» ومعناها الأقطار، وبهذا يمكن القول بأن كلمة «هكسوس» معناها حاكم الأقطار (١).

ثم يقول المصدر نفسه، «وكان الهكسوس يفوقون المصريين في فنون الحرب، بمعرفتهم العجلات الحربية، التي كانت تجرها الخيول، التي لم تكن معروفة في مصر وقتئذ، فتخترق صفوف المشاة، وكان لهذا التفوق أثر كبير في هزيمة المصريين، واستولى الهكسوس على مصر بسهولة، وقد ساعدهم على ذلك، ما كانت عليه من ضعف وانحلال لسبب الفتن والحروب الداخلية، وقد اتخذ الهكسوس «أفاريس» عاصمة لهم لتكون وسط بين أملاكهم في مصر وسوريا [(مكانها غير معلوم بالضبط، ومن المرجح أن يكون في شرق الدلتا، قرب بحيرة المنزلة. ولم يبق من آثارها شيء، حتى ليتعذر تحديد موقعها، لأن

---

(١) كتاب تاريخ مصر القديمة المقرر كمنهج للتاريخ على الصف الأول الثانوي، وزارة المعارف المصرية، ١٩٥١.

المصريين دمروها بعد أن طردوا الهكسوس من بلادهم وكذلك فعلوا بكل ما خلفوه من آثار، انتقاماً منهم، وكراهية لهم - المصدر).

ولنلاحظ أيضاً أن مدينة رعمسيس التوراتية المزعومة لا أثر لها على الإطلاق مما يخالف الأنماط المعمارية الضخمة والراسخة التى سادت عصر الرعامسة وتشهد عليها آثارهم فلم يطمرها الزمن أو العوامل الجوية .. ولعلهم قصدوا مدينة (پر رمسيس) التى اكتشفت لها بعض الأطلال التاريخية وثبت أنها أقيمت فوق أطلال وأنقاض أواريس بالضبط، ويبدو أنه عند كتابة التوراة بعد الأحداث بزمن طويل، أن كانت المدينة الموجودة فعلاً فى هذا الموقع «پر رمسيس»، مما دعا كهنة اللاهوت لإدراج اسمها بدل الاسم التاريخى الحقيقى للمدينة الموجودة فى زمان وقوع الأحداث.

وكذلك منطقياً فلا يوجد داعٍ عند المصريين لتحطيم هذه الرعمسيس واسمها يدل على أنها مدينة مصرية تنتسب للملك الإله ذاته .. هذا بالإضافة إلى تطابق الموقع بين المدينتين بشكل يثير الدهشة ويشير لحقيقة واحدة أن رعمسيس هذه هى نفسها «أفاريس» - المؤلف.

ثم يقول المصدر السابق: [أن الهكسوس استبقوا الملوك المصريين على عروشهم، فى خلال الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة واكتفوا بأن جعلوهم خاضعين لهم، ثم قبضوا على زمام الأمور وجعلوا أنفسهم ملوكاً وفراعنة خلال الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة أذاقوا خلالها المصريين مر العذاب والهوان، فجعلوا يحرقون المدن ويحطمون المعابد، ويعتدون على الأهلين، ويستعبدون النساء والأطفال، غير أنه غلب عليهم التمدن المصرى بعد ذلك، وحاولوا التمصر، وأحسنوا معاملة المصريين .. ومع ذلك ظل المصريون ينظرون إليهم نظرات المهانة والاحتقار ولم يقبلوا منهم أى نوع من التقرب]. إنتهى.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأن نفس هذا الإسلوب البربرى كان هو الذى اتبعه اليهود تماماً ويملأ التوراة كلها، مما يظهر بجلاء شديد فى قصة غزو بنى إسرائيل لفلسطين على يد

يشوع بن نون وما فعلوه من دمار شامل كامل لكى حى وجامد فى المدن التى فتحوها بدءاً من أريحا وعاى ومروراً بعشرات المدن الأخرى .. ولعله أيضاً لايفوتنا التذكير بأن المصريين كانوا يمقتون هؤلاء القوم ويحتقرونهم ليس للسبب الأول فقط بل لأن العقيدة والفكر المصرى كان يعتبر هؤلاء الرعاة العبرانيين نجس ورجس كما جاء في التوراة نفسها، بخلاف الشعوب الأخرى الغازية التى أبدى المصريون تسامحاً شديداً تجاهها مثل الإغريق والرومان بل والنوبيون السمر.

يقول سفر التكوين عن اللقاء الثانى بين يوسف (المصرى حينذاك) واخوته العبرانيين: [فقدموا له وحده، ولهم وحدهم، وللمصريين الآكلين معه وحدهم، إذ أنه محظور على المصريين أن يأكلوا مع العبرانيين، لأن ذلك رجس عندهم] التكوين ٤٣ : ٣٢.

ولعل مصر كانت هى الجيتو (المعزل اليهودى) الأول والأكبر فى التاريخ، والذى كان إلى حد كبير معزلاً إختيارياً اختاره اليهود أنفسهم، كما تشير نصوص التوراة.

ولعل هناك نقطة توراتية أخرى تلفت النظر، وهى المحاولة التى تحس بإلحاحها الشديد وإقحامها للتبرؤ من موضوع العجلات (المركبات الحربية) وإظهار أن هذا النوع من وسائل الانتقال أو القتال كان مصرياً صرفاً .. رغم أن أبسط المعلومات التاريخية تشير إلى أن العجلات والخيول كانت غير معروفة للمصريين وكانت معروفة فى مناطق بين النهرين التى وفد منها بنو إسرائيل ونراها على كل نقوش معابد تلك الحضارات بدءاً من السومريين والأشوريين والبابليين، مما يبدو كمحاولة للتنصل من الإسلوب والرمز الوحيد الذى ميز الهكسوس عن المصريين (العجلات الحربية)، وبالتالى إخفاء الهوية اليهودية.

تقول نصوص التوراة عن مظاهر تكريم فرعون ليوسف: [وأركبه فى مركبته الثانية] التكوين ٤١ : ٤٣، وتقول عن دخول بنى إسرائيل لمصر [وأعطاهم يوسف عربات حسب أمر فرعون ومؤونة للطريق» التكوين ٤٥ : ٢١، ثم [وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم وزوجاتهم فى العربات التى أرسلها فرعون لنقله] التكوين ٤٦ : ٥، وعن موكب دفن يعقوب فى الطريق من مصر لكنعان وكان الذى أمر به هو فرعون نفسه [ورافقته

حاشية فرعون من أعيان بيته ووجهاءه، وكذلك أهل بيته وإخوته وأهل بيت أبيه، ولم يخلفوا وراءهم سوى صغارهم وغنمهم وقطعانهم، وصاحبته أيضاً مركبات وفرسان] التكوين ٥٠ :٧-٩.

والملاحظ هنا إصرار كاتبي التوراة على أن العربات والمركبات كانت آلات وأسلحة فرعونية ليست موجودة عند اليهود مطلقاً،و هذا التكرار والإلحاح يلفت النظر .. هكذا كان حالهم عند الدخول بلا عربات ولا مركبات تخصهم حسب التوراة، وكذلك كان الخروج هم مشاة وفرعون وجيشه هم الذين يستعملون المركبات [فتحول قلب فرعون وقلوب حاشيته ضدهم، وقالوا: «ماذا دهانا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا؟». فأعد مركبته واصطحب جيشه معه، فأعد ست مائة مركبة وسائر مركبات مصر، وحمل عليها قادة سلاح المركبات] الخروج ١٤ :٥-٧.

ثم عند وقوع الواقعة [ولحق بهم المصريون ودخلوا وراءهم إلى وسط البحر، بجميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه، وقبل طلوع الصباح أشرف الرب في عمود النار والسحاب على عسكر المصريين وأربكهم، فجعل عجلات مركباتهم تتخلع، فطفقوا يجرونها بمشقة] الخروج ١٤ :٢٣-٢٥.

أليس ذلك التنصل التام من موضوع العجلات والمركبات بعجيب، ولا سيما أن الحديث هو عن شعب من الرعاة وشعوب الرعاة تقاتل دائماً على الخيول، ولا سيما أيضاً أن أصولهم ترجع إلى منطقة بين النهرين المشهورة بالعجلات والمركبات منذ زمان قديم جداً، ولعل من يقرأ كم الخطط الحربية الرهيبة التي قام بها جيش إسرائيل تحت قيادة يشوع بن نون بعد خروجهم من مصر بسنوات قليلة، بما فيها من حركة سريعة جداً وكمائن ثابتة ومتحركة، وحركات التفاف حربي، وغيرها من التكتيكات ليعجب كيف يتم ذلك لشعب من الرحل خرجوا مطاردين على أقدامهم من مصر منذ سنوات قليلة، ولا يعرفون تكتيكات المركبات الحربية السريعة، وأيضاً لماذا الإصرار التوراتي على التنصل من الرمز الوحيد الذى كان يشير للمهارة الحربية للهكسوس؟

أعود فأقول أن الكهان كاتبى التوراة لم يغفلوا حتى تلك النقطة الدقيقة، وتنصلهم المبالغ فيه من موضوع الخيل والمركبات إنما هو تنصل من أهم سمة عرف بها التاريخ هؤلاء الهكسوس، وهي أنهم كانوا يجيدون استعمال الخيل والمركبات الحربية، وهذا هو الذى أدى لانتصارهم على المصريين فى المواقع التى حدثت بينهم أثناء وجودهم فى أرض مصر حيث أنه معلوم تاريخياً أن الخيل لم تعرف فى مصر إلا بعد زمان الهكسوس. ومرة أخرى يتصدى القرآن الكريم لتلك النقطة ويوضحها، ففي قصة مؤامرة الإخوة على يوسف عليه السلام، قال تعالى ﴿قَالُواْ يَآ أَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ (يوسف ١٧)، وواضح جداً من الآية أن الإخوة كانوا يتسابقون بإسلوب فيه سرعة كبيرة مما حملهم بعيداً جداً عن موقع أخيهم، لدرجة أنهم لم يسمعوا استغاثته عندما كان الذئب يفترسه، وذلك فى معرض إحكامهم لتلك القصة .. أو هل يكون هذا التسابق إذن على الأقدام أم على الخيول الوسيلة الوحيدة الموجودة زمانياً حينذاك بهذه السرعة لتقطع هذه المسافة، مما يشير إلى كذب الرواية التوراتية.

نرجع لنقطة التسمية، فأقول أن تفسير كلمة الهكسوس بملوك الرعاة رغم أنه فى رأيى تفسير غير كامل أو غير صحيح إلا أنه لايزال يشير إلى الرعاة الأغراب الذين وفدوا لمصر، حتى قويت شوكتهم، فانقضوا عليها ليدمروها، وهل ادعى أى توراتى أنه كان لليهود عمل عند دخولهم مصر إلا الرعى [وخاطب يوسف اخوته وبيت أبيه: «أنا ماضٍ الآن إلى فرعون لأخبره أن إخوتى وبيت أبى المقيمين فى أرض كنعان قد قدموا إلى. وهم رعاة غنم، وحرفتهم رعاية المواشى، لذلك احضروا معهم غنمهم وبقرهم وكل ما لهم، فإذا دعاكم وسألكم: ما حرفتكم ؟ قولوا : حرفتنا رعاية المواشى منذ صبانا إلى الآن، كذلك نحن وكذلك كان أباؤنا أجمعين. لكى تقيموا فى أرض جاسان، لأن كل راعى غنم نجس لدى المصريين] التكوين ٤٦ : ٣١-٣٤.

وهل يريد أى إنسان برهاناً آخر على أن هؤلاء اليهود هم شعب الرعاة الذين تحولوا إلى ملوك الرعاة بعد أن تمكنوا من الأرض وعتوا فيها فساداً. عموماً فالنصوص التوراتية

تحاول إخفاء تلك الحقيقة الواضحة كالشمس وهى أن الهكسوس هم اليهود أنفسهم .. الذين ازداد تعدادهم بشكل ضخم جداً كما تذكر التوراة، مما كان يهدد كل الإمبراطورية المصرية .. حيث تذكر التوراة أنهم دخلوا مصر سبعين نفساً وكانوا عند الخروج (ست مائة ألف نفس من الرجال والمشاة ما عدا النساء والأولاد وكذلك انضم إليهم حشد كبير من الناس) الخروج ١٢ :٣٧، أى أنهم دخلوا مصر سبعين نفساً وخرجوا منها فى تعداد يزيد على المليونى نسمة بخلاف حشد كبير من الناس يرجح أنهم قبائل أو فلول قبائل من البدو الرحل فى المنطقة.

ولعله ليس بالحدث الهين أو المتكرر أن يتم اقتلاع شعب بأكمله من منطقة أتى وتوطن فيها لأكثر من ٤٣٠ سنة حسب المعلومة التوراتية، حتى يغيب ذكره تماماً عن ذاكرة التأريخ المصرى التى سجلت كل صغيرة وكبيرة، وإن كانت قد محت كل آثار الهكسوس كراهية لهم، فإنها قطعاً سجلت ذكرى انتصار المصريين عليهم، وهذا الحدث (اقتلاع شعب بأكمله) وجد فى الوثائق التوراتية الدينية مرة واحدة عند مطاردة جيش مصر وفرعونها لبنى إسرائيل مما أدى لخروجهم الكامل منها، وكذلك وجد هذا الحدث مرة واحدة فى الوثائق التاريخية الفرعونية ألا وهى حادثة إقتلاع الهكسوس وطردهم من مصر نهائياً بعد توطنهم فى الجهة الشرقية ومن مصر نفس منطقة إقامة بنى إسرائيل فى مصر، ولقرون.

وفى رأيى الشخصى فإن عدم وجود آثار لليهود فى مصر لابد وأن يكون عائداً لسبب آخر غير تدمير المصريين للوثائق المحتوية على هذا التاريخ وهو عدم وجود هذه الآثار أصلاً .. حيث أن شعوب العالم كانت مغرمة حينذاك بتسجيل أخبارها على الجدران سواء جدران المعابد أو القبور كما رأينا عند الفراعنة والبابليين وغيرهم إلا شعب واحد كانت عقيدته تمنع ذلك .. هم اليهود المحرم عليهم بناء المعابد أو الكتابة عليها أو حتى تهذيب أحجار المعابد والأقداس بأزميل بل تترك كما هى ولعلنا نرى ذلك بوضوح فى الفكر التوراتى الذى تبلور فى مرحلة لاحقة .. أولاً يلفت إنتباهنا طبيعة العمل التى ادعت التوراة

أنه كان هو مسئولية بنى إسرائيل فى السخرة المصرية وهو صناعة الطوب اللبن من الطين والقش. ولماذا فرض المصريون ذلك على الإسرائيلين وهم اليد العاملة الرخيصة فى الرق؟ ولم يطلبوا منهم مطلقاً العمل في المحاجر لقطع الصخور رغم أن معظم الأعمال الهندسية المعمارية التى اهتم بها الفراعنة كانت مشروعات عملاقة مقامة من الصخور الحجرية الضخمة .. والحل المنطقى هو أن هذا العمل لكونه يخالف المعتقدات الراسخة لهؤلاء القوم، لذا فنفترض أنهم تكاسلوا وتباطأوا واظهروا فشلاً فيه، فاستبعدهم المصريون منه، كما قد يكون أيضاً لأن المعابد والمقابر المقدسة لم يرغب المصريون في أن يشترك فيها شعب الرعاة، والرعاة دنس فى العقيدة المصرية كما تقر التوراة، مما يجعل اشتراكهم فى تدشينها تدنيس لحرمة الأماكن المقدسة، مما لم يكسبهم أية مهارة معمارية أو هندسية كما تجلى بعد ذلك فى عجزهم الشديد عن إقامة أى مبنى ولو كان بسيط التركيب مثل هيكل سليمان، والذى وصفته التوراة بأنه بناء مستطيل طوله ستين ذراعاً وعرضه عشرين ذراعاً (٣٠×١٠م) [أخبار الأيام الثانى ٣:٣]، وحتى لبناء هذا المبنى البسيط فقد طلبوا مهندساً من حورام ملك صور اللبنانى ليصممه لهم واستغلوا السخرة الفلسطينية بعشرات الآلاف فى قطع الحجارة [أخبار الملوك الأول - أخبار الأيام الأول].

وهكذا جاء تصميم البناء الوحيد المذكور فى التاريخ اليهودى وبعد خروجهم من مصر بقرون طويلة لايحمل أية قيمة جمالية معمارية، كما نلمح فى وصفه التشابه الشديد ومحاولة تقليد المعابد المصرية القديمة من حيث البناء الخارجى ثم الأقداس المتدرجة وصولاً لقدس الأقداس، وكذلك وصف الأعمدة والبركة النحاسية المحمولة على إثنى عشر ثوراً ... الخ.

عموماً فالمعابد والأهرام والمقابر الضخمة برسومها ونقوشها كانت رمزاً دينياً عند المصريين القدماء، فى الوقت الذى كان مجرد مقاربته شركاً ووثنية فى عقائد اليهود، مما يفسر غياب أى آثار للهكسوس فى مصر وببساطة لأن هؤلاء الهكسوس هم اليهود أنفسهم. تقول التوراة التى تعكس العقائد اليهودية عن لسان الرب فى خطابه لموسى:

[أقم لى مذبحاً من تراب تقدم عليه محرقاتك وقرابين سلامتك من غنمك وبقرك، وآتى إليك وأباركك فى جميع الأماكن التى أقيم فيها لاسمى ذكراً، وإن شيدت لى مذبحاً من حجارة، فلا تبنه من حجارة منحوتة، لأن استعمالك للأزميل يدنسها، ولا ترتق إلى مذبحى بدرج لئلا تنكشف عورتك عليه] الخروج ٢٠ : ٢٤-٢٦ .

وعلى هذا النمط كان المسكن المقدس الذى طلبه الرب من موسى بعد الخروج مصنوعاً فقط من الخشب والقماش والجلود ولايحتوى على أية صخور أو أحجار، وكذلك كانت «خيمة الاجتماع» التى يتجلى فيها الرب .. أما الوحيد الذى كان له ميزة الكتابة على الحجر فى العقيدة اليهودية فكان هو الإله فقط الذى كتب لهم الوصايا العشر على الألواح الحجرية [وكان الله قد صنع اللوحين ونقش الكتابة عليهما] الخروج ٣٢ : ١٦ .

كما تقول التوراة أن أول نصب حجرى أقامه اليهود بعد عبور نهر الأردن كان عبارة عن كومة من إثنى عشر حجراً تم تكويمها على الضفة الغربية لنهر الأردن دون أى نقوش أو ترتيب هندسى مما يستدعيه أى نصب تذكارى (سفر يشوع ٤).

وعندما حاولت فرقة منهم (الأسباط الذين وهبوا أرضاً فى شرق نهر الأردن وليس غربها كالباقين)، إقامة مبنى لمذبح تأهب بنوا إسرائيل لمحاربتهم وقتلهم لأن ذلك يدنس الأرض [وعندما وصل رجال سبطى رأوبين وجاد ونصف سبط منسى حوض الأردن فى أرض كنعان، شيدوا على ضفة نهر الأردن مذبحاً رائع المنظر، فقيل لبنى إسرائيل «ها قد بنى أبناء رأوبين وجاد وأبناء نصف سبط منسى مذبحاً فى حوض نهر الأردن مقابل جانبنا من النهر» فاحتشد كل رجال إسرائيل فى شيلوه متأهبين لمحاربتهم] يشوع ٢٢ : ١٠-١٢ .

وقارىء التوراة يستطيع أن يعرف بسهولة المقاومة العقائدية التوراتية لبناء أى مبنى حتى وإن كان ذا رمز دينى يصنع من الحجر، ولعل قول الرب لداود فى التوراة حينما قرر صنع الهيكل، لتفسير واضح للصراع الجدلى الدينى الذى كان يدور حول هذا الموضوع فى صورة حوار بين ناثان النبى وداود ذاته حيث خاطب ناثان داود قائلاً على لسان الرب: [لست أنت الذى تبنى لى بيتاً، فأنا لم أسكن فى بيت منذ أن أخرجت بنى إسرائيل إلى

هذا اليوم، بل كنت أتنقل من خيمة إلى حيمة، ومن مسكن إلى مسكن] أخبار الأيام الأول ١٧ : ٤-٥، إلى آخر الحوار، ولعل قارئ التوراة يستطيع أن يرى عشرات الأمثلة على هذا الصراع العقائدى حول بناء المعابد مما انعكس أثره فى الحرب الأهلية بين مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل، بل وعند أحداث الكوارث والمكائد التى حدثت لليهود فى مملكة يهوذا نفسها مما لايتسع المجال هنا لذكره.

خلاصة الموضوع أن الفكرة العقائدية اليهودية المضادة للبناء وللمعابد الحجرية كانت هى التى منعت وجود أى آثار لهم فى مصر، مما يفسر تماماً أيضاً عدم وجود آثار مشابهة للآثار المصرية الهائلة مما يمكن نسبه للهكسوس فى فترة تسلطهم على مصر، أما افتراض تدمير المصريين لهذه الآثار فهو فكرة خاطئة أو متعسفة مناقضة تماماً للسلوك التاريخى المصرى. فحتى محو بعض الملوك لأسماء أسلافهم من على جدران المعابد لم يتضمن أبداً تدمير تلك المعابد، المقدسة ذاتها بل إبدال الأسماء أمام عين الإله المشرف على المعبد.

وأقول أيضاً فى النهاية كاستنتاج أن حادثى اقتلاع شعب من أرض مصر دينياً وتاريخياً هما حدث واحد، وإن حاولت النصوص التوراتية بخبث إخفاء تلك الحقيقة عن طريق تحريك الزمن لمدة قرنين للأمام.

بقيت نقطتان أود ذكرهما قبل أن أنهى هذه الجدلية:

١- لم يكن إسلوب الخروج فى التاريخ الدينى لليهود هو المتطابق فقط مع إسلوب الخروج التاريخى للهكسوس .. بل أن إسلوب الدخول للإثنين لمصر كان واحداً أيضاً، فالنصوص التوراتية تصف دخول اليهود لمصر كقبيلة ضعيفة أنهكتها المجاعة لا يزيد تعدادها عن ٧٠ فرداً ثم تكاثر عددهم إلى حوالى مليونين فى أربعة قرون (مع التشكك المبرر فى الأرقام نستطيع أن نقول أن التعداد بالنص التوراتى نما إلى حوالى ٣٠,٠٠٠ ضعف فى أربعة قرون)، أى أن الدخول ثم التغلغل ثم السيطرة كان بإسلوب تسللى خفى وبطىء أما الوثائق التاريخية فتصف دخول الهكسوس لمصر بأنه

كان شيئاً غامضاً مبهماً، تقول مجلة المعرفة العدد (١٩) في مقالها عن مصر القديمة، وفي فقرة إنهيار المملكة الوسطى [مرة أخرى أصيبت الملكية في مصر بالتدهور، فعلى أنقاضها قام حكم شعب مجهول من الرحل جاء من آسيا يعرف باسم الهكسوس، وطدوا حكمهم لا بالغزو والفتح، ولكن بالتسلل التدريجي وقد ظلوا يحكمون مائتى سنة، قبلما تم طردهم من البلاد ١٥٧٥ ق.م. على يد الفرعون أحمس الأول] انتهى .. إذن فلغز كيفية دخول هؤلاء الهكسوس لمصر يصبح قضية سهلة لو جمعنا كل أجزاء الصورة سوياً.

ملحوظة: هناك شواهد تاريخية تدل على وجود الآسيويين الساميين في مصر قبل التاريخ الفعلى لملوك الهكسوس والذى بدأ مع نهايات الدولة المصرية الوسطى، فمثلاً هناك مقبرة ترجع لعصر الأسرة الثانية عشرة - في بدايات الدولة الوسطى - للمسمى «خنوم حتب الثانى» وبها مناظر ملونة تمثل الآسيويين في مصر، وقد دعا ذلك البعض لتسمية تلك الصورة «يعقوب مع أولاده» إلا أن ذلك الافتراض ثبت عدم صحته تاريخياً.

٢- تكتمل باقى أضلاع الأحجية أو اللغز، بإضافة التعمية التاريخية التى تمثلت في إحداث تغيير صغير بنطق كلمة هكسوس وكذلك في هجاء حروفها من خلال الإصبع اليهودى الخبيث الذى يلعب نفس اللعبة المتكررة في كل التوراة: اعتماد الأسماء مرة بشكلها العبرانى في موضع، وأخرى بشكلها الآرامى في موضع آخر، وأخرى باليونانية في موضع ثالث، وهكذا لخلق ارتباك دائم عند محاولة رسم التاريخ بصورة صحيحة.

وفي نقطتنا هذه تم إخفاء النطق الفرعوني لكلمة هكسوس من المصادر التاريخية، واعتماد النطق اليونانى ثم تغيير الهجاء فيه ثم الرجوع لإيجاد المعنى المصرى القديم المقابل للنطق أو الهجاء اليونانى المحرف، فتم كتابة هكسوس Hyksos من مقطعين هما: هك Hyk وتعنى ملك و Sos وتعنى رعاة، وهذا هو التفسير السائد تماماً في كتب التاريخ

ولا غيره حتى الآن.

أما أنا فأقول أن التاريخ المصرى كما كتبه الإغريق ترجم الأسماء الفرعونية للمعنى اليونانى الذى يقابلها فى اللغة اليونانية، فمثلاً «من نفرو» أصبحت «ممفيس»، ومدينة «أون» أى مدينة الشمس أو عين شمس أصبحت «هليوبوليس» أى مدينة الشمس باليونانية «هليو = شمس وبوليس = مدينة»، أى كان يتم ترجمة معنى الكلمة ولا يتم استخدامها كما هى كاسم لا يصح ترجمته .. وهكذا وعلى نفس المنوال تم ترجمة الكلمة المصرية القديمة التى تدل على هذا الشعب لليونانية باسم هكسوس وكتبت بخبث بإسلوب خاطئ Hyksos بينما الهجاء الصحيح لها هو Hexos حيث تعنى كلمة Hexa «هكسا» اليونانية ثم اللاتينية رقم (٦) .. أى أن الكلمة تعنى «شعب التسديس أو الشعب السداسى»، وهل تعرفون شعباً آخر يقدس الرقم (٦) أو «هكسا» إلا هذا الشعب الذى رسم شعاره نجمة سداسية اسمها اليونانى واللاتينى والإنجليزى Hexagon «هكساجون»، وهل تعرفون شعباً آخر يعتقد أن الخلق تم فى ٦ أيام واستراح الله فى السابع، ومن ثم كان يعمل ستة أيام فقط فى الأسبوع وله نجمة سداسية وشمعدان سداسى ومن مقدساته خبز الحضرة الموجود لاحقاً على مائدة خبز الوجود والمكون من صفين كل منها ستة أرغفة تتغير كل ستة أيام .. وهلم جرا من كل تفصيلات الدورات السداسية التى سقناها فى الفصل السابق.

ولابد أنه كانت هناك جزئيتان فى هذا الموضوع كانتا هما الأهم لتداخلهما بصورة متناقضة مع معتقدات المصريين القدماء وأساليب حياتهم، أولها فكرة الخلق السداسى الأيام والتى تتناقض مع الفكرة المصرية القديمة عن الخلق، والثانى هو إسلوب العمل السداسى الأيام مما كان يتضارب مع المصالح الاقتصادية المصرية، مما دعا المصريون إلى تمييز هذا الشعب «الهكسوس» بشعب «الستة» أو الشعب السداسى أو ملوك السداسيات (قد يقول مرتاب أن الفكرة السداسية أتت مع التوراة التى أنزلت على عهد موسى بعد الخروج اليهودى من مصر أى أنها لم تكن معاصرة لفترة وجود اليهود أو الهكسوس فى

مصر ونرد قائلين أن تلك المعتقدات ثبت قطعياً أنها معتقدات قديمة راسخة قبل الزمان المفترض لكتابة التوراة وأعيدت صياغتها مرة أخرى فى نموذج التوراة الموجود حالياً».

وعموماً فهناك فقرة هامة جداً فى أحد أهم القواميس الأمريكية للغة الإنجليزية وهو قاموس وبستر التى تعرف الهكسوس كالتالى فى ص ٥٩١ :

Hyksos: [GK Hyksos dynasty ruling Egypt from Egypt. hq ´ssw, ruler of the Countries of the nomads].

وفى تلك الفقرة تمت كتابة الكلمة بصورتها وهجائها الحرف، وكذلك أوردت نفس المعنى المتداول لترجمتها «ملوك الرعاة»، ولكنها أضافت معلومة فى قمة الخطورة وهى أن الكلمة «هكسوس» هى نطق يونانى إغريقى مأخوذ عن النطق المصرى «هك شيسو»، وهك نعرف أنها تعنى «حكام»، أما «شيسو» فهى رقم ستة باللغة المصرية القديمة. فالهكشيسو، هم الهكسوس، هم حكام السداسية، هم اليهود، وهكذا فلغز التحريف فى تلك المسألة يسقط للأبد - إن شاء الله -، وبقى أن نطالب المؤرخين على مستوى العالم بتوخى الدقة العلمية الأمينة والابتعاد عن استعمال التوراة كأداة للتأريخ وخاصة أنه ثبت لهم بالأدلة القطعية أنها أداة مزورة مزيفة، وهذه المراجعة للتاريخ على ضوء المعلومة السابقة ستصحح الكثير جداً من المفاهيم عن التاريخ العالمى كله.

عموماً فالشواهد كلها دامغة فى أن اليهود هم الهكسوس أو الهكشيسو كما تدل على أن محاولات تزوير التاريخ وتحريفه تمت ببراعة باستعمال التوراة التى خدعت معظم المؤرخين ببعض الأسماء والتواريخ المغلوطة والوهمية، حتى إذا وضعت كأداة للتأريخ تم إفساد كل شيء وطمست هوية الحقيقة للأبد للصالح اليهودى، فمثلاً فى قضيتنا هذه تم إلقاء الطعم عن طريق إختراع اسم وهمى لمدينة غير موجودة زعموا وجودهم بالقرب منها وسموها على اسم ملك متأخر جداً عن عصرهم الحقيقى «رعمسيس»، واختاروا أن يلصقوا موضع هذه المدينة واسمها فوق موقع المدينة الأخرى الحقيقية «أواريس» فتم طمس هويتهم الحقيقية وزحزحة التاريخ عدة قرون للأمام، مما أوقع الجميع فى إرتباك هائل بشأن

تطابق تاريخهم الغامض مع التاريخ الحقيقى، كما قاموا باعتماد النطق اليونانى لاسمهم الحقيقى بالمصرية ثم غيروا الهجاء ثم عادوا يبحثون عن معنى جديد فى اللغة المصرية عن الكلمة الجديدة أى أنهم غيروا :

* **هك شيسو** (شعب السداسيات بالمصرية) إلى **هك سوس** (الشعب السداسى) باليونانية Hexos إلى تغيير الهجاء اليونانى من Hexos إلى Hyksos ثم إيجاد معنى مطابق للشكل والهجاء الجديد من المصرية القديمة هو ملوك (Hyk) ورعاة (Sos) [شاءت عناية الله أن يأتى الاسم المحرف ذاته قريباً جداً من هويتهم الدالة على أصلهم البدوى الرعوى، عموماً فكلمة «عامو» فى اللغة المصرية القديمة كانت هى المعتمدة فى الوثائق للتعبير عن الأجناس البدوية الأسيوية من قاطنى الصحارى، وجلى أنه لم يكن هناك داعٍ لابتداع كلمة جديدة من شقين (هك و سوس) لتعطى نفس المعنى].

ملحوظة : الإسلوب الإغريقى فى تحريف الأسماء الفرعونية وترجمة الأسماء لمعانٍ إغريقية وأثره الخطير فطن له المؤرخون فى كثير من الأحداث التاريخية التى لم يمكن حلها إلا بتصحيح هذاالتحريف ... عن ذلك يقول محمد عبد الحميد بسيونى فى كتابة «الفراعنة والطب الحديث»: [إن الإغريق أطلقوا اسم سفنكس Sphynx على تمثال أبى الهول وهذا الاسم هو اسم لماردة معروفة فى الأساطير الإغريقية وليس الاسم الحقيقى للتمثال الذى هو «شبس عنخ» أى مانح الحياة، وقد كان أيضاً من عادة الإغريق أن يخلعوا على ما يرون فى مصر أسماء إغريقية، فهم قد أسموا العمد المدببة الرؤوس أمام المعابد المصرية Oblisk بمعنى السفود لأنها تراءت لهم كذلك .. ولعل ذلك أن يكون السبب فى إطلاق كلمة مسلة على هذا الأثر، وهم قد أسموا المحاجر المصرية من شرق النيل تجاه منف «طروادة» التى خففت فيما بعد إلى لفظ «طره»، وهم أيضاً قد أسموا معابد الفيوم الكبرى بـ «اللابيرنت» بمعنى التيه لأنهم قد رأوا فيها بعض الشبه بإحدى عجائب البناء فى جزيرة (كريت) .. وهم أيضاً قد أطلقوا على القبر الملكى فى صخور طيبة اسم Syrinx

(سرنكس) بمعنى المزمار، لأنه تراءى لهم كالمزمار الإغريقي لكثرة ممراته الطويلة الضيقة والتى تختلف طولاً وقصراً، وهم قد أسموا الأهرام Pyramid «بيراميد» تشبيهاً لها بنوع خاص من الخبز الأبيض يقال له Pyrames «بيراماس» والواقع أن ذلك الإسم الإغريقى قد ألبس تمثال أبى الهول ثوباً حالكاً من الغموض، وما زال التمثال حتى الآن محوطاً بسياج من السر الرهيب] انتهى.

وهكذا نرى تشابك المؤامرة التوراتية، ولو أمكن اكتشاف المزيد من تلك المؤامرات أو استبعاد التوراة بالكلية من الساحة، لتم تصحيح الكثير من المعلومات التاريخية، فمثلاً يجب أن يتم البحث الآن عن هوية يوسف عليه السلام فى الشخصيات الموجودة قبل أربعة قرون (مثلاً) من زمن طرد الهكسوس لا من زمن رمسيس الثانى كما يجب البحث عن فرعون اليهود حول تلك الحقبة الزمانية.

وبالنسبة لفرعون اليهود وقصة الخروج فهناك عدة حقائق ينبغى معرفتها، وهى أن التاريخ لايجد أية وثائق عن الفترة التى قضاها الهكشيسو فى مصر بين دخولهم وخروجهم، وقد عزى ذلك إلى تدمير المصريين لمعظم معالم ووثائق تلك الفترة كراهية منهم وانتقاماً واحتقاراً لهؤلاء الهكشيسو، وإن كانت قد حددت فترة حكمهم بحوالى مائتى سنة ما بين الأسرة الثالثة عشر إلى الأسرة السادسة عشر.

وأيضاً فإن التوراة لا تذكر أى شيء عن أحوال بنى إسرائيل مطلقاً خلال تلك الفترة مما يثير علامات استفهام متعددة حيث أن تلك الفترة حسب تعريفهم تقع فى ٤٣٠ سنة وهى فترة طويلة جداً إذا قيست بمدة أحداث التوراة كلها منذ الخروج وحتى تكوين ممالكهم ثم الأسر البابلى والتى تقع كلها فى فترة أقل من تلك الفترة، فالتوراة تشير فقط إلى الدخول لمصر كعشيرة قليلة العدد مستضعفة ثم تطفيء الأنوار لمدة أربعة قرون وأكثر لتنيرها بعد ذلك على كونهم عشيرة كبيرة العدد ولكنها مستضعفة أيضاً.

ولعل الفرق بين الزمانين التاريخى والتوراتى صحيح إلى حد ما، فهم تاريخياً قد دخلوا مصر خفية وتسللاً بإسلوب مبهم وازدادوا فى التعداد تدريجياً حتى سيطروا على

مقدرات الأمور بشكل خطير، حتى قام البطل المصرى أحمس على رأس جيش من الجنوب وحطمهم وكسر شوكتهم وطاردهم، كل ذلك فى قرنين من الزمان .. وقطعاً لايمكن تخيل اقتلاع شعب بأكمله ذو تعداد كبير كهذا وبشكل فجائى بالإسلوب الساذج الذى نراه فى كتب التاريخ «وطردهم أحمس من مصر وطاردهم حتى فلسطين» وكأن طرد شعب كبير كهذا ممكن أن يتم بصورة كاملة إلى أرض فلسطين التى كانت مكتظة حينذاك بالممالك الكنعانية القوية ذات التعداد السكانى الكبير .. إذن فمن الممكن افتراض أن أحمس طاردهم وكسر شوكتهم العسكرية وحطم الآلة الحربية الهكشوسية تماماً بعد فترة زمانية من دخولهم مصر، أما الفلول التى تبقت فقد عوملت معاملة الأرقاء كأسرى حرب أذاقهم المصريون الخسف والهوان انتقاماً منهم لمدة زمانية أخرى كانت كلها استعباداً وذلاً مما تصفه سطور التوراة عن السخرة الإسرائيلية فى أرض مصر.

ولعل القرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذى يشير إشارة ذات مغزى إلى الفترة التى قضاها اليهود بين دخولهم وخروجهم من مصر، مثل قصة قارون والتى تبين مدى الاستعلاء والصلف الذى مارسه حكام اليهود «الهيكشيسو» ضد المصريين، بل وضد الشعب اليهودى العادى نفسه، ومدى تسلطهم على المقدرات الاقتصادية للبلاد تماماً، كما تشير إلى تعاون بعضهم مع السلطات المصرية الفرعونية ضد اليهود أنفسهم، ولعل الآيات القرآنية أرادت أن تخبرنا عن طريق الأسماء والصفات بكثير من الأحوال السائدة فى العلاقات المصرية - اليهودية (الهكسوسية) حينذاك .. فالآيات القرآنية تورد ثلاثة أسماء متزامنة فى فترة موسى عليه السلام هم : (قارون وهامان وفرعون)، فقارون تعريفاً كان من بنى إسرائيل وتظهر القصة القرآنية مدى الثراء والغطرسة التى وصل إليها، وكذلك تظهر محاولته التشبه بالفراعنة فى المواكب والزينة وخلافه، مما يشير إلى كونه أحد ملوك أو حكام اليهود الهكسوس فى تلك الحقبة ممن حاولوا التشبه بالفراعنة، ومارسوا أيضاً قدراً كبيراً من الظلم والاستعباد تجاه بنى إسرائيل فى منطقته الخاصة به، حيث أن الآيات القرآنية تشير إلى تواجده زمنياً فى فترة موسى عليه السلام، وتشير إلى مواعظ موسى له،

ونهيه له عن أفعاله، لكنها لاتظهره مطلقاً في مشاهد الحوار التي تدور في القصر الملكي سواء بين فرعون ووزيره هامان من جهة أو بينهما وبين موسى من جهة أخرى، أو حتى تشير إلى أى محادثة أو محاورة تجمعه مع هذين الشخصين في صعيد واحد، كما أن الآيات القرآنية تظهر إسلوب القضاء عليه بمعجزة إلهية هي الخسف والتي تختلف كلية عن القضاء على الإثنين الآخرين معاً بالغرق أثناء محاولة تتبع بنى إسرائيل، وعموماً فقصة قارون لم تظهر في التوراة مطلقاً، وهي قصة قرآنية خالصة رغم أن تركيب اسمه يظهر أنه اسماً عبرانياً سامياً مثل «هارون»، حيث يظهر الحرف الساكن ووراءه متحرك بالتتابع مما هو من خصائص اللغات السامية ويخالف إسلوب (التسمية الفرعونية).

يقول تعالى في قصة قارون : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَآ إِلا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلآ أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا * وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص ٧٦-٨٣)

وهناك إشارات قرآنية عميقة أخرى ينبغي النظر إليها بتمعن تاريخي شديد فمثلاً جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ * يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ

الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ (المائدة ٢٠-٢١)

والكلام هنا فى الآيتين هو عظة من موسى لقومه بنى إسرائيل قبل دخولهم فلسطين، وقد يتساءل عارف بالتاريخ كيف يقول موسى عليه السلام ذلك لقومه ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ وهم لا يزالون بعد مشردمين فى برية التيه، وقبل دخولهم فلسطين، وقبل تنصيب أى ملك إسرائيلى (تلك الآية حيرت الكثير من مفسرى القرآن ولم يجدوا لها تفسيراً مقنعاً)، والمعلوم أنه فى العهود الأولى للتاريخ اليهودى لم يكن هناك أى ملك على إسرائيل بل كانوا يعتبرون الله شخصياً هو ملكهم، وهكذا فبعد قيادة موسى عليه السلام ثم يشوع بن نون لهم، تولى حكمهم من يسمون «القضاة» لفترة طويلة، حيث لم يكن يجرؤ أحد منهم على تسمية نفسه «ملك»، وكان أول ملك تم تنصيبه عليهم هو شاول (طالوت) فى مرحلة زمانية متأخرة .. وهذه القصة عن تنصيب أول ملوك إسرائيل فى وقت زمانى متأخر ليست بغائبة أبداً عن الإدراك التاريخى للقرآن الكريم الذى يورد القصة كاملة وفى زمانها التاريخى السليم ﴿ مِن بَعْدِ مُوسَى ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَآءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَآ أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَى وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة ٢٤٦-٢٤٨)

إذاً، والحال هكذا فما مغزى أن يقول لهم موسى عليه السلام مذكراً بآيات الله السابقة، أى فى الماضى ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾؟، بينما لم يتوج عليهم ملك إلا فى زمان

متأخر عن ذلك جداً يصفه القرآن ﴿ مِن بَعْدِ مُوسَى ﴾.

التفسير الوحيد الممكن لذلك هو أن الله تعالى جعل منهم ملوكاً في الفترة السابقة لموسى عليه السلام والخروج من مصر، أي أثناء إقامتهم في مصر بعد دخولهم فيها على يد يوسف عليه السلام، حيث أنهم لم يكونوا شيئاً على الإطلاق قبل ذلك.

إذن فها هو القرآن الكريم يخبرنا بوصولهم إلى درجة الملوك والحكام في تلك الحقبة مما يتلاقى مع تسميتهم المصرية القديمة البادئة بمقطع (هك Hyk) أي ملوك أو حكام، ومما يتلاقى مع معطيات التاريخ الموثق ولا أثر له في التوراة مطلقاً، ولعله من الطريف هنا تذكر كيف أن التفسيرات السائدة والتي كتبت قبل معرفة الحقائق التاريخية قد احتارت في تفسير تلك الآية حيث جاء مثلاً في تفسير ابن كثير ص ٥٠٢ ما يلي:

[قال عبد الرزاق عن ابن عباس في قوله ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ قال: الخادم والمرأة والبيت، وعنه قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمي ملكاً. وقال ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك. وقال الحسن البصري: هل الملك إلا مركب وخادم ودار، رواه ابن جرير. وقال السدي في قوله ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ قال: يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله] انتهى.

وأيضاً فإن تمثل بني إسرائيل بالمصريين، ومحاولة تقليدهم، كانت واضحة جداً في قصة العجل القرآنية. فهم وبعد نجاتهم مباشرة صنعوا لهم عجلاً ذهبياً ليعبدوه يماثل المعبود المصري تماماً، ومن المدهش أن اللفظ القرآني هنا فيه تحديد مبدع لشكل ونوعية هذا العجل بما يتلاقى تماماً مع المعطيات التاريخية، فالعجل في القصة القرآنية :

١- ﴿ جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ﴾ (الأعراف ١٤٨ ، طه ٨٨) أي ضخم الجثة وله صوت مدوٍ.

٢- حطمه موسى عليه السلام بأن ألقاه في الماء ونسفه فيه بعد حرقه وصهره ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ (طه ٩٧)

٣- وصف ولاء المشركين اليهود له بأنه قد أشرب فى قلوبهم ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ (البقرة ٩٣).

أى أن الألفاظ القرآنية تقودنا إلى تخيل عبارات الضخامة الجسدية والخوار واليم والتشرب (واللفظان الأخيران يشيران إلى الماء).

ولنعد قليلاً بالذاكرة لتذكر القصة الشهيرة التى أثارت المصريين على الهكسوس ودفعتهم للحرب .. يقول كتاب تاريخ مصر القديمة : [ولما سمع الهكسوس بنهضة طيبة، والتفاف أمراء الجنوب حولها حاولوا القضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها، فأخذ ملك الهكسوس يتحكك فى أمير طيبة، ويختلق الأسباب لمحاربته. ومن ذلك أنه أرسل إليه رسولاً، ينبئه أن صوت عجل البحر، الذى يعيش فى نهر النيل قرب طيبة يزعجه، ويقض مضجعه، وهو على مئات الأميال منه، فى حاضرته أفاريس، فى شرق الدلتا، ولما كان عجل البحر هذا حيوان يقدسه المصريون، فقد عدوا التعريض به إهانة لهم، وهبوا يحاربون الهكسوس، وظلت الحرب مستعرة سنين طويلة، حتى تولى الملك أحمس الأول] انتهى.

أليس بغريب هذا التطابق بين قصتى الهكسوس واليهود .. ألا تدلنا الألفاظ القرآنية أن هذا العجل لم يكن عجلاً عادياً بل هو إله «عجل البحر»، وهو الحيوان الذى ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾ قوى يصم الآذان، وضخم الجثة ﴿ جَسَدًا ﴾ ،وهو الذى تشير إليه لفظة ﴿ الْيَمِّ ﴾ أى البحر، ولفظة ﴿ وَأُشْرِبُواْ ﴾ التى تصور لنا هذا العجل وسط الماء .. ومن الطريف هنا تذكر أن إله عجل البحر كان اسمه الإله «أوبت»، وهو إله ضخم الجسد كان يقام له مهرجان سنوى فى طيبة. أما العجل البقرى فمن المرجح أن عبادته كانت عادة متأخرة جداً زمانياً فى التاريخ المصرى بعد سقوط الأسر القوية وآخرها الرعامسة، واعتلاء الحكم بواسطة الأجانب كالليبيين والنوبيين والآشوريين، فالقرآن الكريم عندما يذكر لنا العجل الذى كان موجوداً ومعبوداً فى الحقبة الزمانية لوجود اليهود فى مصر يذكره بأوصاف لفظية يمكن بها الاستدلال على ماهيته التاريخية بدقة.

أعود فألخص أن الآيات القرآنية تلقى الكثير من الضوء على الفترة الزمانية التى

مرت بين دخول اليهود لمصر وخروجهم منها وهي تلك الفترة التي أغفلتها التوراة تماماً، كما لم يجد لها علم التاريخ المادى تفسيراً شافياً لغياب الوثائق عن هذا العصر، فهى تشير إلى وصولهم لمرتبة الملوك فى المناطق التى كانوا يقطنونها، كما تشير إلى حجم الثروة والنفوذ التى كانوا يتمتعون بها، كما تشير أيضاً إلى تغلغل العقائد المصرية فى المعتقدات اليهودية فى تلك الحقبة .. كما أن قصة تربية موسى عليه السلام ذاته فى قصر فرعون لتدل على الإسلوب الذى درج الملوك الفراعنة - فى حقبة ما بعد القضاء على الهكسوس - على انتهاجه من تربية بعض أبناء الأمراء الأجانب فى البلاط الفرعونى على التقاليد المصرية لصبغ ثقافة تلك البلاد بالحضارة المصرية (راجع وصف البلاط الملكى فى عهد امنحتب الثالث مثلاً)، ولعل الاعتراض الفرعونى الوحيد على تربية موسى عليه السلام فى البلاط كغيره من أبناء الشعوب الأخرى كان هو فقط كونه عبرانياً من الشعب المكروه لدى المصريين، والمحكوم بالحديد والنار، والمقضى على المواليد الذكور فيه بالموت - والقصة القرآنية تشير بوضوح إلى معرفة آل فرعون بجنس الطفل الذى التقطوه وأنه عبرانى محكوم عليه بالقتل لولا عاطفة الأمومة فى صدر امرأة فرعون التى حمته، يقول تعالى :

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (القصص ٩)

أعود فأبلور كل الفكرة فى أن اليهود هم الهكسوس بلا أدنى شك تاريخى، ومن هذا المنطلق يستقيم كل التاريخ وتحل كل الألغاز التى فرضها التزوير الإسرائيلى .. ولعله بعد أن قويت شوكتهم فى مصر وصاروا ﴿ مُلُوكًا ﴾ أذاقوا الشعب المصرى الويلات بإسلوب مشابه لإسلوب قارون حتى ثار المصريون عليهم وقضوا على قوتهم العسكرية ودمروها، أى أن أحمس ومن سبقوه مثل سقنن رع وكاموس، كانوا فصولاً من قصة الصراع والعداء المصرى لهؤلاء الهكسوس ولم يكونوا القصة بأكملها، كما كان انتصار أحمس عليهم هو تدمير عسكرى للقوة والجهاز الحربى لديهم، لكنه لم يكن حرب إبادة أبادتهم

جميعاً، بل تركت خلفها فلول المستضعفين الذين أذاقهم المصريون ذل العبودية، ولعل هذا هو السبب فى أن تاريخ حكم الهكسوس لمصر ظهر فى التاريخ الموثق لقرنين فقط بينما فترة وجودهم الإجمالية فى مصر حسب التوراة كانت أكثر من أربعة قرون، وحسب الدلائل أكثر من ذلك بكثير، فالمصريون سجلوا ما يدل على وجود الهكسوس طوال قرنين حينما كان لهم شأن، ثم كانوا لفترة زمنية طويلة، وبعد هزيمتهم عبيداً أذلاء لدى المصريين لا توجد هناك أية ضرورة تاريخية لذكرهم فى الوثائق التاريخية المصرية.

ملحوظة : يجدر هنا التذكير بمراجعة التحليل التاريخى الذى أورده الكاتب زينون كاسيدوفسكى، والذى أوردناه سابقاً والذى يشير إلى وجود علاقة ما بين اليهود والهكسوس، كما ظلت تلك الفكرة مسيطرة على عقول الكثير من المؤرخين بغير تحديد واضح، مما هو يتشابه فى بعض الجزئيات مع الفرضية التى سقناها، وشهادة هذا الكتاب هى شهادة مؤرخ غربى مادى شبه ملحد تؤيد ما ذهبنا نحن إليه، فلا مجال لشبهة التطرف الإسلامى أو المصرى فيما أوردناه.

عموماً فإنه من المحير الآن أن نطرح هذا السؤال: لماذا كانت الحقيقة وهى أن الهكسوس هم اليهود شيئاً مرعباً لكهنة اليهود كاتبى التوراة، فحاولوا التنصل منه بكل هذه المؤامرات التاريخية التحريفية، والتى لابد أنها استغرقت منهم جهداً وفكراً وتخطيطاً طويلاً ومنظماً؟ والإجابة يسيرة على ضوء المعرفة بالميثولوجيا اليهودية، أى الفكر العقائدى اليهودى التوراتي، فالفكرة العقائدية تتلخص فى وجود شعب معين مختار إلهياً، وهذا الشعب مضطهد مظلوم أبداً من كل القوى والشعوب التى تجاوره أو تتعامل معه، وهذا الإله الذى اختارهم ينحاز دائماً لجانبهم وينصرهم فى النهاية على أعدائهم، نجد هذا الفكر ممتداً منذ القصة التوراتية التى تظهر دخول اليهود لمصر كأقلية ضعيفة ثم تطفىء الأنوار لأربعة قرون لتخرج علينا ثانية بوجود هذا الشعب المستضعف .. وإن كان مشكلته هنا هى كثرة تعداده .. وهو يئن تحت وطأة عسف المصريين لا لسبب إلا ربما لتفوق هذا الشعب المختار أو للجحود والنسيان المصري لأفضال الشعب المختار عليه مثل تلك المتمثلة

فى سياسات يوسف الزراعية، ولايزال هذا الخط الفكرى سائداً حتى الآن، فهم الشعب المستضعف فى أوروبا الذى تقام ضده المذابح المروعة وآخرها هولوكست النازى الصاخب إعلامياً، وهم الآن الشعب الديموقراطى المتمدين الصغير الواقع وسط ألف مليون مسلم بربرى يريدون تحطيمهم وإفناءهم، ويبدو أن هذا الخط الفكرى هو الذى كان على مر التاريخ ما يجمع الشظايا اليهودية المتناثرة هنا وهناك فى بوتقة واحدة أو جيتو واحد يستعد دوماً للدفاع عن حياته أمام جحافل الأعداء، أما القصة الحقيقية المناقضة والتى تشير إلى كون اليهود هم الهكسوس أنفسهم، وقصة الهكسوس معروفة وموثقة، لتضرب إذن تلك الفكرة العقائدية فى سويداء القلب، فلا هم كانوا بالأقلية، ولا كانوا بالمستضعفين أثناء وجودهم فى مصر، بل كانوا قوماً غزاة عتاة أذاقوا المصريين الهوان لقرون، وأما ما حدث لهم بعد انكسارهم العسكرى فقد كان انتقاماً لأفعالهم الدموية، ولعل امتداد هذا الانتقام لقرون طويلة بلا غفران أو تسامح من جانب المصريين، كان هو الجانب الخاطئ فى القصة والذى استدعى تدخل الله عز وجل لإطلاق سراح الأحفاد من شعب الهكسوس تهيئة لهم لأداء رسالة معينة فى التوحيد، لا يعتقد أحد مطلقاً أنهم قاموا بها منذ البداية حتى النهاية.

أوليس ذلك هو ما يصورون به أنفسهم أمام العالم الآن: الشعب المستضعف الخائف وسط عصف البرابرة .. أما نحن هؤلاء البرابرة فنعرف الوجه الآخر من القصة وهى أننا أويناهم فى بلادنا، ووسط سماحتنا الدينية لقرون طويلة نالوا فيها الحماية والرفاهية، ثم عندما انقلبت الأحوال استغلوا فترة تاريخية معينة، هبط فيها الأداء الإسلامى أمام قوى الغرب الصليبى، فتحالفوا معهم وهم ألد أعدائهم تاريخياً ضدنا، واحتلوا أراضينا، واعملوا فينا السيف بإسلوب دموى مرعب، ولا زالوا يحيكون ضدنا المؤامرات لتدميرنا عسكرياً واقتصادياً وتنموياً. فنحن إذن أمام تكرارية لنفس القصة القديمة والصورة ذات الوجهين نفسها، فالوجه الذى يراه العالم عن إسرائيل الآن وتروج له أجهزة الإعلام الهائلة التى بيد الصهاينة هو الوجه التوراتى المسالم الجميل للشخصية اليهودية. أما ما نراه نحن

فهو الوجه الهكسوسي الحقيقي لنفس الشخصية، والخلاصة أن معرفة الهوية اليهودية وإماطة اللثام عن كونهم هم الهكسوس لحقيقة تضرب أساس الفكر اليهودي في منبعه الأول، وفي صميم القصة التوراتية عن الاضطهاد المصري لبني إسرائيل، وفي عمق قلبه، ولذا وجب إخفاء الحقيقة بكل الأساليب ليستمر العويل في وجه كل العالم بتهمة مشابهة هي (اضطهاد السامية).

وهناك نقطة أخيرة أود أن أشير إليها قبل أن أدخل إلى الباب التالي، وهي تعقيب على الفقرات الأخيرة من مقال «زينون كاسيدوفسكي» والتي تتساءل عن السبب في عدم وجود أي ذكر ليوسف (عليه السلام) في الوثائق المصرية القديمة رغم عنايتها بكل التفاصيل، مما يبرره هو بفرضية أنه قد يكون نتيجة لضياع السجلات في فترة زمنية طولها ١٥٠ سنة نتيجة لتداخل التاريخ الهكسوسي مع التاريخ الإسرائيلي في تلك الفترة، فضاع هذا التاريخ الإسرائيلي مع وثائق الهكسوس التي أتلفها المصريون.

واستطيع بتيقن أن ألقى تحفظاً شديداً على هذا الرأى، وبرغم موافقتي على الكثير من الافتراضات التي ساقها، مما أبلوره في التالي:

١- أوافق الكاتب على أن يوسف لاذكر له في السجلات الوثائقية الفرعونية، لكنني اختلف معه في التبرير ولا أوافق على أن ذلك كان بسبب إتلاف السجلات، بل ببساطة لأن يوسف منذ لحظة توليه منصب الوزارة أعطى اسماً فرعونياً وألقاباً فرعونية حسب النص التوراتي الذي أشار إلى اسمه الفرعوني «صفنات فعنيح»، وعلى هذا فيوسف موجود ومدون في التاريخ المصري بصورة واضحة، لكن بلقبه الفرعوني وليس بالاسم العبراني، والنص القرآني يؤيد ذلك كما أن القصة التوراتية تظهره بوضوح أيضاً.

يقول تعالى عن قصة يوسف عليه السلام عند لقائه الأول بإخوته العبرانيين ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ (يوسف ٥٨)

وإنكار الإخوة وعدم معرفتهم له طبعاً يعود لوضعه السياسي غير المتوقع في الدولة

المصرية من عبراني، وكذلك لشكله وملابسه بل ولغته المصرية مما جعل الإخوة في جهل تام بحقيقته.

أما التوراة فتوضح أن يوسف بعد أن حصل على الألقاب الفرعونية من الفرعون ذاته اتخذ الهيئة والهوية المصرية تماماً.

[ولم يعلموا أن يوسف كان فاهماً حديثهم، لأنه كان يحادثهم عن طريق مترجم] التكوين ٤٢ :٢٣، وكذلك فعند المأدبة التي أقامها يوسف لإخوته عند عودتهم له مع بنيامين قالت التوراة [وقال: «قدموا الطعام» فقدموا له وحده، ولهم وحدهم، وللمصريين الآكلين معه وحدهم، إذ أنه محظور على المصريين أن يأكلوا مع العبرانيين، لأن ذلك رجس عندهم] التكوين ٤٣ :٢١-٣٢.

فالقصص القرآني يصدق التوراتي هنا في أن يوسف كان .. ولوظيفته العالية .. قد اتخذ الهيئة والهوية المصرية، وتمصر، حتى أنه ليصعب تمييزه عن المصريين، وكانت تلك هي حقيقة التاريخ وجوهر المنطق.

وأنا نفسي لم أتوصل إلى تلك الشخصية إلا بعد أن استطعت حل الشفرة الرقمية المعقدة الموجودة في سورة يوسف القرآنية وسبحان الله العظيم.

٢- يلقي الكاتب بشكوك كثيفة حول كون اليهود جزء من قبائل الهكسوس ولكن ينقصه الدليل، واعتقد أننا سقنا أدلة كافية على أنهم هم أنفسهم الهكسوس، بل وأوضحنا المؤامرة التاريخية التي قام بها كهنة اليهود كتاب التوراة في محاولة مستميتة لإخفاء الحقيقة مثل التحريك الزمني للأحداث باستخدام مسميات مغلوطة، أخذها الكثير من المؤرخين على عواهنها فأفسدت السياق التاريخي الصحيح.

وللتلخيص نقول أننا سقنا الأدلة التالية على أن اليهود هم الهكسوس:

١- الأصل العرقي المشترك بين بني إسرائيل في التوراة والهكسوس في التاريخ المادي (كلاهما من أصل سامي أتى من منطقة الشام وبين النهرين) مما حير المؤرخين دائماً عن العلاقة بين اليهود والهكسوس.

٢- أسلوب الدخول الغامض لكليهما مصر، عن طريق التسلل الخفى غير الظاهر تاريخياً والذى لايتسم بالغزو العسكرى أو الحربى.

٣- كلاهما بقى فى مصر لعدة قرون، نما فيها التعداد البشرى بشدة (من المثير تطابق الرقم التوراتى لتعداد اليهود مع الرقم الوثائقى لتعداد الهكسوس).

٤- أسلوب الحياة المنعزل عن الحياة المصرية السائدة حينذاك جغرافياً وعقائدياً لكليهما (اليهود والهكسوس) وكذلك اقتصار وجود كليهما على منطقة الدلتا ومصر السفلى.

٥- غياب أية آثار لكليهما - إلا ما ندر - فى الوثائق المصرية التى وجدت على الأبنية الحجرية الضخمة، مما يتفق تماماً مع معتقدات اليهود الدينية، ولايمكن أن يعزى مطلقاً للإتلاف بواسطة المصريين بل يعزى لغياب المهارة المعمارية الهندسية لكليهما (اليهود والهكسوس) النابعة من المعتقد الدينى.

٦- الشعب الوحيد الذى تم اقتلاعه من مصر فى التاريخ المادى هو الهكسوس، وفى التاريخ الدينى هو اليهود، وبنفس الأسلوب (الطرد الجماعى).

٧- وجود الشواهد التاريخية التى تشير إلى الخروج المرحلى لليهود من مصر، مما يتفق مع ما افترضناه من أسلوب خروج الهكسوس منها.

٨- تقاطع الزمن التاريخى لوجود كليهما فى مصر (منذ أواخر الدولة المصرية القديمة مروراً بالدولة الوسطى كلها)، وكذلك فإنه من المثير ملاحظة أن التوراة قالت أن اليهود قضوا ٤٣٠ سنة فى مصر، وكذلك كان الأثر الذى قاد للتعرف على الهكسوس فى مصر هو لوحة اسمها (لوحة الأربع مئة عام).

٩- إسلوب التسمية الإغريقى للهكسوس، الذى هو ترجمة حرفية للتسمية المصرية القديمة، والتى تشير بوضوح قاطع لطبيعة العقائد اليهودية (تقديس الدورات السداسية)، والذى تم تمويهه بشكل مثير لإخفاء الحقيقة.

١٠- التكوين الاجتماعى الأساسى لكلا الشعبين من «الرعاة».

١١- الشواهد المنطقية المستقاة من الإلحاح التوراتي على التبرؤ من الإسلوب الحربى للهكسوس «الخيل والمركبات»، والذى كان سمة مميزة لهم.

١٢- الإشارات القرآنية الواضحة ذات العلاقة.

١٣- الإسلوب الحربى الذى دونه المصريين عن الهكسوس المتمثل فى التدمير والإفناء الكامل يتطابق مع ما ذكرته التوراة عن أسلوب اليهود فى التعامل مع الشعوب الأخرى (راجع أسفار الخروج ويشوع)، ثم محاولة كليهما التشبه بالمصريين وإسلوب حياتهم فى مرحلة لاحقة.

١٤- تطابق مشاعر المصريين كما وجدت فى الوثائق تجاه كلا الشعبين، حيث تشير التوراة إلى أن المصريين كانوا يعتبرون اليهود رجس ودنس، كما أن الوثائق تشير إلى أن المصريين كانوا ينظرون للهكسوس بعين الاحتقار والإهانة، بخلاف الإسلوب المصرى الذى اتسم دائماً بالتسامح مع كل الشعوب الأخرى حتى الغازية منها.

١٥- تطابق المنطقة الجغرافية التى قطن فيها اليهود فى مصر (منطقة جاسان) بشرق الدلتا مع المنطقة الجغرافية التى عاش فيها الهكسوس تماماً، بل ووقوع عاصمة الهكسوس (أواريس) فى نفس النقطة الجغرافية التى كانت حاضرة اليهود توراتياً (رعمسيس) والتى لم توجد مطلقاً لها آثار وإنما وجدت آثار لمدينة أخرى بنيت بالضبط فوق أواريس وتحمل اسم «بر رمسيس» فى مرحلة زمنية أحدث من زمن وجود اليهود فى مصر.

١٦- أسماء ملوك الهكسوس الذين حكموا مصر تشير بشدة إلى أنهم هم اليهود، مثل «ياكوفير» الذى هو «ياكوف» الذى هو يعقوب كما ينطق بالأرامية والعبرية القديمة أو فى أشكالهما المبكرة، مما يشير إلى وحدة اللغة بين الشعبين المفترضين.

١٧- التاريخ المادى، إن لم يعترف بأن الهكسوس هم اليهود، فسيظل قاصراً عن تفسير الكثير من الأحجيات مثل كيف يمكن اقتلاع شعب كامل (الهكسوس) قوامه من ٢-٣ مليون دون ترك أية فلول خلفه؟ وما هو مصير تلك الفلول؟ وإلى أين تم طرد هذا

الشعب؟ وأين ذهبوا بعد طردهم من مصر؟ وأين استوطنوا؟ ... ولاشك أن التاريخ المادى بدون اعترافه بتلك الحقيقة يصبح غير مطقى، حيث أنه من غير المعقول تماماً أن يتم اقتلاع شعب تعداده بالملايين بالكامل ومرة واحدة، ثم يتبخر هذا الشعب فى الهواء تماماً خاصة وأنه شعب ذا مهارة حربية عالية.

وإلى هنا أكتفى بهذا القدر من الأدلة، وأقرر أنه لاتوجد عندى ذرة شك فى أن اليهود هم الهكسوس تماماً وليسوا فقط مشابهين لهم أو هم فرقة منهم أو خلافه.

والآن نأتى للسؤال الهام جداً وهو : من هو يوسف فى التاريخ الفرعونى؟

* * *

من هو يوسف عليه السلام فى التاريخ الفرعونى؟

وقبل أن أفصح لكم عن شخصيته، أو أن أركز على كيفية الوصول إليهاوالتى أعيتنى شخصياً كما أعيت كل علماء المصريات ودارسى التوراة ومنقبى التاريخ، بينما الحل كان موجوداً دائماً ومن ١٤٠٠ سنة فى ثنايا شفرة رقمية موجودة لسورة يوسف منَّ الله تعالى على بالكشف عنها.

وأنا واثق أن ما سأقوله من الآن فصاعداً سيثير زوبعة من الاعتراضات باعتبار أن هذا المنهج غير متعارف علمياً، وادعوا المعترضين - إن أرادوا - أن يتناسوا المنهج ذاته، وأن ينظروا فى النتيجة المتمثلة فى الشخصية الفرعونية التى طرحناها لتكون هى نفسها شخصية يوسف عليه السلام، ومناقشة أدلتنا التاريخية على ذلك.

أعجوبة الأعاجيب فى سورة يوسف (الشفرة الرقمية):

والقصة التى حدثت معى أرويها هنا بكل الأمانة والله على ما أقول وكيل وحسيب.

سبق أن أشرت إلى التقسيم العشرى الواضح جداً في الصيغة البنائية لسورة يوسف، حيث أن الأحداث مع مقدمة القصة تقع فى ١٠٠ آية، تليها ١٠ آيات (١٠١-١١٠) تلخصهاو تهيمن عليها وتحكمها فى اللفظ والمعنى، ثم تأتى آية واحدة فتلخص العشرة ايات وبالتالى المائة آية عن طريق فرضياتها الخمس.

وبالتصور البشرى القاصر اعتقدت أنه لزيادة الإحكام القرآنى، فإن كل آية من العشر الأخيرات سوف تحكم عشرة آيات من آيات الأحداث بالتساوى، لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة، وحسب هذا التخيل، حيث أنى وجدت أن كل آية من آيات الملخص والعبر كانت تحكم وتصلط أضوائها على أعداد غير متساوية من آيات الأحداث، بل والأكثر فقد كان هناك موضعين تتداخل فيهما آيتان من آيات الملخص سوياً لتحكما عدداً معيناً من آيات الأحداث كالتالى:

استعراض آيات الملخص:

١- ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف ١٠١)

وقد رأيت أن تلك الآية بمفردها تحكم الآيات الستة الأولى من السورة (١-٦) التى تنتهى بالآية (٦) التى تحمل نفس المنطوق اللفظى للآية (١٠١) ولا تتعداها، إذن فهذه آية ذات وحدة بنائية واحدة تحكم (٦) آيات لها نفس الصيغة البنائية.

٢- ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف ١٠٢-١٠٣)

ولعل القارئ الكريم يلاحظ ارتباط الآيتان ببعضهما من حيث كون الأولى منهما إخبار عن حادث والثانية عبرة منه، ومنطوق ألفاظ الآيتين سوياً يحكم الآيات (٧-٢٠) أى ١٤ آية وتلك الآيات هى أخبار المكيدة كلها والمكر من الأخوة ثم من السيارة ودلالته من عدم الإيمان، إذن فلدينا الآن ١٤ آية فى وحدة متماسكة تعكسهما الآيتان (١٠٢-١٠٣).

٣- ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (يوسف ١٠٤)

تتحدث الآية عن المعجزة الإلهية العظمى وهى القرآن، وكيف أن كلام الله عن طريق هذا القرآن فضل على العالمين، بدون مشقة ولا تعب ولا أجر، والآية تتحدث عن أن أعظم معجزات الله يأتى بلا أجر، بخلاف البشر الذين يطلبون أجراً دائماً على كل ما يفعلون كما يتوقعون دفع الأجر مقابل كل ما يصلهم، يتجلى هذا المعنى فى قصة يوسف الكاملة عن فتن النساء من يوم دخوله بيت العزيز الذى أمر زوجته أن تحسن مثواه لأهداف دنيويةوهذا أجر كان يرجوه، ثم ما كان من مؤامرتى امرأة العزيز حول فتاها يوسف عليه السلام، فكل الملاحقات اللحوحة فى الأحداث هى طلب الأجر بالطاعة منه لها فيما تأمره به كسيدة ومالكة له، ومنطوق الألفاظ فى آيات الأحداث يشير إلى تلك النقطة بشدة،

وخاصة فيما قالته أمام النسوة فى الآية (٣٢) ، فهو إما أن يدفع أجر عبوديته وهو الطاعة وإلا يسجن ويعذب حتى يدفع الأجر ، والأحداث تنتهى عند الآية (٣٤) باستجابة الله له بصرف الكيد النسائى عنه واعفاؤه من هذا الأجر الذى يودى به ، وتأمل التعبير القرآنى هنا ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ والفعل ﴿ صَرَفَ ﴾ يستعمل للكيد كما يستعمل للأشخاص وأيضاً يستعمل للمال لغويا ، وكذلك تتضمن الآيات أيضاً ذكر الأجر الإلهى عن الإحسان والصدق فى قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف ٢٢) ، فالجزاء هو الأجر الإلهى وقد عبر الله تعالى عن ترادف المعنيين صراحة فى قوله بنفس السورة ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف ٥٦) ، فكلمة الجزاء هى مرادف لكلمة الأجر قرآنياً ، وها نحن نرى تلك الكلمة مرة أخرى فى سطور الأربعة عشر آية فى قوله تعالى على لسان امرأة العزيز ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ (يوسف ٢٥) ، والخلاصة أننا الآن أمام آية واحدة (١٠٤) تحكم (١٤) آية من آيات الأحداث .

٤- ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (يوسف ١٠٥-١٠٦)

والآيتان وحدة بنائية واحدة لايمكن فصلها لأنهما تتحدثان عن نواقض الإيمان فى عقيدة البشر ، الأولى عن الكفر والإعراض ، والثانية عن الشرك ، والآيتان معاً تتحدثان عن جوانب الطبيعة البشرية المغرقة فى الضلال ، فكل الأدلة العقلية الموصلة للإيمان موجودة فى السماوات والأرض مما يحيط بالإنسان ويراه ولكنه يأبى التفكر والتدبر والإيمان ، كما تتحدث الثانية عن القاعدة العامة للعقيدة البشرية وهى جنوحها للشرك دائماً حتى فى ثنايا الإيمان .. أما الإيمان الخالص السليم عند البشر فهو للأقلية وليس لـ ﴿ أَكْثَرُهُم ﴾ .

ومنطوق الكلمات فى الآيتين يحكم ١٦ آية من آيات الأحداث (٣٥-٥٠) ، فالآية (١٠٥) نجد فيها كلمة ﴿ ءَايَةٍ ﴾ ، والآية (٣٥) فيها كلمة ﴿ الْأَيَاتِ ﴾ ، إذن فالبداية متطابقة ، ثم تمر الأحداث فى الستة عشرة آية تحكى قصة مرحلة متكاملة من حياة يوسف

وهي فترة السجن، فالآية ٣٥ هي قرار السجن والآية (٥٠) هي قرار الفرعون بالإفراج عن يوسف من هذا السجن، مروراً بأحداث السجن ذاتها، والتي كانت الآيات (المعجزات والدلائل) تتوالى فيها أمام يوسف، بدءاً من الدلائل التي استخلصها من شخصية «صاحبي السجن» والتي أوصلته بأمر الله للمبادئ الصحيحة للعقيدة وتلك الآيات لم يمر عليها يوسف عليه السلام، أو يعرض بل تدبرها ووعاها، ومروراً بالآيات المتداخلة بين السماوات والأرض في قصة حلم الملك وتفسير يوسف عليه السلام لها والتي كانت آية ومعجزة أخرى أخرجته من السجن ورفعت مظلمته.

فالآيات الستة عشرة حديث عن الآيات الإلهية بما تعنيه سواء من معجزات أو من دلائل، وفي ثنايا الستة عشر آية تأتي القصة التي ذكرها القرآن عن خطيئة يوسف في السجن التي هي خطيئة شرك، حيث أشرك الأسباب الأرضية مع القدرة الإلهية كطريق للخروج من السجن، وكنبي كريم مقرب كان العقاب شديداً ففشلت محاولته للخروج من السجن الذي قضى فيه ﴿ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ أخرى، وانعكست عبرة هذا الدرس على كل سلوك يوسف فيما بعد من كمال التوحيد، وصدق التوكل والاطمئنان بجنب الله، كما يتضح من رد فعله حينما أرسل الملك يستدعيه من السجن، فلم يتعجل أو يتلهف بل كان في موقف الإباء والتعفف الذي ما كان ليصدر إلا عن نفس مطمئن متوكل حق على الله.

فالشرك الذي يشوب الإيمان والمذكور في الآية (١٠٦) مذكور في ثنايا الستة عشرة آية أيضاً. إذن فلدينا الآن آيتان متماسكتان (١٠٥-١٠٦) تحكمان ما مجموعه ١٦ آية لفظاً ومعنى.

٥- ﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (يوسف ١٠٧)

نرى أن منطوق ألفاظ ومعاني هذه الآية تشمل معنى رئيسياً وهو عذاب الله الجزئي أو الكلي الذي يصيب الظالمين بغتة وبلا شعور أو إدراك أو إحساس منهم به، ونرى أن تلك الآية تحكم الآيات من (٥٠-٥٨) من السورة، وهن ثماني آيات كلها عقاب مباغت

للخاطئين بغير شعور منهم أو إدراك مما وقع على رؤوس النسوة ثم على رأس امرأة العزيز ذاتها، وعلى يد الملك الذى طلب التحقيق الفجائى فى المؤامرة بناء على الطلب المباغت غير المتوقع من يوسف عليه السلام.

وكذلك ففيهن تمكين ليوسف عليه السلام فى الأرض مما جعله فى موقف قادر على إنزال العقاب بإخوته ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾، مما يظهر جلياً فى العبارة التى اختتمت بها الثمانى آيات ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ التى تتوافق مع ختام الآية (١٠٧) ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾.

إذن فنحن أمام آية واحدة ١٠٧ تحكم ثمانى آيات من آيات الأحداث.

٩- ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف ١٠٨)

وهنا نرى أن تلك الآية من آيات العبر تتحدث عن الدعوة لله ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾، والبصيرة كما أوضحنا هى علم يقينى أو هى هبة إلهية يختص بها تعالى من يشاء من عباده المؤمنين. إذن فالبصيرة مرادفة للعلم المؤيد بالوحى الإلهى.

وإذا ما عدنا لآيات الأحداث نجد أن تلك الآية تحكم ١٨ آية كاملة (٥٨-٧٦) تتحدث كلها عن العلم الإلهى والعلم البشرى، أو البصيرة فى مواجهة علم الإنسان، وتلك الآيات تسرد حيلة أو مكيدة يوسف وصراع علمه الذى هو من الله ﴿ بَصِيرَةٍ ﴾ مع إخوته ذوى العلم الأرضى وأيضاً مع أبيه يعقوب عليه السلام الذى تتضح هنا بجلاء وجود بصيرة خاصة عنده تتداخل معها أحياناً أساليب تنبع من العلم الأرضى، أما الغلبة فى كل الأحوال فكانت للبصيرة والعلم الإلهى على العلم البشرى لتنتهى الآيات الثمانى عشر بالحكمة الخالدة ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

والأحداث كلها فى الثمانية عشر آية عبارة عن صراع عقلى بين يوسف من جهة وبين الإخوة ومن ورائهم الأب من جهة أخرى، وهذا الصراع كان يحكمه من ناحية يوسف البصيرة الإلهية المحركة لكل الأحداث ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾، أما أبوه فكان ذو بصيرة

أيضاً ﴿ وإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ .

ولكن تداخلت مع بصيرته هذه فى لحظة ما رغبة بشرية فى محاولة التخفيف من الأحداث مع أخذه الكامل فى الحسبان أن العلم الأرضى لايستطيع إيقاف المشيئة الإلهية ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ ﴾ (يوسف ٦٧) و ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ . أى أن الآيات الثمانى عشر تدور كلها حول فكرة الصراع بين العلم البشرى والعلم الإلهى، وبين البصر والبصيرة، ولعله من المفيد هنا ملاحظة أن كلمة العلم ومشتقاته ومرادفاته كالمعرفة والرؤية والكيد، أتت فى تلك الآيات الثمانى عشر بصورة كثيفة غير متواجدة فى باقى أجزاء السورة كلها، كما تظهر تلك الآيات ضعف العلم البشرى والمكيدة الإنسانية الممثلة فى الأخوة كما هى ممثلة فى الأب ذاته أمام العلم الإلهى ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾، والآيات أيضاً تختتم بذكر المشيئة الإلهية مرتين (الآية ٥٦) مقترنة بالتمكين والنصر الإلهى، والآيات فيها براءة واضحة من الشرك سواء من جانب يعقوب عليه السلام حينما أراد انتهاج إسلوب من أساليب العلم البشرى، فهو ينتهجه مع براءة واضحة من الشرك كما يتضح من النص، كما تظهر تلك البراءة أيضاً فى جانب يوسف المتصرف على أساس البصيرة الإلهية وحدها. مما يتفق مع ما جاء فى الآية ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ كما أن الآيات الحدثية تدور حول قصة يوسف مع إخوته الذين صاروا أتباعه فيما بعد لتتفق مع ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِى ﴾ .

المهم أن تلك الآية (١٠٨) تحكم ١٨ آية من آيات الأحداث (٥٨-٧٦) .

٧- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلا رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف ١٠٩)

وهنا نرى أن الآية تتحدث عن :

أ - أن المشيئة الإلهية اقتضت أن يكون الرسل لا من نوع البشر متلقى الرسالة

وحسب، بل ومن نفس مواطنهم وبلدانهم لحكمة واضحة.

ب- يدور الحديث في تلك الآية عن السير في الأرض وتدبر ما آلت إليه الأمم السابقة التي تنكرت لرسالات الله وارتضت الكفر، فالأدلة المطلوب تدبرها هنا هي لأقوام تم إنزال العقاب والعذاب بهم فعلاً.

جـ- علو مرتبة الدار الآخرة لمن اتقى ففيها جنة المأوى، أما الكافرين فالدنيا خير لهم وهي جنتهم.

نرى تلك المعاني، معززة بألفاظها في آية الأدلة (١٠٩) تدور في عشرة آيات (٧٧-٨٦)، فها هم الإخوة لا يتعظون بالأحداث التي مرت بهم، بل يعاودون نفس الإسلوب المبني على الكراهية وقطيعة الرحم (٧٧)، حتى يذكرهم أحد الإخوة بجريمتهم مع أخيهم يوسف التي لم يتعظوا بها (٨٠)، أي أن هناك إشارات واضحة إلى تكرارية الأحداث التي يمكن فهمها على ضوء ما جاء في الآية من تدبر أمر الأمم السابقة في آية العبرة (١٠٩)، والأحداث كلها تمر هنا بما يسمى «ذروة المأساة»، بعد أن حاق بالإخوة عقاب فعلي أذلهم وأخضع أعناقهم بما هو مماثل لمن سبقوهم في نفس الفعال، وهم يعايشون تلك الأحداث وهم ﴿يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ﴾ ذهاباً وجيئة إلى قصر العزيز مرات ومرات، وذهاباً وجيئة بين مصر وفلسطين، كما أن الآية (٨٦) بالذات وهي آخر العشرة تتحدث عن وحي إلهي يتلقاه رجل من أهل قريتهم هو أبوهم حين قال ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ الذي ما ظنوا أبداً أنه وحي أو حق لتتفق مع ما جاء في آية العبر ﴿إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم﴾، فاتهموه بافتعال النكد والبكاء على ما فات ولا يرجى إصلاحه. وفيها أيضاً إشارة للتقوى التي هي عكس الظلم ﴿إِنَّآ إِذاً لَّظَالِمُونَ﴾ (يوسف ٧٩)، لهذا كانت معاني الآية (١٠٩) تدور في تلك العشرة ايات (٧٧-٨٦)، وكذلك ألفاظها، فنجد مثلاً ﴿الْقُرَى﴾ في الآية (١٠٩) لها انعكاس في ﴿الْقَرْيَةَ﴾ (٨٢) و ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ﴾ في (١٠٩) لها انعكاس في ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ (يوسف ٨٠) و ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيها فلها انعكاس في ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ﴾، وكذلك تنتهي الآية بعبارة ﴿أَفَلا

تَعْقِلُونَ ﴾ التى لها انعكاس فى نهاية الآيات العشرة معبارة ﴿ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف ٨٦).

من هنا أرى أن تلك الآية (١٠٩) تعكس أضواءها على عشرة آيات هن من (٧٧-٨٦).

٨- ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف ١١٠)

وتلك هى الآية الأخيرة من آيات العبر والنتائج ولابد أنها تحكم وتسيطر على معانى وألفاظ الآيات الباقيات من آيات الأحداث أى (٨٧-١٠٠) بطول ١٤ آية، وبالفعل نجد تطابقاً لفظياً فى البدايات، فأول تلك المجموعة من آيات الأحداث تقول ﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٧) .. وكذلك فالآية ١١٠ تبدأ بقوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ ﴾ .. أما المعانى فواضحة جداً هنا فالأمر الإلهى بالنصر لرسله يأتى دائماً عند ذروة المحنة لما ﴿ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ أو ليس ذاك بحال يعقوب الذى يصل هنا لقمة محنته؟، وكل أبنائه بعيدين أو مفقودين بين أيادى الله والتكذيب من حوله يأخذ أعلى درجاته من المحيطين به ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ (٩٥) ثم جاءه نصر الله لما ﴿ أَن جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾ (٩٦)، المناظرة لعبارة ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ فى آية العبرة (١١٠)، ألا يظهر هنا فى الأحداث معنى النجاة المرتبط بالمشيئة الإلهية بعد المحن والوارد فى ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾، الذى يعكس أضواءه على معنى ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ (١٠٠).

وأقول أن العلاقة هنا واضحة جداً بين آية العبر (١١٠) وانعكاسات معانيها وألفاظها على ما تبقى من آيات الحدث (٨٧-١٠٠) أى بطول ١٤ آية.

ولتلخيص ما سبق، أقول أن التقسيم العشرى أدى إلى وجود عشرة آيات هن آيات العبر تعكس معانيها وألفاظها على مائة آية هن آيات الأحداث، ولكن بصورة غير متساوية

مما نتج عنه وجود ٨ أرقام لثمانية مجموعات تتفاوت طولاً هن:

٦ - ١٤ - ١٤ - ١٦ - ٨ - ١٨ - ١٠ - ١٤

ويظهر جلياً أن الأرقام الأربعة الأولى للآيات تساوى = ٥٠ آية بما هو مساوٍ تماماً للأرقام الأربعة الأخيرة التى تساوى نفس العدد (٥٠ آية) .

وأمام هذا الاستنتاج كان لابد من إيجاد الحروف المقابلة لهذه الأرقام فى الأبجدية العربية القديمة (أبجد هوز) كمحاولة لاستجلاء المعنى المقصود من الأحجية الرقمية (ملحوظة: كل الذين حاولوا من قبل إيجاد أية علاقات بين الأرقام القرآنية والحروف وجدوا أن الأبجدية العربية بترتيب أبجد هوز هى الأصح فى الاستعمال) ، فكانت النتيجة كالتالى :

٦	١٤	١٤	١٦	٨	١٨	١٠	١٤
و	ن	ن	ع	ح	ص	ى	ن

لذا فقد وجدت نفسى أمام كلمتين متساويتين يتكون كل منها من أربعة حروف وكل منها يغطى عدداً متساوياً من الآيات (٥٠ آية) هما : (و ن ن ع) و (ح ص ي ن) .

أما الكلمة الثانية فكان من السهل التعرف عليها ، فهى كما أنها كلمة عربية ولها إشارة فى القرآن وفى نفس السورة فى قوله تعالى ﴿ إلا قَليلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ (يوسف ٤٨) ، فهى أيضاً كلمة عبرية تعنى القوى والشديد والمحصن ، أى بعبارة أبسط تعنى «عزيز» ، ولا شك أن هذا كان هو لقب يوسف الذى يناديه به إخوته فى الأحداث والمناظر للكلمة العربية «عزيز» أى «حصين» . كما أن كلمة «حُصِن» تعنى المخزون أو المختزن وصيغة الفاعل منها «حاصون» تعنى الخازن .

إذن فالمعنى العبرى للكلمة يشير إلى أوصاف القوة والشدة وكذلك التخزين وكلها صفات تتعلق بقصة يوسف عليه السلام سواء القرآنية أو التوراتية .

ولعل مراجعة الآيات القرآنية عن الفعل حَصُنَ تشير كلها إلى معنى واحد هو التعفف عن مقاربة الزنى فى قوله تعالى :

﴿ والَّتي أحْصنتْ فرْجها فنفخْنا فيها من رُّوحنا ﴾ (الأنبياء ٩١)
و ﴿ ومرْيم ابْنت عمْران الَّتي أحْصنتْ فرْجها ﴾ (التحريم ١٢)
و ﴿ وأحلَّ لكُم مَّا وراء ذلكُمْ أن تبْتغوا بأمْوالكُم مُّحْصنين غيْر مُسافحين ﴾ (النساء ٢٤)
و ﴿ وءاتوهُنَّ أجُورهُنَّ بالْمعْرُوف مُحْصنات غيْر مُسافحات ولا مُتَّخذات أخْدان ﴾ (النساء ٢٥)
و ﴿ إنَّ الَّذين يرْمُون الْمُحْصنات الْغافلات الْمُؤْمنات لُعنُوا في الدُّنْيا والآخرة ﴾ (النور ٢٣) ... وغيرها الكثير.

أوليس التعفف عن الزنى هو الخاصية الأولى التى اتسم بها هذا النبى الكريم، وملحوظة أخرى تشير إليها الحفريات الحديثة والتى أشارت لوجود صوامع الغلال الخاصة بيوسف عليه السلام على الأرجح فى منطقة تسمى «عرب الحصن» بشرق القاهرة. وكذلك فإن (أبو الحُصين) فى العربية هى كنية الثعلب، والثعلب عند العرب هو رمز للذكاء والمكر والحصافة، ولعلى أخلص إلى أن لقب «حصين» فى العربية يشير إلى عدة معانٍ مجتمعة هى:

١- القوة والمنعة. ٢- تشييد الحصون.
٣- التعفف عن الزنا. ٤- الذكاء والمكر والمهارة.

وكل هذه الأوصاف تحيط بصفات يوسف عليه السلام ذاته والواردة فى قصته القرآنية، وأعتقد أنه لايوجد - فى اللغة العربية - لفظ آخر يستطيع أن يلخص أو يستوعب كل صفات يوسف الصديق أكثر من هذا اللفظ.

أما اللفظ الأول (و ن ن ع) فقد اتعبنى للغاية، فلا هو كلمة عربية ولا هو كلمة عبرانية، ولكن بناء على شكل الحروف وبناء على أن تلك القصة كانت كلها تداخلاً بين العبرانيين والفراعنة، فوضعت فرضية أنها كلمة فرعونية هى (ونع) أو (ون-نع) أما ون أو أون الفرعونية المرموز لها بالهيروغليفى برمز الأرنب فهى قد تعنى ليبقى أو الشمس أو

الآلهة، أما (نع) فلم أجد لها إجابة حاضرة .. وظهر أن كلمة (ون - نع) غير موجودة بالمصرية القديمة إلا أن البحث فى التاريخ الفرعونى بدقة عن هذا الاسم، قادنى لشخصية عجيبة موجودة بجلاء في التاريخ الفرعونى هى «ون-نى» وثبت لى أن هذه الشخصية هى فعلاً شخصية سيدنا يوسف عليه السلام، ولولا خطأ تركيب العبارة الفرعونية الذى وقعت فيه أولاً ما تمكنت من الوصول إليه، وثبت لى من قراءة النص الهيروغليفى الوحيد الموجود عن (ون-نى) فى المتحف المصرى (الطابق السفلى - صالة الدولة القديمة) أن التركيب الصحيح لهذه الأربعة حروف هو (ونن-ع) أى «العظيم الذى يدوم» أو «ليخلد العظيم» وأن اسم «وينى» يرجح أنه مأخوذ من تلك الكلمة (ونن-ع)،وهنا لم يعد عندى أدنى شك أن (ونن-ع) هو اللقب الفرعونى الذى أضفاه الملك على يوسف ويعنى «الخالد العظيم»، أو «الذى تدوم حياته عظيماً»، وهو مقارب للقب الفرعونى ليوسف الذى أتت به التوراة صفنات فعنيح أى «يقول الإله: فلتحيا»، وفى تفسير آخر «حافظ للحياة»، كما ينبغى أن نتذكر هنا ولع المصريون القدماء بالألقاب المتعددة التى كانت تضفى على الشخصيات الكبرى بالدولة مثلما وجد على مقابر وزراء الفراعنة فى العهود القديمة، مثل مقبرة (يويا) ومقبرة (عبريا) وكلاهما معاصر لإخناتون ويحمل العديد من الألقاب وليس لقباً واحداً فقط.

يقول كتاب الناس والحياة فى مصر القديمة: (إن النصوص المنقوشة على آثار الخاصة من لوحات وتماثيل ومقابر وغيرها .. تتضمن - بصفة عامة - عدداً من الألقاب للشخص الواحد، بمجرد أن يتبوأ صاحبها منصباً ذا شأن فى مجتمع عصره. ومن هذه الألقاب ما هو موروث فأضحت ألقاباً شرفية فحسب. أما الألقاب الأخرى فتسجل ما شغله صاحبها من وظائف متعددة فى آن واحد، أو تلك التى تعاقب عليها. وجرت العادة أن يحتكر الشخص الواحد بعض المناصب الإضافية، كما شاع الجمع بين الوظائف الإدارية والاقتصادية والدينية بل والعسكرية، رغم افتقارها إلى رباط واضح يجمع بينها .... ولسوف يزداد إدراكنا لهذه الظاهرة لو عدنا إلى بعض البطاقات، ودققنا فيما تحتويه من تفاصيل

عن أفضال ومهارات صاحبها، إلى جانب إطنابها في تسجيل مهنته الحقيقية. لقد انتشر هذا التقليد انتشاراً واسعاً عبر كل العصور) انتهى.

وسبحان الله سبحان الله الذى يظهر لنا معجزاته كل يوم بصدق وحى قرآنه العظيم فالكلمتان الفرعونية (ونن-ع) والعربية - العبرية (حصين) يبدو أنهما كانا لقبا يوسف الذى كان ينادى به من المصريين والعبرانيين بالترتيب، وكانا قابعين دوماً بين ثنايا النص القرآنى كإثبات دامغ على صدق القصة القرآنية والتى هى طبعاً ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، وكانا دوماً كالعلامة المائية التى نراها فى ضوء الشمس داخل أوراق العملة لاكتشاف السليم من المزور منها.

والآن آتى لتعريف القارئ الكريم بشخصية (ون-نى) الذى هو يوسف الصديق والذى وجدت مقبرته بالمدينة الفرعونية المقدسة (ابيدوس) وبالذات فى قرية العرابة المدفونة، ووجدت - كما تخيلت - فارغة تماماً نتيجة لنبش حدث، ليس من قبل سارقى القبور، بل من قبل بنى إسرائيل أنفسهم الذين أخبرتنا التوراة أن الشيء الوحيد الذى فعلوه عند خروجهم من مصر كان هو فتح مقبرة يوسف عليه السلام وحمل عظامه معهم لتدفن فى أرض كنعان حسب وصيته [واستحلف يوسف بنى إسرائيل قائلاً: «إن الله سيفتقدكم فانقلوا عظامى من هنا»] التكوين ٥٠ :٢٥، وكان أن [وحمل موسى عظام يوسف معه، لأنه كان قد استحلف بنى إسرائيل بحلف قائلاً: «لابد أن يفتقدكم الله فعليكم أن تنقلوا عظامى معكم من هذا المكان»] الخروج ١٣ :١٩.

وببساطة فإنه حسب الرواية التوراتية فإن أية مقولة بأن أى إنسان هو يوسف عليه السلام تبطل تلقائياً إن وجدت له جثة أو مومياء وكان هذا هو ردى المبسط على القائلين بأن الكاهن المصرى «يويا» هو يوسف عليه السلام، حيث أن مومياء «يويا» وجدت فى حالة سليمة وجيدة هذا بخلاف الإعتراضات الأخرى الكثيرة التى أثارها طرح تلك الشخصية كممثل لشخصية يوسف عليه السلام.

والآن تعالوا نقلب صفحات التاريخ لنعرف من هو «ون-نى» أو «أونى» أو يوسف

عليه السلام:

يقول أحد المصادر التاريخية المعتمدة من وزارة المعارف العمومية المصرية عن تاريخ هذا الرجل والمستقى من النص الذى وجد على جدار مقبرته، وسجل فيه سيرته الذاتية كأثر وحيد موجود من حطام المقبرة، وتحت عنوان «ملوك الأسرة السادسة» فى الدولة المصرية القديمة: (وأول ملوك هذه الأسرة هو الملك «تيتى»، وقد استمر يحكم مصر، من مدينة منف، كما كان الحال من قبل، وظهر فى عهده رجل عظيم يدعى «أونى» عاش سنين طويلة، وخدم ملوكاً عدة، وكان فى أول أمره مديراً للزراعة وضياع الملك، ثم ارتقت به كفايته حتى صار أميراً وحاكماً للجنوب (الوجه القبلى - أعظم لقب بعد الفرعون)، ونائباً للملك فى «نخن» (تقع أطلالها تحت قرية الكوم الأحمر شمال إدفو)، ثم خلف تيتى ملوك ضعاف، حكموا مدداً قصيرة فلم يتركوا أثاراً تذكر، ثم اعتلى العرش ملك قوى يدعى «بيبى الأول» حكم البلاد زهاء خمسين عاماً ذاع فيها صيته حتى لقد سمى الكثير من المصريين أبناءهم باسمه، ولهذا الملك العظيم أعمال معمارية عظيمة، على أن أهم مصدر نستقى منه أخبار هذا الملك، هو ما كتبه (أونى) نفسه على جدران مقبرته بالعرابة المدفونة، واصفاً أعماله المختلفة فى عهود الملوك الذين خدمهم، كما ثبت أن (أونى) قاد حملات متعددة ضد إغارات بدو آسيا على شرق الدلتا، ثم قام بحملة ناجحة ضد بعض القبائل التى تنتسب لمنطقة بين النهرين والتى أغرت على فلسطين وغزا فلسطين بحملة بحرية - برية مشتركة، وحمى مصر من شر الغزو، ثم خلف بيبى الأول ابنه (مرنرع) على العرش لمدة سبعة أعوام، ولكن رغم قصر عهده، ظلت أعمال الإصلاح مطردة يتولاها «أونى» وبلغ من تقدير الملك له أن عينه حاكماً للجنوب وهى وظيفة كبيرة، لم يكن ينالها إلا من أخلص الحب للملك وتفانى فى خدمته وحظى برضاه، ومن الأعمال الهامة فى عهد هذا الملك، قيام (أونى) بحفر خمس قنوات، خلال أحجار الجرانيت، التى تعترض سير النهر عند الشلال الأول، فتيسرت بذلك الملاحة للجنوب، كما تمت عدة اكتشافات فى عهد (أونى) لمنابع النيل تحت قيادة حاكم جزيرة الفنتين

(حرخوف) وظل «أونى» في الحكم لسنوات طويلة جداً ربما امتدت لعهد الملك بيبى الثانى نفسه) انتهى.

أما المصدر التاريخي الثانى فهو ما جاء بكتاب الناس والحياة فى مصر القديمة للمؤلفة دومينيك فالبيل عن «ونى» يقول الكتاب عن أعمال ونى المستقاة من سيرته الذاتية التى وجدت على جدران مقبرته ص٣٥ : (رد جلالته «العامو» «وهم قبائل أسيوية سكنت الصحارى إلى الشرق من مصر» الساكنين على الرمال على أعقابهم، وجمع جلالته قوة ضخمة فى صعيد مصر - من جنوب الفنتين وحتى شمال أطفيح، ومن إدارتى الوجه البحرى، ومن قلاع سدچر وخن سچرو، ومن أهل النوبة فى أرتى ومدچا ويام و واوات وكاأو، ومن الليبيين، ولقد أرسلنى جلالته على رأس هذه القوة. أما حكام الأقاليم وحاملو أختام ملك الوجه البحرى و «الأصدقاء الوحيدون» فى القصر الكبير ومديرو ورؤساء أملاك الوجهين القبلى والبحرى ورؤساء القوافل من رجال البلاط ومديرو الإدارات فقد خرجوا جميعاً على رأس قوات الوجهين القبلى والبحرى والأملاك والمدن التى يديرونها وأهل النوبة المقيمين فى هذه المناطق) انتهى.

ثم يعود المصدر ليضيف معلومات أخرى عن (ون-نى) فى ص ٥٤ : (وإذ كنت مشرفاً بالقصر الملكى وحامل النعال، قام سيدى، مرى ان رع، ملك الوجه القبلى والوجه البحرى - فليحيا إلى الأبد - وعيننى حاكماً مشرفاً على الوجه القبلى فى جنوبى «الفنتين» ..... وطفق «ونى» يسرد تفصيلات المهام التى قام بها فى تلك المنطقة من حيث إحضار الأحجار اللازمة لبناء المقابر الملكية، وإسلوب شحنها عن طريق أساطيل السفن فى النيل، وكذلك شقه لخمسة قنوات فى صعيد مصر، وكذلك إحضار الأخشاب اللازمة لصناعة الأسطول البحرى المصرى، ويروى «ونى» فى جزء آخر من ترجمته الذاتية كيف ارتقى درجات السلم الوظيفى من السفح للقمة قائلاً : «عندما كنت غلاماً ما يزال يتمنطق بالزنار، شغلت وظيفة رئيس مخزن فى عهد صاحب الجلالة تيتى. ثم عينت كبيراً لموظفى البيت الكبير (...) ثم كاهناً مرتلاً وكاهناً أول بالقصر الأزلى، فى عهد صاحب الجلالة

بيبى، ثم رقانى جلالته إلى منصب الصديق وكبير كهنة مدينة هرمه (... وعينني جلالته) قاضياً في مدينة نخن») انتهى

وهناك جزئية أخرى تلفت الإنتباه بشده في هذا النص عن اشتراك «ونى» بشكل ما في تحقيق أجرى في حريم الملك في عهد الملك بيبى الأول، والقصة مكتوبة بغموض شديد ولا تنص على العقوبة النهائية التى تم توقيعها على زوجة الملك نفسه، ربما لأسباب تتعلق بسرية ما يجرى في القصور الملكية، ولكنها انتهت على أية حال بالتخلص من تلك الزوجة نهائياً حيث حظى «ونى» نفسه بمرتبة عالية وحظوة لدى الملك بعد تلك الحادثة، يقول «ونى» عن ذلك : (« .... وعينني جلالته» قاضياً في مدينة نخن إذ كنت محل ثقته، فاشتركت بمفردى مع الوزير في الفصل في القضايا الخاصة بشئون الملك والحريم الملكى ومحكمة الستة (...) وعندما كنت قاضياً في مدينة نخن عينني جلالته صديقاً أوحد وكبيراً لموظفى البيت الكبير. وجرت محاكمة سرية في الحريم الملكى للزوجة الملكية وصاحبة الحظوة الكبرى، وكلفنى صاحب الجلالة بالفصل في القضية وحدى، دون معاونة قاضى أو وزير أو عين من الأعيان .. بل حكمت فيها بمفردى) انتهى، وتعلق مُراجعةُ الكتاب دكتورة / زكية طبو زادة على تلك الفقرة بقولها : (تخلص بيبى الأول من زوجته الملكية وقدمها للمحاكمة لأسباب لا نعرفها، وقد عاونه «ونى» في تنفيذ رغبته فنال الثقة الغالية) انتهى.

أما عن الإسلوب الإدارى الذى كان يتبعه «ونى» في تنظيم المهام المختلفة التى أنيطت به فقد قال في بقية النص : «رغم أننى لم أكن سوى كبير موظفى القصر الملكى، نظراً لما اشتهرت به من سلوك حازم وصارم، فكنت لا أسمح لأي شخص أن يتشاجر مع رفيقه أو يستولى على خبز أو نعال أى عابر سبيل أو يسرق ملابس من مدينة أو يسلب عنزة من صاحبها (...) وكنت أقوم بالتفتيش على كل فرقة من الفرق العسكرية. فكنت أول من فتش عليها إذ لم يسبقنى مفتش آخر» انتهى.

من هذه المعلومات التاريخية المستقاة من الترجمة الذاتية التى تركها «ون-نى» ذاته

على جدران مقبرته نجد أنفسنا أمام شخصية لها خصائص معينة:

١- تقلد ونى منصب الوزير الأول لفترة طويلة جداً، فى زمان أربعة ملوك أو أكثر فى الأسرة المصرية السادسة بأواخر الدولة القديمة (تقول التوراة أن يوسف تقلد الوزارة فى سن الثلاثين وتوفى عن ١١٠ سنة أى قضى ثمانين سنة فى الحكم).

٢- هذا الرجل «ونى» الذى واكب ظهوره بداية الأسرة السادسة الفرعونية - تولى الوزارة بإسلوب غريب جداً لم يكن متبعاً بالنسبة لهذه الوظيفة الخطيرة، تقول المصادر التاريخية أنه فى خلال الأسرة الرابعة كان الابن الأكبر للملك هو الوزير وقائد الجيش وكبير القضاة فى المملكة، ولكن فى عهد الأسرة الخامسة انتقلت تلك المناصب إلى أسرة تعرف باسم (بتاح حتب) وأصبحت وراثية فيها، وكذلك قويت سلطات حكام الأقاليم، وصار أبناؤهم يرثون وظائفهم من بعدهم، وإن بقوا على الولاء للملك، أما الوزير «ونى» فلم يكن من نسل ملكى، ولم يحصل على وظيفته بالوراثة، بل حصل عليها ترقياً من أدنى درجات السلم الوظيفى، ولا نجد فى التاريخ تبريراً لحدوث مثل هذا التغيير فى الأنماط الوظيفية للدولة القديمة ... أليس ذاك هو ما حدث مع يوسف عليه السلام الذى وصل للحكم من مرحلة وظيفية دنيا مروراً بالسجن فاعتلاء سدة الحكم.

٣- تميزت الشخصية بالكفاءة والأمانة والثقة الشديدة عند الفراعنة مما يتجلى فى بقائه فى الحكم لفترات طويلة ومع تغير العهود والملوك .. أليست تلك هى صفات يوسف عليه السلام والتى تتجلى فى الفقرة التى أسلفناها والخاصة بإشرافه على حملات الجيش بإسلوب حضارى يتسم بالعدل والتقوى مما وصفته الكاتبة بالتلقائية.

٤- بخلاف قصة قيادته لبعض الحملات الحربية باتجاه البدو في البحر الأحمر (وعلى أية حال كانت تلك من مهام الوزير الأول)، فإن كل أعماله اتسمت بالصبغة الهندسية والزراعية، مثل شق القنوات، وبناء الحصون الضخمة والمعابد والمقابر والسفن ... إلخ، كما تذكرنا الفقرات الخاصة به بأنه بدأ حياته مديراً للزراعة والأملاك الملكية، مما يشير إلى كونه صاحب سياسة هندسية وزراعية إصلاحية معينة .. أليست تلك هى أول

الأعمال التي تولاها يوسف عليه السلام؟، ولعل تسمية رافد النيل الذى كان يغذى واحة الفيوم بالمياه باسم «بحر يوسف»، ليشير إلى مدى ارتباط هذا النبى الكريم فى المخيلة الشعبية المصرية حتى الآن بأعمال هندسة الرى فى النيل، وتلك أيضاً كانت من أهم الأعمال التى حرص «ون-نى» على تدوينها على جدار مقبرته. وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالذكر هنا، وهى أن عصر الملك ببى الأول، الذى استمر طوال خمسين سنه من عمر وخدمة يوسف عليه السلام (ون-نى)، كان تاريخياً هو الحقبة التاريخية الأولى فى عصر الدولة المصرية القديمة التى بدأ فيها الاهتمام باتساع النشاط التجارى بين مصر والأقطار المجاورة وخاصة الأسيوية ومنها بلاد كنعان ... أليست تلك أهم مفردات قصة يوسف عليه السلام؟.

٥- قصة المحاكمة السرية التى جرت لزوجة الملك فى الحريم الملكى (الملك ببى الأول) والتى اشترك أو انفرد بالقضاء فيها (ون-نى) والتى انتهت بنتيجتين أولهما اختفاء تلك الزوجة بطريقة غامضة، وانتهاء ذكرها تماماً فى الوثائق ثم زواج الملك ببى الأول نفسه بزوجتين أخرتين انجب منهما ابنيه (مرنرع) و (ببى الثانى) اللذان توليا العرش بعده، وثانيهما كسب «ون-نى» للثقة الملكية المطلقة بعد تلك الحادثة والمحاكمة.

عموماً فالنص هنا يتميز بقدر ما من الغموض فى تلك النقطة حيث أنه يتحدث عن أمر شخصى فى قمة السرية يتعلق بالملك شخصياً وحريمه، ولا ينتظر أحد أن يقوم «ون-نى» بكتابة تفاصيل معينة قد تسىء إلى سمعة الملك ذاته، وعموماً فيبدو أن تلك هى المرة الوحيدة التى نوقشت فيها مسألة بهذا القدر من الحساسية فى التاريخ الفرعونى كله.

وهل تلك إلا قصة يوسف عليه السلام ومحاكمة النسوة وامرأة العزيز فى القصر الملكى. (يبدو أنه كانت هناك محاكمتان لا محاكمة واحدة فى الحريم الملكى، كما يبدو من النص، حيث اشترك فى الأولى «ونى» مع الوزير الموجود حينذاك فى التحقيق، أما المحاكمة الثانية فكان هو القاضى الأول فيها ويبدو هنا أنه كان قد تقلد منصب الوزارة).

٦- مومياء «ونى» أو بقاياها لم يعثر عليها على الإطلاق كما هو مفترض من قصة

يوسف عليه السلام التوراتية، وقد يطرح البعض رأياً بأن الكثير من القبور المختصة بالملوك أو عظماء الدولة في زمان الفراعنة قد تم نبشها بواسطة لصوص المقابر، ولكن في الحقيقة فإن معظم تلك القبور لا تزال تحتوى على بقايا من حاجيات الطقوس الجنائزية المختصة بالديانة المصرية القديمة مثل مقبرة الوزير عبريا التى وجدت فى سقارة، وثبت أنها قد نبشت وخربت تماماً إلا أن بقايا محتويات المقبرة وجدت مهشمة، وأمكن تجميعها فيما بعد، حيث لم تكن تلك البقايا فى حد ذاتها مطمعاً للصوص المقابر، وهذا ما لم يوجد مطلقاً في مقبرة «ونى» مما يشير إلى أنه لم يتم دفنه بالإسلوب المشوب بالعقيدة المصرية القديمة، كما يلاحظ أيضاً خلو النص تقريباً الذى وجد على جدار مقبرته تقريباً من أية إشارات إلى الآلهة الفرعونية القديمة مثل (رع أو حورس أو أوزيريس)، ذلك بخلاف أهرامات الملوك الذين عاصرون مثل تيتى وبيبى الأول، والتى إن كانت قد وجدت شبه مدمرة تماماً، إلا أنه تم التعرف على بعض نصوص كتاب الموتى الفرعونى على جدرانها فيما يسمى (متون الأهرام).

٧- تسمية (ونن-ع) باسم (ون-نى)، [وكلمة ونن نفسها موجودة فى النص الخاص بـ«ون-نى» والذى كان على جدران المقبرة ومحفوظ للآن بالمتحف المصرى]، يبدو أنه اختصار للاسم أو هو تقليد لإسلوب التسمية الملكى المتعارف عليه بين الملوك الذين عاصرهم وهم تيتى وبيبى الأول وربما بيبى الثانى فهو إذن اختصار أو تحريف للقب «ونن-ع» يأخذ شكل التسمية الملكية السائدة حينذاك، وللعلم فإن اسمى «تيتى و بيبى» وكذلك «ونى» لم يجد لهم العلماء تفسيراً حيث أنهم لا يؤدون معنى واضحاً باللغة المصرية القديمة، والنظرية السائدة والمقبولة الآن هو أن تلك الأسماء أسماء كنية (اسماء دلع) أو أسماء اختصارية مشتقة من الإسم نفسه.

ويبدو أن هذا الإسلوب التصغيرى أو الاختصارى فى الأسماء كان أسلوباً متعارفاً عليه فى مصر القديمة، يقول أحد علماء الآثار (الان زيفى)، الذى قام باكتشاف مقبرة وزير فرعونى فى سقارة هو عبريا، وقد لاحظ أن اسم عبريا هذا هو اختصار لاسم أطول -

على نفس النسق الذى افترضناه - هو «عابر آل» ما يلى:

[ولنتوقف مرة أخرى قليلاً عند اسم «عابر-آل» الذى أحياناً ما يُفضل عليه اسم التصغير «عبريا» الأكثر شيوعاً فى الحقيقة. وتطالعنا الصيغة الكاملة للاسم مدونة على الأعمدة الغربية للمقصورة. إن الشكل الخطى «عبريا» ليس إلا صيغة تصغيرية للاسم الكامل. وبلا شك ليست هذه الصيغة الكاملة أو طريقة قراءتها التى يقرها كافة المتخصصين محض تخيل أو إدعاء. فهى بالإضافة إلى ذلك تستمد التأكيد الواسع من العثور مؤخراً على نقوش ونصوص جديدة داخل المقصورة تحتوى على إشارة إلى كبير الوزراء مدونة كل مرة باللفظ الكامل «آل El» (أى بخط). أما لفظ «عابر Aper»، فيبدو من المؤكد أكثر فأكثر - كما ذكرته فى هذا الكتاب وكما يميل علماء اللغة إلى اعتقاده - وجوب اعتباره شكلاً خطياً من مصدر اللغة السامية «عابد abed» أو «عبد abd» بمعنى «يصبح عبداً له»، «يخدم» ... الخ. ويمكننا إذاً نطق الاسم الذي يعنى فى هذه الحالة «خادم الإله آل» تقريباً مثل «عبدي-آل Abdi-El»، وصيغة التصغير «عبديا Abdia» أو «عبدى Abdi»] انتهى.

عموماً فالاسم الذى وجدناه فى القرآن الكريم (ونن-ع)، هو الذى قادنا إلى طرح شخصية (ون-نى) على بساط المناقشة التاريخية، بخلاف اللقب التوراتى «صفنات فعنيح»، الذى لم يوجد له أى أثر فى أية وثيقة مصرية، ولم يؤد لشىء على الإطلاق، هذا مع اعترافنا بإمكانية تعدد الألقاب بالنسبة لشخص واحد يتقلد منصب رسمى حسب التقاليد المصرية.

كما يلاحظ أيضاً أنه لايزال الاسم «ونى» أو «أونى» فى حد ذاته غريباً على الأسماء المصرية القديمة فى ذلك العهد، حيث أن الوزير الذى ربما سبقه مباشرة كان اسمه مثلاً «ميريف نيبيف»، وكان وزيراً للملك «تيتى» ويظهر فى تركيب هذا الاسم مصريته الخالصة، وكذلك عدم اختصاره كما هو الحال مع «ونى».

٨- أدت المعلومات التوراتية القائلة بخروج اليهود فى عهد الرعامسة (الأسرة

التاسعة عشر - الدولة الحديثة) إلى محاولة البحث عن شخصية يوسف عليه السلام فى فترة تقع حوالى ٤٣٠ سنة أقدم من ذلك العهد أي فى توقيت ما داخل النطاق الزمنى للأسرة الوسطى، ولكن متابعة السياسة والأسلوب الزراعى المصرى فى الدول المصرية المتعاقبة يعطينا مؤشراً آخر، تقول التوراة عن السياسة الزراعية التى ابتدعها وبدأها يوسف عليه السلام فى مصر وعلى لسانه هو فى مخاطبته لمصريين [«ها قد اشتريتكم اليوم أنتم وأرضكم فصرتم ملكاً لفرعون، فإليكم البذارة لتزرعوا الأرض، ويكون فى موسم الحصاد أنكم تقدمون لفرعون خمس الغلة وتحتفظون لكم بالأربعة أخماس لتكون بذاراً للحقل وطعاماً لكم ولمن فى بيوتكم وأولادكم»] التكوين ٤٧ :٢٣-٢٤ .

أى أن أسلوب يوسف الاقتصادى فى أثناء المجاعة أدى إلى نزع ملكية الأرض من الفلاحين وإعطائها لفرعون الذى أعادها لهم ليزرعوها مقابل ضريبة مقدارها خمس الغلات.

[ومن ذلك الحين إلى يومنا هنا جعل يوسف فريضة الخمس هذه ضريبة على كل أرض مصر، تجبى لفرعون، باستثناء أرض الكهنة التي لم تصبح ملكاً لفرعون] التكوين ٤٧: ٢٦.

يقول كتاب تاريخ مصر القديمة وعن ملامح الحضارة فى الدولة المصرية القديمة (كانت غالبية الأمة المصرية القديمة من الفلاحين، الذين يزرعون الأرض ولا يملكونها إذ النظرية السائدة وقتئذ، أن الملوك هم أصحاب الحق المطلق على أراضى القطر الزراعية، يقطعونها لحكام المقاطعات، أو يوقفونها على المعابد وغيرها من المؤسسات الدينية، وفى كلتا الحالتين، يقوم الفلاحون بزراعتها تحت إشراف موظفى حكام المقاطعات، ويجبى منها الخراج عيناً بمقدار خمس المحصول) انتهى.

إذن فالسياسة الزراعية التى نسبتها التوراة ليوسف عليه السلام موجودة ومتعارف عليها منذ الدولة المصرية القديمة، وإذن فيوسف عليه السلام إن كان هو الذى وضع هذه الخطة فهو موجود منذ أيام الدولة القديمة التى عاش فيها «ون-نى» وليس الدولة الوسطى

كما تشير التواريخ التوراتية.

كما أن الأسرة الملكية الفرعونية السادسة (التى عاش فيها (ون-نى) أو يوسف عليه السلام)، كانت آخر عهود الاستقرار فى الدولة المصرية القديمة، حيث ساد اضطراب شديد بعدها امتد حتى نهاية الدولة القديمة (الأسر ٧-١٠) بل وبدايات الدولة الوسطى (الأسرة ١١)، ويميل الكثير من المؤرخين حالياً إلى أن هذا الاضطراب ربما كان منشأه وقوع تدهور اقتصادى شديد يرجح أنه دورة جفاف وتصحر سادت لقرون وانعكست على الحياة الاجتماعية والسياسية فى مصر، إذن فدورة التقلب المناخى التى عاش ون-نى فى بدايتها فى الأسرة السادسة الفرعونية تتطابق مع قصة يوسف عليه السلام الذى كان ظهوره على مسرح الأحداث المصرية مواكباً لأول إرهاصة من تلك الدورة.

٩- اسم «ونى» أو «ون-نى» قد ينطق حسب بعض المصادر «أونى»، ونراه فى كتب التاريخ مرة أونى ومرة أخرى ونى، حيث أن المقطع الأول منه والمرموز له بصورة الأرنب فى الهيروغليفية قد ينطق «أون» أو «ون» على حد سواء، واسم أونى هذا ليس غريباً على التوراة - بل ليس غريباً على قصة يوسف التوراتية نفسها حيث ورد فيها بالذات - جاء فى التوراة سفر التكوين ٣٥:١٦-١٩: أن بنيامين كانت أمه قد أطلقت عليه «بن أونى» (ومعناه: ابن حزنى)، لأنها كانت تلفظ أنفاسها أثناء الولادة غير أن يعقوب نفسه غير هذا الاسم إلى «بنيامين» ومعناه ابن يمينى، إذن فالاسم أونى ملاصق ليوسف فى القصة التوراتية ومنسوب لشقيقه الأوحد، ولما كانت قصة موت راحيل أم يوسف وبنيامين نفسها قصة مشكوك فيها كما أثبتنا فى بداية الكتاب .. إذن فالاسم «أونى» توراتياً ليس ببعيد مطلقاً عن يوسف ذاته، وهو يعنى حسب النص التوراتى «حزنى»، وقد يكون مشتقاً من مشاعر يعقوب ذاتها التى اتسمت دائماً بالحزن على يوسف، حيث يقول القرآن فى ذلك على لسان يعقوب عليه السلام ﴿يَآ أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف ٨٤)، وكذلك ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ﴾ (يوسف ٨٥)، وكذلك قال قبل ذلك عن يوسف ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُواْ بِهِ﴾ (يوسف

١٣)، والواضح «بن أوني» أى ابن حزني بالعبرية الحقيقى فى القصة كلها - هو يوسف ذاته - التي سجلت التوراة بدورها مدى الحزن والألم الذى غلف مشاعر يعقوب تجاه هذا الابن بالذات، [فشق يعقوب ثيابه، وارتدى المسوح على حقوبه، وناح على ابنه أياماً عديدة. وعندما قام جميع أبنائه ليعزوه أبى أن يتعزى وقال : «إني أمضى إلى ابني نائحًا إلى الهاوية». وبكى عليه أبوه] التكوين ٣٧ : ٣٤-٣٥ .

إذن فكلمة «أوني» الهيروغليفية والتى قد تكون بلا معنى، هى نفسها الاسم العبرى ليوسف والذى يعنى «حزني» انطباقاً على أحداث قصته، وهى نفسها الشكل الرمزى أو الكنية لـ«ونن-ع» بالإسلوب المصرى القديم المشابه لاسمى «تيتي» و «بيبي».

عموماً فالمتأمل فى فقرات موت راحيل ومولد بنيامين يشعر بغموض الموضوع، فقصة موت راحيل نفسها مشكوك فى صحتها من واقع التوراة ذاتها كما أثبتنا، كما أن بنيامين هو الوحيد الذى يعطى اسماً من قبل الأم (كباقى كل الأخوة) ثم يقوم الأب بتغييره بلا مبرر واضح (القصة التوراتية توضح أن يوسف هو الذى كان له اسمين اسمه العبرى واسمه الفرعونى)، بل أن تلك الفقرات موضوعة فى الإصحاح (٣٥) وبعيداً عن قصة مولد كل الإخوة الآخرين الإحدى عشر والذين جاء ذكر ولادتهم فى الإصحاحين ٢٩-٣٠، والواضح أن القصة نفسها ملفقة ومقحمة هنا لهدف ما، مما أرجح أنه لوضع الاسم الحقيقى ليوسف فى مصر بين ثنايا السطور التوراتية وفى ذرية يعقوب بالذات حتى لا ينساه الكهنة اليهود وبطريقة مموهة تنسب الاسم لشقيقه الوحيد ثم الإدعاء بتغيير الأب لهذا الاسم، وإعطائه الاسم الجديد «بنيامين».

عموماً فإن ذكر اسم مدينة «أون» مدينة الشمس، يظهر فى مواضع كثيرة لصيقاً باسم يوسف عليه السلام الذى يبدو أنه تربى وعاش فى هذه المدينة، كما أن يوسف عليه السلام حسب القصة التوراتية قد تزوج من إسنات بنت «فوطى-فا-رع» كبير كهنة مدينة «أون».

إذن فلفظى «أون» و «أوني» ليسا بغريبين مطلقاً على قصة يوسف التوراتية.

وقد يقول البعض أن «أونى» ذكر فى سيرته الذاتية الموجودة على جدار مقبرته توليه لبعض المهام المتعلقة بالكهانة فى معابد مصر مما لايتفق مع كونه نبياً توحيدياً كريماً، وأرد قائلاً:

(أ) إن معجزة يوسف عليه السلام سواء فى القرآن أو التوراة، كانت هى تأويل الأحاديث وتعبير الرؤى، مما يدخل فى إطار التنبؤات بالمستقبل، وتلك كانت أهم مهام الكهنة فى ذلك الوقت، وليس هناك نص قرآنى أو توراتى يفيد بأن يوسف عليه السلام كانت له رسالة أو مهمة إلهية موجهة للمصريين.

(ب) تفيد القصة التوراتية أن يوسف عليه السلام تزوج بنت كبير كهنة مدينة أون، وهذا حسب التقاليد المصرية المرعية - فى ذلك الزمان - يدخله فى سلك الكهانة.

(جـ) يبدو من الكثير من الشواهد التاريخية تداخل مهام الكهنة مع مهام الوزارة (مثل حالتى الوزيرين المماثلين يويا - وعبريا)، بل أن قصة الوزير هامان القرآنية ذاتها لتشير بوضوح إلى جمع ذلك الرجل للمهمتين فى آن واحد.

(د) يشير الكثير من المؤرخين إلى أن العقيدة المصرية القديمة لم تكن عقيدة وثنية مطلقاً، بل كانت منذ البداية وقبل إخناتون بقرون عقيدة توحيد، وإن شابها بعض الشرك.

١٠- سبق أن نوهنا لظاهرة الاقتباس والتكرارية فى القصص التوراتى - حيث يظهر الحدث أو السياق كله مرة أخرى وفى موضع آخر بصورة محورة قليلاً - وسبق أن أوردنا أمثلة على ذلك مثل قصة انفلاق البحر لموسى عليه السلام والتى تكررت باقتباس فى انفلاق نهر الأردن ليشوع بن نون أثناء عبوره لبنى إسرائيل من شرق الأردن لغربها لاحتلال فلسطين.

وكذلك فسفر دانيال كله هو قصة يوسف عليه السلام فى اقتباس وإخراج ورؤية أخرى، فقصة دانيال تشير إلى أنه كان من السبى اليهودى فى بابل أى أنه كان عبداً مثل يوسف عليه السلام، ولكن الأحداث هنا تدور فى البلاط الملكى البابلى بدلاً من الفرعونى، ويؤدى حلم معين للملك يعجز الحكماء والسحرة أيضاً عن تفسيره (مثل قصة

يوسف) ثم يفسره دانيال إلى صعود نجم دانيال وتوليه أعظم المناصب كما حدث مع يوسف تماماً [ثم عظم الملك دانيال ووهبه عطايا كثيرة، على كل ولاية بابل، وأقامه رئيساً على كل حكماء بابل وولاتها] دانيال ٢ :٤٨ ، ألا يذكرنا هذا النص بالنص المشابه تماماً لمراسم تولية يوسف للحكم. حيث تقول التوراة : [ثم قال فرعون ليوسف : «ها أنا قد وليتك على كل أرض مصر». ونزع فرعون خاتمه من يده ووضعه في يد يوسف، وألبسه ثياب كتان فاخرة وطوق عنقه بطوق من ذهب، وأركبه في مركبته الثانية، ونادوا : «اركعوا أمامه». وأقامه والياً على كل أرض مصر. وقال فرعون ليوسف : «أنا فرعون، ولا أحد يمكن أن يحرك ساكناً في كل أرض مصر من غير إذنك»] التكوين ٤١ :٤١-٤٤.

إذن فقصة دانيال تبدو وكأنها هي نفس قصة يوسف مكتوبة باقتباس وتحوير طفيف، أما حلم الملك في قصة دانيال فكان أيضاً اقتباساً من عهد ملك يوسف نفسه، فالحلم كان عن تمثال معدني مركب من معادن مختلفة [وكان رأس التمثال من ذهب نقي، وصدره وذراعاه من فضة، وبطنه وفخذاه من نحاس، وساقاه من حديد، وقدماه خليط من حديد ومن خزف] دانيال ٢ :٣٢-٣٣.

والتاريخ الفرعوني لايحفظ لنا تماثيل معدنية ضخمة مركبة من معادن مختلفة لأى فرعون (كان الفراعنة منذ أول عهودهم وحتى نهاية الدولة المصرية يقيمون تماثيلهم منحوتة من الصخور المختلفة) إلا لواحد فقط هو تمثال «بيبى الأول» الموجود في المتحف المصرى، وهو أكبر تماثل معدنى موجود فى مصر صنعت يداه ورجلاه من البرونز المسبوك، أما باقى جسمه فمن الخشب المغطى بالنحاس .. كما أن هناك أجزاء ناقصة من هذا التمثال مثل التاج والمئزر، ويرجح العلماء أنهما كانا مصنوعين من الجص أو الخزف (مصر - حتى نهاية الدولة القديمة - سيريل الدريد ص ١٢٠) . مما يعطى الشكل النهائى للتمثال شكلاً مقارباً بدرجة مثيرة للدهشة لوصف تمثال دانيال فى الفقرات التوراتية التى أوردناها ويزول العجب إذا عرفنا أن بيبى الأول هذا هو فرعون «ون-نى» أى فرعون يوسف، أى أن القصة كلها عاشت فى الذاكرة اليهودية - مثل شخصية هامان - لقرون لتخرج علينا فى

ثوب آخر ملون بنفس أحداث الزمن الذى حرت فيه.

وفى النهاية هناك حقيقة تاريخية هامة جداً بالنسبة لموضوع التماثيل هذا، وهى أنه لأول مرة فى التاريخ الفرعونى يظهر الفرعون ذاته (الملك الإله) فى تمثال ما راكعاً على ركبتيه أمام إله أعظم منه مقدماً له القرابين (فى وضع مماثل لأسلوب صلاة المسلمين)، كان هذا التمثال هو تمثال نفس الملك بيبى الأول (ملك يوسف عليه السلام) وهذا التمثال محفوظ فى متحف بروكلين، وعده المؤرخون إرهاصة لظاهرة عجيبة فى الفكر الدينى المصرى القديم.

والسؤال الآن هنا: هل هناك أى شك الآن فى أن «ون-نى» هو يوسف عليه السلام؟، ولمن يتشكك أقول: ارجع إلى السورة القرآنية ثم القصص التوراتى ثم النصوص التاريخية التى أسلفناها وعاود التفكر.

تلك هى القصة الكاملة لما هدانى الله إليه، والسورة موجودة والفكرة موجودة، والنتيجة مطروقة للبحث لمن يشاء، أما أنا فأكتفى بقول سبحان الله العظيم.

والسؤال الثانى هو: لماذا لم يتم الإهتداء لتلك الشخصية أو حتى طرحها للمناقشة رغم وضوح التشابه الدينى والتاريخى الشديد بين يوسف عليه السلام وبينها؟

والإجابة، وبعيداً عن النص القرآنى الذى هو مناط بحثنا نحن المسلمون، ولم يؤخذ فى الإعتبار مطلقاً كأداة تأريخية صحيحة، أقول أن الجرى وراء التزويروالتحريف التوراتى هو الذى أربك كل شيء.

١ - فأن يصدق المؤرخون التوراة بأن الخروج الإسرائيلى كان فى زمن الرعامسة نتيجة لدس كلمة «رعمسيس» كاسم للمدينة التى بدأوا منها الخروج قصر جهودهم ومحورها حول تلك الفترة فبدأوا يضعون الافتراضات أن فرعون الخروج هو «رمسيس الثانى»، ولما أثبتت كل الأدلة العلمية خطأ هذا الافتراض، وأول هذه الأدلة وجود مومياء رمسيس الثانى نفسها سليمة وثبوت موته بتصلب الشرايين والشيخوخة ولا توجد عليه أى آثار للغرق، اتجهوا لابنه «مير نبيت أو ميرنبتاح أو منفتاح» وقالوا أنه هو فرعون

الخروج استناداً إلى لوحة مكتوب عليها «وإسرائيل ابيدت ولن يكون لها بذرة» وتعود لعصره، وتناسوا أن التوراة نفسها تقر بأنه كانت هناك حروباً مستمرة أو بالأصح حملات تأديبية يقوم بها ملوك المصريين فى عهد الإمبراطورية وبالذات فى عصر الرعامسة بين كل حين وآخر لتأديب الدويلات القائمة فى فلسطين ولابد أن منها دويلات إسرائيل ويهوذا وذلك لتأمين حدود مصر الشرقية المعرضة لكافة أنواع التهديد منذ فجر التاريخ وحتى الآن، وقد سقطت فرضية أن «مرنبتاح» هو فرعون الخروج بعد العثور على مومياته سليمة فى قبر ملكى جماعى، وأثبتت الأدلة الطبية عدم وجود أى أثر للغرق أو ماء البحر عليها .. وهكذا فقد توقفت أبحاث المزاوجة بين التاريخ والدين لتصادم الفرضيات التوراتية مع الموجودات الوثائقية قطعية الدلالة. وبعدها فتح المجال لعدد من التكهنات المتضاربة مع العلم والتاريخ ولعل أطرفها هو ما ينادى به حديثاً بعض أنصار الثقافة الفرعونية فى مجتمعنا المعاصر والذين أثقل كاهلهم أن يكون فرعون الخروج مصرياً، فوضعوا فرضية مؤداها أن هذا الفرعون هو من فراعنة الهكسوس واختاروا منهم السادس أو الخامس واقترحوا اسم «تيفون» بالذات فى هذا المقام، والسؤال هنا: هل يعقل أن الهكسوس هم الذين اضطهدوا ثم طردوا الهكسوس؟

٢- هذا الرقم الخطير المغلوط (٤٣٠ سنة) والذى أوردته التوراة للفترة الزمانية التى قضاها بنو إسرائيل فى مصر والذى أثبتنا زيفه، كان يدفع بالمؤرخين للبحث فى فترة زمنية تتراوح بين ٤٠٠-٤٥٠ سنة قبل عهد الرعامسة عن يوسف عليه السلام وطبعاً لم يصلوا لشيء .. وهل يؤدى زيف بُنى فوق زيف إلى أى حقيقة؟

هذان هما السببان الرئيسيان لتعثر خطوات البحث التاريخى وسأحاول الآن أن أضع تطوراً جديداً لما حدث دون الخوض فى تفاصيل معقدة متشابكة منها ماهية فرعون الخروج مفضلاً ترك ذلك لقصة موسى عليه السلام ذاتها.

الواضح جداً لى الآن أن اليهود أنفسهم هم شعب الهكسوس أو «الهك شيسو» أو شعب السداسيات، وأن دخولهم الخفى المتسلل لمصر كان فى فترة زمانية أبعد مما حاولوا

تصويره، فهم دخلوا مع يوسف عليه السلام الذى أرجح تماماً أنه هو الوزير «ونن-ع» أو «ون-نى» فى نهاية الدولة المصرية القديمة. وبالذات فى الأسرة السادسة مع حكم الملك تيتى أو بيبى الأول، واستمر الوجود اليهودى فى مصر لفترة طويلة امتدت طوال فترة الدولة الوسطى التى شهدت نهايتها صعود نجمهم العسكرى والحربى وتعدادهم السكانى، فتسلطوا على رقبة مصر فى الجزء الأخير من الدولة الوسطى (القرنين السابع عشر والثامن عشر قبل الميلاد) فيما سمى بمرحلة الهكسوس، حتى تم كسر شوكتهم العسكرية نهائياً وتدميرها على يد أحمس الأول (حوالى ١٥٧٥ قبل الميلاد) وبجهود قامت على أكتاف والده العظيم «سقنن رع» أو «تاعا الشجاع» الذى قتل فى إحدى المعارك ولا تزال مومياؤه فى المتحف المصرى تشهد بالضربات القاتلة العديدة التى تلقاها فى الجمجمة والوجه والصدر وكذلك أخوه كاموس الذى يرجح مقتله هو الآخر فى المعارك.

أما الطرد الكامل والنهائى لشعب عاش فى الأرض المصرية لقرون عديدة فكان شيئاً غير منطقى، فالاقتلاع الكامل والطرد لم يكن ليحدث وخاصة مع وجود دول وممالك قوية مسيطرة على منطقة الشام حينذاك، لذلك بقيت بقايا شعب الهك شيسو أو اليهود موجودة فى مصر بعد الانكسار العسكرى، وتلك الفئة هى التى عوملت ولقرون معاملة أسرى الحرب التى تقضى باسترقاقهم وعبوديتهم هم وأولادهم كما كانت تقضى التشريعات المصرية القديمة، وكما هو ثابت من الوثائق القانونية المصرية فى تلك الحقبة.

وقد استمر هؤلاء اليهود أحفاد الهكسوس تحت الاستعباد لقرون طويلة حتى شاء المولى عز وجل أن يخرجهم من مصر ليكونوا نواة وبداية رسالة التوحيد تحت قيادة موسى فى أوائل الدولة الفرعونية الحديثة، فما رعوا النعمة ولا قاموا بالرسالة، وباقى القصة معروفة، أما رؤيتنا عنها فتأتى إن شاء الله فى قصة موسى عليه السلام والخلاصة التاريخية هى:

١- اليهود دخلوا مصر فى حقبة تاريخية أقدم مما ادعوه.

٢- عاشوا فى مصر فترة زمانية أطول كثيراً مما صوروه.

٣- خلال تاريخهم الطويل فى مصر، كان انكسارهم على يد أحمس فصلاً من قصتهم ولم يكن هو نهاية القصة. فاقتلاعهم من مصر إذن تم على مرحلتين أو أكثر، كانت الأولى منهما تحت الضغط الحربى المصرى مما أدى لنزوح عشائر منهم إلى الشرق من مصر وبقى جزء آخر تم استعبادهم حتى خرجوا هم الآخرين بعد قرون من الخروج الأول على يد موسى عليه السلام المسمى Delivera أو المحرر أو المنقذ أو المخلص فى التاريخ الإسرائيلى.

عموماً ففكرة الخروج الإسرائيلى من مصر على مراحل كانت هاجساً حقيقياً ينتاب المؤرخين خاصة عند مناظرة بنود التاريخ اليهودى من جهات أخرى غير التى خضنا فيها، يشير إلى ذلك زينون كاسيدوفسكى فى مقاله «موسى فى عالم الأساطير» من كتاب «الواقع والأسطورة فى التورات» ص ١١٢ :

[بنى الإسرائيليون الشماليون عاصمة جديدة لهم اطلقوا عليها اسم السامرة بينما احتفظ الجنوبيون باورشليم عاصمة لهم. ويعتقد بعضهم أن ذلك العداء المستحكم لم يكن نتيجة للخلافات التى كانت قائمة بين الاسرتين الحاكمتين فى الشمال والجنوب وحسب، إذ يبدو أن أصوله أعمق بكثير يعود منشؤها فى اختلافات اثنية. أما شرح هذه الاختلافات فلا يستعصى علينا بفضل الألواح المسمارية التى اكتشفت تحت انقاض عاصمة اخناتون المسماة اليوم تل العمارنة. حيث يعود تاريخ تلك المراسلات الدبلوماسية إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وفيها يخبر ملوك كنعان التابعين لمصر فرعون أن القبائل الصحراوية المسماة خابيرو تهاجم دولهم الصغيرة وتنهب أرزاقهم. وإذا كانت القبائل اليهودية القديمة (خبراى) هى المقصودة بالخابيرو، كما يفترض بعض العلماء، فإن تلك الرسائل تعطينا برهاناً على أنها كانت قد دخلت أرض كنعان قبل وصول الإسرائيليين إليها من مصر بحوالى قرن ونصف القرن. ومن المميز أن حكام مدن مثل مجيدو ودافير وعسقلون وبيت لحم واورشليم هم الذين يطلبون مساعدة فرعون مصر. ولكن الألواح لا تأتى على ذكر مدن مثل شكيم وشيلوح ومصباح وجبيًا واريحا. لماذا؟ هل يعقل أن اليهود كانوا قد احتلوا هذه المدن؟ ولكن ما يثير الفضول فى رسائل تل العمارنة أن إحداها تذكر

قائداً عسكرياً باسم يشوع. وهنا يقفز إلى ذهننا السؤال التالي: أليس هذا اليشوع هو نفسه صاحبنا الذى تتحدث عن الأسفار الخمسة؟ لقد دفع المستشرق الأمريكي باول ديفيس وبعض الباحثين الآخرين إلى تقرير الاستنتاج التالي: إن فرعاً ما من فروع اليهود القدماء كان قد ترك مصر قبل موسى بقرن ونصف القرن، أو أنه اجتاح ارض كنعان من الشرق تحت قيادة شخص ما يدعى يشوع غير معروف لنا ودمر اريحا مع غيرها من المدن الأخرى فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ولكن هذه النظرية لم تترك لموسى سوى قبيلة اللاويين ليخرجها من مصر. وما يدعم هذه النظرية هو أن اللاويين وحدهم كانوا يحملون أسماء مصرية مثل: بنحاس، هور، هوفنا، باسور وهلمجرا. ولن ننسى ان اسم موسى نفسه هو اسم مصرى أيضاً، وفى الصحراء انضمت إلى اللاويين بعض القبائل الأخرى الامر الذى جعل منهم قوة عسكرية جبارة. ولم يتمتع اللاويون بامتيازات خاصة فى هذا الجمع إلا لأنهم اعادوا أصلهم إلى المصريين وكانت تربطهم بموسى أواصر القربى] انتهى.

عموماً فالعلاقة بين تلك القبائل اليهودية ومصر لم تنقطع بعد خروجهم منها بل ظلت متواصلة ومتداخلة والتوراة لا تعارض هذا الرأى، بل أكثر من ذلك تورد أن بني إسرائيل أنفسهم كانوا يلجأون لمصر للمساعدة دائماً فى كل الأزمات التى تحاصرهم بل أن الكثيرين منهم هربوا من وجه بابل وأشور عائدون مرة أخرى لمصر، حيث عاشوا هناك واستقروا واستوطنوا فى حقبة زمنية بعد خروجهم ولقرون. وتلك الحقائق ساطعة وموجودة بشدة فى الأسفار التورانية المتأخرة مثل إشعياء وإرميا.

يقول سفر إشعياء الممتلىء بالكراهية العمياء لكل الأمم فى ذلك الزمن بما فيهم امتى يهوذا وإسرائيل أنفسهما، يقول السفر لطالبى المعونة من مصر أمام زحف جيوش ما بين النهرين، بعد الخروج من مصر بقرون: [أنت تتكل على عكاز هذه القصبة المرضوضة مصر، التى تثقب كف كل من يتوكأ عليها، هكذا يكون فرعون ملك مصر لكل من يتوكأ عليه] إشعياء ٣٦:٦.

ويقول أن ملك آشور كان يعاتب اليهود على طلبهم مساعدة مصر قائلاً: [إنك

تعتمد على مصر لإمدادك بالمركبات والفرسان] إشعياء ٣٦ : ٩ .

ويقول نفس السفر : [ويل للمنحدرين إلى مصر طلباً للعون، المتوكلين على الخيل، الواثقين بكثرة المركبات وبأس الفرسان، من غير أن يلتفتوا إلى قدوس إسرائيل، أو يطلبوا مشيئة الرب] إشعياء ٣١ : ١ .

أما سفر إرميا (الذى يصفه التقليد الكنسى بأنه أكثر أنبياء العهد القديم وضوحاً والذى كتب نبوءاته بعد قرون من قصة الخروج) فيروى قصة هرب اليهود ولجوئهم لمصر ثانية وإقامتهم فى عاصمة الملك التى أسموها «تحفنحيس» وممفيس ومنطقة جنوب مصر .

[الفرار إلى مصر : وأبى يوحانان بن قاريح وسائر قواد القوات وكل الشعب طاعة صوت الرب للإقامة فى أرض يهوذا . بل أخذوا كل بقية يهوذا الذين رجعوا من بين جميع الأمم التى تشتتوا فيها ليقيموا فى أرض يهوذا، الرجال والنساء والأطفال وبنات الملك، وكل إنسان تركه نبوزرادان رئيس الشرطة فى عهدة جدليا بن أخيقام بن شافان، وإرميا النبى، وباروخ بن نيريا، فأقبلوا إلى مصر إذ لم يطيعوا صوت الرب . ونزلوا فى تحفنحيس .

ثم أوحى الرب إلى إرميا بهذه النبوءة فى تحفنحيس قائلاً : «خذ حجارة كبيرة بيدك واطمرها فى البلاط المرصوف عند مدخل قصر فرعون فى تحفنحيس على مرأى رجال يهوذا . وقل لهم، هذا ما يعلنه الرب القدير إله إسرائيل : ها أنا آتى بعبدى نبوخذنصر وأنصب عرشه فوق هذه الحجارة التى طمرتها، فيبسط أريكته الملكية عليها . سيقبل ويدمر ديار مصر، فيموت من قضى عليه بالموت، ويسبى من قضى عليه بالسبى، ويقتل بالسيف من قضى عليه بالقتل بالسيف، ويضرم معابد آلهة المصريين بالنار ويحرقها ويسبيها، ويلف مصر حول نفسه كما يلف الراعى عباءته، ويخرج من هناك سليماً بعد أن يهدم أنصاب معبد الشمس التى فى مصر، ويحرق معابد آلهة المصريين بالنار»] إرميا ٤٣ : ٤ : ١٣ .

ولذلك فالرب يغضب على مصر ويسلط عليها نبوخذ نصر البابلى الذى يغزوها ويدمرها ويخرج منتصراً سليماً، ويبدو من باقى النص بوضوح تشبه اليهود الشديد

بالمصريين حتى فى عقائدهم التى تعلقوا بها ومنها إحراق البخور أمام أصنام إلهة السماء أو ملكة السماء وعبادتها (المقصود إيزيس - المؤلف) لذا فكانت نبوءة إرميال على لسان الرب هى [وآخذ بقية يهوذا الذين وطدوا العزم على الرحيل إلى مصر ليغربوا فيها، وأفنيهم كلهم هناك، فيهلكون بالسيف والجوع من صغيرهم إلى كبيرهم، فيموتون ويصبحون سبه ودهشه ولعنة وعاراً، وأعاقب المقيمين فى مصر كما عاقبت أهل أورشليم بالسيف والجوع والوباء، فلا يفلت منهم ناج، ولا يسلم أحد من بقية يهوذا المرتحلين ليتغربوا هناك فى مصر] إرميا ٤٤: ١٢-١٤.

وهناك العشرات الأخرى من النصوص التى تدل على شيء واحد وهو أن تواجد بنى إسرائيل فى مصر لم ينقطع حتى بعد قرون من إخراجهم على يد موسى عليه السلام، فكانوا يطلبون العون من شعبها وملكها فى الأزمات بل وينزحون إليها ليقيموا فى عاصمة الملك نفسها منف، وهذا يعزز ما ذهبنا إليه من أن طرد أحمس للهكسوس لم يكن اقتلاعاً كاملاً مما ينافى حقائق التاريخ التى توضح بجلاء امتداد التواصل البشرى باستمرار، وأن علاقة اليهود أو الهكسوس بمصر كانت علاقة دخول وخروج مستمر لم ينته حتى بعد خروج الخلاص على يد المحرر موسى عليه السلام.

وأود هنا أن أورد ملحوظة هامة على الأسفار التوراتية المتأخرة مثل إرميا وبالذات إشعياء وحزقيال بصورة أكثر، والتى يظهر فيها دائماً أن البابليين هم جند الله مهما فعلوا ببنى يهوذا وإسرائيل من هوان وخسف، أما المصريون الذين آووهم وساعدوهم وأمنوهم باعترافهم فلا نجد إلا نبوءاتهم التى تفوح شراً وكراهية وحقداً وبغضاء على مصر وكل مدنها بالاسم «ممفيس وطيبة ومجدل وأسوان وسين وأون وفتروس ... الخ». فالأمور هنا تبدو ضبابية منفصمة: لماذا تناصر كل الأسفار التوراتية المتأخرة نبوخذنصر ملك بابل بشدة، وتقر بأن عذابه الذى صبه على رؤوس اليهود هو دينونة حتمية وقضاء من الرب، وتظهر البابليين بمظهر جند الله وعبيده، بينما تتعصب ضد مصر بشكل عنيف جداً، وتسوق أن خطيئتها الوحيدة كانت هى أنها تساعد اليهود، وليس أبداً للشرك وعبادة

الأصنام، كمبرر غير منطقي حيث أن بى بابل أنفسهم كانوا عبدة للقمر وبعل وعشتارومردوخ وغيرها من الآلهة الموغلة فى وثنية أعقد من الوثنية المصرية التى ظهرت منها أول إرهاصات التوحيد فى عهد إخناتون، وازدهرت فيهم بخلاف مصر الظواهر الوثنية الوحشية مثل القرابين البشرية مما ذكرته التوراة ونقدته بشدة.

سؤال يحتاج لإجابة ؟؟!!

وأظن أن هناك إجابة لابد أنها راودت عقل قارئ تلك الأسفار التوراتية ولكنها لم تبلور ولم يجرؤ أحد على طرحها، من المعلوم أن تلك الفترة التى واكبت كتابة تلك الأسفار التوراتية وقبل السبى البابلى مباشرة، كانت فترة اضطرابات وصراعات عنيفة شديدة أعيد فيها تشكيل الخريطة العرقية (الأثنية) للعالم القديم كله تقريباً.

وكان هناك أيضاً صراع قُوى ونفوذ فى منطقة الشرق الأوسط خاصة بين الإمبراطورية المصرية وإمبراطورية بابل، أما عن الشأن اليهودى، فكان المرجل يغلى بصورة أشد مما تعكسه الصراعات الدولية المحيطة، فلم تكن هناك حرب أهلية وحسب بين عشائر إسرائيل وعشائر يهوذا، بل أن الصراع الداخلى فى كل منهما على حدة كان أعنف وأحد والمؤامرات والمكائد شديدة على كافة المستويات من الحكام والقادة العسكريين وكهنة اللاهوت.

أما عن كهنة اللاهوت، فالصراع كان قائماً وبعنف مما تظهره سطور الأسفار التوراتية المتأخرة بجلاء، وقد قام كل فريق من هؤلاء بالقاء تهمة «النبى الكاذب» على الفريق الآخر وتناوبوا إطلاق النبوءات المختلفة،ونحس بصراع خفى بين أنصار يهوذا (إشعياء مثلاً) وبين أنصار لاوى (ملاخى) وتتراوح هذه النبوءات التوراتية فى تلك الأسفار جميعاً حول:

١- حتمية الدينونة: أى أن إنكسار ممالك اليهود أمام ملك بابل أمر حتمى لذا ينبغى تقبله برضاً.

٢- الحض على الاستسلام أمام ملك بابل.

٣- التنويه دائماً بأن ملك بابل وجنده هم جنود لله وتدميرهم للممالك اليهود هو أمر من الله لا مفر منه.

٤- صب اللعنات بصورة عنيفة وضارية على مصر وملكها ومن يتعاون معه من اليهود والتنبؤ بخراب مصر ذاتهاوهزيمتها أمام ملك بابل.

٥- صب اللعنات في كل إتجاه وعلى كل الأمم والممالك المجاورة في مئات الصفحات، والكثير من هذه النبوءات - بالمقياس التوراتي (الذى وضعه موسى في سفر التثنية الإصحاح ١٨ :١٥-٢٢ والذى يشير إلى أن من يدعي النبوة بكلام لايتحقق تاريخياً يعرف عنه الكذب ويسمى نبياً كاذباً) - تعد نبوءات كاذبة تصم العديد من هؤلاء الكتبة الذين ضمت أسفارهم للتوراة ذاتها لاحقاً بأنهم أنبياء كذبة، وإسلوب صب اللعنات والتنبؤ بخراب كل الأمم الموجودة إسلوب سهل جداً آخذين في الاعتبار نظرية دورة الحضارات، حيث أن كل الممالك والأمم التي قامت وسادت، عادت وبادت، وانتهت فيما بعد، وقد يقوم رجل الآن مثلاً ويبدأ في القول على نفس المنوال والألفاظ الواردة في تلك الأسفار (يا أمريكا الزانية العاهرة سوف يصيبك الدمار وتتهاوى حصونك، وأنت أيتها اليابان الكافرة فلسوف تبيد أموالك وتندثر حضارتك ويستوطنك الغزاة ... إلخ) حسب الإسلوب اللفظي المتبع في تلك النبوءات التوراتية مع أسفي للقارئ، وحتماً لابد أن تتحقق هذه النبوءة يوماً ما ولو بعد قرون .. أفهل يدعي ذلك الرجل نبياً؟

المهم أن النبوءات الموجودة في تلك الأسفار تتميز بـ :

١- شمولية اللعنة على كل الأمم بصورة مقلقة، لم ينج منها قوم يهوذا وإسرائيل أنفسهم.

٢- عدم تحقق الكثير منها مثل استيلاء نبوخذنصر على مصر وتدميرها بيده.

وبالفعل تتوالى الغزوات من منطقة بلاد الرافدين على الشام، فتتهاوى مملكة إسرائيل أمام الآشوريين، وتنجو منهم مملكة يهوذا لوقت قصير ليغزوها البابليون في زمان نبوخذنصر، الذى قام بعد الغزو ببعض التدمير الانتقائي، فهو قتل بعض الحكام وترك

البعض، وقتل بعض القيادات العسكرية وترك الأخرى، وكذلك فعل مع رجال الكهنوت فقتل البعض ممن كانوا معادين للاتجاه السائد بين كتبة أسفار التوراة المتأخرة والموالى لبابل وترك الآخرين.

والمرجح لى على ضوء النصوص التوراتية أن كل القيادات فى كل المواقع التى تم قتلها كانت تتعاون أو تتحالف بشكل ما مع مصر - الإمبراطورية المناوئة لبابل - أما الآخرون فقد نقلوا لبابل حيث عاملهم نبوخذنصر - للغرابة - معاملة كريمة جداً وأعطاهم دوراً وحدائق ومزارع، وأسبغ عليهم كرمه، ووصلوا لدرجات عالية فى جهاز الحكم البابلى كما يبدو من أسفار دانيال واستير وغيرها .. وطبعاً فالفكرة الخيالية السائدة عن السبى البابلى بأنه قام بنقل الشعب اليهودى بأكمله إلى بابل فكرة ساذجة، فبخلاف الصعوبة العملية لتنفيذ هذا المخطط، فإن تفريغ الأرض من السكان يخلق فراغاً يثير شهية الأمم المجاورة - مثل مصر عدو بابل اللدود -، كما أنه يحرم الجيش المنتصر من إمدادات الغذاء وغيرها التى يقوم بها الفلاحون والصناع، كما أن إدخال أعداد غفيرة من اليهود لقلب بابل ذاتها يهدد سلامة المدينة والدولة.

والواضح جداً من الأسفار التوراتية، أنه تم نقل عدد من اليهود تم انتقاؤهم إلى بابل، حيث عوملوا معاملة كريمة وأعلنوا ولائهم المطلق للحكم هناك، ووصلوا لمراتب تعتبر عالية بجوار الملوك، وقضوا فترة زمنية باعوا فيها ولائهم للكل من ملوك بابل ثم فارس التى غزت بابل فيما بعد، وكانوا محط ثقة الحكام فى كل تلك العصور .. وهناك وفى هذا الزمن بالذات تمت كتابة وصياغة التوراة ذاتها التى ضاعت أصولها - كما يقول المؤرخون - مع الغزو البابلى فجاءت محققة للأهداف التالية:

١ - مناصرة لبعض العشائر اليهودية على الأخرى بصفة مطلقة، وأهم تلك العشائر التى مجدتها أسفار التوراة المتأخرة هو سبط يهوذا، الذى انتمى إليه معظم السبى القادم من مملكة يهوذا التى يقطن بها سبطا يهوذا وبنيامين (الصراع على الحكم فى مملكة يهوذا بين السبطين حسم لصالح سبط يهوذا بعد استيلاء داود اليهوذى على الحكم

من شاول «طالوت» البنياميني».

٢- إعلاء شأن الاتجاه الكهنوتي الموالي لبابل والممثل في كتبة الأسفار المتأخرة وتنفيذ حكم القتل في أفراد الإتجاه المناقض، واحتواء أفكارهم تاريخياً.

٣- كتابة التوراة بشكل ظن هؤلاء الكهنة أنه يخدم أماني وطموحات الشعب الإسرائيلي في المستقبل.

٤- ظهور الكتب الأخرى في العقيدة اليهودية مثل التلمود الذي يعد مصدراً تشريعياً أهم من التوراة الآن.

والقارئ المتمعن للتوراة يستطيع بسهولة أن يلمس ما قلناه، ويحس بضعف الصياغة البشرية للتوراة بوجود الأخطاء القاتلة في كل صفحة وسطر فيها، كما يستطيع أن يفهم سبب إضافة تلك الأسفار المتأخرة للتوراة رغم تناقضها مع أحداث التاريخ بل وحكم التوراة ذاته.

وأعتقد أنه سيأتي زمان ينظر فيه كهنة اليهود وأحبارهم لهذه الأسفار بنظرة موضوعية على ضوء خدمتها أو ضررها على العقيدة اليهودية ذاتها.

وهناك ملحوظة نهائية أود أن أسوقها للإستدلال، ونستطيع منها أن ندرك التحيز الشديد من التوراة لحضارات بين الرافدين (الآشوريين والبابليين) ضد مصر بشكل سافر مستفز، فاليهود لم ينسوا وبعد مرور قرون أصولهم الآرامية العائدة إلى بلاد ما بين النهرين، ولم ينسوا تأثرهم بثقافاتها، ولم ينسوا مرارات إقامتهم الأولى في مصر، حتى وإن انقلب عليهم الآشوريون والبابليون فدمروا دويلاتهم، وحتى وإن ساعدتهم مصر بكل السبل، فالوقائع السياسية لايمكن أن تغفل المرارة المترسبة في الفكر الديني اليهودي الذي ظهر بشكل عنيف في التوراة مما أثار انتباه الكثير من الكتاب مثل الدكتور/ مصطفى محمود الذي قال في كتبه التوراة (تكاد تكون التوراة منشوراً سياسياً ضد مصر).

ويتضح الأمر بجلاء شديد إن قمنا بمقارنة أحد الأسفار التوراتية وهو سفر (استير)،

الذى اعترفت به الكنيسة وأقرت بضمه للتوراة لأنه سفر «قانونى»، بينما رفضت وحذفت، مثلاً سفراً آخر مماثل فى الفكرة الدائرة حول كيد النساء هو سفر «يهوديت» لأنه «غير قانونى»، ولا زلت لا أدرك الخصائص والمعايير التى أدت إلى اعتبار أحدهما قانونياً والآخر غير قانونى.

يدور الصراع فى سفر استير هذا بين شخصيتين يمثلان اليهود من جانب هما استير ومردخاى، وبين الشخصية الممثلة لأعداء اليهود وهى هامان من جانب آخر، وقد حاول البعض التهجم - من هذا المنطلق - على القرآن الكريم بقولهم إن هامان كان وزيراً فى البلاط البابلى، كما جاء فى التوراة، وليس وزيراً لفرعون موسى كما أورد القرآن، وأن محمداً ﷺ عندما نقل القصص التوراتى خلط الأمر فوضع هامان فى غير مكانه.

ونلاحظ جميعاً أن سفر استير هذا لا تنص الكتابات التوراتية على أى نسب له، ولا تقترح له كاتباً مثل الأسفار الأخرى، وقد ثبت أنه من المجموعة المسماة «الأسفار التعليمية» التى كتبها كهنة اليهود فى وقت متأخر لمحاولة صياغة بعض القيم اليهودية وترسيخها، وقد ثبت أن أستير هذه شخصية غير تاريخية بل هى تحريف اسم «عشتار»، آلهة القمر والخصب عند البابليين، أما مردخاى الشخصية الأخرى فهو تحريف لاسم الإله البابلى الأعظم «مردوخ»، وهكذا فأحبار اليهود قد رمزوا لليهود بأسماء بابلية فى القصة، وكان لابد أن يكون العدو شخصية عاشت فى الذاكرة اليهودية كعدو لدود لبنى إسرائيل، فكانت تلك الشخصية هى «هامان» الذى لم يأت له ذكر بالقصص التوراتى المذكور فى أسفار الخروج أو العدد أو التثنية المنسوبة لموسى عليه السلام، وذكره القرآن الكريم ففضح المسألة كلها .. ولعل صياغة اسم «هامان» بإسلوب الأسماء السامية لايفيد القضية اليهودية مطلقاً، فمن المعروف تاريخياً أن الكثير من الوزراء الكبار فى الدولة الحديثة كانوا من الساميين والأسيويين واستطيع أن أعدد العشرات منهم، فوجود وزير سامى آسيوى فى البلاط الفرعونى لم يكن بشىء عجيب، بل علينا أن نذكر أن هذا التقليد يضرب بجذوره لفترات زمانية أقدم بكثير مثل وجود يوسف عليه السلام نفسه وهو أسيوى سامى كوزير

في البلاط الملكي المصرى قبل زمان موسى عليه السلام وفرعونه بقرون.

ولعل اليهود الذين حرفوا نطق «برعا» لتصبح «فرعون»، قد حرفوا اسم هامان أيضاً والذى يشير المقطع الثانى منه إلى اسم «آمون» أو Amen مما يقطع بمنشأه المصرى مع إضافة أداة التعريف العبرية «ها» المساوية لـ «ال» في اللغة العربية (يكتبونه Haymen حالياً فى التوراة).

وكانت عادة التسمية المصرية القديمة هى إضافة أسماء الآلهة وبالذات «آمون» إلى أسمائهم، والقصص القرآنى والتوراتى لايخفى أن الصراع بين اليهود والمصريين كان أساساً صراعاً بين الديانة اليهودية وديانة مصر القديمة ومعبودها الأول «آمون» إله تاسوع الشمس. وهكذا فقد عاش «هامان» فى الذاكرة اليهودية، رمزاً للعداء الشديد لليهود، ليظهر بعد ذلك فى سفر مصنوع على يد الكهنة، يتخذون فيه آلهة بابل كرموز لهم تصارع وتنتصر على رمز مصرى. وكان القرآن هو الذى فضح كل المسألة.

وهناك حقيقة تاريخية تنهى هذه الشبهة التاريخية للأبد وتظهر مدى صدق وعظمة الدقة القرآنية ومدى التحريف اليهودى، وهى أن وزير الملك خوفو (كان أيضاً نحاتاً وينسب له الكثير من المؤرخين تصميم الهرم الأكبر)، كان اسمه هامون أو هامان Hemon، وبالقطع فالملك خوفو الذى ينتمى للأسرة الثالثة (حوالى ٢٥٨٠ ق.م) يعود تاريخه لعصر أقدم بكثير من تاريخ وجود اليهود فى مصر، أى أن اسم هامان اسم مصرى فرعونى أصيل وليس مطلقاً اسماً بابلياً، وهكذا فالقرآن يخالف التوراة أيضاً هنا فى تلك المسألة ويورد الحقيقة التاريخية بشكل مذهل وخطير. (مصر - حتى نهاية الدولة القديمة - سيريل الدريد - صورة رقم ٨٠).

من هنا نرى أن العداء كان سافراً لمصر مهما ساعدتهم وكان الولاء لبابل مهما أذاقتهم الويل، مما يطرح أسئلة صعبة تتعلق بالهوية الفكرية والسياسية لكاتبى أسفار التوراة المتأخرة.

* * *

هل كان ملك يوسف وفرعون موسى من الهكسوس؟

وتلك الفكرة طرحها مؤخراً كتاب للدكتور/ نديم السيار باسم قدماء المصريين أول الموحدين، وليس هنا مجال مناقشة كل أفكار الكتاب التى لدينا تحفظات عليها، ولكننى أجد نفسى مضطراً لمناقشة الجزئية المتداخلة معنا فى الكتاب عن يوسف وموسى وفراعنتهما.

فأولاً يبدأ الكتاب مناقشة التاريخ الإسرائيلى فى مصر بمناقشة نقطة يوسف عليه السلام، وهنا يبدأ الكاتب فى إثبات أن يوسف عليه السلام كان آرامياً لأن حفيد إبراهيم عليه السلام القادم من المنطقة التى كان يقطن بها بدو الآراميين، وهؤلاء الأراميون أو العماليق هم جنس من أجناس الهكسوس كما يصفهم الكاتب، إذن فيوسف كان آرامياً بدوياً، وانطلاقاً من مقولة أن الله عز وجل يرسل رسله دائماً لقوم هو من جنسهم وبلغتهم، إذن فالملك على أيام يوسف عليه السلام كان آرامياً بدوياً أى من الهكسوس، والكتاب يشير بشدة إلى أن اليهود جزء من نسيج الشعوب المسماة فى مصر «الهكسوس» لكنه لم يوضح العلاقة بينهما.

ونبدأ المناقشة من جزئية يوسف عليه السلام ذاته، فأولاً يطرح الكاتب كل فرضياته عن هذه الشخصية من خلال مقولات لأشخاص لم يسق أحدهم مطلقاً أى دليل على أقواله من أن يوسف عليه السلام دخل مصر فى عهد الهكسوس أو أن ملك مصر فى ذاك الزمن كان هكسوسياً، فكل الأقوال من نوع «ويقول المؤرخون القدماء .... من هم؟ وما هى أدلتهم أو وتدل شواهد الأحوال، وهناك أسباب تكفى لحملنا .... إلخ»، بلا دليل تاريخى أو علمى واحد إلا أقوال متفرقة بدءاً من بعض كتاب التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى المعتمدين على مقولات أسطورية أو سماعية حول تلك النقاط ولا يملكون أى أدلة مما قد نسميها «علمية»، أو أقوال لمحدثين تقع ضمن دائرة الإحساس بلا أية أدلة أيضاً أو مدعمة بالوثائق بالنسبة للوقائع والأفكار والاستنتاج، وطبعاً لن يمكن لأى كاتب ممن ذكرهم مؤلف الكتاب أن يأتينا بكلام مقنع فى هذا المضمار، حيث أن أياً منهم لم يقم بمحاولة إثبات من هو يوسف أو من هو ملك مصر فى عهده تاريخياً، ولذلك نرى أن الكلام كله

لايزال عاماً يفتقد لأى تحديد تاريخى مما يلزم لمناقشة فكرة كتلك الفكرة.

وعلى هذا يخلص المؤلف إلى مقولة أن يوسف عليه السلام كان من أجناس الهكسوس وكان نبياً مبعوثاً لملك مصر الهكسوسى وأن رفيقى السجن ليوسف المذكورين فى القرآن كانا من الهكسوس وأن رسالة يوسف لم تكن مطلقاً للمصريين لأنهم كانوا موحدين بالفعل لايحتاجون لرسالة، والمؤلف لم يتنبه إلى حقيقتين هما:

١ - يوسف عليه السلام لم يكن مبعوثاً برسالة لدعوة المصريين أو ملكهم للتوحيد، وليس فى ذلك أى إشارة قرآنية أو حتى نص توراتى، بل كانت له مهمة معينة تتعلق ببنى إسرائيل أنفسهم، كما تقول التوراة، كما أن القرآن ذاته لم يشر إلى أية إشارة إلى اصطدام يوسف بأى شكل مع عقائد المصريين أو ملكهم، مما يستدعى قطعاً حدوث صراع ما، بل أنه عاش وسط المصريين بهيئة ووجه مصرى خالص محترماً للشرائع المصرية ﴿ دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أى بشكلها المتواجد. ولعله من المهم هنا تذكر أن مهمة ورسالة أنبياء بنى إسرائيل، كانت مهمة قاصرة على شعبهم فقط، ولم تتخطه للشعوب الأخرى المجاورة التى اختلطوا بها مما لا يزال متبعاً حتى يومنا هذا، حيث أن التهود ودخول اليهودية لا يزال شيئاً محرماً عند حاخامات اليهود، أما الرسول العالمى الذى أرسل للناس كافة فكان محمد ﷺ.

٢ - لو كان ملك مصر فى عهد يوسف عليه السلام من الهكسوس .. الذين قال الكاتب أنهم من نفس أجناس اليهود .. إذن فما المشكلة فى دخول بنى إسرائيل لمصر، وبنى جلدتهم هم ملوكها والقائمين على أمرها؟ ولماذا قضى الله تعالى بكل التدابير والترتيبات المذكورة فى قصة يوسف لإدخال بنى إسرائيل لمصر؟، ولماذا اختار الإسرائيليون الانفصال والعزلة عن باقى سكان تلك المنطقة (وهم من جلدتهم يومئذ) فى أرض جاسان؟ ولماذا تدلنا النصوص التوراتية أيضاً أن المصريين حتى من حاشية الملك ذاته أى من الطبقة الحاكمة كانوا يتجنبونهم ويعتبرونهم نجساً بل ولا يأكلون معهم؟ ألا يشير ذلك إلا تباين جنس اليهود عن الجنس المصرى المسيطر على الحكم حينذاك؟ وأن الجانبين المصرى واليهودى اختارا الإنعزال والانفصال الاختيارى

عن بعضهما ؟

٣- لو كان ملك مصر من الهكسوس الساميين فى زمان يوسف -كما قال الكاتب - وكان هؤلاء الملوك يحكمون بالصفة والهيئة الهكسوسية بلا أدنى مواربة، إذن لماذا يعطى هذا الملك ليوسف اسماً فرعونياً مصرياً أثناء تنصيبه كوزير أول للملك ... أيكون الملك هكسوسياً صريحاً ثم يسبغ الصفة المصرية على وزيره الأول «الهكسوسى فى الجنس»؟

٤- استند المؤلف إلى مقولات غير موثقة بأية أسانيد لإثبات بعض المقولات، فمثلاً يورد رأى الطبرى فى أن صاحبى سجن يوسف كان اسمهما «محلب» و «نبو» ولم يذكر لنا كيف توصل الطبرى لذلك؟ وتلك الأسماء لم ترد فى القرآن ولا الأحاديث ولا التوراة وأغلب الظن أن الطبرى بنى رأيه هذا على مقولات أسطورية أو من أقوال كهان الإسرائيليات مما أثبتنا قبلاً عدم مصداقيته، وكذلك فالكاتب يورد أسماء لملوك الهكسوس فى مصر على لسان بعض كتاب التاريخ القديم التى كتبت فى القرون الوسطى ولا تعتمد على الإسلوب العلمى، مثل أسماء الريان وقابوس وخلافه .. وطبعاً لم تفصح لنا الوثائق التى تم اكتشافها حديثاً - واستند إليها المؤلف ذاته - عن أسماء لملوك من الهكسوس تماثل تلك الأسماء المزعومة أو تثبت صحتها، (لعل الريان هذا هو تحريف الاسم الموثق الذى تم اكتشافه لأحد هؤلاء الملوك المسمى حيان -الكاتب).

ونبلور هنانقطة الخلاف بينناوبين المؤلف، فى أن يوسف عليه السلام لم يدخل مصر فى زمن ملوك الهكسوس بل نرى أنه كان هو أول إسرائيلى (هكسوسى) يدخل مصر للتوطن، وهو الذى وطن بنى إسرائيل (الهكسوس) فى أرض مصر. كما أن العشائر الإسرائيلية لم تكن ضمن عشائر الهكسوس أو وافدة عليها، بل كانت هى نفسها شعب الهكسوس أو الشعب القائد المسيطر على تلك الجماعة البشرية، وكذلك فإن ملك مصر فى أثناء حقبة يوسف كان مصرياً قُحًا هو الملك تيتى ثم بيبى الأول.

أما عن محاولة المؤلف إثبات أن فرعون موسى كان هكسوسياً، فنرى أيضاً أن

المؤلف بنى فكرته تلك على فكرة غير صحيحة، وهي دخول يوسف لمصر في زمان ملوك الهكسوس، (بعد زمان دخوله الذى أثبتناه بفترة طويلة)، ثم قام بتحديد رقم للمدة الزمانية التى قضاها اليهود فى مصر بـ ١٣٥ سنة، واستقى الرقم هذا من مصادر متنافرة أهمها مصدر لا يمكن الاعتماد عليه مطلقاً حيث أنه بلا أية أدلة تاريخية أو دينية وهو كتاب «المختصر فى أخبار البشر» لمؤلف اسمه عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، ويظهر جداً اعتماد أبو الفدا على أرقام التوراة الإسرائيلية فى إحدى جزئياتها أما رقم ٦٤ سنة الذى ضربه ليكون المدة الزمانية بين دخول بنى إسرائيل لمصر ومولد موسى فهو رقم مثير للشك جداً ولا نجد له أى مصدر موثق مماهو متوافر لدينا.

عموماً فالتوراة تذكر أن هذا الرقم كان ٣٥٠ سنة وليس ١٣٥ سنة (٤٣٠-٨٠) ورغم تيقننا أن هذا الرقم التوراتى مزور، إلا أننا لانجد أية أرقام أخرى فى أية مصادر موثوق بها، وقد تعطى إيحاءاً بأن الكاتب المذكور استقى هذا الرقم من خلالها.

والمرجح مما سقناه أن الرقم الذى قضاه بنو إسرائيل فى مصر أكبر بكثير من هذا الـ ١٣٥ سنة بل و ٤٣٠ سنة التوراتية.

ومن هذا المنطلق، وصل المؤلف لأن موسى لابد أن يكون واقعاً لا يزال فى الحقبة الهكسوسية بل وقام بتحديد الملك الهكسوسى ذاته بأنه السادس فى الأسرة من سلسلة فراعنة الهكسوس الممتدة لأكثر من ٧٨ ملكاً، إعتماداً على رقم ١٣٥ سنة هذا، ثم دلل على صحة قوله استناداً إلى المنطق القرآنى الذى يقول أن نبى القوم لابد أن يكون من جنسهم ومتكلماً للغتهم، ولنا أيضاً هنا ملاحظات نوردها، بجانب تحفظنا الشديد على الأرقام التى ساقها الكاتب:

١- موسى عليه السلام لم يكن نبياً موجهاً للمصريين (باعتراف الكاتب نفسه) بل هو نبى موجه لبنى إسرائيل لتخليصهم من فرعون مصر وذله لهم، وإرشادهم لرسالتهم التوحيدية التى كان يتعين عليهم القيام بها فى أرض أخرى غير أرض مصر.. إذن فلا يطبق عليه القاعدة القرآنية التى تقول بأن نبى القوم لابد وأن يكون من جنسهم، حيث أنه لم يكن موجهاً لمصر أو ملكها، فهو فعلاًموجه لمن هم من جنسه أى بنى

إسرائيل، وعلى ذلك فليست هنا أية دلالة دينية تدل على أن فرعون مصر كان من جنس اليهود أو من الهكسوس.

ولعلنا في هذا المقام ندعو الجميع لقراءة قوله تعالى عن ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾، قال تعالى: ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ (الدخان ٢٤: ٢٨)

والحقيقة القرآنية الإلهية واضحة جداً في الآيات ولا تقبل المناقشة، وهي أن قوم فرعون مختلفين تماماً عن بني إسرائيل.

٢- موضوع اللغة المشتركة بين موسى وهارون من ناحية وبين فرعون مصر حينذاك من ناحية أخرى، والذي ساقها المؤلف ليست دلالة أبداً على أن فرعون مصر كان هكسوسياً. فموسى ذاته كان قد تربى في القصر الملكي الفرعوني ويجيد اللغة المصرية، ولابد أن معظم اليهود - مثل هارون - الذين عاشوا في أرض مصر وتحت سلطانها لحقبة كبيرة كانوا يتكلمون اللغة المصرية كلغة ثانية بطلاقة، كدأبهم حتى الآن في كل البلاد التي تشتتوا فيها، كما أن المترجمين كانوا موجودين دائماً للترجمة، وقد ذكرت التوراة صراحة أن يوسف كان يكلم إخوته قبل أن يكشف عن شخصيته باللغة المصرية التي يترجمها لهم مترجم.

وهناك الآن بعض الآراء القوية التي تشير إلى أن التوراة ذاتها ربما كانت كتبت باللغة المصرية القديمة وبالخط الهيروغليفي أساساً حيث أنه أصبح من المشكوك فيه الآن وجود العبرية أو العبرية القديمة في حقبة تواجد موسى عليه السلام.

٣- هناك تناقض منطقي بالغ في الفكرة ذاتها، فلو سلمنا مع الكاتب جدلاً أن موسى اليهودي الذي هو من جنس الهكسوس (كما وافق الكاتب) كان يخاطب فرعوناً هكسوسياً، وقد تم له في النهاية النصر عليه مما انتهى بإغراق الله لهذا الملك ولجيشه الهكسوسي، أفهل يعني ذلك أن ملك الهكسوس كان يتسلط ويذل ويستأصل اليهود الذين من نفس جنسه الهكسوسي كما أقر المؤلف؟ وهل كان الصراع كله هو

بين ملك هكسوسى وجيشه الهكسوسى من ناحية وبين طائفة من شعب الهكسوس من ناحيـة أخرى هم بنوا إسرائيل؟ أى هل كانت هذه الأحداث كلها حرباً أهليـة هكسوسية أو سامية ودخل مصر الوحيد فيها هو أن أرضها كانت محل الصراع؟ .. لعله تساؤل مثير للتعجب.

فى النهاية، لا أجد نفسى مستطيعاً بأى شكل أن أوافق الكاتب على فرضياته التى طرحها فى تلك المسألة، وإن كنت لا أخفى إعجابى بالكثير من الأفكار التى طرحها الكاتب فى مواضع أخرى.

* * *

تم بحمد الله

مراجع البحث

١- القرآن الكريم. مصحف المدينة النبوية، مجمع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بحاشية المصحف الشريف، محمد فؤاد عبد الباقي، توزيع دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٣- الكتاب المقدس، كتاب الحياة، ترجمة تفسيرية، العهد القديم، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

٤- الإنجيل، العهد الجديد، دار الكتاب المقدس، القاهرة، ١٩٩٣م.

٥- مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد على الصابونى، الجزء الثانى، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨١م.

٦- جامع البيان فى تفسير القرآن، للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٧- زاد المسير فى علم التفسير، الإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى، المكتب الإسلامى للطباعة والنشر.

٨- مختار الصحاح، الإمام الرازى، دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

٩- تعطير الأنام فى تعبير المنام، الشيخ عبد الغنى النابلسى، وبهامشه كتاب الإشارات فى علم العبارات للشيخ خليل بن شاهين الظاهرى، التزام سعيد على الخصوصى، المطبعة والمكتبة السعيدية، مصر.

١٠- الأدب والحياة فى المجتمع المصرى المعاصر، دكتور ماهر حسن فهمى، المكتبة الثقافية، العدد ١١٠، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، يونيو ١٩٦٤م.

١١- الجديد فى المنظور العلمى للقرآن المجيد، د. إسلام الشبراوى، القاهرة، ١٩٩٧.

١٢- المنهج الاقتصادى فى التخطيط لنبى الله يوسف عليه السلام، د. نواف الحليسى،

الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

١٣- المسيح فى التوراة والإنجيل والقرآن، القمص بولس باسيلى، دار نوبار للطباعة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

١٤- الفراعنة والطب الحديث، محمد عبد الحميد بسيونى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

١٥- الآثار المصرية فى وادى النيل، الجزء الثانى، تأليف جيمس بيكى ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد، ١٩٩٠م.

١٦- تاريخ مصر القديمة، كتاب مقرر على طلبة الصف الأول الثانوى، وزارة المعارف العمومية المصرية، المطبعة الأميرية، ١٩٥١م.

١٧- الناس والحياة فى مصر القديمة، دومينيك ڤاليل ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٩م.

١٨- مجلة المعرفة، الأعداد ١-٢٥، مؤسسة ترادكسيم، جنيف، ١٩٧١-١٩٧٢م، مطابع الأهرام التجارية.

١٩- الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامى، الرياض، الطبعة الثانية، ١٩٨٩.

٢٠- الواقع والأسطورة فى التورات، زينون كاسيدوفسكى ترجمة د. حسان ميخائيل اسحق، الطبعة الأولى، الأبجدية للنشر، دمشق، ١٩٩٠م.

٢١- قدماء المصريين أول «الموحدين»، د. نديم السيار، الطبعة الثانية الجزء الأول، مطابع الأهرام، القاهرة، ١٩٩٥م.

٢٢- مقبرة عبريا - كشف فى سقارة، تأليف الان زيڤى، ترجمة عماد عدلى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

23. Webster's Ninth New Collegiate Dictionary, Merriam-Webster Inc. Springfield, Massachusetts, USA.

24. Egypt - to the end of the old kingdom - Library of the early civilization, Cyril Aldred, Thames and Hudson, Reprint 1992.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
سورة يوسف - القرآن الكريم	٣
قصة يوسف فى التوراة (سفر التكوين الإصحاح ٣٧-٥٠)	١٩
التفسير المُقَارَن لسورة يوسف	٤١
مقدمة السورة : الهدف والأدلة عليه	٤٣
حلم يوسف - عليه السلام -	٤٧
مكيدة الإخوة	٥٦
يوسف عليه السلام فى مصر	٧٤
يوسف عليه السلام وفتن النسوة	٩٣
يوسف عليه السلام فى السجن	١١٨
يوسف عليه السلام يفسر حلم الملك	١٣٩
عزيز مصر (يوسف عليه السلام) يقابل الإخوة	١٦٦
* الرحلة الأولى	١٦٦
* الرحلة الثانية	١٨١
* الرحلة الثالث	٢٠٦
* الرحلة الرابعة	٢١٥
آيات التلخيص والعبر	٢٢٤
آية الختام	٢٢٨
الخفايا المذهلة لسورة يوسف (علمياً وتاريخياً)	٢٣٤
عجائب رقمية من سورة يوسف	٢٣٦
الخرافة الرقمية التوراتية	٢٤٣

وجهة النظر التاريخية لشخصية يوسف	٢٥٧
من هو يوسف عليه السلام؟	٢٦٨
اليهود هم الهكسوس	٢٧٢
من هو يوسف عليه السلام فى التاريخ الفرعونى؟	٢٩٩
هل كان ملكا يوسف وموسى من الهكسوس؟	٣٣٦
المراجع	٣٤٣
الفهرس	٣٤٧

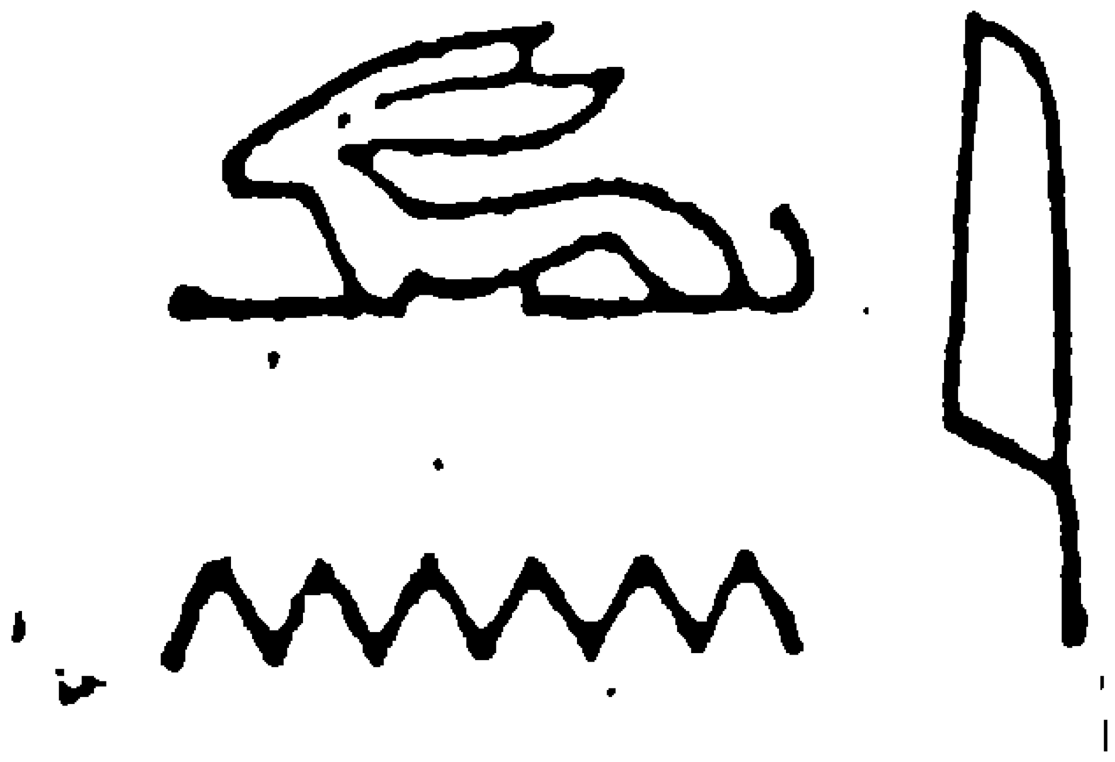

اسم «ون-نى» بالهيروغليفية
كما ظهر على اللوحة الجدارية التى وجدت فى مقبرته
الإسم الفرعونى ليوسف الصديق عليه السلام

رقم الإيداع بدار الكتب
١٤٧٣٥ / ١٩٩٧

I.S.B.N.
977 - 04 - 2236 - 3

مكتب الرسالة الدولية للطباعة والكمبيوتر
[illegible]
[illegible]

نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــــر الشريف
مجمـع البحـوث الإسـلامية
الإدارة العـــامة
البحـــوث والتأليف والترجمـــة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writing & Translation

[redacted]

الســـــيد / د. اســـــلام محمـــــد الشبراوي

الســـلام عليــكم ورحمـــة اللـــه وبركاته ــ وبعـــد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : جدلية المطلق الإلهي بين القرآن والتوراة (قصة يوسف عليه السلام). تأليفكم ....

نفيد بأن الـــكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ولا مانع من طبعـــه ونشره على نفقتــكم الخــاصة .

مع التـــأكيد على ضرورة العنـــاية التامة بكتـــابة الآيات القـــرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم « خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـــع .

واللـــــه المـــــوفق ،،،

والســـلام عليكم ورحمـــة اللـــه وبركاته ،،،

مـــــدير عـــــام
إدارة البحوث والتــــأليف والترجمـــة

تحريرا في ٧ / ٩ / ١٤١٨ هـ
الموافق ٥ / ١ / ١٩٩٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

يتناول هذا الكتاب سيرة أحد أهم أنبياء بني إسرائيل، يوسف الصديق ابن يعقوب حفيد إبراهيم عليهم السلام، وأول من أدخل بني أسرائيل مصر، ويقوم الكتاب بالمقارنة الدقيقة بين ماورد عن هذا النبي في سورة يوسف القرآنية وسفر التكوين بالتوراة، مما يثبت بما لايدع مجالا للشك أن هناك تباعدا ضخما وإختلافا كبيرا بين النصين، مما يقود القارئ للأستنتاج الوحيد الممكن وهو إنعدام وجود صلة تشير لتأثر أحد النصين بالآخر مطلقا، كما يظهر نتيجه لمقارنه النصين بعلوم التاريخ العادي، كم وفداحة الأخطاء التاريخية في التوراة، كما يظهر مدي موافقة النص القرآني في كل جزئيات الأختلاف التي تعد بالمئات، لما علم من التاريخ بالقرائن والأدلة القطعية اليقينة، كما قام الكاتب عن طريق حل شفرة رياضية مأخوذة من ترتيب أيات سورة يوسف وياستنتاج شخصية يوسف الصديق كما ظهرت في التاريخ العادي: الفرعوني والعبري، كما أثبت باستخدام معطيات السورة كم الزيف الرقمي والزماني والمكاني الوارد بالتوراة، مما يدعو لاستبعادها مطلقا كأداة للتاريخ، ودعا الكاتب إلي وجوب الأعتماد علي القرآن الكريم كأداة تاريخية صحيحة مطلقا، كما أثبت الكاتب الحقيقة الخافية وراء الزيف التو بني إسرائيل واليهود هم أنفسهم الهكسوس.

والخلاصة أن الكاتب يطرح عدة نظريات تاريخية موثق قد تغير من كل نظريات التاريخ الحالية والمعتمدة علي التورا

المؤلف

Bibliotheca Alexandrina
0627712